

المركز القومي للترجمة



المشروع القومي للترجمة

كازو إيشيجورو

عندما كنا يتامى

ترجمة وتقديم: طاهر البربري

1255

عندما كنا يتامى

(رواية)

المركز القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

سلسلة: الإبداع القصصى

المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: ١٢٥٥
- عندما كنا يتامى (رواية)
- كازو إيشيجورو
- طاهر البربرى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٨

هذه ترجمة رواية:

When We Were Orphans

by: Kazuo Ishiguro

Copyright © Kazuo Ishiguro 2000

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

عندما كنا يتامى

(رواية)

تأليف

كازو إيشيجورو

ترجمة وتقديم

طاهر البربرى



٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

إيشيجورو، كازو
عندما كنا يتامى: رواية - تأليف: كازو إيشيجورو،
ترجمة وتقديم: طاهر البربرى. ط ١ - القاهرة: المركز
القومى للترجمة، ٢٠٠٨م.
٤٧٠ ص، ٢٠سم. (المركز القومى للترجمة)
١- القصص الإنجليزية
أ- البربرى، طاهر (مترجم ومقدم)
ب- العنوان
٨٩١.٦٣

رقم الإيداع: ١٧٦٦٤ / ٢٠٠٨
الترقيم الدولى: 977-437-881-4
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب
الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى
اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

مقدمة المترجم

عندما كنا يتامى

حقق كازو إيشيجورو Kazuo Ishiguro قفزة رائعة بعد إبداعه النثرى بالغ الروعة والحرفية فى انضباطه وشفافيته الذى انطوت عليه رواياته الثلاث الأولى، - رغم أنها بدرجةٍ ما كانت مُربكة للبعض - من الواقعية إلى عالم الغموض والضبابية والحلم المرتبك؛ فى روايته الرابعة من لا عزاء لهم The Unconsoled (١٩٩٥). أما روايته الخامسة، عندما كنا يتامى When We Were Orphans، فإنها تزوج بين هاتين التقنيتين فى استكشافها الثرى لنشوة الطفولة والامتعة التى نَحْمِلُها مِنْ تلك "الأرض الغريبة". مع هذا فنزهاته السريالية تَفِيدُ من علامات الطريق الأكثر وضوحًا، والإسهاب المُتَعَرِّج فى رواية من لا عزاء لهم قد أَفْسَحَ المجال للتشويق، والخداع وحتى فى خاتمته الخاطفة لها.

السارد فى رواية عندما كنا يتامى هو كريستوفر بانكس. أحد أعظم رجال البوليس السرى الإنجليزى فى الثلاثينيات من عمره؛ تستبد به رغبته الدائمة فى حلّ اللغز المعقد لاختفاء أبويه فى شتغهاى القديمة قبل أكثر من عشرين عاما. تتجلى مُعظم الرواية من خلال الذاكرة حين يتذكر كريستوفر رحلته لقضاء الجزء الأخير من طفولته مع عمّته فى إنجلترا، مدققًا فى تفاصيل ماضيه، قراءته لمجتمع لندن الراقى كخريج كمبريدج أرعن فى العشرينيات، والأهم من ذلك

بكثير، صباه المغترب تحت كنية "بفن" في شنغهاي. كان أبوه يعمل لشركة بريطانية تتضمن وارداتها إلى الصين أفيونا، مما كان مصدراً لشقاق متزايد مع أمه المثالية.

إن ذاكرة الراوى فى رواية، "عندما كنا يتامى" موصومة بالتشوش - مثل كل الرواة فى أعمال إيشيجورو الروائية - إيتسوكو Etsuko أرملة نجاساكى فى رواية (منظر شاحب للتلال، ١٩٨٢)، أونو Ono فى رواية (فنان من العالم الطافى، ١٩٨٦)، كبير الخدم، ستيفنس Stevens فى رواية (بقايا النهار، ١٩٨٩) - فهو، على مضض، يمارس خداع ذاته؛ كما أنه يقمع الذكريات أو الأكاذيب المؤلمة لنفسه لجعلها أكثر لذة. فهو يقدم أيامه المدرسية على أنها أفضل فترات حياته، ويصر على هذا بعناد وتصلب شديدين. وحينما يلتقى زملاء الدراسة يتضح أنه كان بالنسبة لهم نموذجاً شاذاً حتى فى عزلته وتعاسته للدرجة التى جعلت منه هدفاً للسخرية. إن ذاكرته تبلغ أقصى حالات الانفجار حينما يلتقى بسارة هيمنجس، وهى رفيقته فى اليتيم، والتى تستغرق كريستوفر تماماً، غير أنها تتزوج من السير سيسيل صاحب السطوة الاجتماعية الكبيرة فى الدوائر الاجتماعية الإنجليزية.

فى خطابها الرسمى الملتبس الغامض، قمع وعمى عاطفى عن نداء صفارة إنذار سارة (غالباً ما يتم تصويرها وهى تطل من الشرفات، مثيرة للرغبة، لكنها صعبة المنال.)، إن كريستوفر فى رواية عندما كنا يتامى يذكرنا تماماً بستيفس، كبير الخدم الكتوم فى رواية بقايا النهار، الذى يتطلع إلى أن يكونَ خادمَ العظمة لكنه بدلاً

من ذلك يُساعدُ في استرضاء النازى. رغم ذلك فهناك الكثير من الملامح المشتركة بينه وبين رايدر، عازف البيانو فى رواية من لا عزاء لهم، الذى تعتبر صدماته الشخصية مصدرًا أساسيًا لطموحه وشهرته.

فى رواية عندما كنا يتامى هناك ما يشبه الإزاحة والخيانة من قبل "العم" فيليب - أبّ بديل غامض يشترك مع أمّه، فى حملات ضدّ تجارة الأفيون - يشعل طموحات كريستوفر. فهو يتوق فى سن النضج إلى تصحيح الأشياء التى لم يكن له جول ولا قوة حيالها فى أيام طفولته، أثناء لعبه هو وصديق طفولته اليابانى، أكيرا لعبة تشبه لعبة (العسكر والحرامية) وذلك لإنقاذ أبيه من المختطفين المتخيلين.

حين تتشاجر والدّة كريستوفر مع أبيه وذلك لتواطؤ الأب واشتراكه فى تجارة محرمة، يشعرُ بفن أنه قد خيبَ أملهم بالإخفاق فى الظهور كإنجليزى بما يكفى - إنه تركيبة هجينية بدرجة ما، على حدّ تعبير العم فيليب - فى عالم من القوميات المتصارعة بقسوة متزايدة. ومثلما أكيرا، أحد سكان شنغهاى، يقولُ (من المثير للغواية أن يتم تناول الولدين فى ضوء كونهما مركبًا من إيشيجورو، يابانى المولد) "أنت لستَ إنجليزياً بما فيه الكفاية.... والأمر نفسه بالنسبة لى فأنا لست يابانيًا بما فيه الكفاية."

"بالنسبة لأكيرا، الأطفال مثل الخيوط التى تحافظ على ترابط مفردات العالم معًا، فهم (الأطفال) لا يوثقون عرى العائلة بل والعالم كله" هذه المعتقدات هى التى يمكن أن نقتفى من خلالها أثر إحساس كريستوفر المتضخم برسالته، واندفاعه لكسب الحب والاستحسان من

خلال القيام بواجباته الجليلة، والبارانويا التي تصيبه من جراء مهامه القاسية.

ومع المخبر السرى، كريستوفر، الذى يحدق فى عدسته المكبرة على عالم يهرول باتجاه الخراب، تضرب الرواية بأحداثها حالة من العبث المتزايد، وجراح الطفولة وهى توجه النضج الأدمى وتصيبه بالاعتلال - على حساب الألفة، والسعادة الأسرية والشخصية. فبطل الرواية كريستوفر بانكس لا يفتقد إلى العلاقة الرومانسية فحسب بل يهمل تمامًا جينيفير، ابنته بالتبنى - يتيمة جديدة من يتامى الرواية - بسبب انهماكه الشديد فى محاولة حل مشاكل العالم؛ ويريد أن يجعلها فخورة به.

مثل أبطال إيشيجورو الآخرين، يستخدم كريستوفر شخصيات أخرى ليعبر عن أبعاد ذاته. علاقة سارة المهشمة مع السير سيسيل العجوز، سارة التى تسعى إلى سيسيل من أجل الشهرة والصعود فى الأوساط الاجتماعية فى وقت لا يحتاج فيه هذا الرجل المسن إلا إلى الراحة والسكينة؛ هذه العلاقة ليست إلا انعكاسًا رمزيًا للعلاقة بين والديه، فالمعايير الصارمة التى تضعها أمه قد حطمت أباه. إن الرواية هنا تستعيد وتعيد استثمار التقنيات السردية فى رواية من لا عزاء لهم حيث تكون الشخصيات التى يضمها الحلم تعبيرًا عن مخاوف البطل ورغباته، الناس الذين يأتون من ماضيه الشخصى أو من تحولات ذاته هو فى مراحل حياتية متباينة.

إن الهواجس التى تستبد ببطل رواية "عندما كنا يتامى"، كريستوفر تقوم بتوجيه الأحداث. "طفولتنا أصبح أشبه بأرض غريبة

حينما نكبر،" هكذا يقول إيشيجوور على لسان شخصية من شخصيات الرواية. فالطفولة بالنسبة لكريستوفر أصبحت بالفعل مثل بلد غريبة، لكنها البلد التي يشعر فيها بأنه في وطنه أكثر من إنجلترا. ومع تقدمه لفك طلاسم الماضي المستغرق عليه، ومطاردته لسارة التي لا يُصرح بها، يضطر للعودة إلى شنغهاي في عام ١٩٣٧، ومن هنا يبدأ السرد في التحرك فيما يشبه الدهاليز السيريالية. وتحت وطأة اعتقاد وهمي أن والديه ما زالا محتجزين في منزل خارج المستعمرة الدولية، يتقدم المخبّر السري، كريستوفر للبحث حول الخطوط العسكرية للجيش الياباني خلال تقدمه لغزو الصين، في الوقت نفسه الذي تنتظره سارة للفرار معه إلى ماكاو هروبًا من أحلامها الفاشلة بالشهرة والثراء مع السير سيسيل. ثمة معركة مندلعة دائمًا بين الشعور بالواجب والرغبة في إنجاز علاقة عاطفية تبدد الكوابيس الخاصة بطفولته، وأوهامه بقدراته ذات اليد العليا في فض غموض العالم وإيقاف تقدمه صوب الانهيار.

يبدو أن كل مفردات الكارثة التي يعيشها بطل رواية لا تتنازل عن الطفو على السطح كفقائيع مؤقتة لا تلبث أن تتلاشى وتفتح الطريق لفقائيع أخرى على سطح يبدو ظاهريًا غاية في الاستكانة بينما هو في حقيقة الأمر في حالة من الاضطراب بسبب المخاوف التي تفرضها عليه الطفولة من ناحية، ومعطيات الفشل التي تلاحقه من ناحية أخرى. ففي طريقه إلى البيت الذي يتوهم أن أمه وأباه يُحتجزان فيه منذ سنوات بعيدة يتعرّض في أكيرا صديق طفولته وهو جريح في زى القوات اليابانية. أكيرا نفسه يتغير ويصبح متهمًا بالخيانة العظمى؛ أكيرا هو واحدة من فقائيع الطفولة التي تعود للطفو

على السطح لتبيح ذاكرة كريستوفر لمساحة أكثر اتساعاً قوامها المخاوف والشكوك. الحرب بين الصين واليابان في حد ذاتها هني جرس إنذار جديد يرن بقسوة في أذن كريستوفر لتذكره بعجزه عن حل مشاكل العالم، تلك المهمة التي ينفق سنوات عمره كاملة في أسر أوهامها. العم فيليب يأتي في الفصول الأخيرة من الرواية ليعلن الحقيقة بقسوة على كريستوفر. ولا يكتفى فيليب بإعلان حقيقة السيد بانكس الذي فر مع رفيقته بسبب عجزه عن التوافق مع المثل الصارمة لمدام بانكس. فيليب فقاعة جديدة تطفو على السطح لكنها لا تتلاشى إلا بعد أن تكشف كريستوفر؛ وتخبره بحقيقة طفولته وبما آلت إليه حياة أمه.

إن إيشيجورو على امتداد الرواية يُظهر تعاطفاً هائلاً مع شخصياته، مهما كانت وطأة ما تقع تحته هذه الشخصيات من أوهام وعبث. فقد الجميع هو مواجهة العالم كيتامي، ومطاردة ظلال الآباء الذين اختفوا عبر سنوات طويلات. إن روية (عندما كنا يتامي) تطرح إيشيجورو كأحد أكثر الروائيين في بريطانيا جرأة وقوة.

طاهر البربري

القاهرة مارس ٢٠٠٨

عندما كنا ينامي

إلى:
لورنا وناعومي

الكتاب الأول

لندن، ٢٤ يوليو ١٩٣٠

الفصل الأول

كان صيف العام ١٩٢٣، الصيف الذى وصلت فيه من كمبريدج. حيث قررت أن تكون العاصمة نقطة انطلاق لمستقبلى؛ رغم آمانيات خالتى التى كانت تنتظر عودتى إلى شروبشير. استأجرت شقة صغيرة فى البناية رقم ١٤ فى بيدفورد جاردينز فى كينسينجتون. الآن أذكره لأنه أروع مواسم الصيف على الإطلاق. فبعد سنوات كنت محاطاً خلالها بالزملاء، سواء فى المدرسة أو فى كامبريدج، صرت أبلغ منتهى المتعة وأنا فى معية ذاتى. استمتعت بحدائق لندن، الهدوء فى غرفة الاطلاع بالمتحف البريطانى؛ أمضيت ظهيرات كاملات أتجول فى شوارع كينسينجتون، أضع خططاً لمستقبلى، أتوقف بغتةً ولبرهة لأعلن عن إعجابى بالبلابل والنباتات المتسلقة التى توجد هنا فى إنجلترا، حتى فى وسط المدينة العظيمة، وهى تزحف متشبثةً بواجهات البيوت الجميلة.

أثناء واحدة من تمشياتى الحرة تلك، التقيت مصادفةً بأحد زملاء الدراسة القدامى، جيمس أوسبورن، واكتشفت أنه أحد جيرانى. خيّل إلى أنه نادانى عند مروره إلى جوارى. وعلى الرغم من أننى لم أكن بعد مستعداً لاستقبال زائرٍ واحدٍ فى غرفتى، فقد دعوته بثقة، وأنا أنتقى الكلمات بعناية بالغة. لم يكن الإيجار مرتفع القيمة، لكن صاحبة البيت كانت قد أثنته بطريقة جميلة وذائقة رائعة استحضرت بتوادة لمسة من العصر الفيكتورى الغابر؛ غرفة الصالون، التى تستقبل كثيراً من الشمس فى النصف الأول من النهار، بها كنبه عتيقة

ومقعدان مريحان، وبوفيه عتيق أيضاً، وخزانة كتب، صُنِعت من خشب البلوط تكتظ بموسوعات متهاكة - كل تلك الأشياء التي اقتنعت أنها ستال إعجاب أى زائر. بالإضافة إلى أننى قد مضيت صوب كوبرى الفرسان فور استئجارى للشقة واشتريت من هناك طاقم شاي موديل الملكة آن، وعدداً من عبوات الشاي الفاخر، وكذا علبة بسكويت كبيرة. لذلك عندما فاجأنى أوسبورن ذات صباح بعد عدة أيام استطعت أن أقدم له المرطبات بثقة لم تسمح له ولو لمرة واحدة أن يظن أنه ضيفى الوحيد.

خلال ربع الساعة الأولى تقريباً، كان أوسبورن يتحرك قلقاً فى غرفة الصالون، مجاملاً إياى على ترحابى، وهو يتفحص هذا وذاك، مُحَدِّثاً عبر النافذة للخارج بانتظام مندهشاً من كل ما يحدث أسفل النافذة بالخارج. فى النهاية ارتمى على الكنب، وأخذنا نتبادل الأخبار - أخبارنا وأخبار زملاء الدراسة القدامى. أذكر أننا قضينا وقتاً طويلاً فى مناقشة أنشطة اتحادات العمال، قبل أن نستغرق فى جدال طويل وممتع حول الفلسفة الألمانية، مكننا من استعراض الجراءة العقلية التى اكتسبناها فى جامعاتنا المتخصصة. بعدئذٍ نهض أوسبورن وأخذ يروح ويجىء بخطوات وئيدة منتظمة ثانية، مُتَحَدِّثاً أثناء ذلك عن خطته العديدة للمستقبل.

"أعرف أن لدى رغبة فى أن أبدأ النشر. فى الصحف والمجلات، وهكذا. فى الحقيقة، أتصور أن أكتب عموداً بنفسى. فى السياسة، أو فى القضايا الاجتماعية. هكذا، كما أقول لك، إذا ما قررت ألا أمضى فى طريق العمل السياسى بنفسى. أعتقد، يا بانكس.

أحقًا، ليس لديك أية فكرة بخصوص ما تريد أن تفعل؟ انظر، كل شيء بالخارج أمامنا" - وأشار إلى النافذة - "بالتأكيد لديك بعض الخطط."

"أعتقد هذا،" أجبت وأنا أبتسم. "في ذهني شيء أو اثنان. سوف أخبرك به في الوقت المناسب."

"ماذا في جعبتك؟ أخبرني، أفصح! سوف أجعلك تفصح عما بداخلك الآن!" غير أنني لم أكشف له عن شيء، وأعدته ثانية إلى حوار طويل حول الفلسفة أو الشعر أو ما شابه. ثم، في الظهيرة تقريبًا، تذكر أوسبورن فجأة موعدًا على الغداء في بيكاديللي وأخذ يللم متعلقاته. وعندما هم بمغادرتي، التفت عند الباب، قائلاً:

"انظر أيها الفتى العجوز، قصدت أن أقول لك. سأذهب ليلاً لحضور حفل. على شرف ليونارد إيفرست. أحد ملوك المال والصناعة. أنت تعرفه. يقيمه أحد أعمامى. ملاحظة قصيرة إلى حد ما، لكنني أتساءل عما إذا كنت ترغب في الحضور أم لا؟ إنني جاد جدًا. كنت أود أن أزورك زيارة خاطفة منذ وقتٍ طويل، فقط لم أتعامل أبدًا مع الأمر. سيكون هذا في الكارينجورث."

عندما لم أرد عليه على الفور، تقدم خطوة صوبى وقال:

"لقد فكرت فيك لأننى دائماً أتذكر. أتذكر كيف كنت دائماً تسخر من كونى سليل "أسرة عريقة". آه، تقدم! لا تدعى النسيان! لقد كنت معتادًا على استجوابى بفضاظة. من "أسرة عريقة"؟ فقط ماذا يعنى هذا، من أسرة عريقة" حسنًا، أظن أن فى هذا فرصة جيدة لبانكس

القديم أن يفهم معنى "أسرة عريقة" بنفسه. "حينئذٍ هز رأسه، وكأنه تذكر شيئاً ما قائلاً: "يا لطيفتي، لقد كنت شخصاً غاية في الغرابة أيام المدرسة."

أعتقد أنني وافقت على اقتراحه، أخيراً، بخصوص المساء وقتئذٍ - فقد كان مساءً، كما سأوضح، ذا أهمية أكبر بكثير مما كنت أتصور - وأظهرت له دون خداع مدى الامتناع الذي شعرت به من جراء كلماته الأخيرة تلك.

لقد ازداد ضيقى ساعة عدت للجلوس ثانية. فقد خمنت، كما حدث، على الفور ما الذي كان أوسبورن يشير إليه. والحقيقة أنني، أثناء سنوات المدرسة، كنت أسمعها تتردد بشكل متكرر، أوسبورن من "عائلة عريقة". وكانت هذه العبارة تبرز بشكل مطرد عندما يتحدث الناس عنه. وأظن أنني أيضاً استخدمت العبارة نفسها عنه كلما كان الأمر يقتضى ذلك. لقد فتننى هذا المفهوم فى الواقع، مسألة أنه بطريقة ما غامضة ينتمى إلى عدة مراتب اجتماعية أرقى، حتى على الرغم من أنه لم يكن يتصرف بطريقة مختلفة عنا. مع ذلك، لا أتصور أنني "استجوبته بقسوة" مثلما ادعى. حقيقةً لقد فكرت فى الأمر كثيراً عندما كنت فى الرابعة عشر أو الخامسة عشر، لكننى لم أكن أحد الأصدقاء المقربين من أوسبورن أيام المدرسة، فقط طرحت الأمر للمناقشة ذات مرة معه بشكل شخصى على ما أذكر.

ذات صباح خريفى مضرب، كنا معاً نجلس على حائطٍ خفيض خارج حانة ريفية. وقتئذٍ كنا فى الفرقة الخامسة. وكنا قد عينا مسجلين لأحد سباقات اختراق الضاحية، وكنا فى انتظار ظهور

العدائين من الضباب عبر حقلٍ مجاور حتى يمكننا توجيههم صوب الاتجاه الصحيح أسفل ممر ضيق موحل. كان لم يزل لدينا متسعٌ من الوقت قبل وصول أى من العدائين، ولذا فقد كنا نتبادل الحديث بتراخٍ. أنا على يقين أننى فى هذه المناسبة، قد وجهت له سؤالاً بخصوص أصوله العريقة. إلا أن أوسبورن، والذي رغم امتلائه بالحيوية والمرح، كان يتسم بطبيعة هادئة، حاول أن يغير الموضوع. غير أننى داهمته بإصرارى حتى أجابنى فى النهاية قائلاً:

"لا تبالِ بهذا الأمر، يا بانكس. إنه لا يتعدى كونه هراء، ليس ثم من شيء يمكن تفسيره. إن الإنسان يعرف الناس ببساطة. لكل إنسان أبوان، وأخوال وأعمام، وأصدقاء عائلة. لا أعرف ما المربك فى هذا." ثم تدارك ما قاله بسرعة، واستدار نحوى وهو يمسك بذراعى، "أنا فى غاية الأسف، يا صديقى العزيز، من صفاقتى هذه معك."

إن هذه الزلة السلوكية أغضبت أوسبورن أكثر بكثير مما أغضبتنى. حقيقةً، من الممكن أنها ظلت فى ذهنه طيلة هذه السنوات، حتى إنه كان بطريقةٍ ما يسترضينى، وهو يطلب منى مرافقته ذلك المساء إلى نادى كارينجروث. على أية حال، كما أقول، لم أكن غاضباً، فى ذلك الصباح الضبابى، من تعليقه الأرعن المعلن. فى الواقع، لقد أصبح من المثير للسخط لدى، أن زملاء الدراسة، على الرغم من ميلهم للمزاح على ما يكتنف أى شخص من سوء طالع فعلياً، فقد كانوا يلاحظون على كآبة شديدة مع أول ذكر لغياب أبوى. لكن بالفعل، رغم غرابة هذا، فإن حاجتى لأبوين - حقيقةً، لأى من الأقارب وثيقى الصلة بى فى إنجلترا فيما عدا خالتى المقيمة فى

شرو بشير - أصبح وقتئذٍ لا يسبب لى أى إزعاج. لأننى غالبًا ما كنت أوضّح لرفاقى، أنه فى مدرسة داخلية كتلك، درجنا جميعًا على المضى دونما آباء، وأن وضعى ليس متفردًا بشكلٍ عام أيضًا. إضافةً إلى ذلك، حينما كنت أعيد النظر فى الأمر، يبدو من المحتمل أن افتتانى بعراقة أصل أوسبورن كان له علاقةً باحتياجى الكامل وقتئذٍ لارتباطى بالعالم خارج أسوار مدرسة سانت دانستان. حتى إننى، عندما حان الوقت، أزيّف هذا الارتباط لنفسى وأشق طريقى، بلا شك. لكننى ظننت أنه من الممكن أن أتعلّم من أوسبورن شيئًا جوهريًا، شيئًا عن كيفية تفعيل مثل هذه الأشياء.

غير أننى عندما قلت، من قبل إن كلمات أوسبورن التى قالها وهو يغادر شقتى قد ضابقتنى إلى حدٍ ما، فإننى لم أكن أشير لمسألة إثارة أمر له طيلة تلك السنوات. بل إن ما اعترضت عليه هو حكمه العرضى على بأننى كنت "شخصًا شديد الغرابة أيام المدرسة".

حقيقةً لقد ظل الأمر دائمًا يبدو مُلغزًا أن يقول أوسبورن ذلك الشئ عني ذلك الصباح، طالما أن ذاكرتى تؤكد أننى انغمست فى الحياة المدرسية الإنجليزية. حتى أثناء أسابيعى الأولى فى مدرسة سانت دانستان، لا أعتقد أننى فعلت أى شئ يسبب لى الارتباك. ففى أول يوم لى، على سبيل المثال، أذكر أننى لاحظت سلوكًا نهجه كثير من الأولاد أثناء الوقوف أو التحدث - حيث يدخلون اليد اليمنى فى جيب الصنّريّة ويحركون الكتف الأيسر لأعلى وأسفل ليؤكدون ثقّتهم بملاحظاتهم. أذكر يقينًا أننى استطعت محاكاة هذا السلوك بإتقان بالغ لم يجعل أحدًا من زملائى يلحظ أى شذوذ أو يفكر حتى فى السخرية.

بالروح المتجاسرة نفسها، استطعت استيعاب الحركات الأخرى، انحرافات طرق التعبير وأنماط التعجب الشائعة بين أقراني، وكذلك الإلمام بالعادات والآداب الأعمق المنتشرة في بيئتي الجديدة. لقد أدركت يقيناً وبسرعة كافية أنه لن يفيدني أن أقحم بانفتاح - كما كنت أفعل بصورة روتينية في شنغهاي - أفكارى حول الجريمة واكتشافها. إلى حد أنه حتى في أثناء عامي الثالث كانت هناك سلسلة من جرائم السرقة، وكانت المدرسة كلها تستمتع بلعبة المخبر السري، وأحجمت أنا بحذر عن المشاركة تماماً إلا بصورة ضئيلة. بلا شك، كان هناك آثار من هذه السياسة التي تسببت في إفصاحي عن قدر ضئيل من خططي لأوسبورن في ذلك الصباح الذي دعاني فيه.

لكن، ورغم كل حرصى، يمكننى أن أتذكر حادثتين على الأقل من أيام الدراسة أفترض بهما حتمية، على الأقل بشكل عارض، تنازلى عن حذرى بما يكفى وأعرب عن فكرتى بخصوص طموحي. لقد كنت غير قادر حتى وقتئذٍ أن أبرر هذه الأحداث، وأنا لست قريباً من ممارسة هذا اليوم.

أول هاتين الحادثتين وقعت في عيد ميلادى الرابع عشر. أخذنى صديقائى الحميمان وقتئذٍ، روبرت ثورنتون براون وراسيل سانتون إلى أحد محلات الشاي فى القرية وقد استمتعنا بالكعك وكيك الكريم. كانت ظهيرة مطيرة فى أحد أيام السبت وكانت كل الطاولات الأخرى مشغولة. كان هذا يعنى دخول قرويين أغرقهم المطر كل بضع ثوان، يتلفتون، ويلقون بنظرات الازدراء علينا وكأنه يتحتم علينا فوراً أن نخلي طاولتنا من أجلهم. لكن مسز جوردان، صاحبة المكان، كانت

دائمًا تخصصنا بترحابها. وفي ظهيرة عيد ميلادي تلك، أحسنا بأن لدينا كل الحق في أن نشغل الطاولة التي اخترناها بجانب النافذة النائية المظلة على ميدان القرية. لا أذكر كثيرًا مما كنا نتحدث بشأنه في ذلك اليوم؛ لكن بمجرد أن تناولنا طعامنا، تبادل رفيقي النظرات، ثم انحنى ثورنتون براوني على حقيبته المدرسية وقدم لي علبة ملفوفة بها هدية.

بدأت أفتحها، بسرعة أدركت أن العلبة قد لُفّت في عدة أفراخ من الورق، وأن أصدقائي سيقهقهون في كل مرة أنزع طبقة منها، فقط ليباغتني الفرخ التالي. كل الإشارات، إذًا، تُقر أنني كنت سأجد شيئًا تافهًا مثيرًا للضحك في نهاية هذا كله. الذي اكتشفته أخيرًا كان جرابًا جلدًا مُجَوًى،^(*) وعندما فككت الماسكة الصغيرة أخيرًا ورفعت الغطاء، وجدت عدسة مكبرة.

هي الآن أمامي. مظهرها الخارجي تغير قليلًا مع مرور السنوات؛ كانت في تلك الظهيرة بالفعل كثيرة السفر. أذكر أنني لاحظت أنها، إضافةً إلى حدتها القوية، كانت ثقيلة بصورة مذهلة، وأن مقبضها العاج كان مكسورًا أسفل أحد الجانبين. ولم ألاحظ إلا لاحقًا - كنت بحاجة إلى عدسة مكبرة أخرى لقراءة الأكليشيه المحفور عليها - أنها صُنِّعت في زيورخ عام ١٨٨٧.

كان رد فعلي الأول تجاه هذه الهدية ينطوي على دهشة هائلة. خطفتها لأعلى، وأثناء إزاحتى كومة الورق التي كانت تغطي سطح

(*) معالج أو مغير التركيب أو الشكل بالتعرض للعوامل الجوية. (المترجم)

الطاولة - أشك أنني في اندفاعي المتحمس قد تسببت في تطاير بعض أفراخ الورق إلى الأرض - وبدأت على الفور في تجريبها على بعض بقع الزبد التي كانت تلتخ مفرش الطاولة. صرت مستغرقاً للغاية لدرجة أنني كنت ألحظ بشكل باهت فقط أصدقائي وهم يضحكون بهذه الطريقة المبالغ فيها التي تعبر عن نكتة على شخص ما. عندما نظرت لأعلى، مستعيداً وعيي أخيراً، كانا قد سقطا في مغبة صمت غامض. حينئذٍ كان ثورنتون براونى قد أطلق ضحكة مكتومة وفاترة وهو يقول:

"مادمت ستصبح رجل بوليس سرى، فقد فكرنا أنك ستحتاج هذه الأداة."

عند هذه النقطة، استعدت بسرعة حصافتي وفطنتي وتظاهرت بأن الأمر كله قد كان دعابة مضحكة. لكن عندئذٍ، تخيلت، كانت نوايا صديقى يشوبها الارتباك. وخلال ما تبقى من وقتنا فى المقهى، لم يحدث أبداً أن استعدنا حالتنا النفسية السابقة المريحة تماماً.

كما قلت، أمامى الآن العدسة المكبرة هنا. استخدمتها فى تحريات قضية مانارينج؛ استخدمتها مرة أخرى، مؤخراً جداً، أثناء فضيحة ريتشاردسون. ربما لا تكون العدسة المكبرة هى الأداة المحورية كما فى الأسطورة الشعبية، لكنها تظل أداة مفيدة لجمع أدلة معينة، وأظن أنني سوف أحمل معى، فيما بعد، هدية عيد ميلادى من روبرت ثورنتون براونى وراسل ستانتون. وأنا أصدق فيها الآن، خطرت ببالى هذه الفكرة: لو كانت نوايا صديقى حقيقةً هى مضايقتى، حسناً إذاً، فالنكتة الآن انقلبت عليهما. لكن المحزن أنني

الآن لا أملك الطريقة التي أتيقن بها مما كانا يُضْمِران وقتئذٍ، ولا كيف، في الحقيقة، رغم كل حيلتي، عرفاً طموحاتي السرية. ستانتون، الذي كذب فيما يخص سنه لكي يتطوع، قُتل في المعركة الثالثة من معارك يبريس Ypres.^(*) ثورنتون براوني، سمعت، مات بالسل منذ عامين. على أية حال، كلاهما تركا مدرسة سانت دانستان في السنة الخامسة وعندما سمعت بأنباء موتهما كان قد مر وقت طويل منذ أن فقدت اتصالي بهما.. ما زلت أذكر، رغم هذا، مدى شعوري بخيبة الأمل عندما ترك ثورنتون براوني المدرسة؛ لقد كان الصديق الحقيقي الوحيد لي منذ وصولي إلى إنجلترا، وقد افتقدته كثيراً خلال الجزء الأخير من وجودي في مدرسة سانت دانستان.

الواقعة الثانية التي خطرت ببالي حدثت بعد ذلك ببضع سنوات - في السدس التمهيدى^(**) - غير أن تذكري لها ليس مفصلاً جيداً. في الواقع، أنا لا أستطيع أن أتذكر جيداً أى الأشياء حدث قبل الآخر أو بعد الآخر من تلك اللحظة بعينها. ما أذكره هو أنني كنت أمشي باتجاه أحد فصول الدراسة - غرفة رقم ١٥ في الدير القديم - حيث كانت الشمس تتسكب في صورة أشعة متناثرة عبر نوافذ الدير الضيقة، كاشفةً الغبار العالق بالهواء. لم يكن الأستاذ قد وصل بعد،

(*) مدينة سوق فلمنكية صغيرة، خارج الحدود الفرنسية، تشبه في كل شيء العديد من المدن البلجيكية، وظلت كذلك حتى ١٩١٤، اندلاع الحرب العالمية الأولى، لكنها منذئذٍ أصبحت مسرحاً لأبشع المعارك التي سجلت مقتل عددٍ مروع من الناس قُدر بنحو ٥٠٠,٠٠٠ قتيل في منطقة لا تتجاوز مساحتها ٢٥ كيلومتراً مربعاً. بعد الحرب أصبحت مسرحاً لأحد أهم الاحتفالات التذكارية الأوروبية. (المترجم)

(**) حلقة دراسية أو عام دراسي. (المترجم)

لكن لابد وأننى قد تأخرت قليلاً، لأننى أنكر أن زملائي كانوا يجلسون ملتفين حول بعضهم البعض فى مجموعات أعلى أسطح الدكك، والنضد، وأفاريز النوافذ. كنت على وشك أن أنضم لواحدة من تلك المجموعات التى كانت تضم خمسة أو ستة أولاد، عندما التفتت وجوههم جميعاً إلى، على الفور أدركت أنهم قد كانوا يتحدثون عنى. حينئذٍ وقبل أن أتفوه بكلمة، أشار فرد من المجموعة، روبرت برنتورست، ناحيتى وأبدى ملاحظة:

"لكنه قصير إلى حد ما بما لا يجعله يصلح لأن يكون شيرلوك."

قليلٌ منهم ضحكوا، لم يكن ضحكهم فظاً بالتحديد، وهذا، حسبما أتذكر، كل ما فى الأمر. أبداً لم أسمع أى حديث آخر بخصوص طموحاتى فى أن أصبح "شيرلوك"، لكن لبعض الوقت بعد ذلك انتابنى قلق مزعج بأن سرى قد أفشى وأصبح موضوعاً للمناقشة فى غيابى.

بالمصادفة، كانت حاجتى لممارسة الحذر فيما يخص مسألة طموحاتى قد أثرت على قبل وصولى إلى مدرسة سانت دانستان. لأننى قضيت بضعة أسابيع فى إنجلترا أتجول فى الحديقة العامة بالقرب من بيت خالتى فى شروبشير، أقوم، بين أشجار السرخس الكثيفة، بأداء السيناريوهات البوليسية العديدة التى وضعناها أنا وأكيرا معاً فى شنغهاى. بالطبع، ولأننى الآن وحدى، اضطررت أن ألعب كل أدواره أيضاً؛ إضافةً إلى أنه، وأنا فى غاية السوعى بإمكانية رؤيتى من المنزل، كان يتحتم على أن أمثل هذه الأعمال الدرامية بحركات مقيدة، وأنا أغمغم بالكلمات همساً - فى تناقض واضح مع الطريقة غير الحرة التى كنت أنا وأكيرا نمارس هذا بها.

مع هذا، ثَبِتَ أن مثل هذه الاحتياطات لم تكن كافية. لأننى ذات صباح سمعت بالصدفة، من غرفتى الصغيرة فى العليّة التى خصّصت لى، خالتى وهى تتحدث مع بعض الأصدقاء فى الصالون. كان الانخفاض المفاجئ لأصواتهم هو أول ما أثار فضولى، وعلى الفور وجدت نفسى أتسلل للخارج إلى مُنْبَسَط السَلَم وأميل فوق الدرابزون.

"لقد ذهب لساعات"، سمعتها تقول. "هذا ليس صحيحًا، لولد فى سنه، أن يستغرق فى عالمه بهذا الشكل. لابد أن يبدأ التركيز فى مستقبله."

"لكن مع ذلك فهذا مُتَوَقَّع، بالتأكيد"، قال شخصٌ ما. "بعد كل ما حدث له."

"ليس ثم من نتيجة سيجنيها من التوقع والاكتئاب، مطلقًا"، قالت خالتى. "إنه يلقي أفضل رعاية وتربية، وبهذا الشكل فهو محظوظ. لقد حان الوقت ليعتنى بمستقبله. أعنى أن يضع نهاية لهذا الاستبطان."

منذ ذلك اليوم وصاعدًا توقفت عن الذهاب للحديقة العامة، وبوجه عام، اتخذت خطواتى كي أتجنب أى شىء يبرز "الاستبطان". لكننى وقتئذٍ كنت لم أزل صغيرًا جدًّا، ومع حلول الليل، وأنا أستلقى فى تلك الغرفة العليّة، منصتًا لصرير ألواح الأرضيات أثناء حركة خالتى فى البيت لتعبئة ساعات الحائط أو الاعتناء بقططها، كنت غالبًا ما أعيد تمثيل كل تمثيلاتنا البوليسية القديمة، ثانيةً فى خيالى، بالضبط الطريقة نفسها التى كنا نفعل بها هذا دائمًا أنا وأكيرا.

لكن لأرجع إلى ذلك النهار الصيفي في شقتي في كينسينجتون حين زارني أوسبورن. لا أود أن ألمح إلى أن ملاحظته هذه، التي تقول إنني "شخص غريب"، قد استغرقت مدة تزيد عن بضع لحظات. حقيقةً، لقد خرجت من ذاتي، بعد أوسبورن بفترة ليست طويلة، وكنت في الحال موجودًا في منتزه سانت جيمس، أتمشى في مزارع الحديقة، بعد أن أصبحت أكثر شغفًا بالليلة التي تنتظرني.

مع إمعان التفكير ثانيةً في تلك الظهيرة، اكتشفت أنني محق كل الحق في شعوري بقليل من العصبية، وأنها نموذج تام للعجرفة الحمقاء التي حملتني عبر أيامي المبكرة الأولى في لندن. بالطبع كنت واعيًا أن هذه الأمسية تحديدًا ستكون على مستوى مختلف تمامًا عن أي شيء حضرته في الجامعة؛ وأنتي، إضافةً إلى هذا، ربما أصطدم بنقاط في العادات غير مألوفة لي إلى حد بعيد. لكنني أحسست بيقين في أنني سوف، بيقظتي المعتادة، أتغلب على كل هذه الصعوبات، وبشكل عام سأبلى بلاءً حسنًا. كانت اهتماماتي وأنا أتحول حول المنتزه ذات ترتيب مختلف تمامًا. عندما تحدث أوسبورن عن المدعوين ذوي "الأصول العريقة"، افترضت على الفور أن من ضمن هؤلاء على الأقل بضع شخصيات من أشهر أفراد البوليس السري في ذلك الوقت. تخيلت، إذاً، أنني قضيت وقتًا كثيرًا في تلك الظهيرة أتدرب فقط على ما سأقول حال تقديمي إلى ماثلوك ستيفنسون، أو ربما حتى بروفيسور تشارلفيل. تدربت مرارًا وتكرارًا على كيفية تقديم تصور موجز - باعتدال، لكن بوقار واثق - لطموحاتي؛ وصورت لنفسي أحدهم أو الآخر وهو يخصني برعاية أبوية،

ويعرض على كل أنواع النصائح ويصر على زيارتي له كي يرشدني في المستقبل.

بالطبع، تحول المساء إلى خيبة أمل كبيرة - رغم أنه، كما سترى الآن، قد حقق أهمية واضحة لأسباب مختلفة تمامًا. ما لم أكن أعرفه وقتئذٍ أن أفراد البوليس السري، في بلد كهذه، لا يميلون للمشاركة في التجمعات الاجتماعية. ليس هذا بسبب أي نقص في الدعوات؛ فخبرتي الخاصة مؤخرًا ستثبت حقيقة أن الطبقات العليا في المجتمع دائمًا ما تحاول تجنيد المشهورين من أفراد البوليس السري اليوم واستقطابهم. المسألة بالفعل أن هؤلاء الأشخاص أنفسهم يميلون للحذر، وغالبًا يفضلون العزلة ويكرسون حياتهم لعملهم ولرغبتهم في التلاقى مع بعضهم البعض ناهيك عن ممارستهم للسلوك نفسه مع المجتمع ككل.

كما أقول، لم أدرك هذا تمامًا عندما وصلت إلى نادي كارينجورث في ذلك المساء وحدثت حذو أوسبورن فحييت البواب المسن الذي كان يرتدي زيًا رسميًا بابتهاج. لكنني كنت خلال دقائق من دخولنا الغرفة المزدحمة في الطابق الأرضي قد تحررت من الفهم المخطئ. لا أعرف كيف حدث هذا بالضبط - لأنني لم أكن أملك من الوقت ما يمكنني من معرفة هوية أي من المدعوين - لكن نوعًا من الإيحاء البديهي قد طغى على جعلني أشعر بمنتهى الحمق بسبب لهفتي السابقة. فجأةً بدا من غير المعقول أن أتوقع أن أجسد ماتلوك ستيفنسون أو بروفيسور تشارلفيل يخادنون خبراء المال والوزراء الحكوميين ممن أدركت وجودهم حولي. حقيقةً، لقد ضللتني

هذا التناقض بين الواقع الذى وصلت إليه والواقع الذى أمضيت الظهيرة كلها فى تخيله، ورباطة جأشى، التى هجرتنى مؤقتاً على الأقل، ولمدة ساعة ونصف أو أكثر، بسبب شعورى بالضيق، لم أستطع أن أحمل نفسى على الابتعاد عن أوسبورن.

أنا واثق أن هذا الإطار العقلى الهائج نفسه يبرر حقيقة أننى كلما أعود بالتفكير الآن فى تلك الليلة، تبدو جوانب كثيرة جداً مبالغ فيها وغير طبيعية إلى حد ما. مثلاً، عندما أحاول الآن أن أستعيد صورة الغرفة، تبدو معتمّة بشكل شاذ؛ هكذا على الرغم من المصابيح التى كانت معلقة على الحائط، والشموع التى كانت فوق الطاولات، والثريات التى كانت تتدلى فوق رؤوسنا - لم يكن لأى منها أدنى أثر على الظلام المنتشر حولنا. السجادة كانت سميكة جداً، لذلك كان الواحد منا مضطر لجر قدميه كي يتحرك فى كل أنحاء الغرفة وفى كل مكان حولنا رجال يعترى شعورهم المشيب يرتدون معاطف سوداء يجرون أقدامهم فوق السجادة، حتى إن بعضهم كان يدفع بكتفيه للأمام وكأنهم يمشون فى مغبة عاصفة هوجاء. الخدم، أيضاً، بصوانيتهم الفضية، يميلون إلى المحادثات فى زوايا معينة. نادراً ما كنت ترى سيدات بين الحضور، وهؤلاء اللاتى رأيتهن ظهرن فى حالة محو للذات وبعيدات عن الأضواء، وعلى الفور تقريباً كن يختفين عن مرمى البصر خلف غابة من حُلل السهرة السوداء.

كما أقول، أنا متأكد أن هذه الانطباعات ليست دقيقة، لكن هكذا ظلت الليلة باقية فى عقلى. أتذكر وقفى هناك متجمداً حرجاء، وأنا أشرب من كوبى مرة بعد مرة، بينما كان أوسبورن يدرش بود مع

ضعيف بعد آخر، معظمهم كانوا أكبر منا بما يزيد عن ثلاثين عامًا. حاولت مرة أو اثنتين أن أشارك في الحديث، لكن صوتي كانت تشوبه نبرة طفولية بصورة منافية للذوق السليم، وعلى أية حال، كانت معظم الحوارات تدور حول ناس وقضايا لا أعرف شيئاً عنها.

بعد فترة، بدأ الغضب يزحف عليّ - على نفسي، على أوسبورن، وعلى كل ما يجري. شعرت بأنني محق كل الحق في ازدراء من حولي من الناس؛ وأنهم إلى حد كبير موصومون بالأنانية والجشع، وتعوزهم القيم أو الإحساس بالواجب العام. في النهاية، وبدافع قوى من غضبي، استطعت أن أنزع نفسي بعيداً عن أوسبورن وأتحرك بعيداً في الظلام إلى جزء آخر من الغرفة.

وصلت إلى منطقة مضاءة بواسطة بقعة ضوء تسقط من مصباح حائط. كانت جموع الناس أقل هنا، ولاحظت وجود رجل أشيب الشعر في حوالي السبعين من عمره وكان يدخن وظهره للغرفة. اقتضى الأمر لحظة مني لأدرك أنه كان يحدق في مرآة، وحينئذٍ لاحظ أنني قد كنت أنظر إليه. كنت على وشك أن أبتعد مسرعاً، عندما قال، دون أن يستدير:

"هل أنت مستمتع؟"

"أوه نعم"، قلت وأنا أطلق ضحكة خفيفة. "شكراً لك. نعم، مناسبة رائعة."

"لكنك تائه إلى حد ما، هه؟"

ترددت، ثم أطلقت ضحكة أخرى. "ربما قليلاً. نعم، سيدي."

استدار الرجل ذو الشعر الأشيب وتفحصني بعناية. ثم قال: "لو وددت، سأخبرك بهوية بعض هؤلاء الناس. ثم لو أن هناك من تريد التحدث إليه على وجه التحديد، فسوف آخذك إليه وأقدمك له. ماذا تقول في هذا؟"

"هذا منتهى العطف منك. منتهى العطف في الحقيقة."
"حسنًا."

اقترب مني خطوة ومسح بعينه المرئي لنا من الغرفة. ثم مال للأمام على، وبدأ يشير إلى هذه الشخصية وتلك. حتى حينما يكون الاسم من النوع الوصفي، كان يتذكر أن يضيف لمعرفة "خبير المال"، "المؤلف الموسيقي"، أو أي شيء أيا كان. مع الشخصيات الأقل شهرة، كان يلخص ببعض التفاصيل سيرة حياة الشخصية وسبب أهميتها. أعتقد أنه كان في مغبة إخباري عن أحد رجال الدين وكان يقف على مقربة منّا، عندما توقف فجأة وقال:

"آه. أرى أن انتباهك قد انجذب بعيدًا."

"أنا في غاية الأسف...."

"وهو كذلك. مع هذا، طبيعي جدًا. من رفيق شاب مثلك."

"أؤكد لك، يا سيدي...."

"لست بحاجة للاعتذار." أطلق ضحكة ووكز ذراعي برفق.

"تراها رائعة، هه؟"

لم أكن أعرف بالضبط بماذا أرد. ولم أستطع أن أنكر أن انتباهي قد انحرف بسبب المرأة الشابة التي كانت تقف على بعد عدة ياردات

إلى يسارنا، وكانت مستغرقة وقتئذٍ في حوار مع رجلين في منتصف العمر. لكن عندما حدث هذا، في تلك المرة الأولى التي رأيتها فيها، لم أفكر فيها على أنها رائعة مطلقاً. من الممكن حتى إنني أحسست إلى حد ما، هناك وقتئذٍ، مع أول وقوع لعيني عليها، أن تلك المميزات التي كنت قد اكتشفتها هي جزءٌ منها بشكل مهم. الذي رأيته كان امرأة شابة ضئيلة قرمية القامة بشعر قائم يطاول كتفها. حتى على الرغم من أنها كانت، في تلك اللحظة، تتمنى بوضوح أن تفتن الرجلين اللذين كانت تتحدث إليهما، فقد رأيت شيئاً ما في ابتسامتها يجعلها في لحظة ربما تستحيل إلى سخرية. انحناءة خفيفة حول كتفها، مثل تلك التي تسم الطيور الجارحة، تجعلك تفترض في وقتها شيئاً من المكر. فوق كل هذا، لاحظت خاصية معينة حول عينيها - نوعاً من القسوة، شيئاً جشعاً بطريقة حقيرة - أرى الآن، وأنا أستعيد الأحداث الماضية وأتأملها، أنها فاقت ما سواها وجعلني أصدق فيها بهذا الاقتتان في تلك الليلة.

عندئذٍ، وبينما كنا لم نزل نرمقها، نظرت باتجاهنا، مدركة رفيقي، ألقت إليه بابتسامة خاطفة وفاترة. حياها الرجل أشيب الشعر بانحناءة محترمة من رأسه.

"سيدة شابة فائنة"، غمغم، وقد بدأ يشق بي الطريق. "لكن لا معنى أن يضيع رجلٌ مثلك وقته في مطاردتها. لا أقصد أن أكون عدوانياً، فأنت تبدو من النوع المهذب والمحترم جداً. لكن تعرف، هذه ميس هيمنجس. ميس ساره هيمنجس."

لم يكن للاسم أى معنىً عندى. لكن لما كان مرشدى من البداية
حى الضمير للغاية فى إمدادى بخلفيات هؤلاء الذين أشار إليهم، فقد
نطق اسم هذه المرأة وهو يتوقع بوضوح منى أن أكون على دراية
به. ولذا لم يكن منى سوى أن أومأت وقلت:

"أوه نعم. إذن فهذه ميس هيمنجس."

توقف الرجل ثانيةً ومسح الغرفة من زاوية رؤيتنا الجديدة.

"الآن دعنى أرى. أنا أدرك أنك تبحث عن شخص يعطيك دفعة
فى مستقبلك. صح؟ لا تقلق. لقد لعبت اللعبة نفسها كثيرًا فى شبابى.
الآن دعنى أعرف. من لك هنا؟" ثم استدار بغتةً نحوى وسأل: "الآن
ماذا قلت ثانيةً بخصوص ما تريد أن تفعله فى حياتك؟"

بالطبع، لم أكن حتى تلك اللحظة قد أخبرته بأى شىء. لكن الآن
بعد قليل من التردد، أجبته ببساطة:

"بوليس سرى، يا سيدى."

"بوليس سرى؟ هممم." واصل النظر بتفحص فى كل أنحاء
الغرفة. "تقصد... رجل شرطة؟"

"مستشار خاص بشكل أكثر دقة."

أوماً. "بطبيعة الحال." واصل التدخين من سيجاره، وهو يمعن
التفكير. ثم قال: "لست مهتمًا بالمتاحف، إن أمكن؟ الرجل الذى هناك،
أعرفه لسنوات. متاحف، جماجم، رفات الجثث، أشياء من هذا القبيل.
لا يهتمك؟ لم أعتقد هذا." واصل النظر بتفحص فى أنحاء الغرفة،

أحياناً يومئ برقبته لينظر إلى شخصٍ ما. "بالطبع"، أخيراً قال، "كثير من الشباب يحلمون أن يصبحوا أفراداً في البوليس السرى. بإمكانى أن أقول إننى حلمت بهذا ذات مرة، فى لحظة ما كانت أكثر خيالية. الواحد يشعر بأنه مثالى فى سنك. ويتوق لأن يصبح أعظم رجل بوليس سرى فى عصره. ليقطع وحده كل شرور العالم. هذا جدير بالثناء. لكن فى الحقيقة، يا صغيرى، إن هذا بالفعل أيضاً كأن، لنقل، يكون لديك بضعة أوتار أخرى فى قوسك. لأنك بعد عام أو اثنين من الآن - لا أقصد أى هجوم أو عداء - لكن قريباً جداً ستتناول الأمور بطريقة مختلفة تماماً. هل أنت مهتم بالأثاث؟ أنا أسألك لأن من يقف أمامنا هناك هو هاميش روبيرتسون فعلاً."

"مع احترامى لكل ما قلته، يا سيدى. فالطموح الذى صرحت به لك توّاً ليس نزوة هذه اللحظة. إنه دعوة ومهنة أحسست بها طيلة حياتى."

"طيلة حياتك؟ لكن كم عمرك؟ واحد وعشرون؟ اثنان وعشرون؟ حسناً، أظن أنه لا ينبغى ألا أشجعك. مع ذلك، إذا لم يكن شبابنا سيتبنون ميولاً مثالية فمن سيفعل هذا؟ ولا شك، يا بنى، أنك تعتقد أن عالم اليوم أكثر شراً من العالم قبل ثلاثين عاماً مضت، أليس كذلك؟ وأن الحضارة على حافة الهاوية وكل هذا؟"

"فى واقع الأمر، يا سيدى،" قلت باقتضاب، "أعتقد أن الأمر هكذا."

"أتذكر عندما فكرت أنا أيضاً فى هذا." فجأةً تبدلت سخريته بنبرة أكثر تعاطفاً، أظن حتى إننى رأيت عينيه تمتلئ بالدموع. "لماذا هكذا،

هل لديك افتراض، يا بنى؟ هل أصبح العالم فعلاً أكثر شراً؟ هل يتفسخ الإنسان وينحط بوصفه نوعاً بيولوجياً؟

"لا أعرف شيئاً عن هذا، يا سيدى،" أجبت لكن هذه المرة بلطف أكثر. "كل ما أستطيع قوله هو، من وجهة نظر المراقب الموضوعى، أن المجرم الحديث قد أصبح أكثر مهارة. لقد أصبح أكثر طموحاً، أكثر جرأة، والعلم قد وضع نظاماً كاملاً من الأدوات المعقدة تحت تصرفه."

"صحيح. وبدون رجال موهوبين مثلك بجانبنا، فالمستقبل يبدو قاتماً، أليس كذلك؟" هز رأسه بأسى. "ربما لديك شيء هناك. شيء سهل جداً بما لا يمكن رجلاً كبيراً من السخرية. ربما تكون على حق، يا بنى. ربما نكون قد سمحنا للأمور بالانفلات إلى حدٍ متطرف جداً. آه."

أحنى الرجل أشيب الشعر رأسه ثانيةً عند مرور سارة هيمنجس بنا. كانت تتحرك بين المدعوين برشاقةٍ مترفعة، ونظرتها تنتقل من اليمين إلى اليسار بحثاً - هكذا بدت لى - عن شخصٍ ما. بدت جديرة بحضورها. عند إدراكها لرفيقي، ألقت إليه بالابتسامة السريعة نفسها كما فعلت من قبل، لكنها لم تتوقف عن تقدمها فى طريقها. وقعت نظرتها على، لمدة دقيقة واحدة فقط، لكنها على الفور - وقبل أن ألقى إليها بابتسامة - كانت قد طردتني من عقلها وشقت طريقها صوب شخص ما كانت قد حددت موقعه فى الجانب الآخر من الغرفة.

متأخرًا في تلك الليلة، عندما جلست أنا وأوسبورن معًا في سيارة
أجرة أسرع عائدة بنا إلى كينسينجتون، حاولت أن أكتشف شيئًا
أعمق فيما يتعلق بسيارة هيمنجس. أوسبورن، على الرغم من كل
تظاهره بأن الليلة كانت مملة وثقيلة الظل، كان مستمتعًا، ولديه شغف
لسرد الحوارات العديدة التي دخل فيها مع شخصيات ذات نفوذ
وسلطة؛ وبالتفصيل. وبالتالي لم يكن من السهل استقطابه لموضوع
ميس هيمنجس دون أن أبدو شغوفًا جدًا.

مع هذا، استطعت أن أحمله أخيرًا على أن يقول:

"ميس هيمنجس؟ أوه نعم، هي. كانت مخطوبة لهيربوت لويس.
تعرف، الأخ الكمساري. ثم مضى وقام بقيادة كونسرتو شوبيرت في
قاعة آلبرت الخريف الماضي. هل تتذكر هذه الكارثة؟"

عندما أعلنت عن جهلي بها، واصل أوسبورن كلامه:

"لم يقذفوه فعلاً بالكراسي، لكن أستطيع أن أقول إنهم كانوا على
وشك أن يفعلوا هذا لو لم تكن الكراسي مثبتة في الأرض. صحفي
التايمز وصف العرض بأنه "محاكاة زائفة ومضحكة تمامًا". أو هل
قال بأنه، "انتهاك وتدنيس؟ على أية حال، لم يكثر كثيرًا به."

"وميس هيمنجس..."

"أسقطته مثل قطعة بطاطا ساخنة. وألقت إليه بخاتم الخطوبة،
جهارًا. ومنذ ذلك الحين وهي تترك بينها وبينه مسافة شاسعة."

"كل هذا بسبب هذا الحفل الموسيقي؟"

"حسنًا، لقد أجمعت كل الآراء على أنه كان في منتهى البشاعة. وأحدث اضطرابًا هائلًا. أعنى فسخها للخطوبة. لكن كم كانا مصدرًا للإزعاج الليلة، يا بانكس. هل تعتقد لو أننا في تلك السن، كنا سنتصرف هكذا؟"

أثناء تلك السنة الأولى بعد كمبريدج، ومن خلال صداقتي بأوسبورن على وجه العموم، وجدت نفسي أحضر مناسبات اجتماعية ضخمة أخرى على أساس اعتيادي بشكل ملائم. عندما أعود وأمعن التفكير في تلك الفترة من حياتي، أشعر بالدهشة لأنها كانت فترة من الطيش والعبث الغريب والمتفرد. كان هناك حفلات عشاء، وغداء، وحفلات كوكتيل تقام عادةً في شقق في كل أنحاء بلومسبري وهولبورن. كنت قد قررت أن ألقى بالإحراج الذي ظهر في سلوكي في ليلة كارينجورث خلفي، وأصبحت سلوكياتي في هذه الليالي أكثر ثقة واستقرارًا. حقيقةً، من المنطقي أن أقول إنني أصبحت أحتل مكانًا داخل أرقى "تجمعات" لندن لفترة.

لم تكن ميس هيمنجس جزءًا من المجموعة التي تخصصني، لكنني وجدت أنني كلما ذكرت اسمها للأصدقاء، كانوا يعرفون عنها. إضافةً إلى أنني كنت أراها في حفلة أو أخرى، وغالبًا في قاعات تناول الشاي في الفنادق الكبرى. على أية حال، فبطريقةٍ ما أو بأخرى استطعت القيام بتجميع كم معقول من المعلومات المتعلقة بسيرتها الشخصية في مجتمع لندن.

كم هو غريب أن أتذكر وقتاً كانت فيه هذه الانطباعات الثانوية
المبهمة هي كل ما كنت أعرفه عنها! لم أستهلك وقتاً طويلاً لأبرهن
أن هناك كثيرين لا ينظرون إليها باستحسان. حتى قبل مسألة فسخ
خطبتها على أنتوني هيريوت لويس، بدا أنها كونت عداوات بسبب ما
أسماء الكثيرون بـ "صراحتها". أصدقاء هيريوت لويس - بحقيقته
الموضوعية التي، للإنصاف، لا يمكن أن تتساوى مع هذه النقطة -
وصفوا إلى أي مدى كانت مطاربتها للمُحَصِّل قاسية وعنيفة. آخرون
اتهموها بالتلاعب بأصدقاء هيريوت لويس كي تتقرب منه. تخليها
التالي عن المُحَصِّل وقطع صلتها به، بعد كل جهودها المضنية، كان
ملغزاً من وجهة نظر البعض، آخرون تعاملوا مع هذا ببساطة على
أنه دليل دامغ على دوافعها الكلبية. على الجانب الآخر، صادفت عددًا
كبيراً من الناس تحدثوا بصورة لائقة إلى حد ما عن ميس هيمانجس.
كثيراً ما وُصِفَتْ بأنها "ذكية"، و"جذابة" و"معقدة". النساء على وجه
التحدي دافعن عن حقها في فسخ خطبتها، أياً كانت أسبابها. حتى من
دافعوا عنها، مع هذا، اتفقوا على أنها "نفاجة" (*) أو متأبهة بشعة من
نوع جديد؛ ولا تتظر بعين الاعتبار لشخص جدير بالاحترام ما لم
يكن لاسمه دوى وشهرة. ولا بد أن أقول، بملاحظتي لها عن بُعد كما
فعلت خلال تلك السنة، صادفت قليلين يعترضون على هذه
الادعاءات، حقيقةً، أحياناً ما يداخلني انطباع بأنها غير قادرة على
تنفس أي شيء بصورة ملائمة غير محاصرة الشخصيات اللامعة
اجتماعيًا. ذات مرة أصبحت على علاقة بهنري كوين، المحامي في

(*) النفاج: المقلد لمن يعتبرهم أرقى منه، أو المعجب بهم بتملق. (المترجم)

المحاكم العليا، فقط لتبعد نفسها ثانية بعد فشلها في واقعة تشارلز براوننج. ثم بعد ذلك كانت الشائعات الخاصة بعلاقة الصداقة المتنامية بينها وبين جيمس بيكون، الذى كان وقتئذ مفوضًا حكوميًا واعدًا. على أية حال، حينئذ أصبح واضحًا بجلاء لى أن ما كان يقصده الرجل أشيب الشعر، عندما أعلن عن عدم وجود فائدة تعود على رجل مثلى من مطاردتها، ليس صحيحًا تمامًا. بالطبع، لم أكن فى الحقيقة أفهم كلماته وقتئذ. الآن، ولأننى فعلت ذلك، خلال تلك السنة وجدت نفسى أقتفى أثر ميس هيمينجس وأتبع أنشطتها باهتمام بالغ. رغم هذا كله، فأنا بالفعل لم أتحدث إليها حتى حدث هذا ذات ظهيرة بعد عامين تقريبًا من أول مرة رأيته فى نادى كارينجورث.

كنت أتناول الشاي فى فندق وولدروف مع أحد معارفى عندما استدعى لأمرٍ ما بغتة. وهناك كنت أجلس وحدى على أرضية الـ Palm Court، مستغرقًا فى الكعكات والمربى، عندما لمحت ميس هيمينجس، تجلس وحدها أيضًا، على إحدى الطاولات الموجودة فى الشرفة. كما قلت، كانت هذه هى المرة الأولى على الإطلاق التى أراها فى مثل هذه الأماكن، لكن فى تلك الظهيرة كانت الأمور مختلفة. لأن هذا كان بالكاد بعد شهر من قضية المانرينج، وكنت لم أزل على ما يشبه السحابة. بالتحديد، شهدت تلك الفترة، التى تلت أول انتصاراتى العامة، حالة من العنف والاندفاع: فجأة انفتحت أبواب جديدة كثيرة أمامى؛ وأمطرتُ بالدعوات من مصادر جديدة تمامًا؛ وهؤلاء الذين كانوا لا ينظرون إلى بأكثر من مجرد الرضا

تعجبوا بحماس شديد عند دخولي أى غرفة. لا عجب أننى فقدت بعضًا من علاقاتى.

على أية حال، فى تلك الظهيرة فى وولدروف، وجدت نفسى أنهض وأشق طريقى صوب الشرفة. لست واثقًا فيما كنت أنتظر أو أتوقع. ثانيةً كان من صميم اعتدادى بنفسى وقتئذٍ أننى لم أتوقف عن الاعتقاد فى أن ميس هيمينجس ستكون حقًا فى منتهى السعادة حال تعرفها على. ربما ومض بعقلي شكًا وأنا أخطو مارًا بعازف البيانو لأصل إلى الطاولة التى كانت تجلس إليها مستغرقةً فى قراءة كتاب. لكننى أذكر شعورى بالرضا إلى حدٍ ما بسبب الطريقة التى خرج بها صوتى، فقد كان حزينًا ومزحًا، وأنا أقول:

"معذرةً، لكنى فكرت فى أنه قد حان الوقت لأقدم لك نفسى. فبيننا العديد من الأصدقاء المشتركين. أنا كريستوفر بانكس."

استطعت أن أنطق اسمى بتباهٍ، لكن بالفعل كانت ثقتى، وقتئذٍ، قد بدأت فى التلاشى. لأن ميس هيمينجس كانت ترمقنى من أسفل بنظرة فائرة وقاحصة. وأثناء الصمت الذى غلف اللحظة التالية، ألقت نظرة خاطفة على كتابها، وكأنه قد أطلق آهة شكوى. أخيرًا، وبصوت مشحونٍ بالارتباك، قالت:

"أوه نعم؟ كيف حالك؟"

"قضية المانرينج"، قلت، بحمق. "لأبد وأنت قد قرأت عنها."

"نعم. أنت حققت فيها."

تلك كانت هي الجملة التي أخرجتني، في واقع الأمر، عن اتزانى تمامًا. لأنها قد تكلمت دون أى إشارة من أى نوع على التحقق أو الإدراك؛ لقد كانت جملة تقريرية سطحية تعنى ببساطة أنها كانت مدركة لشخصيتي طوال الوقت، وأنها كانت لم تزل بعيدة تمامًا عن إدراك السبب الذي لأجله أقف إلى جوار طاولتها. بغتة شعرت أن الابتهاج الطائش الذي شهدته الأسابيع الماضية يتبخر. وأعتقد أنه حينئذ، عندما أطلقت ضحكة متعصبة، خطر ببالي أن قضية المانرينج، رغم الأهمية البديهية لتحرياتي، ورغم مديح الأصدقاء، إلى حد ما لم تحقق أهمية كبيرة في العالم الأوسع حسبما ظننت.

من الممكن جدًا أن نكون قد تبادلنا تحية لطيفة للغاية قبل أن أبدأ في التراجع إلى طاولتي. واليوم يبدو لي أن ميس هيمينجس كانت أكثر من محقة حين أجابت بهذه الطريقة؛ كم كان سخيًّا أن أتخيل أن شيئًا ما مثل قضية المانرينج سيكون كافيًا لترك انطباع قوى عليها! لكنني أذكر، لحظة عدت للجلوس ثانية، انتابني شعورٌ بالغضب والاكتئاب. والفكرة التي سيطرت على هي أنني لم أتصرف فقط بحماقة مع ميس هيمينجس، لكنني ربما قد كنت أفعل هذا باستمرار طوال الشهر السابق؛ وأن أصدقائي، على الرغم من كل تهانيم لى، قد كانوا يسخرون مني.

مع اليوم التالي، كنت قد قبلت فكرة أنني جديرٌ تمامًا بالكلمة التي تلقيتها. لكن ما حدث في فندق وولدروف فجر داخلي مشاعر الاستياء والامتناع تجاه ميس هيمينجس، وأبدًا لم أتخلص منها تمامًا - والتي أسهمت بلا شك في الأحداث السيئة ليلة أمس. مع هذا فقد حاولت في

الوقت نفسه أن أنظر للحدث ككل على أنه من قبيل العناية الإلهية. فهذا الحدث، على أية حال، جعلني أدرك مدى سهولة أن ينصرف المرء عن أهم الغايات التي علقت في ذهنه. فنييتي كانت مواجهة الشر - الشر الماكر الغادر، على وجه التحديد - ومثل هذا لا علاقة له بتودد الشهرة في الدوائر الاجتماعية.

بعدئذ بدأت أقص وجودي الاجتماعي إلى أبعد حد وصرت أكثر استغراقاً في عملي. قمت بدراسة قضايا شهيرة من الماضي، والتهمت مناطق معرفية جديدة ربما تعود على بالفائدة ذات يوم. فسي هذه الفترة، أيضاً، بدأت أدقق النظر في سير حياة العديد من أفراد البوليس السري ممن أضحت أسماؤهم كبيرة، ووجدت أنه بإمكانني أن أتبين خطأ بين أنماط الشهرة التي انبنت على إنجاز أجوف، وتلك التي نتجت بالأساس من مكانة داخل وضعية مؤثرة؛ وأدركت أن هناك طريقاً حقيقياً وزائفاً يكتسب عبره رجل البوليس السري شهرته. باختصار، بقدر ما قد أثارتني عروض الصداقة التي امتدت إلى ما بعد قضية المانرينج، فقد، بعد الصدام غير المتوقع في فندق وولدروف، تذكرت ثانية المثال الذي أرساه والدي، وخلصت إلى عدم السماح لنفسى بالانشغال بالأمر التافه.

الفصل الثانى

مادمت الآن أستعيد ذكرى تلك الفترة من حياتى التى تلت قضية المانرينج، فربما يكون جديرا بالذكر هنا لم شملى غير المتوقع على الكولونيل تشامبرلين بعد كل تلك السنوات. ربما يكون من المثير للدهشة أننا لم نظل على اتصال حميم ومستمر، رغم الدور الذى لعبه فى إحدى الفترات المحورية من طفولتى. لكن أيا كان السبب، فقد فشلنا فى أن نفعل هذا، وعندما قابلته مرة ثانية - بعد شهر أو اثنين من هذا الصدام مع ميس هيمنجس فى فندق وولدروف - كان هذا محض صدفة.

كنت أقف فى مكتبة على تقاطع طريق تشارينج ذات ظهيرة مطيرة، أتفحص طبعة مصورة من إيفانهو. لبعض الوقت كنت أشعر بشخص ما يحوم بالقرب من ظهري، وظننت أنه يريد الدخول إلى ذلك الجزء من الرف، فتحركت جانباً. لكن حينما ظل الشخص يتكأ حولي، استدرت أخيراً.

تعرفت عليه فوراً، لأن ملامحه الجسمانية لم تتغير كثيراً. لكن، ومن خلال العين البالغة، بدا لى أكثر خنوعاً ورثاة من الهيئة التى اعتدتها فى صباى. كان يقف هناك مرتدياً معطفه الواقى من المطر، يرمقنى بخجل، وفقط عندما تعجبت قائلاً: "آه، الكولونيل!" ابتسم ورفع يديه.

"كيف حالك، يا بني؟ كنت واثقاً أنه أنت. يا إلهي! كيف حالك،
يا بني؟"

على الرغم من أن الدموع لاحت في عينيه، فإن سلوكه ظل متحرجاً، وكأنه كان يخشى أن أكون قد شعرت بالضيق إثر تذكرى الماضى. بذلت قصارى جهدى لأنقل سعادتى لرؤيته، وعندما بدأ انهمار المطر بالخارج، وقفنا هناك نتجاذب أطراف الحديث فى المكتبة الضيقة. اكتشفت أنه لم يزل يعيش فى وورسسترشير، وأنه أتى إلى لندن لحضور جنازة وقرر أن "يقضى بضعة أيام فيها". عندما سألته عن مكان إقامته، رد بإجابة مبهمّة، مما أدى بى إلى الشك فى أنه يقيم فى مسكن معقول. قبل أن نفترق، دعوته للعشاء معى فى الليلة التالية، الاقتراح الذى تلقاه بحماس، رغم أنه بدا وقد جفل عند ذكرى للدورتشيستر. لكننى واصلت إلحاحى - "هذا أقل ما يمكن أن أفعله بعد كل ما شملتى به من عطف فى الماضى"، ناشدته - حتى وافق أخيراً.

عندما أنظر الآن إلى الوراء، أندesh لأن اختياري للدورتشيستر يمثل ذروة الطيش. فبالفعل قد حدّست، مع ذلك، أن الكولونيل ليس معه ما يكفى من النقود؛ كان ينبغي أيضاً أن أدرك كم كان جارحاً له ألا أقوم بدفع نصف فاتورته على الأقل. لكن فى تلك الأيام لم تخطر هذه الأمور ببالى؛ فقد كنت منهمكاً، أشك، فى إدهاش الرجل المُسِن بالتحول التام الذى حدث لى منذ آخر مرة رآنى فيها.

لقد نجحت إلى حدٍ ما في تحقيق هذا الهدف الأخير. لأنه عندما حدث هذا، كنت قد دعيت إلى الدور تشيستر في مناسبتين، لذلك في المساء الذي قابلت فيه الكولونيل قابلني النادل بـ "جميل أن أراك هنا ثانية، يا سيدى". ثم بعد أن شاهدني أتبادل المزاح مع النادل مع بداية تناولنا للحساء، انفجر الكولونيل في ضحك مباغت.

"وللعلم"، قال، "هذا هو السائل الضئيل نفسه الذي كنت أتمخطه جانبى على ذلك القارب!"

أطلق بضع ضحكات أخرى، ثم توقف فجأة، ربما مخافة أنه لم يكن ينبغي أبدًا أن يلمح إلى الموضوع. لكننى ابتسمت بهدوء وقلت: "لابد وأننى كنت محنة لك في تلك الرحلة، يا كولونيل."

غيم وجه الرجل العجوز للحظة. ثم قال بوقار: "بالنظر إلى الظروف، أعتقد أنك كنت في غاية الشجاعة، يا بنى. فى منتهى الشجاعة."

عند هذه النقطة، أذكر، طغى علينا صمت متخرج كسره تعليقنا معًا على النكهة الرائعة للحساء. على الطاولة المجاورة، سيدة ضخمة كانت ترتدى الكثير من المجوهرات وتضحك بابتهاج، ورمقها الكولونيل بحمق إلى حدٍ ما. ثم بدا أنه قد اتخذ قرارًا.

"تعرف، من المضحك أننى"، قال. "كنت أفكر فيها، قبل أن أخرج الليلة. فى تلك المرة التى التقيت معك فيها لأول مرة. أتساءل إذا ما كنت تتذكر، يا بنى. لا أظن أنك تتذكرها. ومع هذا، فهناك ذكريات أخرى كثيرة لديك منذئذ."

"بالعكس"، قلت، "فذكرى هذه المرة حية جدًا فى ذهنى."

لم يكن هذا كذبًا. حتى الآن، لو كان لى أن أغمض عيني للحظة، لاستطعت بسهولة أن أنقل نفسي إلى الورا إلى هذا الصباح المشرق في شتغهاي ومكتب مستر هارولد أندرسون، رئيس أبى فى شركة Butterfield and Swire التجارية الضخمة. كنت أجلس فى كرسى ينضج برائحة الجلد المصقول والبوط، نموذج الكرسى الذى يوجد عادة خلف مكتب فخم، لكنه كان، فى هذه المناسبة، قد سُحب للخارج إلى منتصف الغرفة. كنت أشعر أنه كرسى محجوز فقط لأهم الشخصيات، لكن فى هذه المناسبة، وبسبب خطورة الظروف، وربما كنوع من المواساة، مُنحت حق الجلوس عليه. أذكر أننى، بغض النظر عن كيفية المحاولة، لم أجد طريقة محترمة للجلوس فى هذا الكرسى؛ تحديدًا، لم أستطع أن أكتشف طريقة جلوس تمكّننى من أن أضع مرفقى فى الوقت نفسه على مسنديه المنعطفين بجمال. إضافة إلى أننى فى ذلك الصباح كنت ارتدى سترة جديدة من ماركة قيمة مصنوعة من خامة رمادية خشنة - وكنت أعى تمامًا قبح الطريقة التى زررت بها الجاكت حتى ذقنى تقريبًا.

الغرفة نفسها كانت ذات سقف عالٍ فخم، بخريطة كبيرة على أحد الحيطان، وخلف مكتب مستر أندرسون، نافذة كبيرة كانت الشمس تسطع حارقةً عبرها ويهب النسيم. أظن أنه كان هناك مراوح سقف تتحرك فوقى، رغم أننى لا أتذكر هذا بالفعل. ما أذكره فعلاً هو أننى كنت أجلس فى منتصف الغرفة، ومركز اهتمام ومناقشة مهيبة. حولى، رجال بالغون يتشاورون، معظمهم كانوا واقفين على أقدامهم؛ قليلون منهم كانوا يمضون أحيانًا صوب النافذة، وكانوا يخفضون من أصواتهم أثناء مناقشتهم لنقطة ما. أتذكر أيضًا اندهاشى من الطريقة

التي تصرف بها مستر أندرسون، الرجل الكبير الأشيب بشاربه الضخم، معي وكأننا أصدقاء قدامى - بمبالغة جعلتني أظن لفترة أننا نعرف بعضنا البعض عندما كنت أصغر سنًا وأنتى قد نسيتَه. فقط فيما بعد بفترة طويلة تيقنت أننا لا يمكن أن نكون قد التقينا قبل ذلك الصباح. على أية حال، لقد افترض لنفسه دور العم، وكان باستمرار يلقي إلى بابتساماته، ويربت على كتفى، يدفعني برفق ويغمز لى. ذات مرة قدم لى كوبًا من الشاي، وهو يقول: "الآن، يا كريستوفر، هذا سوف ينعشك"، وانحنى لأسفل ليحرق فى عندما أخذتها. بعد ذلك سمعت غمغمات ومشاورات أكثر فى كل أنحاء الغرفة. ثم ظهر مستر أندرسون أمامى ثانية وقال:

"إذا، يا كريستوفر. لقد حُسم كل شيء. هذا كولونيل تشامبرلين. لقد وافق بعطف كبير أن يوصلك آمنًا إلى إنجلترا."

أذكر فى هذه اللحظة الصمت الذى غلف الغرفة. فى الحقيقة، كان انطباعى هو أن كل الكبار انكمشوا للخلف حتى أصبحوا يبطنون الحوائط مثل المشاهدين. مستر أندرسون أيضًا تراجع إلى الوراى وعلى وجهه ابتسامة تشجيع أخيرة. حينئذ وقعت عيني للمرة الأولى على كولونيل تشامبرلين. تقدم صوبى ببطء، وانحنى لأسفل لينظر فى وجهى، ثم مد يده. انتابنى شعور بحتمية الوقوف لمصافحته، لكنه أبعدنا بسرعة كبيرة، وأحسست بأننى ملتصق فى ذلك الكرسي، لدرجة أننى تشبثت بيده وأنا لم أزل جالسًا. ثم تذكرته وهو يقول:

"يا طفلى المسكين. أبوك فى البداية. والآن أمك. لابد وأنتك تشعر بأن العالم كله قد انهار حول أذنك. لكننا سنذهب إلى إنجلترا غداً، أنا

وأنت. خالك في انتظارك هناك. لذلك كن شجاعاً. ثانيةً ستستطيع أن تلمم الأشلاء نواً."

للحظة لم أكن قادراً على إخراج صوتي. عندما استطعت هذا أخيراً، قلت: "إنه منتهى العطف منك، يا سيدى. أنا في غاية الامتتان لعرضك، وأتمنى ألا تظن أنني وقح جداً. لكن إذا لم يكن لديك ممانع، يا سيدى، أظن أنه لا يجب على الذهاب إلى إنجلترا الآن." ثم، عندما لم ينطق الكولونيل برد على الفور، استأنفت كلامي:

"لأنه كما تفهم، يا سيدى، أفراد البوليس السرى يعملون بجد ليجدوا أبى وأمى. وهم أفضل رجال البوليس السرى فى شنغهاى. أعتقد أنه من المحتمل أن يجدوهما فى أقرب وقت."

كان الكولونيل يومئذ. "أنا واثق بأن السلطات تبذل قصارى جهدها."

"لذا فأنت ترى، يا سيدى، رغم أنني أقدر كثيراً تعاطفك، فإننى أظن أن ذهابى إلى إنجلترا ليس ضرورياً فى مغبة هذا كله."

أتذكر همسات دارت فى كل أرجاء الغرفة فى تلك اللحظة. استمر الكولونيل فى الإيماء كأنه يزن الأمور بعناية.

"ربما تكون مُحققاً تماماً، يا بنى،" أخيراً قال. "وأتمنى بإخلاص أن تكون مُحققاً. لكن فى هذه الحالة بالفعل، لماذا لا تأتى معى على أية حال؟ ثم فى حالة إيجاد والديك، سيتمكنهم أن يرسلوا لإعادتك. أو من يدري؟ ربما يقررون المجيء إليك فى إنجلترا أيضاً. ما رأيك إذا؟ لنذهب أنا وأنت إلى إنجلترا غداً. ثم نستطيع أن ننتظر ونرى ما يحدث."

"لكنك تعرف، يا سيدى، معذرةً. لكنك تعرف، رجال البوليس السرى يبحثون عن والدى. إنهم من أفضل رجال البوليس السرى." لست متأكدًا بالتحديد من رد الكولونيل على هذا. ربما يكون فقط قد استمر فى الإيماء. على أية حال، فى اللحظة التالية، مال على مقتربا أكثر ووضع يده على كتفى.

"انظر هنا. أنا أعرف بماذا تشعر. عالم بأكمله ينهار حول أذنك. لكن ينبغى عليك أن تتحلى بالشجاعة. إضافةً إلى أن خالتك فى إنجلترا. وهى فى انتظارك، ألا تفهم؟ ليس بإمكاننا أن نخذل السيدة بهذه الصورة فى هذه المرحلة، أليس كذلك؟"

عندما سردت عليه، أثناء جلوسنا لتناول الحساء فى تلك الليلة، ذكرياتى عن آخر كلماته تلك، توقعت بشكلٍ ما أن يضحك. لكنه بدلاً من ذلك قال بوقار:

"لقد شعرت بالأسى لأجلك، يا بنى. بمنتهى الأسى." ثم ربما شعر بأنه قد أساء تقدير حالتى فأطلق ضحكة قصيرة وقال بخفة أكثر: "أذكر انتظارى فى الميناء معك. ظلت أقول: "انظر هنا، سنستمتع كثيرًا على متن تلك السفينة، أليس كذلك؟ سنستمتع بوقتٍ غاية فى الروعة." وظلت أنت تقول: "نعم، يا سيدى. نعم، يا سيدى. نعم، يا سيدى."

تركته، خلال الدقائق العديدة التالية، يوغل فى ذكريات تتعلق بالعديد من معارفه القدامى الذين كانوا حاضرين فى مكتب مستر أندرسون فى ذلك الصباح. لم يكن لأسمائهم بلا استثناء أية دلالة عندي. توقف الكولونيل وغيمت لحظة تجمهم على وجهه.

"أما بخصوص أندرسون هذا نفسه،" قال أخيرًا، "دائمًا ما كان ذلك الرجل يُشعرني بعدم الارتياح. لو سألتني لقلت، ثمة شيء فيه كان يثير شكوكي. ثمة شيء كان مثيرًا للشك في المسألة الملعونة هذه برمتها."

ما لبث أن قال هذا حتى نظر بإجفال لأعلى إلى. ثم، وقبل أن أرد، بدأ يتكلم بسرعة، منتقلًا بنا إلى ما اعتبره دون شك من المناطق الأكثر أمانًا في حديثنا عن رحلة إنجلترا. قبل فترة طويلة، كان يضحك بينه وبين نفسه وهو يحكى ذكرياته عن رفاقنا من الركاب، ضباط السفينة، حوادث صغيرة مرحة نسيته منذ عهد بعيد أو لم أتذكرها لأول وهلة. كان يستمتع وأنا شجعتَه على هذا، حتى إننى تظاهرت بأننى أتذكر شيئًا ما فقط لأسعده. لكن وبينما كان يتواصل مع ذكرياته، وجدت نفسى وقد تلبسنى الغضب إلى حد ما. لأنه وبالتدريج، من خلف حكاياه المرحية، بدأت تظهر صورة لى فى هذه الرحلة ذات قسَمات استثنائية. كرر تلميحا مفاده أننى كنت أتجول فى السفينة مكتئبا ومنطويا على نفسى، وعرضة للبكاء لأتفه الأسباب. لا شك فى أن الكولونيل كان له غرض فى إعطاء نفسه دور الحارس البطولى، وبعد كل هذا الوقت، رأيت أنه من سوء الأدب والفظاظة أن أعارضه. لكن كما أقول، بدأت أشعر بالغضب يتزايد. لأننى وفقا لذاكرتى شديدة الصفاء قد تكيفت ببراعة مع الوقائع المتغيرة لظروفى. إننى أتذكر جيدا، بعيدا عن شعورى بالتعاسة خلال تلك الرحلة، أننى كنت أشعر بإثارة إيجابية تجاه الحياة على متن السفينة، وكذا تجاه نظرتى للمستقبل الذى ينتظرنى. بالطبع فقدت والدى أحيانا، لكننى أذكر أننى كنت أقول لنفسى إنه سيكون دائما هناك كبار

سأحبهم وأثق فيهم. في الحقيقة، كان هناك عددٌ من السيدات في الرحلة سمعن بما حدث لي وجئن، ذات مرة، يغمغمن حولي بتعبيرات الشفقة، وأذكر أنني كنت في الحالة نفسها من الغضب تجاههن تمامًا مثلما شعرت تجاه الكولونيل في تلك الليلة في الدور تشيستر. والحقيقة هي أنني لم أكن أشعر بالكرب بالصورة التي ظنّها البالغون من حولي. بقدر ما يمكنني أن أتذكر، كانت هناك مرة وحيدة فقط أثناء تلك الرحلة الطويلة استحققت فيها هذا اللقب "النافورة الصغيرة الباكية"، وحتى ذلك قد حدث في أول أيام الرحلة.

السماء في ذلك الصباح كانت ملبدة بالغيوم، المياه حولنا كانت عكرة جدًا. كنت أقف على ظهر السفينة وأحدق للخلف على الميناء، باتجاه خط الشاطئ وما يكتنفه من فوضى القوارب، وألواح المعبر إليها، وأكواخ الطين، ومصدات الماء الخشبية القائمة، وخلفها جميعًا بنايات شنغهاي الضخمة، كلها الآن كانت تتلاشى آخذةً هيئة كتلة ضبابية الملامح.

"حسنًا، يا غلام؟" قال صوت الكولونيل بالقرب مني. "أتظن أنك ستعود مرة أخرى ذات يوم؟"

"نعم، يا سيدى. أظن أنني سأعود."

"سنرى. لحظة تستقر في إنجلترا، بإمكانى أن أتجاسر وأقول إنك ستنسى كل هذا بأقصى سرعة. شنغهاي ليست بالمكان الرديء. لكن ثمانى سنوات تعتبر فترة كبيرة جدًا على ما يمكن أن تأخذه منها، وأظن أن لديك أكثر مما تحتاج. وأكثر من هذا سيحولك إلى أحد أبناء الصين."

"نعم، يا سيدى."

"انظر هنا، أيها الرفيق القديم. حقيقةً لابد أن تبتهج. مع كل هذا، فأنت ذاهبٌ إلى إنجلترا. أنت ذاهبٌ إلى الوطن."

هذه العبارة الأخيرة، هذه الفكرة القائلة بأننى "ذاهبٌ إلى الوطن"، جعلت مشاعرى تأتى بأفضل ما عندى - أنا واثق من هذا - لأول وآخر مرة خلال تلك الرحلة. حتى وقتئذٍ، كانت دموعى نتاج الغضب لا الأسى. لأننى شعرت بعميق الامتعاض والاستياء من كلمات الكولونيل. كما تناولت الأمر، لقد كنت فى طريقى إلى مدينة لم أكن أعرف فيها شخصًا واحدًا بينما كانت المدينة التى تتراجع إلى الوراى متلاشيةً تتطوى على كل ما عرفت. إضافةً إلى أن والدى كانا ما يزالان هناك، فى مكان ما خلف ذلك الميناء، فيما وراء ذلك الأفق المهيىب لشنغهاى، بعد أن كففت دموعى، ألقيت بنظرة عميقة أخيرة صوب الشاطئ، متمنيًا حتى فى تلك اللحظة أن ألمح أمى - أو حتى أبى - تجرى على رصيف الميناء، تلوح وتصرخ لى كى أعود. لكننى كنت مدركًا حتى وقتئذٍ أن مثل هذه الأمنية لا تتجاوز كونها استغراقًا طفوليًا. وبينما كنت أشاهد المدينة التى كانت موطنى تتلاشى رويدًا رويدًا، أتذكر التفاتتى للكولونيل بنظرة مبتهجة وأنا أقول: "لابد أننا سنبلغ البحر على الفور تقريبًا، ألا تظن هذا، يا سيدى؟"

لكن أعتقد أننى لم أستطع أن أخفى غضبى من الكولونيل فى تلك الليلة. تحديدًا، وقتما استقل سيارة أجرة فى شارع ساوث أودلى،

وتبادلنا كلمات الوداع، كان في حالة مزاجية رائعة. فقط عندما سمعت بموته بعد ذلك بعام شعرت بالذنب لأنني لم أكن أكثر دفئاً معه في الدور تشيستر. مع هذا، فقد أسدى إليّ معروفاً ولعب لأجلى دوراً جيداً، ومن كل ما قد لاحظت، فقد كان رجلاً طيباً معي. لكنني أعتقد أن الدور الذي لعبه في حياتي - حقيقة كونه مرتبطاً بعمق بكل ما حدث وقتئذٍ - سيؤكد بقاءه كشخص متناقض ومتأرجح في ذاكرتي للأبد.

بعد ما حدث في فندق وولدروف بثلاث أو أربع سنوات على الأقل، كانت علاقتي بساره هيمينجس ضئيلة. أذكر أنني رأيتهَا ذات مرة خلال هذه الفترة في حفل كوكتيل في إحدى شقق مايفير. كانت هذه المناسبة شديدة الازدحام، لكنني لم أكن أعرف كثيرين من جمهور الحضور فقررت أن أغادر مبكراً. كنت في طريقى إلى الباب، عندما لمحت ساره هيمينجس تتحدث مع شخص ما، وهي تقف في طريقى مباشرة. كان اختياري الأول هو أن أستدير وأخذ طريقاً أخرى. لكن هذا كان تقريباً في فترة نجاحي في قضية روجر باركر، وخطر ببالي أن أختبر إذا ما كانت ميس هيمينجس ما زالت مُصيرة تماماً على ترفعها كما كانت في فندق وولدروف منذ بضع سنوات مضت أم لا. لذلك واصلت طريقى بمشقة بين الضيوف وتأكدت من أنني سأمر مباشرة أمام وجهها. عندما فعلت، رأيت أن نظرتها تتحول وتتفحص ملامحي. طغت نظرة ذهول وارتباك على وجهها وهي تناضل ذاكرتها كي تتذكرني. ثم رأيت إدراكها لى بازغاً على

وجهها، وبدون ابتسامة، ولا إيماءة، استدارت بنظرها إلى الشخص الذى كانت تتحدث إليه.

لكننى لم أعط هذا الحدث أى اهتمام. لأنه قد حدث فى أثناء استغراقى فى كثير من القضايا الإشكالية. وعلى الرغم من أنه قبل أكثر من عام من اكتساب اسمى للشهرة التى حققها اليوم، كنت بالفعل قد بدأت أقدر للمرة الأولى مدى المسئوليات التى تقع على عاتق أى رجل بوليس سرى يتمتع بأى قدر من الشهرة. لقد كنت دائماً أفهم، بالطبع، أن مهمة اقتلاع الشر فى أكثر صورهِ انحرافاً ومراوغة، غالباً عندما يكون على وشك أن يمضى فى طريقه دون تحقيق، تعتبر مهمة قاسية وصعبة الإنجاز. لكن لم أدرك إلى أى مدى يمثل هذا قيمة فعلية عند الناس - ليس فقط من أصابهم الضرر بشكل مباشر، لكن الناس أجمعين بشكل عام - حتى كانت تجربتى فى قضايا مثل جريمة قتل روجر باركر. وبالتالي، أصبحت أكثر عزمًا، من ذى قبل، على ألا أنجرف فى الأولويات السطحية للحياة فى لندن. وربما بدأت أفهم أحد الأسباب التى مكنت والدى من اتخاذ الوضع الذى هو عليه الآن. على أية حال، لم يكن أمثال سارة هيمنجس يعلقن بقوة فى أفكارى أو يمسننى مسًا وثيقًا خلال تلك الفترة، حتى إنه كان من الممكن أن أنسى وجودها تمامًا لو لم أذهب إلى جوزيف تيرنر فى كينسينجتون جاردينز ذلك اليوم.

خلال تلك الفترة كنت أحقق فى قضية فى نورفولك وكنت قد عدت إلى لندن منذ بضعة أيام مشحودًا بنية دراسة الملاحظات المطولة التى جمعتها. وبينما كنت أتمشى حول كينسينجتون جاردينز

ذات صباح كئيب قاتم، ممعناً التفكير في التفاصيل العديدة المثيرة للفضول والمحيطه باختفاء الضحية، ناداني من بعيد شخصاً أدركت سريعاً أنه تيرنر، رجل عرفته بطريقة مبهمه من خلال جولاتي الاجتماعية. أتى صوبى مسرعاً، وبعد أن سألته عن سبب "ظهوره النادر في المكان هذه الأيام"، دعاني لعشاء كان يقيمه هو وصديق في أحد المطاعم تلك الليلة. عندما رفضت بأدب متعللاً بأن قضيتي الحالية تتطلب أن أكرس لها كل وقتي وانتباهي، قال:

"يا للعار. إن سارة هيمينجس مدعوة، وهي تريد أن تتحدث إليك بالحاح."

"ميس هيمينجس؟"

"تذكرها، أليس كذلك؟ إنها تتذكرك بالتأكيد. قالت إنكما قد تعارفتما بشكل سطحي منذ بضع سنوات مضت. دائماً ما تشكو من أنك لم تعد تظهر."

قلت ببساطة، وأنا أقاوم الرغبة الملحة في النطق بأي تعليق: "حسناً، من فضلك أبلغها بخالص أمنيّاتي."

تركت تيرنر على الفور تقريباً بعد ذلك، لكن مع عودتي إلى مكتبي أعترف أنني وجدت نفسي مرتبكاً إلى حدٍ ما بسبب ما أسمع عن رغبة ميس هيمينجس في رؤيتي. في النهاية، قلت لنفسي إن كل الافتراضات تقرر أن تيرنر قد ارتكب خطأ ما؛ أو على الأقل، كان يبالغ فيما قال محاولاً غوايتي لحضور العشاء الذي يقيمه. لكن بعد ذلك وخلال الأشهر التالية نما إلى مسامعي إخباريات مماثلة. لقد

كانت سارة هيمانجس تعبر عن ضيقها لأنه قد أصبح من المستحيل، رغم أننا قد كنا أصدقاء في وقتٍ ما، الآن عليها أن تجدني. إضافةً إلى أنني سمعت من مصادر عديدة كيف أنها تهدد بـ "إقلاقي واقتفاء أثرى". حينئذٍ، في النهاية، عندما كنت أقيم في قرية شاكتون بأكسفوردشاير الأسبوع الماضي، للتحقيق قضية ستادلي جرانج، ظهرت ميس هيمانجس شخصيًا، ولديها نية، حسبما افترضت، أن تنفذ ما هددت به فعلاً.

لقد وجدت الحديقة المُسَوَّرة - التي تضم البركة التي وُجِدَتْ بها جثة تشارلز إمري - في المساحات الخفيضة للمنزل. ثلاث درجات حجرية قادتني لأسفل إلى مساحة مستطيلة الشكل تأوي إليها الشمس بانحراف لدرجة أنه مع سطوع الشمس في الصباح يكون كل شيء حولى مستغرقاً في الظلال. الحوائط نفسها لا يمكن أن تتجنب انطباعاً بأنها قد مشت ودخلت زنزانة بلا سقف.

البركة تستعمر هذا المكان المُسَيَّج. رغم أن كثيراً من الناس أخبروني بوجود سمك ذهبي بها، فإنني لم أر أثراً للحياة؛ في الواقع، كان من الصعب على أن أتخيل كيف يستطيع أي شيء أن ينمو ويزدهر في مثل هذا الماء العطن - مكان ملائم في الحقيقة لوجود جثة. حول البركة كان هناك دائرة من شرائح طحلبية تتطمر في الوحل. أظن أنني قد كنت أتفحص هذه المنطقة حوالى ثلث الساعة - كنت منكفئاً على وجهي، أمعن النظر بالعدسة المكبرة في واحدة من

الشرايح التى كانت طافية فوق الماء - عندما أدركت أن هناك شخصاً ما يترقبنى. فى البداية ظننت أن هذا الشخص من أفراد الأسرة يريد أن يزعجنى بأسئلته. فمذ فترة مبكرة كنت قد تمسكت بفترة من الوقت بدون إزعاج، قررت، بادعاء الوقاحة، أن أنظاھر بعدم ملاحظتى لأى شىء.

ثم أخيراً سمعت صوت حذاء يقرقع على الحجر فى مكان ما بقرب المدخل إلى الحديقة. وقتئذ بدأ يبدو من الشاذ أن أظل منكفئاً على بطنى طيلة كل هذا الوقت، وعلى أية حال، كنت قد استنفدت كل التحريات التى يمكن أن أنجزها بعناية فى هذا الوضع. إضافةً إلى أننى كنت قد نسيت تماماً أننى أرقد تقريباً فى البقعة نفسها التى ارتكبت فيها الجريمة بالضبط، وأن المجرم لم يزل مطلق السراح. سرى فى جسدى شعورٌ بالقشعريرة وأنا أنهض بمشقة على قدمى، واستدرت إلى الوجه المتطفل بعد أن نفضت التراب عن ملابسى.

بالطبع كانت رؤيتى لساړه هيمانجس مثيرة للدهشة إلى حد ما، لكن أنا متأكد أن وجهى لم تظهر عليه أى تعبيرات غير طبيعية. هيات ملامحى لتتقل مشاعر الضيق، وأظن أن هذا هو ما رآته، لأن أولى كلماتها معى كانت:

"أوه! لم أقصد التجسس عليك. لكنها بدت فرصة جيدة. أعنى أن أشاهد الرجل العظيم فى عمله."

تفحصت وجهها بعناية، لكننى لم ألمح عليه ما يشى بالسخرية. مع ذلك حافظت على نبرة الفتور فى صوتى وأنا أقول: "ميس هيمانجس. هذا غير متوقع بالمرّة."

"سمعت أنك هنا. أنا أقضى بضعة أيام مع صديقتي في ييملى.
إنها أعلى الطريق بالفعل من هنا."

توقفت عن الكلام، وبلا شك كانت تتوقع ردًا مني. عندما ظالت صامتًا، لم تظهر أى علامة على القلق أو التشوش، لكن على العكس من ذلك تقدمت نحوى.

"أنا صديقة حميمة لإمرى، هل كنت تعرف؟" وواصلت كلامها.
"قضية بشعة، هذه الجريمة."

"نعم، بشعة."

"آه. إذا أنت أيضًا تعتقد أنها جريمة. حسنًا، أعتقد أن هذه الفكرة تحسم الأمر. هل لديك فكرة أو تفسير، يا مستر بانكس؟"

قمت بهز كتفى بلامبالاة. "نعم، لقد توصلت لقليل من الأفكار."

"سيئ جدًا من عائلة إمرى أنهم لم يفكروا في طلب مساعدتك مع بداية حدوث هذا في إبريل الماضى. بعبارة أخرى، استدعاء سيلوين هيندرسون لقضية كهذه! ماذا كانوا يتوقعون؟ كان ينبغي أن يُطرد ذلك الرجل ليرعى مع الماشية منذ وقتٍ طويل مضى. بالفعل هذا يبين لك كيف يعيش الناس هنا في حالة من الانفصال عن العالم. بالطبع، لا بد أن أى شخص فى لندن قد أخبرهم عن كل شىء بخصوصك."

هذه الملاحظة الأخيرة، ينبغي أن أعترف، أسرتنى بالفعل، لذلك بعد لحظة تردد، وجدت نفسى أسألها: "معذرة، لكن أخبرهم بماذا، تحديدًا؟"

"لماذا، إنك أذكى عقلية تحريات في إنجلترا، بالطبع. لابد وأننا جميعًا أخبرناهم بهذا في الربيع الماضي، لكن عائلة إمري - لابد وأنهم قد أخذوا وقتًا طويلاً للمصادقة على هذا. ربما يكون التأخير أفضل من لا شيء، لكنني أعتقد أن الأثر قد أصبح ضعيفاً إلى حد ما بالنسبة لك الآن."

"كما ترين، هناك بعض المميزات في المجيء إلى قضية بعد مرور بعض الوقت عليها."

"حقاً؟ مدهش. كنت دائماً أظن أنه من الضروري الوصول على وجه السرعة، لرفع آثار الروائح، كما تعرف."

"بالعكس، ليس الوقت متأخراً أبداً، كما قررت، على رفع آثار الروائح."

"لكن أليس هذا ضاعطاً، أن هذه الجريمة قد نهشت في معنويات الناس هنا؟ ليس فقط في أهل البيت. إن شاكتون كلها قد بدأت تتهراً وتتفسخ. لقد كانت دائماً بلدة تسوّق سعيدة ومزدهرة. الآن انظر إليهم، نادراً ما تلتقي عيونهم. لقد غاصت بهم هذه القضية في مستنقعات الشك والريبة. أقول لك، لو أنك تستطيع حل هذا اللغز، سيتذكرونك للأبد."

"هل تعتقدين هذا بالفعل؟ إن ذلك مثير للفضول ومُحفّز."

"لا شك في هذا. سيكونون في منتهى الامتنان والشكر لك. نعم، سيظلون يتحدثون عنك لأجيال."

أطلقت ضحكة قصيرة. "يبدو أنك تعرفين القرية جيدًا، يا ميس هيمانجس. وكنت أظن أنك أمضيت وقتك كله في لندن."

"أوه، من الممكن أن آخذ من لندن الكثير، ثم أنجذب كثيرًا للابتعاد. تعرف، أنا لست فتاة حضرية في الأساس."

"لقد أدهشتني. كنت دائمًا أظن أنك منجذبة جدًا لحياة المدينة."

"أنت محق تمامًا، يا مستر بانكس." شابت صوتها نبرة امتعاض، وكأنني وضعتها في مأزق. "ثمة شيء يجذبني إلى المدينة. إن لها... لها جاذبيتها بالنسبة لي." لأول مرة تشيح بوجهها بعيدًا ونظرت حولها على كل أنحاء الحديقة المُسَوَّرة. "التي تذكرني"، قالت. "حسنًا، للأمانة، لا تذكرني على الإطلاق. لماذا ينبغي علي أن أظهار؟ لقد كنت أفكر فيها طيلة كلامنا معًا. أود أن تُسدى إليَّ معروفًا."

"وما هو، يا ميس هيمانجس؟"

"مصادر موثوق منها أخبرتني أنك قد دُعيت إلى العشاء الذي تقيمه مؤسسة ميريديث هذا العام. هل هذا صحيح؟"

ترددت قليلًا قبل أن أرد: "نعم. هذا صحيح."

"عظيم أن تُدعى إلى هذا الحدث في مثل هذه السن. لقد سمعت أن هذا العام سيكون على شرف السير سيسيل ميدهورست."

"نعم، أعتقد هذا."

"لقد سمعت أيضًا أنه من المتوقع حضور تشارلز وولف."

"عازف الكمان؟"

ضحكت بإشراق. "هل يفعل شيئاً آخر؟ وتوماس بايرون أيضاً، بالتأكيد."

أصبحت مثارة بشكل واضح، لكنها الآن قد أشاحت مرة ثانية بوجهها بعيداً وحدثت في الأشياء المحيطة بنا برعدة خفيفة.

"هل قلت،" في النهاية سألت، "إنك تودين منى معروفاً؟"

"أوه نعم، نعم. أريدك أن... أود أن تطلب منى اصطحابك. إلى عشاء مؤسسة ميريديث."

كانت الآن ترمقني بنظرة متوترة. استغرقت دقيقة لأجد إجابة، لكن عندما فعلت هذا، تكلمت بمنتهى الهدوء.

"كان بودي أن ألزمك، يا ميس هيمينجس. لكن لسوء الحظ فقد أرسلت للمنظمين بردي منذ عدة أيام مضت. أخشى أن يكون الوقت قد تأخر على إخبارهم برغبتي في اصطحاب ضيف..."

"هراء!" قاطعتني بغضب. "اسمك على كل لسان اليوم. إذا ما أردت اصطحاب رفيق، فسوف يكونون في غاية السرور بالفعل. مستر بانكس، أنت لست على وشك أن تخذلني، أليس كذلك؟ هذا لا يجدر بك فعله مطلقاً. ومع هذا، فنحن قد أصبحنا صديقين حميمين منذ فترة الآن."

كانت هذه الملاحظة الأخيرة - التي ذكرتني كما فعلت بالتاريخ الفعلي "لصداقتنا" - هي التي أعادتني إلى نفسي.

"ميس هيمنجس،" قلت بحسم، "ليست لدى القوة التى تضمن تحقيق هذا المعروف."

لكن الآن كانت هناك نظرة تصميم فى عيني ساره هيمنجس.

"أنا أعرف كل التفاصيل، يا مستر بانكس. فى فندق كلاريدج. مساء الأربعاء القادم. سأكون هناك. سوف أتطلع لهذه الليلة، وسأكون بانتظارك فى اللوبى."

"اللوبى فى فندق كلاريدج، حسبما أعرف، مفتوح للمحترمين من العامة. لو اخترت الوقوف هناك مساء الأربعاء الماضى، فليس هناك بيدى ما يمكن أن أفعله لأمنحك، يا ميس هيمنجس."

رمقتى بتفحص شديد، غير واثقة الآن من نواياى. أخيراً قالت: "إذا فبالأكيد سترانى هناك الأربعاء القادم، يا مستر بانكس."

"كما قد قلت، هذا شأنك، يا ميس هيمنجس. الآن، معذرة، أريد الانصراف."

الفصل الثالث

لم يستغرق كشف غموض مقتل تشارلز إمري منى سوى بضعة أيام. لم يحقق الأمر شعبية فى ميزان تحرياتي الأخرى، لكن عميق الامتنان من عائلة إمري - حقيقةً، من مجتمع شاكتون كله - جعل القضية مُرضية لى مثل أى قضية أخرى فى سيرتى المهنية. رجعت إلى لندن فى سعادة متقدة وبالتالي فشلت فى أن أمعن التفكير فى لقائى غير المتوقع بساره هيمنجس فى الحديقة المُسَوَّرة فى أول أيام تحرياتي. لا أقول إننى نسيت تمامًا نواياها المُعلَّنة فيما يخص عشاء مؤسسة ميريديث، لكن كما قلت، كنت فى حالة من الشعور بالنصر وأعتقد أننى اخترت ألا أمعن التفكير فى هذه الأشياء. ربما فى أعماق أعماقى كنت أعتقد أن "تهديدها" لم يتجاوز كونه حيلة أو خدعة للحظة.

على أية حال، عندما نزلت من التاكسى خارج فندق كلاريدج مساء أمس، كانت أفكارى فى مكان آخر. كنت، لسبب واحد، أذكر نفسى بأن انتصاراتى الأخيرة كان لها أثر أكبر من مجرد جدارتى بما يصلنى من دعوات؛ وأنه بعيدًا عن السؤال حول حضورى لهذا التجمع، من المحتمل أن يكرهنى ضيوف آخرون على الإدلاء بمعلومات عميقة تخص قضايائى. كنت أذكر نفسى أيضًا بقرارى ألا أغادر الأحداث بطريقة مبتسرة، حتى لو كان هذا يعنى أن أتحمّل فترة انعزال من الوقوف وحيدًا فى المكان. عندما دخلت هذا اللوبي الكبير، لم أكن مستعدًا لرؤية ساره هيمنجس تنتظر هناك مبتسمة.

كانت طريقة لبسها مثيرة إلى حدٍ ما فكانت ترتدى فستاناً من الحرير الأسود ومجوهرات متحفظة لكنها أنيقة. كان سلوكها وهي تتقدم نحوي في غاية الثقة، لدرجة أنها وجدت وقتاً لتلقى بابتسامة لاثنين كانا يمران بنا.

"آه، ميس هيمنجس"، قلت، بينما كنت أحاول بسرعة استعادة كل ما حدث بيننا في ذلك اليوم في ستادلي جرانج. في تلك اللحظة، لابد أن أعترف، بدا لي ممكناً تماماً أن تكون مُحِقة في توقعها أن أعرض ذراعي لأقودها للداخل. لا شك أنها أحست بترددى وبدا أنها قد صارت أكثر ثقةً.

"عزيزى كريستوفر"، قالت، "أنت تبدو غاية في الأناقة والحيوية. أنا أقهر! أوه، ولم توائى الفرصة لتهنئتك. كان ذلك مروعاً، ما فعلته لأجل عائلة إمري. منتهى الذكاء والمهارة منك كالعادة."

"شكراً لك. لقد كانت قضية بالغة التعقيد."

والآن كانت قد أخذت ذراعي ولو أنها كانت قد تحركت صوب الخادم الذى يوجه ضيوف العشاء إلى السلم، أنا واثق أننى لم أكن لأملك القوة لفعل شيء سوى دعوتها. لكن هنا، الآن أرى، ارتكبت خطأً. ربما كانت تود أن تستمتع.باللحظة؛ ربما خانتها جرأتها للحظة واحدة. على أية حال، فهي لم تتقدم خطوة واحدة لصعود السلم، لكنها بدلاً من هذا كانت تحقق في الضيوف الآخرين الذين كانوا يملأون اللوبي، وهي تقول:

"السير سيسيل لم يصل بعد. أتمنى فعلاً أن تواتبنى فرصة
التحدث إليه. مناسب جداً أن يكون هو المُكرّم هذا العام، أليس كذلك؟"
"هذا صحيح."

"تعرف، يا كريستوفر، لا أظن أنه لن تمر سنوات طوال قبل أن
نتجمع هنا لتكريمك."

ضحكت. "لا أظن..."

"لا، لا. أنا أشعر بالثقة في هذا. وهو كذلك، ربما ينبغي أن تمنح
هذا بضع سنوات أكثر. لكن هذا اليوم سيأتي، سترى."

"قولك هذا كرم منك، يا ميس هيمنجس."

ظلت متعلقةً بذراعى ونحن نقف هناك نتجاذب أطراف الحديث.
كثيراً ما كان يمر بنا شخص ما ويبتسم أو يلقى بالتحية على أو
عليها. ولا بد أن أقول، وجدت أنني كنت إلى حد ما أستمع بانطباع
كل هؤلاء الناس - كثيرون منهم شخصيات معروفة جداً - وهم
يرون ذراعى في ذراع ساره هيمنجس. تخيلت أنني أرى في عيونهم،
حتى أثناء تحيتهم لنا، فكرة: "أوه، والآن قد أوقعته في شركها، أليس
كذلك؟ حسناً، هذا طبيعي جداً." بعيداً عن حملي على الشعور بالحمق
أو بطريقة ما بالإذلال، بطريقة ما ملأنتى هذه الفكرة بالخلاء. ثم
فجأة - لست واثقاً من سبب هذا - وبدون أى إنذار على الإطلاق
بدأت أشعر بعميق السخط عليها. أنا واثق أنه لم يكن هناك تغير
لموس في سلوكي في تلك اللحظة ولبضع دقائق أخرى استأنفنا
دردشتنا بصورة ودودة، نوميّ لتحية المارة بين الحين والآخر. لكن

عندما حررت ذراعى من ذراعها واستدّرت إليها، فعلت هذا بعزمٍ قولاذى.

"حسنًا، يا ميس هيمنجس، كان رائعًا جدًا أن أراك ثانيةً. لكن الآن ينبغي أن أغادر وأصعد لحضور هذه المناسبة."

ألقيت إليها بانحناءة خفيفة وبدأت أتحرك بعيدًا. بدا أن هذا قد فاجأها، ولو أنها كانت قد أعدت استراتيجية ما لفشلى فى التعاون معها، لكانت فى تلك اللحظة غير قادرة على التعامل بها. فقط عندما ابتعدت عدة خطوات عنها، وانضمت حقيقةً بخطوتى إلى زوجين عجوزين ألقيا على التحية، أتت مندفعةً.

"كريستوفر!" قالت بهمسٍ مسعور. "لن تجرؤ! لقد وعدتتى!"

"أتمنى لك ليلة جميلة، يا ميس هيمنجس."

استدّرت بعيدًا عنها - وأيضًا عن الزوجين العجوزين اللذين كانا فى صحبتى بصورة عارضة، وكانا يبذلان قصارى جهدهما كى لا يسمعان شيئًا - وبدأت أشق طريقى أعلى السلم الضخم.

عند وصولى إلى الطابق الأعلى، وُجِئت إلى غرفة انتظار مشرقة بأنوارها. وهناك انضمت فى حينى لصف من الضيوف يقفون بمحاذاة مكتب يقف خلفه رجل فى زى رسمى بوجه متجمد، كان يراجع أسماء الناس فى دفتر. عندما أتى دورى، سُرِرت وأنا أرى ومضة إثارة ترف على وجه الرجل المتجمد وهو يُعلّم على

اسمى. وقعت فى دفتر الزائرين، ثم تحركت صوب مدخل باب يقود إلى قاعة كبيرة، داخلها، رأيت، حشدا كبيرا من الضيوف. عندما عبرت عتبة الباب واستغرقنى الصخب، حيانى رجلٌ فارغ الطول له لحية قاتمة وكثيفة وصافحنى. ظننت أنه أحد المضيفين، لكننى فشلت فى استيعاب كثير مما قاله لى لأننى، بصراحة، كنت فى تلك اللحظة أجد من الصعوبة التفكير فى أى شىء سوى ما قد حدث تَوَّأ فى اللوبى. انتابنى إحساس فضولى أجوف، وكان على أن أذكر نفسى أننى لم أوقع ميس هيمينجس بأى شكل فى شرك؛ وأن أى شعور بالإذلال قد ألمَّ بها كان، وبصورة مطلقة، من صنيع يدها.

لكن عندما غادرت الرجل الملتحي ودلفت أكثر إلى داخل الغرفة، ظلت ساره هيمينجس مهيمنة على أفكارى. كنت بشكل مبهم واعياً باقتراب نادل منى يحمل صينية عليها مُشهيّات؛ وبالتفات العديد من الناس لتحيتى. فى لحظة ما كنت مستغرقاً فى حوار مع مجموعة من ثلاثة أو أربعة رجال - اكتشفت أنهم جميعاً من العلماء، وبدأ أنهم جميعاً يعرفون من أنا. ثم عندما ظلت فى القاعة لمدة تقارب ربع الساعة، أحسست بتغير طفيف فى الجو المحيط، بالنظر حولى، أدركت من النظرات والهمسات فى كل مكان حالة من الهياج والفوضى تحدث بالقرب من مدخل الباب الذى دخلنا عبره.

لم ألبث أن لاحظت هذا حتى انتابنى وطفى على إحساس بهاجس خطير مُهلك، ردة فعلى الأولى كانت الهروب إلى عمق الغرفة. لكن كان الأمر وكأن هناك قوة غامضة كانت تجذبني للخلف إلى مدخل الباب، وعلى الفور وجدت نفسى مرة ثانية إلى جوار

الرجل المُلْتَحَى - الذى كان فى تلك اللحظة يقف وظهره للاستقبال، يشاهد بتعبيرات منزعة الدراما التى تُعْرَضُ فى غرفة الانتظار.

عندما أمعنت النظر عَبْرَهُ، تيقنت أن ميس هيمنجس، بالفعل، كانت فى قلب هذه الجلبة. لقد أوقفت عملية توقيع الضيوف بأسمائهم فى دفتر الاستقبال. لم تكن تصرخ تحديداً، لكنها بدت غير آبهة تماماً بمن يهتم بالاستماع إليها. شاهدتها تهز رجلاً من موظفى الفندق كبار السن؛ ثم تميل فوق المكتب لكى تحلق بكل تركيز فى الرجل متجمد الوجه الذى كان لم يزل جالساً هناك كما كان من قبل، قالت بصوت يوشك على النشيج:

"لكنك ببساطة لا تعرف شيئاً! ببساطة لا بد أن أدخل، ألا تفهم؟ إن لدى الكثير من الأصدقاء بالداخل، إننى أنتمى لمن بالداخل، هذا حقيقى! أوه، كن متعقلاً!"

"أنا آسف فعلاً، يا ميس..." بدأ الرجل متجمد الوجه. لكن ساره هيمنجس، التى كان شعرها قد انهار متراكماً على جانب واحد من وجهها، لم تعطه الفرصة حتى ينتهى.

"إنه أسخف مزيج على أية حال، ألا تفهم؟ كله هكذا، أسخف مزيج قديم! وكله بسبب كونك بهيمى وبغيض بإفراط، لا أستطيع أن أصدق! بالفعل لا يمكننى أن أصدق..."

جميعنا ونحن نشاهد هذا المشهد بدا أننا للحظة قد توحدنا فى حالة من الذهول البليد. ثم استعاد الرجل المُلْتَحَى سلامته العقلية ودخل إلى غرفة الانتظار بطريقة سلطوية.

"ماذا حدث؟" قال بهدوء لطيف. "عزيزتى السيدة الشابة، هل حدث أى خطأ؟ هناك، سنصلحه، أنا واثق. أنا فى خدمتك." ثم جفل متسائلاً: "لماذا، هذه ميس هيمنجس، أليس كذلك؟"

"بالطبع هى! ألا ترى؟ هذا الرجل كان فى غاية الفظاظة معى..."

"لكن يا ميس هيمنجس، يا عزيزتى السيدة الشابة، لست بحاجة لإزعاج نفسك بهذا الشكل. تعالى، لنذهب إلى هناك للحظة..."

"لا! لا! لن تبعدنى! لن آخذها! قلت لك لا، لا، لا، لا! حتماً أن أدخل! لقد حلمت بهذه الليلة كثيراً..."

"بالتأكيد، بالإمكان عمل شىء للسيدة الشابة،" قال صوت رجل من بين مشاهدى ما يحدث. "لماذا لا يتعاملون بطريقة لطيفة؟ مادامت أنها تحمات مشقة المجيء، فلماذا لا يسمحون لها بالدخول؟"

تسبب هذا فى همسات موافقة عامة، رغم أن بعض الوجوه، كما لاحظت أيضاً، ظهرت عليها علامات الاستياء. تردد الرجل الملتحى ثم ظهر وقد قرر أن الأولوية تقتضى وضع حد لهذا المشهد.

"حسناً ربما فى هذه الحالة تحديداً..." ثم استدار إلى الرجل متجمد الوجه الواقف خلف المكتب، واستأنف كلامه: "أنا واثق من أنه بالإمكان إيجاد طريقة لتسوية مشكلة ميس هيمنجس، ألا تظن هذا يا مستر إدوارد؟"

كان يمكننى البقاء فى مكانى لفترة أطول، لكن خلال هذا النقاش سيطر على شعور بالخوف من احتمالية أن تلمحنى ميس هيمنجس فى

أى لحظة وتزوج بى فى هذا المشهد غير اللائق باتهام. حقيقةً، بمجرد أن بدأت فى التراجع، حدثت مباشرة فى اتجاهى. لكنها لم تفعل شيئاً، وفى اللحظة التالية عادت بعينيها الساخطين إلى الرجل الملتحى. انتهزت الفرصة وأسرعت مبتعداً.

خلال ثلث الساعة التالية أو أكثر، حَجَمْتُ حركتى بحيث أظل فى منطقة المرقص التى تمثل أبعد نقطة عن مدخل الباب. عددٌ مثير للدهشة من الحضور كانوا يشعرون برهبةٍ غير مبررة من المناسبة، بصورة ضخمة لدرجة أن معظم الحوارات - التى استطعت أن أسمعها تدور حولى وأيضاً التى اشتركت فيها - انطوت فى معظم الأحيان تقريباً على مجاملات متبادلة. عندما استهلكت كل المجاملات، ارتد الناس إلى مديح ضيف الشرف. فى لحظةٍ ما، بعد أن عدّ أحد هذه الأحاديث بشكل تام منجزات سير سيسيل ميدهورست، قلت للرجل كبير السن الذى فرغ لتوه من هذا الحديث:

"أود أن أستفسر إذا ما كان سير سيسيل قد وصل بعد؟"
أشار رفيقى بالكأس الذى كان فى يده، ورأيت على مسافة صغيرة بعرض القاعة كياناً فارح الطول لرجل الدولة العظيم يتنازل محاوراً سيدتين فى منتصف العمر. ثم رأيت ساره هيمنجس، بينما كنت أنظر إليه، تظهر بين الناس، وتتجه مباشرة صوبه.

لم يكن هناك أى أثر للمخلوق المثير للشفقة الذى كان فى غرفة الانتظار. بدت متأقّة وفى منتهى الثقة. وبينما كنت أترقب المشهد، اتجهت مباشرة إلى سير سيسيل دون أى ترددٍ يُذكر ووضعت يدها على ذراعه.

بدأ الرجل كبير السن يقدمنى إلى شخصٍ ما، ولذا اضطررت للالتفات. بعد ذلك عندما نظرت صوب سير سيسيل، رأيت أن السيدتين الشابتين كانتا تقفان على جانب، وتظهران بتخرج، وأن ميس هيمينجس قد نجحت فى جذب انتباهه تمامًا. حتى وأنا أشاهد، مال سير سيسيل برأسه للخلف وهو يقهقه على شيء كانت تقول.

فى الوقت المحدد دُعينا إلى قاعة طعام وأجلستنا حول مائدة شاسعة ممتدة تحت ثريات تتألق بالنور. ارتحت إذ وجدت أن ميس هيمينجس قد أجلسَت فى مكانٍ ما بعيدا عني، ولبرهة، استمتعت إلى حدٍ ما بالمناسبة. درشت بدورى مع السيدتين الجالستين على جانبي - كانتا، كل واحدة بطريقتها المختلفة، فانتتين للغاية - والطعام كان فخمًا بطريقة رائعة. لكن أثناء تناول الطعام، وجدت نفسى مرارًا وتكرارًا أميل للأمام لألمح ميس هيمينجس التى كانت على مبعدة بامتداد الطاولة، وبدأت مع هذا ثانية أستعيد فى رأسى الأسباب التى أهلتى للتصرف بهذه الطريقة التى تصرف بها.

ربما كان بسبب الاهتمامات التى لا أستطيع أن أذكر منها الآن أكثر مما يخص العشاء نفسه. فى لحظةٍ ما قرب النهاية كانت هناك خطب؛ شخصيات عديدة نهضت واقفة لتمطر سير سيسيل بالمديح لإسهاماته فى الشؤون العالمية، وبالتحديد، دوره فى إنشاء عصبة الأمم. ثم فى النهاية نهض سير سيسيل نفسه واقفًا.

كانت خطبته، حسبما أذكر، متفائلة وتتطوى على كثير من نكران الذات. كان من وجهة نظره أن الأدمية قد تعلمت من أخطائها، وأن البناء قد أخذ مكانه بصرامة ليضمن فى الوقت الحالى عدم

العودة مطلقاً للكارثة التي شهدتها كرتنا الأرضية من جراء الحرب العظمى. فالحرب، ببشاعتها المعروفة، لم تقدم أكثر من "نافذة غير ملائمة في نشوء الإنسان" عندما أصبح تقدمنا التقني متقدماً على قدراتنا التنظيمية منذ بضع سنوات. لقد أذهلنا أنفسنا بالتطور السريع في القدرة التسلحية الحديثة، لكننا الآن قد صنعنا فجوة جديدة. مع تذكيرنا بالمخاوف والفرع الذي ترك في حالة من الانفلات بيننا، انتشرت قوى الحضارة والشرعية. كانت خطبته تتضمن مثل هذه السطور، وصفقنا جميعاً لها بحرارة من قلوبنا.

بعد العشاء، لم تغادرنا السيدات، لكن طُلب منا جميعاً أن ندخل إلى المرقص. وهناك وجدنا عزفاً رباعياً وثرياً، وخدمًا يتحركون في كل مكان وهم يحملون صواني الشراب، والسيجار والقهوة. بدأ الضيوف على الفور ينتشرون، وكان جو المكان أكثر هدوءاً منه قبل العشاء. عند نقطة ما، صادف أن جاءت عيني في عين ميس هيمينجس عبر الغرفة، واندعشت إذ رأيتهما تبتسم لي. فكرت الأولى فسرت هذه الابتسامة على أنها ابتسامة خصم يدبر للانتقام المروع؛ لكنني واصلت ملاحظتها خلال الأمسية، وقررت أنني كنت مخطئاً في هذا. أدركت أن ساره هيمينجس كانت في تمام سعادتها. بعد شهر، ربما عام من التخطيط، نجحت في التواجد في هذا المكان هذه المرة، وعندما حققت هدفها، سلمت - تماماً مثل امرأة وضعت جنينها، هكذا قالوا لنا - لنسيان كل ذكريات الألم التي تحملتها طوال الطريق. شاهدتها تنتقل من جماعة إلى أخرى، وتتجاذب أطراف الحديث بمنتهى الود. خطر ببالي أن أذهب إليها وأعقد معها حالة

سلام وهي في تواصل مع حالتها المزاجية تلك، لكن إمكانية أن تتحول بغتة وتخلق مشهدًا آخر جعلتني أظل على مسافة آمنة منها.

بعد نصف ساعة من هذا الجزء من السهرة قُدمتُ أخيرًا إلى سير سيسيل ميدهورست. لم أكن قد بذلت أي جهد خاص لمقابلته، لكنني أظن كنت سأشعر بقليل من خيبة الأمل لو كنت قد غادرت مسرح الأحداث دون أن أتبادل أي حوار مع رجل الدولة اللامع. كما حدث، فهو الذي اصطحب إليّ - بواسطة ليدي آدمز، التي كنت قد قابلتها منذ عدة أشهر أثناء إحدى التحقيقات. قبض سير سيسيل على يدي بحرارة، وهو يقول: "آه، صديقي الشاب! إذا أنت هنا!"

لبضع ثوانٍ، تركنا وحدنا معًا في منتصف القاعة. وفي كل مكان حولنا، في ذلك الوقت، حالة حية من المرح والصخب، وعندما تبادلنا المزاح المعتاد، اضطررنا لأن نميل على بعضنا البعض ونرفع أصواتنا. في لحظة ما، مسني برفق وقال:

"كل ذلك الذي قلته من قبل على العشاء. عن هذا العالم ليصبح أكثر أمنًا، أكثر تحضرًا. أنا أعتقد هذا، تعرف. على الأقل" - هنا أمسك يدي وألقاني بنظرة مضحكة - "على الأقل، أود أن أصدق هذا. أوه نعم، أحب بعمق أن أصدق هذا. لكن لا أعرف، يا صديقي الشاب. لا أعرف إذا ما كان بإمكاننا في النهاية أن نمسك الخيط. سنفعل كل ما في وسعنا. ننظم، نتباحث. سنأتي بأعظم الرجال من أعظم الأمم لنضع رؤوسنا معًا ونحاور. لكن سيكون هناك شر كامن في الأركان أمامنا دائمًا. أوه نعم! إنهم منشغلون، حتى في هذه

اللحظة، حتى أثناء كلامنا، منشغلون بالتآمر لوضع الحضارة فى مهب اللهب. وهم مَهَرَّة، أوه، مَهَرَّة بشكل جهنمى. الرجال الأفاضل والنساء الفضليات يستطيعون عمل ما يريدون، يكرسون حياتهم لوضعهم دائماً فى مازق وموقف حرج، لكن أخشى ألا يكون هذا كافياً. الأشرار أكثر مكرًا وخبثًا مقارنةً بمواطنك الطيب. سيغلقون الدوائر حوله، سيفسدونه، وسيقلبونه على رفاقه فى الآدمية. أرى هذا، أرى هذا الآن طوال الوقت وسيزداد الطين بلة. ولهذا السبب سنحتاج جميعًا للاعتماد بصورة أكبر من ذى قبل على أمثالك، يا صديقى الشاب. القليلون الذين يقفون بجانبنا فى كل خطوة بمهارتهم المعتادة نفسها. من سيستطيعون كشف ألعيبهم بسرعة، ويدمرون الفطريات قبل أن تمسك بزمام الأمور وتنتشر."

ربما كان فى حالة تجاوزت كونه ثملاً قليلاً؛ من الممكن أن تكون المناسبة قد استغرقت وهيمت عليه. على أية حال، فقد واصل هذه الحالة المزاجية لبعض الوقت، وهو يمسك بذراعى بحميمية وهو يتكلم. وربما كان هذا ببساطة لأن ذلك الرجل المعروف اللامع مسرف فى التعبير عن عواطفه - أو ربما كان هذا لأننى كنت أتحين الفرصة طيلة المساء لأوجه له سؤالاً بعينه كان يُلح على ذهنى - وعندما توقف أخيراً عن الكلام، قلت له:

"سير سيسيل، أظن أنك قد قضيت مؤخراً فترة فى شنغهاى."

"شنغهاى؟ بالتأكيد، يا صديقى. كنت أسافر وأعود. ما يحدث فى الصين على درجة كبيرة من الأهمية. تعرف، لم يعد بإمكاننا النظر بمحدودية إلى أوروبا فقط. لو أردنا أن نحتوى الفوضى التى تعيشها

أوروبا، فينبغي الآن أن تمتد نظرتنا بصورة أعمق إلى خارج الحدود.

"أنا أسأل، يا سيدى، لأننى ولدتُ فى شنغهاى."

"هكذا؟ حسناً، حسناً."

"كنت فقط أود أن أتساءل عما إذا كنت قد صادفت واحداً من أصدقائى القدامى أثناء وجودك هناك. بالطبع ليس هناك أى سبب منطقي لحدوث هذا. لكن اسمه ياماشيتا. أكيرا ياماشيتا."

"ياماشيتا؟ هم، يابانى. فهمت. يابانيون كثيرون يعيشون فى شنغهاى، بطبيعة الحال. إن لهم تأثيراً أكبر اليوم. قلت، ياماشيتا."

"أكيرا ياماشيتا."

"لا أستطيع القول بأننى صادفته. هل هو دبلوماسى أو شىء من هذا القبيل؟"

"حقاً، يا سيدى، لا أعرف. لقد كان أحد أصدقاء طفولتى."

"أوه، فهمت. فى تلك الحالة، هل تعرف بالتأكيد إذا ما كان لم يزل فى شنغهاى؟ ربما يكون صديقك قد رحل وعاد إلى اليابان."

"أوه لا. أنا متأكد من أنه لم يزل هناك. لقد كان أكيرا مغرمًا جدًا بـ شنغهاى. إضافةً إلى أنه كان قد عقد العزم على ألا يعود لليابان أبداً. لا، أنا متأكد من أنه لم يزل هناك وسيظل."

"حسنًا، لم يصادفني. كثيرًا ما قابلت ذلك الرجل الذي كان يُدعى سايتو. وعددًا قليلًا من الرفاق العسكريين. لكن لم أصادف أحدًا بهذا الاسم."

"حسنًا..." أطلقت ضحكة غطيت بها خيبة أملى. "دائمًا ما يكون هذا بعيد الاحتمال. لكنني كنت فقط أتساءل."

في هذه اللحظة تحديدًا، وكنزير لي بشكلٍ ما، أدركت أن ساره هيمينجس كانت تقف بجانبى.

"إذا أخيرًا قد وضعت رجل البوليس السرى العظيم فى موقف حرج، سير سيسيل"، قالت بابتهاج.

"حقيقةً، يا عزيزتى"، أجاب الجنتمان العجوز، وهو يبتسم بإشراق فى وجهها. "كنت فقط أقول له كيف أننا سوف نضطر للاعتماد عليه خلال السنوات القادمة."

ابتسمت ساره هيمينجس لى. "ينبغى أن أقول، سير سيسيل، دائمًا لم أجد أن مستر باتكس يمكن الاعتماد عليه كليةً. لكن ربما يكون أفضل شيء نفعله هو الاعتماد عليه."

قررت عند هذا الطرف المفصلى أنه يتحتم على أن أغادر بسرعة قدر المستطاع، قدمت تعذرى وتحركت بعيدًا، مُدْعِيًا أنني لمحت شخصًا ما عبّر الغرفة.

لم أثبت عيني على ميس هيمينجس مرةً أخرى إلا بعد فترة. حينئذٍ، كان عدد كبير من الضيوف قد بدأ في الانصراف وأصبح المرقص أقل ازدحامًا. إضافةً إلى أن الخدم كانوا قد فتحوا عددًا من الأبواب على البلكونات، لذلك بدأ نسيم ليلى منعش يهب في الغرفة. على الرغم من كل هذا، ظل المساء دافئًا، ويعوزه قليل من الهواء، اتجهت إلى واحدة من البلكونات. كنت على وشك أن أدلف إليها قبل أن أدرك أن ساره هيمينجس كانت تقف هناك فعلاً، ظهرها للغرفة، في يدها سيجارة، وتحقق للخارج على السماء الليلية. بدأت العودة للخلف، لكن حينئذٍ أخبرني شيء ما بأنها قد أدركت حضوري رغم أنها لم تتحرك. لذلك دلفت إلى داخل البلكونة وقلت:

"هكذا، يا ميس هيمينجس. لقد حضرت السهرة رغم كل شيء."

"لقد كانت من أروع السهرات"، قالت دون أن تلتفت. أطلقت تهيدة رضا، وسحبت نفسًا من سيجارتها، ثم ألقت إلى بابتسامة خاطفة عبر كتفها قبل أن تعود وتحقق ثانيةً في السماء الليلية. "إنها كما تخيلات بالضبط. كل هؤلاء الناس المدهشون. تهتم بالنظر بإمعان في كل مكان. أناس مدهشون. وسير سيسيل، يا له من رجل أثير، ألا تظن هذا؟ لقد كان حديثي مع إيرك ميتشيل عن معرضه رائعًا. سوف يدعوني إلى العرض الخاص الأسبوع القادم."

لم أرد على هذا بكلمة، ولبضع لحظات واصلنا الوقوف ببساطة هناك جنبًا إلى جنب وظهرينا إلى درايزون البلكونة. الغريب - ربما لوجود علاقة ما بالعزف الرباعي الوترى، الذي كانت موسيقاه تتسل

للخارج إلينا - أن الصمت لم يكن مُقْلَقًا كما يمكن أن يتوقع أى شخص. أخيرًا قالت:

"أظن أنك مندهشٌ منى."

"مندهشٌ؟"

"من قوة إرادتى. وتصميمى على الدخول الليلة."

"نعم، اندهشت." ثم قلت: "لماذا تفكرين بهذا الشكل، يا ميس هيمينجس؟ أن ينبغى أن تجدى من الإلزام الذهاب إلى رِفْقَةٍ كهذه، الليلة."

"إلزام؟ تعتقد أننى أنظر إلى هذا بعين الإلزام؟"

"أريد أن أقول هذا. وما شاهدته على الباب فى أول السهرة يميل إلى تدعيم وجهة النظر هذه."

ومن المثير للذهول إلى حدٍ ما أنها ردت بضحكة خفيفة، ثم ألقت إلى بابتسامة. "لكن لماذا لا ينبغى على أن أتعامل بهذا الشكل، يا كريستوفر؟ لماذا لا ينبغى على أن أرغب فى الانضمام لرفقة كهذه. أليس هذا ببساطة... سعادة قصوى؟"

عندما ظلت صامتًا، تلاشت ابتسامتها.

"أعتقد أنك تستهجننى إلى حدٍ ما"، قالت، بنبرة صوتٍ مختلفة.

"أنا فقط لاحظت..."

"وهو كذلك. أنت محقٌ جدًا. وجدت كل هذا، فى بداية السهرة، وجدته مُحيرًا، ولم تستحسنه. لكن هل فعل أى شىء آخر؟ لا

أود أن أنظر إلى الوراء على حياتي عندما أصبح طاعنة في الكبر وأرى أن هناك شيئاً فارغاً. أريد أن أرى شيئاً أستطيع أن أفخر به. فهمت، يا كريستوفر، أنا طموحة."

"أنا غير متأكد إذا ما كنت أفهمك. أنت واقعة تحت تأثير أنك ستعيشين حياة ذات قيمة لو أنك اندمجت بالمشاهير؟"

"أهكذا فعلاً تراني؟"

أشاحت بوجهها بعيداً، ربما أكون قد جرحتها في الصميم، وسحبت ثانية نفساً من سيجارتها. رأيتها تنظر تحتها إلى الشارع الخالي أسفلها، وعلى البنايات ذات الواجهات المزخرفة بالجص الأبيض. ثم قالت في هدوء:

"أفهم أن الأمور ربما تبدو هكذا. على الأقل بالنسبة لشخص يرمقني بعينٍ ساخرة مستهزئة."

"أتمنى ألا أنظر إليك بهذه الطريقة. سيزعجنى أن أحسبني قد فعلت ذلك."

"إذاً لابد أن تحاول أن تكون أكثر تفهماً." استدارت لي بتعبير ذي معنى، قبل أن تشيح بوجهها بعيداً مرة ثانية. "لو أن والديّ على قيد الحياة اليوم"، قالت، "لأخبراني أنه قد حان وقت زواجي. وربما يكون الأمر هكذا. لكنني لن أفعل ما رأيت بنات كثيرات يفعلنه. لن أضيع كل حبي، كل طاقتي، كل أفكاري - هكذا بتواضع - على رجلٍ عديم الفائدة يكرس نفسه وحياته للعبة الجولف أو بيع الأربطة في المدينة. عندما أتزوج، سيكون هذا من شخص قادر فعلاً على العطاء. أعني

للإنسانية، لأجل عالم أفضل. هل هذا طموح ردىء؟ أنا لا أتى إلى مثل هذه الأماكن بحثاً عن مشاهير الرجال، يا كريستوفر. أنا أتى بحثاً عن المتميزين. ماذا يعنينى فى انبهار ضئيل هنا أو هناك؟ - لوحت باتجاه القاعة - "لكننى لن أقبل أن يكون مصيرى هو ضياع حياتى على رجلٍ ما لطيف ودمث ولا قيمة أخلاقية له."

"عندما وضعت هذا التفسير،" قلت، "يمكننى أن أرى إلى أى مدى ترين نفسك، حسناً، تقريباً متعصبة."

"بطريقةٍ ما، يا كريستوفر، أنا أفعل ذلك. أوه، ما هذه المقطوعة التى يعزفونها الآن؟ إنها مقطوعة أعرفها. هل هذه لموتسارت؟" "أعتقد أنها لهايدن."

"أوه نعم، أنت مُحِق. نعم، هايدن." لعدة ثوانٍ، ظلت تنتظر للسماء وبدا أنها منصتة.

"ميس هيمنجس،" قلت، أخيراً، "أنا لست فخوراً بالطريقة التى تصرفت بها معك فى أول السهرة. فى الواقع، أنا الآن فى غاية الندم والأسف على هذا. أتمنى أن تغفرى لى."

استأنفت النظر للخارج إلى الليل، وهى تُمسِدُ خدها بيدها التى تحمل السيجارة. "هذا منتهى اللطف منك، يا كريستوفر،" قالت بهدوء. "لكن يتحتم على أن أبادر بالاعتذار. لقد كنت فقط أحاول استغلالك. بالطبع حاولت. أنا متأكدة أنى أظهرت نفسى بمظهرٍ كريه فى بداية السهرة، لكن لا يهمنى ذلك. ما يهمنى، رغم ذلك، أننى عاملتك بطريقة رديئة. ربما لا تصدقنى، لكن هذه هى الحقيقة."

ضحكت. "حسنًا، إذا، فليحاول كلُّ منا أن يغفر للآخر."

"نعم، لنفعل هذا." استدارت إلى وأشرق وجهها بغتةً بابتسامة كانت طفولية في مرحها تقريبًا. ثم خيم الإرهاق والسأم عليها مرةً ثانية واستدارت ثانية نحو الليل. "غالبًا ما أعامل الناس برداءة،" قالت. "أعتقد أن هذا يتوافق مع كونى طموحة. وليس لدى كثير من وقت الفراغ."

"هل فقدت والديك منذ وقتٍ طويل مضى؟" سألت.

"يبدو الأمر هكذا أبدا. لكن بطريقةٍ أخرى، فهما معى دائماً."

"حسنًا، مع ذلك فأنا سعيد لأنك استمتعت بالسهرة. فقط لا أستطيع سوى أن أقول ثانيةً أنا آسف على ما فعلته أنا الليلة."

"أوه انظر، الجميع يغادرون المكان. يا للخسارة! وأنا كنت أريد أن أتحدث معك فى كل شيء. عن صديقك، مثلاً."

"صديقى؟"

"الذى كنت تسأل عنه سير سيسيل. صديقك الذى يعيش فى شنغهاى."

"أكبر؟ لقد كان فقط أحد أصدقاء طفولتى."

"لكن بإمكانى أن أقول إنه كان من الأهمية بمكان بالنسبة لك."

"اعتدلت ونظرت خلفنا. "أنت على حق. الجميع يغادرون المكان."

"إذا أظن أنه ينبغي على أن أغادر أيضًا،" قالت. "وإلا فسيكون لانصرافى الوقع نفسه الذى سببه حضورى."

لكنها لم تبادر بحركة للانصراف وفي النهاية كان أنا من بادر بالاستئذان والعودة إلى داخل القاعة. في لحظةٍ ما، عندما نظرت إلى الوراء ظننتها وقفت امرأة وحيدة هناك في البلكونة، تنفث دخان سيجارتها في هواء الليل، والغرفة خلفها كانت تخلو سريعاً من الضيوف. حتى إنني فكرت في العودة كي أعرض عليها أن أرافقها للخارج. لكن ذكرها لأكبراً قد أنذرنى بخفةٍ، وقررت أنني قد فعلت ما يفيض عما تحتمله ليلة واحدة لأجل تحسين العلاقات مع ساره هيمنجس.

الكتاب الثاني

لندن، ١٥ مايو ١٩٣١

الفصل الرابع

فى مؤخرة حديقتنا فى شنغهاى، كانت هناك رابية عشبية على قمّتها شجرة قَيْقَبٍ وحيدة باسقة. منذ كنتُ أنا وأكيرا فى حوالى السادسة من العمر، كنا نستمع باللعب على تلك الرابية وحولها، وكلما صرت الآن أفكر فى رفيق صباى، أميل لِتَذَكُّرِنا ونحن نجرى أعلى منحدراتها وأسفلها، أحياناً كنا نتقافز تماماً عند أشد جوانبها انحداراً.

من وقتٍ لآخر، عندما يكون التعب قد استنفذنا تماماً، كنا نجلس فى حالة من اللهاث أعلى الرابية وظهورنا تستند إلى جذع شجرة القَيْقَب. من هذه الزاوية صافية الرؤية كنا نطل على حديقتنا والبيت الكبير الذى يبرز سامقاً فى نهايتها. لو أغلقت عيني للحظة، أستطيع استعادة المشهد بمنتهى القوة والحيوية: المَرَجَّة "الإنجليزية" التى تحظى بعناية فائقة، الظلال التى تسقط فى الظهيرة بسبب صف من شجر الدردار كان يفصل بين حديقتنا وحديقة أكيرا؛ والبيت نفسه، صرح ضخم بأجنحة عديدة وشرفات مُعرَّشة. أشك أن تكون ذكرى البيت هذه إلى حدٍ كبير رؤية طفل، وأنه فى الحقيقة لم يكن شيئاً ضخماً بهذه الدرجة. بالتأكيد، فحتى فى ذلك الوقت، كنت فى تمام وعيى أنه قلما يضاهى فخامة البيوت القائمة فى ناحية بلبلينج ويل روود. لكن ذلك البيت بالتأكيد كان كافياً جداً لأسرة تتكون ببساطة من والدى، وأنا وماى لى وخدمنا.

لقد كان من ممتلكات شركة Butterfield and Swire، بما يعنى أنه كان محرماً على المساس بكثير من التحف واللوحات المحيطة بالمكان. ويعنى أيضاً أننا كنا بين الحين والآخر نستضيف "ضيفاً" - أحد الموظفين الوافدين حديثاً فى شنغهاى لم يكن بعد قد ألف المكان. لا أعرف إذا ما كان والدى قد اعترضاً على مثل هذا الترتيب. لم أكن أمانع على الإطلاق، مادام أن الضيف عادةً كان شاباً يحمل معه جو الأزقة والمروج الإنجليزية التى كنت أعرف بها من الرياح فى الصفصاف The Wind in the Willows، أو الشوارع المضطربة فى روايات كانون دويل البوليسية. هؤلاء الشباب الإنجليز، بما كان لديهم من رغبة فى ترك انطباع جيد بلا شك، كانوا يستغرقون فى الإجابة عن استفساراتى المطوّلة وأحياناً طلباتى غير المنطقية. معظمهم، كما خطر ببالي، كانوا أصغر منى سنّاً الآن، ومحتمل أنهم قد كانوا فى البحر بعيداً جداً عن أوطانهم. لكنهم كانوا بالنسبة لى وقتئذٍ نماذج أفحصها عن قرب وأحاكيها.

لكن لأرجع إلى آكيرا: هناك لحظة بعينها من تلك الظهيرة قد استعادها عقلى، بعد أن كنا نجرى بهياج أعلى الرابية الصغيرة وأسفلها لتمثيل أحد أعمالنا الدرامية المطوّلة. كنا نجلس للحظة إلى جوار شجرة القيقب لنستعيد أنفاسنا اللاهثة، وكنت أهدق عبر المرجة باتجاه المنزل، فى انتظار توقف صدرى عن اللهاث، عندما قال آكيرا من خلفى:

"أحترس، أيها الفتى العجوز old chip. أم أربعة وأربعين. إلى جوار قدمك."

لقد سمعت بوضوح يقول "الفتى العجوز old chip"، لكننى وقتئذٍ لم أفكر فى أى شىء بخصوصها. لكن عندما استخدمت هذه العبارة ذات مرة، بدا أن آكيرا كان فى غاية السعادة بها، وخلال الدقائق الكثيرة التالية، عندما عدنا لاستئناف لعبنا، بدأ ينادينى كثيراً: "هذا الطريق، أيها الفتى العجوز old chip!" "أسرع، أيها الفتى العجوز old chip!"

"على أية حال، لا تتطق هكذا old chip"، قلت له أخيراً، أثناء واحدة من مشاجراتنا على كيفية مواصلة اللعب. "لا بد أن تتطق old chap."

وأكيرا، كما كنت أعرف، اعترض بحماس وقوة. "مُطَلَّقا. مُطَلَّقا. ميسز براون. جعلتني أقولها مراراً وتكراراً. Old chip. Old chip. النطق الصحيح، وكل شىء. إنها تقول old chip. إنها معلمة!"

كانت محاولة إقناعه عديمة الجدوى؛ فمنذ بداية تعلمه للإنجليزية، وهو فى غاية الفخر بموقعه بين أفراد أسرته كمتحدث خبير للإنجليزية. ومع ذلك لم أسلم بهذا الأمر، وفى النهاية بلغ الشجار هذه الدرجة، ابتعد آكيرا متشامخاً فى غضب، وتركنا لعبتنا، عبر "بابنا السرى" - فجوة فى الوشيع^(*) الذى يفصل الحديقتين.

فى المناسبات القليلات التالية التى لعبنا فيها معاً، لم ينادنى بـ "الفتى العجوز Old chip"، ولم يلمح بأى شكل إلى الشجار الذى حدث على الرابية. كنت قد نسيت الأمر تماماً عندما فجأة تفجر الأمر ثانية

(*) الوشيع: سياج من شجيرات يفصل بين بنائيتين أو حديقتين. (المترجم)

ذات صباح بعد بضعة أسابيع بينما كنا نمشي عائدين إلى بابلينج ويل
روود مروراً بالبيوت الفخمة والمروج الجميلة. لا أذكر بالضبط ما
الذي قد قلته له. على أية حال، فقد رد على قائلاً:
"هذا منتهى العطف منك أيها الفتى العجوز Old chap."

أذكر أنني قاومت غواية داخلتي فلم أوضح له أنه قد أذعن
لوجهة نظري. لأنني وقتئذ كنت أدرك ملياً وعيه التام بأنه لم يكن
يقول "Old chap" بطريقة تتطوى على اعتراف مهذب بأنه كان
مخطئاً فيما سبق؛ لكن بطريقة ما غريبة كان يفهمها كلانا، كان يلح
إلى أنه هو الذي كان دائماً يدعى أن نطقها الصحيح "Old chap"؛
وأنه الآن كان يعن عن مجرد تأكيد لوجهة نظره، وأن افتقاري
للاعتراض تؤكد ببساطة على انتصاره النهائي. في الحقيقة، طيلة ما
تبقى من فترة الظهيرة، ظل يناديني بـ "Old chap" بنبرة تنم عن
اعتداد بالنفس، وكأنه يقول: "لذلك أنت لم تعد مضطراً للسخرية. أنا
سعيد لأنك تظهر درجة أكبر من الحساسية."

لم يكن هذا النوع من السلوك غريباً على آكيرا، ورغم أنني دائماً
كنت أراه مثيراً للغضب، لسبب ما نادراً ما كنت أجهد نفسي
بالاعتراض. في الواقع - واليوم أجد من الصعب تفسير هذا -
شعرت بأنني في حاجة مؤكدة لأن يكون لآكيرا وحده الحق في مثل
هذه النزوات، ولو كنت، مثلاً، بالغاً وحاولت الفصل في الخلاف حول
"Old chap"، كنت فعلياً سأنحاز لآكيرا.

لا أريد أن أقصد بهذا سطوة آكيرا على، أو أن صداقتنا لم تكن
علاقة متوازنة بشتى الصور. ففي ألعابنا معاً كان لي القدر نفسه من

المبادرة، ورغم كل شيء، كان لى السبق فى اتخاذ أكثر القرارات الحيوية والحرية. والحقيقة هى أننى حسبته الأكثر تفوقاً عليه من الناحية العقلية، وبدرجة ما، من المحتمل أن يكون أكبراً قد سلم بهذا. على الجانب الآخر، كانت هناك أشياء عديدة منحت صديقى اليابانى بعض السلطة فى عيني. على سبيل المثال، طريقته فى تشبيك ذراعيه غالباً حال قيامى بممارسات مزججة له، أو - أثناء تمثيل إحدى مسرحياتنا - إذا ما تبنيّت موقفاً مقاوماً لانعطافة فى حبكة درامية تحمس هو لها. بعمومية أكثر، على الرغم من أنه كان يكبرنى فعلياً بشهر واحد فقط، فإننى كنت أحمل شعوراً يقينياً بأنه أكثر منى خبرة على المستوى الحياتى. كان يبدو فعلياً أنه يعرف الكثير عن أشياء لم أعرفها أنا. فوق هذا كله، ادّعاءاته بأنه قام بمغامرات عديدة فيما وراء حدود المستعمرة.

واليوم إذ أعود بذاكرتى للوراء، يدهشنى قليلاً أن أفكر كيف تمكن طفلان صغيران فى مثل عمرينا أن يروحا ويجيئا هكذا دونما قيود؛ وإلى هذه الدرجة. لكن بالطبع، كان هذا كله يحدث فى إطار الأمن النسبى للمستعمرة الدولية. ذات مرة مُنعت من دخول المناطق الصينية للمدينة، قدر ما أتذكر، والذى أكبراً لم يكونا أقل صرامة فى التعامل مع الأمر. فقد أخبرونا، أن كافة أنواع الأمراض البشعة تستوطن هذه الأماكن، وكذا الرجال القذرون المقرزون. حدث أننى كنت على مقربة من الخروج من المستعمرة عندما حملتنى أنا وأمى عربية وأخذت طريقاً غير متوقعة تمر بذلك الجزء من نهر سوتشو المتاخم لضاحية تشابى؛ رأيت القمم الخفيضة للأسطح المهملة عبر

القناة، وحبست أنفاسي أطول فترة ممكنة خشية أن يأتي الطاعون محمولاً على أجنحة الهواء عبر شريط الماء الضيق. لا عجب إذن أن ادعاء صديقي بأنه قد قام ببعض الغزوات السرية في هذه المناطق قد ترك أثراً ما على.

أذكر استفساراتي المستمرة لأكيرا عن هذه المغامرات. أخبرني أن حقيقة ما يخص الضواحي الصينية أسوأ بكثير حتى من الشائعات. ليس هناك بنايات حقيقية، فقط أكواخ فوق أخرى يتم تشييدها بالقرب من بعضها البعض. رغم أن جميعها يشبه، إلى حد كبير، السوق في طريق بون، باستثناء تلك العائلات الكاملة التي تعيش في كل "كشك". بالإضافة إلى أن هناك، جنث متكومة في كل مكان، والذباب يطن فوقها، وليس هناك من يفكر فيها. في إحدى المناسبات، كان أكيرا يتجول في إحدى الحارات المزدهمة ورأى رجلاً - أحد سادة الحرب الأقوياء، كما اعتقد - يُنقل على مقعد متحرك، يصحبه عملاق يحمل سيفاً. كان أحد سادة الحرب هذا يشير إلى أي شخص يريد، فيتحرك هذا العملاق ويقطع رأسه أو رأسها. بطبيعة الحال كان الناس يحاولون الاختباء منه قدر ما يستطيعون. رغم ذلك، كان أكيرا يقف هناك لا مبال، وهو يرمق سيد الحرب هذا بتحد. ظل الأخير يفكر للحظة إذا ما كان سيأمر بقطع رأس أكيرا أم لا، لكنه، وقد بانث عليه علامات الدهشة بوضوح من شجاعة صديقي، ضحك في النهاية وانحنى ليربت على رأسه. ثم استمر موكب سيد الحرب في طريقه، مُخلفاً الكثير من الرؤوس المقطوعة في طريقه.

لا أذكر أنني حاولت أبدًا أن أجادل آكيرا في هذه المزاعم. ذات مرة أخبرت أمي عَرَضًا بشيء من مغامرات صديقي فيما وراء المستعمرة، وأذكر أنها ابتسمت وأعربت عن شيء يشي بشكوكها في هذا الأمر. انتابتنى نوبة غضب منها، منذئذٍ أعتقد أنني تحاشيت تمامًا مصارحتها بأي شيء حميم له علاقة بأكيرا.

كانت أمي، بالمصادفة، شخصٌ ينظر إليه آكيرا برهبة خاصة. فمثلاً، لو كنتُ لم أزل مترددًا في الاعتراف له بشيء ما، كنتُ دائمًا ألجأ إلى إعلان أنه سيضطر للاستعانة بأمي للإجابة عليه؛ رغم هزيمته لي في مباراة لمصارعة الساعدين. بالطبع، لم يكن هذا بالشيء الذي أحب أن أفعله عن طيب خاطر؛ فبدرجةٍ ما كان يجرح كبريائي أن أضطر إلى مناشدة سلطة أمي في مثل هذه السن. لكن في هذه المناسبات كنتُ أضطر لهذا، كنتُ دائمًا أشعر بالذهول حيال التحول الذي يطرأ عليه ١- كيف يتحول شريرٌ قاس له قبضة مهيمنة في لحظة إلى طفل مصاب بالهلع. لم أتأكد أبدًا كيف كان لأمي مثل هذا التأثير على آكيرا؛ فعلى الرغم من أنه كان دائمًا في غاية التهذب، فإنه كان بشكل عام لا يكثر بتهديدات الكبار. إضافةً إلى أنني لا أذكر أن أمي تحدثت ذات مرة معه بطريقة ما غير ودودة أو لطيفة. أذكر أنني في تلك الفترة تأملت هذا السؤال كثيرًا، وخرجت بالعديد من الاحتمالات.

لبرهة، تصورت أن آكيرا كان يحترم أمي بهذا الشكل لأنها "جميلة". لقد قبلت مسألة جمال أمي بشيء من الحياء، كواقع في مراحل نضجي. دائمًا ما كان يُقال عنها، وأظن أنني اعتبرت هذا

النعى "جميلة" على أنه سمة ألصقت نفسها بأمرى ببساطة، ولم تكن ذات دلالة تتجاوز كونها "طويلة" أو "صغيرة" أو "شابة". فى الوقت نفسه، لم أكن مدركاً لتأثير "جمالها" على الآخرين. بالطبع، فى مثل تلك السن، لم يكن لدى أى إحساس بالأثر العميق للفتنة الأنثوية. لكن مع مرافقتى لها من مكانٍ لآخر كما كنت أفعل، تعاملت مع الأمر على أنه مسلم به، على سبيل المثال، نظرات الإعجاب من الغرباء أثناء نزهاتنا فى الحدائق العامة، أو المعاملة المتميزة من كل نادل فى المقهى الإيطالى على طريق نانكينج حيث كنا نذهب لتناول الكيك فى صباحات السبت. الآن كلما أمعنت النظر فى صورها التى أحتفظ بها - كنت فى السابعة تقريباً، فى الألبوم الذى رافقتى إلى هنا من شنغهاى - تذهلنى بجمالها وهيئتها القديمة التى تنتمى للتقاليد الفيكتورية. اليوم ربما يُنظر إليها على أنها سيدة "أنيقة"؛ يقينا، ليست "جميلة". لا أستطيع أن أتخيل، مثلاً، أنها كانت تمتلك كل ذخيرة الغنج والدلال المتضمنة لفتاة اللامبالاة وإيماءات الرأس التى نتوقعها من شاباتنا هذه الأيام. فى الصور - جميعها كانت قد التقطت قبل مولدى، أربعة فى شنغهاى، اثنتان فى هونج كونج، وواحدة فى سويسرا - كانت بالفعل رائعة ورشيقة، مستقيمة الظهر، لدرجة أنها ربما تبدو متغطرسة، لكنها كانت عارية من الرقة التى أذكر أنها كانت تحيط بعينيها. على أية حال، الأمر الذى أريد توضيحه هو أنه كان طبيعياً بالنسبة لى أن ينتابنى الشك، بدايةً على الأقل، فى أن اتجاء أكيرا الغريب تجاه أمرى كان نتيجة لجمالها، مثل كل الأشياء الأخرى. لكن عندما كنت أمعن النظر فى الأمر بدقة أكثر، أذكر أننى استقرت على تفسير أكثر مواءمة: وهو بالتحديد أن أكيرا كان مندهشاً بشكل غير

طبيعى بسبب ما شاهده صباح زيارة مفتش الصحة التابع للشركة لبيتنا.

كان من المقبول أن يزورنا بين الحين والآخر موظف من شركة Butterfield and Swire، رجل كان يقضى ساعة أو أكثر متجولاً فى المنزل، ويدون أشياء فى دفتره، بينما يغمغم بأسئلة عرضية. أذكر أمى وهى تخبرنى ذات مرة أنه عندما كنت صغيراً جداً، كنت أحب أن ألعب وأمثل دور "مفتش الصحة التابع للشركة"، وأنها غالباً ما أثننتى عن إنفاق أوقات طويلة فى تفحص تجهيزات حمام منزلنا وأنا أمسك بقلم رصاص فى يدي. ربما كان الأمر هكذا بشكل عام، لكن بقدر ما أتذكر، لم تكن لهذه الزيارات أية تبعات على الإطلاق، ولسنوات لم أتوقع منها أى شىء. الآن أدرك، أن نوبات التفتيش هذه، رغم أنها لم تركز فى التفتيش على أمور النظافة فقط بل والعلامات الدالة على الأمراض أو الطفيليات بين أفراد المنزل، كانت بالفعل مثيرة لكثير من الإرباك والحرص، ومما لا شك فيه أن الأفراد الذين كان يقع عليهم الاختيار من قبل الشركة للقيام بها كانوا يتسمون بالكياسة والرقّة. بالفعل، أتذكر سلسلة من الرجال الوديعين الفطنين - إنجليز فى المعتاد، على الرغم من أن بعضهم كانوا فرنسيين أحياناً - ممن كانوا يتعاملون بدرجة كبيرة من التبجيل ليس فقط مع أمى، بل ومع مى لى - الأمر الذى كان يلقى استحساناً منى. غير أن المفتش الذى أتى إلينا ذلك الصباح - لابد وأننى كنت فى الثامنة وقتئذ - لم يكن من هذا النوع مطلقاً.

اليوم، بإمكانى أن أتذكر شيئين محددين بخصوصه: كان له شارب متدل، وكانت هناك علامة بنية اللون - ربما بقعة شاي -

على مؤخرة قبعته تختفى تحت رباطها. كنت ألعب وحدي أمام المنزل، على الجزيرة المعشوشبة التي يحيطها مسار عربتنا. أذكر أن الجو في ذلك اليوم كان غائماً. كنت مستغرقاً في لعبتي عندما ظهر الرجل على البوابة وتقدمت خطواته صوب المنزل. عندما مر بي، تمتم قائلاً: "مرحباً، أيها الصغير. هل أمك بالداخل؟" ثم واصل تقدمه دون انتظار إجابتي عليه. عندما استدرت لأنظر إليه من الخلف لمحت البقعة استقرت على قبعته.

ما أذكره فيما بعد لأبد وأنه قد حدث بعد ساعة تقريباً. وقتئذ كان أكبراً قد وصل وكنا منهمكين في غرفة اللعب الخاصة بي. كانت جلبة صوتهما - التي لم تكن مرتفعة لكنها كانت مشحونة بتوتر متزايد - قد جعلتنا ننصرف عن اللعب، ثم في النهاية، تحركنا خلسة للخارج إلى المهيبط وجثمنا بجانب الغرفة المصنوعة من خشب السنديان خارج باب غرفة اللعب.

كان لبيتنا سلم كبير، ومن زاوية الرؤية بجوار الغرفة المصنوعة من خشب السنديان، رأينا العمود اللامع الذي يلي انعطافة درج السلم الهابط صوب صالة الاستقبال الفسيحة. هناك، كانت أمي والمفتش يقفان وجهاً لوجه، كانا في منتهى التصلب والاستقامة، بالقرب من منتصف الأرضية، لدرجة أنهما ظهرا وكأنهما قطعتا شطرنج متقابلتين تركتا على الرقعة. لاحظت أن المفتش كان يقبض على القبة ذات البقعة بالقرب من صدره. أما أمي، فقد كانت تشبك يديها تحت صدرها تماماً، بطريقتها نفسها قبل أن تندفع في الغناء في تلك

الليالى التى كانت مسز لويس، زوجة الخورى^(*) الأمريكى، تأتي للعزف على البيانو.

المشاجرة التى وقعت بعد ذلك، رغم أنها لا تحمل فى ذاتها أية أهمية، أعتقد أنها أتت لتدل على شيء خاص للغاية بالنسبة لأمى، ربما تقدم لحظة رئيسة من الانتصار الأخلاقى. أذكر أنها كانت تشير إليها بانتظام كلما كبرت، وكأنها شيء أرادت أن أحفظه عن ظهر قلب؛ وأتذكر أننى استمعت إليها كثيراً وهى تعيد سرد الحكاية مرات إلى زوارها، وعادةً تنتهى من السرد بضحكة قصيرة وملاحظة مفادها أن المفتش قد خلع من وظيفته بعد فترة قصيرة من ذلك الصدام. لذلك، ليس بمستطاعى أن أجزم اليوم بأن مقدار ما بذاكرتى بخصوص ذلك الصباح مُستمد مما شاهدته من موقعى أعلى المهبط، وإلى أى مدى اندمج مع مرور الزمن مع إعادة سرد أمى للواقعة. على أية حال، كان انطباعى يتمثل فى أنه بينما كنت أنا وأكيرا نحقق حول حافة الغرفة المصنوعة من خشب السنديان، كان المفتش يقول شيئاً من قبيل:

"أنا أكن كل الاحترام لمشاعرك، يا مدام بانكس. مع هذا، هنا بالخارج، لا يمكن أن يكون الشخص فى منتهى الحذر. والشركة تتحمل مسئولية رفاهية كل الموظفين، حتى الأكثر حنكة ووعياً، مثلك أنت ومستر بانكس."

(*) الخورى (فى الكنيسة الإنجيلية) قس مسئول عن الكنيسة أو الكنائس فى منطقة معينة.
(المترجم)

"معذرة، يا مستر رايت،" ردت أمي، "لكن اعتراضاتك لم تتضح بعد لي. لقد أدى هؤلاء الخدم الذين تتحدث عنهم مهامًا جارية لسنوات. أستطيع أن أجزم تمامًا بمستوياتهم في النظافة. وأنت بنفسك قد اعترفت أنهم لا يحملون أى علامات لمرض معدٍ من أى نوع."

"مع هذا، يا مدام، فهم من شانتغ. والشركة مضطرة لنصح جميع موظفيها بعدم تشغيل سكان هذه المنطقة في منازلهم. إنه تقييد، اسمح لي أن أقول، ناتج عن تجربة مريرة."

"أبإمكانك أن تتحدث بشكل منطقي وجاد؟ أنت تريدني أن أطرد هؤلاء الأصدقاء - نعم، لقد اعتبرناهم أصدقاء منذ زمن طويل! - لا لشيء سوى أنهم من شانتغ؟"

عند هذه النقطة، تغيرت طريقة المفتش واتسمت بالغرور إلى حدٍ ما. وواصل كلامه مع أمي موضحًا أن اعتراضات الشركة على الخدم القادمين من شانتغ قائمة على شكوك في أمانتهم أيضًا وليس في نظافتهم وصحتهم فقط. وأنه مضطر لتكرار توصياته بشدة - تحرك المفتش في أرجاء المكان - خاصةً مع وجود أشياء قيمة تابعة للشركة. عندما انفجرت أمي ثانية لتسأل على أى أساس تم الاتفاق على هذه التعميمات المذهلة، أطلق المفتش تهيدة مُتعبّة، ثم قال:

"باختصار، يا مدام، الأفيون. إدمان الأفيون في شانتغ قد وصل إلى مستويات محزنة لدرجة أن قرىً بأكملها وُجِدَتْ غارقة في عبادة البايب. ومن ثم، يا مدام بآنكس، فانخفاض مستوى النظافة وارتفاع مستوى العدوى. وحتميًا، هؤلاء من أتوا من شانتغ للعمل في

شنغهاى، حتى ولو كانوا بالفعل من نوى الطباع الأمانة، فسوف يميلون إن عاجلاً أم آجلاً إلى السرقة، لأجل آبائهم، وإخوتهم، وأبناء عمومتهم، وأخوالهم وأعمامهم؛ ماذا بوسعك أنت، جميع من لهم اشتهايات حتمياً لابد من إرضائها إلى حد ما..... يا لطيف، يا مدام! أنا فقط أحاول توضيح الأمر....."

لم يكن المفتش فقط هو من تراجع عند هذه النقطة؛ أكيرا، إلى جوارى، نفت كمية حادة من الزفير، وعندما رمقته كان ينظر لأسفل إلى أمى وقد انفتح فمه من الدهشة. صورته هذه فى تلك اللحظة هى التى جعلتنى فيما بعد أعتقد أن هلعه لاحقاً حين رؤية أمى كان نتيجة ذلك الصباح.

لكن لو أن المفتش وأكيرا انتقدا شيئاً ما فعلته أمى فى هذه اللحظة، فأنا لم أر شيئاً غير معتاد. بالنسبة لى، بدت أنها لم تفعل شيئاً سوى استعادة ثباتها قليلاً استعداداً لما كانت مقبلة على تأكيده. لكن حينئذ، أظن أننى كنت معتاداً على طباعها؛ التى من الممكن ألا تكون مألوفة بالنسبة لهما، واثقاً من أن نظرات ووضعيات أمى المألوفة فى مثل هذه المواقف ربما جاءت مقلقة فى الحقيقة.

هذا لا يعنى أننى لم أكن منتهباً للانفجار التالى. حقيقة، منذ أن نطق المفتش بكلمة "أفيون"، كنت أعرف أن الرجل سيئ الحظ قد أعد هدفاً لذلك الانفجار.

لقد توقف بغتة، متوقعاً أن تقاطعه أمى. لكننى أذكر أن أمى قد تركت رجفة صمتٍ مُعلّقة - طيلتها لم تنزل عينها عن المفتش - قبل أن تسأل بصوت هادئ لم يهدد أبداً أن يطفح غضباً:

"إنك تفترض، يا سيدى، أن تتحدث إليّ، نيابةً عن كل هذه الشركات، عن الأفيون؟"

ثم بعد ذلك أتت نوبة من الشراسة المنضبطة وضحت فيها للمفتش الدعوى التى كنت وقتئذٍ أعرف بها فعليًا، والتى سمعت بها مرارًا بصورة موجزة: وهى أن البريطانيين على وجه العموم، وشركة Butterfield and Swire على وجه التحديد، قد أصابوا الأمة كلها بحالة من التعاسة والمهانة الفادحة باستيرادهم الأفيون الهندى إلى الصين بهذه الكميات الهائلة.

كان صوت أمى يزداد توترًا وشدة وهى تواصل كلامها، لكنه لم يفقد أبدًا خصائصه المعروفة. فى النهاية سألت خصمها وهى تشمل برمقة ثابتة غير مترابطة:

"ألا تشعر بالخزى، يا سيدى؟ كمسيحى، كرجل إنجليزى، كرجل تحكمه القيم الأخلاقية؟ ألا تشعر بالخزى لأنك تعمل فى خدمة مثل هذه الشركة؟ أخبرنى، كيف ينعم ضميرك بالراحة وأنت تدين بوجودك لهذه الثروة الشريرة؟"

لو كان المفتش متهورًا لأوضح لأمى سخف توبيخها له بهذا الشكل، بهذه الكلمات التى تنطق بها زوجة موظف زميل فى الشركة، وتسكن فى بيت تابع للشركة ذاتها. لكن عند هذه النقطة كان قد أدرك أنه قد طرد إلى ما وراء قدراته، فتمتم بعبارات قليلة لحفظ ماء وجهه، وتراجع مندفعًا خارج المنزل.

فى تلك الأيام، كان مذهلاً لى عندما يُظهر أى من الكبار - كما فعل المفتش - جهله بحملات أمى ضد الأفيون. طيلة سنوات نضجى، استعمرنى اعتقاد بأن أمى اشتهرت وأصبحت مثاراً لإعجاب كبير كعدو رئيس لنتين الأفيون العظيم فى الصين. ظاهرة الأفيون، يجب أن أصرح، لم تكن شيئاً بذل الكبار جهداً هائلاً لإخفائه عن الأطفال، لكن بطبيعة الحال، عندما كنت صغيراً جداً، استوعبت قدراً قليلاً من أبعاد الموضوع. كنت معتاداً يومياً على رؤية الرجال الصينيين، من العربية التى تقلنى إلى المدرسة، ينبطحون على الأبواب فى شمس الصباح على امتداد طريق نانكينج، ولبعض الوقت، عندما كنت أسمع بحملات أمى، تخيلت أنها تقدم يد العون لهذه الطائفة المعينة من الرجال. رغم أننى لاحقاً، عندما كبرت، كانت لدى فرص أكثر لإدراك شىء ما يكتنفه التعقيد يحيط بهذه القضية. على سبيل المثال، طُلب منى أن أقدم نفسى على مآذب الغداء التى تقيمها أمى.

كانت هذه المآذب تُقام فى بيتنا، عادةً ما تكون أثناء الأسبوع الذى يكون فيه أبى فى المكتب. دائماً، تصل أربع أو خمس سيدات، وكن يدعون إلى الكونسيرفاتورى،^(١) حيث توضع طاولة فى وسط أشجار النخيل والزواحف. كنت أساعد فى حمل الأكواب والصحون والأطباق ووضعها حول الطاولة، وأنتظر اللحظة التى كنت أدرك أنها ستصل: وهى، عندما تطلب أمى من ضيوفها كيف، عندما "سألوا قلوبهم وضمائيرهم"، رأوا سياسات شركاتهن. عند هذه اللحظة

(١) غرفة ذات حوائط زجاجية وسقف زجاجى أيضاً، تُشيد بجانب المنزل؛ وتستخدم للاستمتاع بالشمس، ولحماية النباتات من الطقس البارد. (المترجم)

ستتوقف الثروة الممتعة وسوف تنصت السيدات عندما تمضي أمي في التعبير عن عميق تعاستها بسبب "ممارسات شركتنا"، التي تعتبرها "غير مسيحية وغير بريطانية". حسبما أتذكر، كانت مآدب الغداء هذه يعتربها من الهدوء والصعوبة عند هذه المرحلة وما يليها، حتى تأتي اللحظة، التي لا تتأخر كثيرًا، حيث تتمم السيدات بكلمات وداع متجمدة ويمضين للخارج في طريقهن إلى العربات والسيارات التي تنتظرهن. لكنني عرفت من خلال ما قالت لي أمي أنها حققت "انتصارًا" لعدد من زوجات الموظفين في هذه الشركة، وبدأت التحولات تظهر في اجتماعاتها.

هذه الاجتماعات كانت أمورًا من الخطورة والأهمية بحال ولم يكن يُسمح لي بحضورها. كانت تُعقد في غرفة الطعام خلف الأبواب المغلقة، وإذا صادف وجودي بالمنزل أثناء انعقاد أحد الاجتماعات، كان يُطلب مني أن أتحرك على أطراف أصابعي في سكون. بين الحين والآخر كانت أمي تقدمني لإحدى الشخصيات ذات المكانة الخاصة عندها - رجل دين/ مثلاً، أو دبلوماسي - لكن على وجه العموم، كانت مي لي تتلقى تعليمات بإبعادى عن الطريق قبل حضور أول الضيوف. بالطبع، كان العم فيليب دائم الحضور، وكنت غالبًا أجتهد لكي أقع في مرمى بصره أثناء رحيل المشاركين. كان، حال رؤيته لي، يتقدم صوبى بابتسامة وكنا نتبادل حوارًا قصيرًا. أحيانًا، إذا لم يكن لديه ارتباط مهم، كنت آخذه جانبًا ليرى اللوحات التي رسمتها خلال أسبوع، أو كنا نخرج لنجلس معًا لفترة في التراس الخلفي.

ساعة يغادر الجميع، يتغير جو المنزل تمامًا. فدائمًا ما تكون أمي في حالة معنوية مرتفعة، وكأن الاجتماع قد أسفر عن غسل كل همومها. فأسمعها تغني لنفسها أثناء تنقلها في أرجاء البيت كي تعيد الأشياء إلى سالف وضعها وترتيبها، وبمجرد أن تفعل ذلك، أندفع للخارج باتجاه الحديقة لأنتظر. لأنني كنت أعرف أنها ما إن تنتهي من ترتيب البيت، فستخرج للبحث عني، وأيًا كان مقدار الوقت المتبقى قبل الغداء فستكرسه لي.

ذات مرة وكنت قد كبرت، أثناء هذه الفترات، بعد أحد الاجتماعات مباشرة، أخذتني أمي لنتمشي في منتزه جيسفيلد. لكن عندما كنت في السادسة أو السابعة من عمري، كنا نميل للبقاء في البيت ونلعب دور طاولة، وأحيانًا نلعب بجنودى الدُمى. لم يزل بإمكانى أن أتذكر روتيننا بعينه ألفناه في هذه الفترة. في تلك الأيام، كانت هناك أرجوحة في المساحة العشبية المحيطة بالبيت والتي لم تكن تبعد كثيرًا عن التراس. كانت أمي تخرج من البيت، وهي لم تنزل تغني، تخطو فوق العشب، وتجلس على الأرجوحة. وكنت أنا أنتظر على رابيتي في الحديقة الخلفية، وكنت أجرى صوبها، متظاهرًا بالغضب.

"انزلى، يا أمي! ستحطمينها!" كنت أقفز لأعلى وأسفل أمام الأرجوحة، وأنا ألوح بيدي. "أنت كبيرة جدًا! ستحطمينها!"

وأمي، متظاهرة بعدم رؤيتي أو سماع صوتي، كانت تدفع نفسها على الأرجوحة لأعلى وأعلى، وهي تواصل التغنى بأعلى صوتها

بأغنية مثل: "ديزى، ديزى"،^(٢) هيا امنحنى إجابتك، هيا." عندما تفشل كل محاولاتي في استجداؤها، كنت - يراوغنى الآن هذا المنطق - أحاول تنفيذ سلسلة من حركات الوقوف على الرأس فوق العشب أمامها. حينئذٍ، يتقاطع غناؤها مع نوبات من الضحك، حتى تنزل في النهاية عن الأرجوحة، وتأتى لتعلب معى ما أعدته من الألعاب. حتى اليوم، لا يمكن أن أفكر في اجتماعات أمى دون أن أتذكر هذه اللحظات المتوقعة بشغف التى كانت تلى تلك الاجتماعات.

منذ بضع سنوات مضت، قضيت بعض الأيام فى غرفة الاطلاع بالمتحف البريطانى أبحث فى المناقشات التى تتناول تجارة الأفيون فى الصين خلال تلك الفترات. وبينما كنت أدقق النظر فى بعض مقالات الصحف، والرسائل والوثائق التى تنتمى لتلك الأوقات، اتضح لى عدة قضايا كانت تحيرنى أيام طفولتى. لكن - وينبغى على أن أقر هذا - الحافز الرئيس لقيامى بهذا البحث كان الأمل فى العثور على تقارير بخصوص أمى. مع هذا، كما ذكرت، لقد انسقت وأنا طفل إلى الاعتقاد بأن أمى كانت شخصية رائدة فى الحملات المناوئة للأفيون. كان شيئاً مخيباً للآمال أننى لم أجد اسمها ولو لمرة واحدة. آخرون طالهم المديح والافتباس من كلامهم، شوّهت سمعتهم، لكن فى كل المواد التى رتبته، لم أجد ذكراً واحداً لأمى. رغم ذلك تعثرت عيناى مرات عديدة فى ذكر اسم العم فيليب. مرة، فى رسالة إلى نورث تشاينا ديلى نيوز North China Daily News، تبشيري سويدي، يشرع فى إدانة عدد من الشركات الأوربية، إشارة إلى العم

(٢) ديزى daisy يعنى الأقحوان. (المترجم)

فيليب على أنه "منارة الاستقامة المثيرة للإعجاب". كان غياب اسم أمي مخيباً للآمال بما فيه الكفاية، غير أن هذا كان منعطفاً قاسياً في الحقيقة، ومنذ ذلك الحين هجرت البحث في هذا الموضوع.

لكني لا أود أن تستعيد ذاكرتي العم فيليب هنا الآن. حدث مرة هذا المساء حينما أُقِنْتُ بأنني قد ذكرت اسمه لسارة هيمينجس أثناء ركوبنا للباص ظهيرة اليوم - وأنني أخبرتها، حتى، بشيء أو اثنين جوهريين عنه. لكن مع إمعان النظر في كل ما حدث، تأكدت بما لا يترك مساحة للشك أن العم فيليب لم يظهر ولم يرد ذكره مطلقاً - ولا بد أن أعلن عن شعوري بالارتياح. ربما يكون من الحماسة أن أعتقد، لكن هذا قد كان شعوري دائماً، أن العم فيليب سوف يبقى كياناً أقل واقعية بينما وجوده فقط كائن في ذاكرتي.

رغم ذلك حكيت لها قليلاً عن أكبر ما بعد ظهر اليوم، والآن مادام لدى فرصة للتفكير في الأمر، فأنا بالفعل لست نادمًا على هذا. لم أخبرها، على أية حال، بالكثير، وفعلاً بدت بصدق مهتمة. حقيقة ليس لدى ما يبرر انجرافي المبالغ في الكلام معها في هذه الأمور؛ بالتأكيد لم تكن لدى النية بدايةً عندما صعدت الباص معها في هايماركت.^(٣)

ديفيد كوربيت، رجل جاء تعرفي عليه مشوبًا بالغموض، دعاني للغداء معه هو و"عدد قليل من الأصدقاء" في أحد مطاعم شارع لوير

(٣) Haymarket شارع في الطرف الغربي من لندن، يضم اثنين من أشهر مسارح لندن: The Royal Theatre و Her Majesty's.

ريجينت. مكان عصرى لتناول الغداء، وكان كوربيت قد حجز طاولة كبيرة تكفى دزينة من البشر فى آخر القاعة. فرحت لرؤية سارة بين الجمع - واندھشت قليلاً لأنى لم أكن أعرف عن صداقتها بكوربيت - لكننى لم أتمكن من الجلوس فى نطاق الحديث معها، بسبب وصولى متأخرًا إلى حد ما.

وقتئذٍ كانت الغيوم قد تراكمت فى السماء، فقام النادل بإشعال شمعدان على طاولتنا. ظن أحد أفراد الجمع، صديق يُدعى هيجلى، أن إطفاء الشموع، واستدعاء النادل لإعادة إشعالها مزحة لطيفة. فعل هذا ثلاث مرات على الأقل فى فترة لا تتجاوز ثلث الساعة - كلما رأى أن الجو الصاخب قد أخذ فى الهدوء - ولم يبد أن الآخرين وجدوا ذلك مضحكاً بدرجة كبيرة. كانت سارة، حسبما رأيت، مستمتعة، إذ كانت تضحك مع باقى الناس. ربما قضينا هناك حوالى الساعة - قام رجلان بالاستئذان للعودة إلى عمليهما - بينما تحول الانتباه إلى إيما كاميرون، فتاة حادة إلى حد ما، كانت تجلس على طرف الطاولة إلى جوار سارة. كل ما عرفته أنها كانت لبعض الوقت تتكلم فعلاً مع المجاورين لها على الطاولة عن مشاكلها؛ لكن عند هذه اللحظة، حيث طغت فترة مفاجئة من الهدوء على باقى الطاولة مما جعلها بؤرة اهتمام المجموعة كلها. ثم بعد ذلك انخرطوا فى مناقشة نصف جادة ونصف ساخرة عن علاقة إيما كاميرون المضطربة بأمها - التى كانت مؤخراً قد صعدت أزمة جديدة بسبب خطبة إيما مؤخراً إلى رجل فرنسى. شملوها بكل أنواع النصائح. على سبيل المثال، افترض الرجل، الذى يُدعى هيجلى، أن كل

الأمهات - "والخالات أيضاً بطبيعة الحال" - لابد من احتجازهم فى مؤسسة تشبه حديقة حيوان كبيرة ليتم تعليمهن إلى جوار الأفعوان. آخرون طرحوا تعليقات مفيدة منبثقة من تجاربهم الشخصية، وإيما كامبيرون، المستمتعة بكل الاهتمام المنصب عليها، أبقت الموضوع مشتعلاً بحكايات أكثر مسرحية كى تصور طبيعة هذا الراهن الممعة فى إثارتها للسخط. كانت المناقشة قد استمرت حوالى ربع الساعة عندما رأيت سارة وهى تنهض وتنصرف من القاعة، بعد أن تمتت بكلمة فى أذن المضيف. كانت غرفة المكياج الخاصة بالسيدات فى لوبى المطعم، الآخرون، أولئك الذين لم يلحظوا خروجها مطلقاً - لا شك قد افترضوا أنها هناك. لكننى لمحت شيئاً فى وجهها عندما انصرفت، وبعد بضع دقائق، نهضت أنا أيضاً وخرجت فى أثرها.

وجدتها واقفة فى مدخل المطعم، تنتظر للخارج عبر النوافذ على شارع لوير ريجينت. لم تلاحظ تقدمى نحوها إلا عندما لمست ذراعها وسألت:

"هل كل شىء على ما يُرام؟"

بادرت، ولاحظت آثاراً خفيفة للدموع فى عينيها، حاولت بسرعة أن تلقى عليها قناعاً من الابتسام.

"أوه نعم، أنا بخير. شعرت بأننى مختنقة قليلاً، هذا كل ما فى الأمر. أنا الآن على ما يُرام." أطلقت ضحكة خفيفة، وحدقت بإمعان خارج المطعم فى الشارع. "معذرة، لابد وأن الأمر بدا على درجة كبيرة من الوقاحة. حقيقةً لابد وأن أعود للداخل."

"لا أجد مبررًا لعودتك مادمت لا ترغبين في هذا."

تفحصتني سارة بإمعان، ثم سألت: "أما زالوا يتحدثون عما كانوا يتحدثون عنه؟"

"كانوا كذلك عندما انصرفتم." ثم أضفت: "أعتقد أننا لن نسهم كثيرًا في ندوة حول الأمهات المزعجات."

فجأة ضحكت وجففت دموعها، دموعها التي لم تعد تحاول أن تواربها عني. "لا،" قالت، "أظن أننا مؤهلان." ثم ابتسمت مرة أخرى ومرة ثانية وقالت: "إنها لحماقة بالغة مني. رغم كل هذا فإنهم في مأدبة غداء ممتعة."

"هل تقفين في انتظار سيارة؟" سألت، لأنها كانت لم تنزل تمعن النظر خارج المطعم على المرور.

"ماذا؟ آه لا، لا. أنا كنت أنظر فقط." ثم قالت: "كنت أتساءل إذا ما كان الباص سيأتي. ترى، انظر، أعلى الشارع. هناك موقف باص. اعتدت أنا وأمي أن نقضى وقتًا طويلًا في الباصات. فقط للمتعة. أنا أتحدث عني وأنا صغيرة. لو لم يكن بمستطاعتنا أن نأخذ المقعد الأمامي في الدور العلوي، كنا ننزل فورًا ونقف في انتظار آخر. وكنا أحيانًا نقضى ساعات حول لندن، نحدق في كل شيء، ونحن نتجاذب أطراف الحديث، ونشرح الأشياء لبعضنا البعض. كنت أستمتع بهذا. هل حدث أن ركبت الباصات من قبل، يا كريستوفر؟ لا بد أن تفعل. سوف تشاهد الكثير من أعلى."

"لابد أن أعترف بأننى أميل للمشى أو ركوب التاكسى. أنا أخاف من باصات لندن إلى حدٍ ما. أنا مقتنع بأنه إذا ما ركبت أحدها فسوف يأخذنى إلى مكانٍ ما لا أريد الذهاب إليه، وسوف أقضى ما تبقى من اليوم في محاولة معرفة طريق العودة."

"هل لى أن أخبرك بشيء، يا كريستوفر؟" أصبح صوتها فى غاية الهدوء. شيء من الحماسة بحال، لكننى أدركته مؤخراً. لم يحدث لى مطلقاً من قبل. لكن أمى لابد وأنها تعاني الكثير من الألم. لم تكن قوية بما يكفى لتمارس أشياء أخرى معى. ولهذا السبب كنا ننفق كثيراً من الوقت فى ركوب الباصات. شيء لم يزل بإمكاننا القيام به معاً."

"هل ترغبين فى ركوب الباص الآن؟" سألت.
نظرت للخارج باتجاه الشارع ثانيةً. "لكن أأست مشغولاً جداً الآن؟"

سيكون ممتعاً. كما أقول، أنا خائف إلى حدٍ ما من ركوب الباص وحدى. ومادمت مخضومة، فهذه فرصة لى.
"رائع جداً." توهجت بغتةً. "سأريك كيف ترتاد أحد باصات لندن."

أخيراً ركبنا لى فى شارع لوير ريجنت - لم نكن نريد أن تظهر مجموعة الغداء وترانا ننتظر - لكن من شارع هايماركت القريب. عندما صعدنا إلى الدور العلوى، أظهرت بهجة طفولية حين وجدت مقعدها الأمامى شاغراً، وجلسنا فيه وأخذنا نتمايل معاً والباص يتأقل فى شق طريقه باتجاه ميدان ترافالجار.

بدأت لندن قائمة وغائمة، والناس أسفلنا على الرصيف في تمام الاستعداد بمظلاتهم ومعطفهم. أظن أننا قضينا نصف ساعة في ذلك الباص، وربما أكثر. شاهدنا ستراند، وتشانسرى لين وكليركنويل. أحياناً كنا نمضي في مشاهدة المنظر تحتاً في صمت؛ في أحيان أخرى، كنا نتجاذب أطراف الحديث، عادةً عن أشياء بريئة. ارتفعت حالتها المزاجية بشكل واضح منذ الغداء، ولم تذكر أمها ثانية. وجدت نفسي أتحدث عن آكيرا. لست متأكداً من كيفية طرحنا للموضوع، لكن تم هذا مباشرة بعد نزول عدد كبير من الركاب في هاي هولبورن، وكنا نتحرك أسفل طريق جراي إن. أعتقد أنني في البداية لم أفعل سوى أن ذكرته بشكل عابر، واصفاً إياه كـ "صديق طفولة". لكن لا بد وأنها تقصت مني عنه، لأنني أذكر أنني قلت لها، ليس بعد فترة طويلة، ضاحكاً:

"دائماً أفكر في أننا ذات مرة سرقنا شيئاً ما معاً."

"ياااه!" تعجبت. "لهذه الدرجة! المخبر العظيم له تاريخ إجرامى سرى! عرفت أن هذا الولد اليابانى كان على قدر كبير من الأهمية. أخبرنى عن السرقة."

"لا تكاد تكون سرقة. لقد كنا في العاشرة من العمر."

"لكن ألم تزل حتى الآن مصدراً لتعذيب ضميرك؟"

"لا على الإطلاق. لقد كان مجرد شيء صغير. لقد سرقنا شيئاً من غرفة أحد الخدم."

"لكن ياله من شيء مثير للدهشة. وكان هذا في شنغهاى؟"

أظن أنني لابد قد أخبرتها عن بضعة أشياء أخرى من الماضي. لم أبح لها بشيء ذي أهمية من أي نوع، لكن بعد المغادرة معها في هذه الظهيرة - نزلنا أخيراً في شارع نيو أكسفورد - اندهشت وانتابني قليل من الخوف خشية أن أكون قد أخبرتها بأي شيء يذكر. مع أنني لم أتحدث مع أي شخص عن ماضي طيلة فترة وجودي في هذه البلد، وكما أقول، ولم تكن لدى النية أبداً في الشروع في هذا اليوم.

لكن ربما ثمة شيء من هذا النوع كان محتمل الوقوع في وقتٍ ما. لأنني في الحقيقة أصبحت مشغولاً بصورة متزايدة بذكرياتي خلال العام الماضي، انشغالا شجعه اكتشاف أن هذه الذكريات - الخاصة بطفولتي، ووالدي - بدأ التشوه يشوبها مؤخراً. لعدة مرات في الفترة الأخيرة وجدت نفسي أكافح من أجل تذكر شيء ما حدث منذ عامين أو ثلاثة مضت وكنت قد اعتقدت أنه رسخ في ذهني للأبد. اضطررت لقبول، بعبارة أخرى، أن كل عام يمر، سيزداد تلاشي حياتي في شغهاى، حتى يأتي اليوم الذي سأجد فيه أن ما تبقى لن يتعدى بعض الصور المشوشة. حتى هذه الليلة، عندما جلست هنا وحاولت أن أجمع بشيء من الترتيب هذه الأشياء التي لم أزل أذكرها، صُدِمت من جديد بمدى الخفوت الذي يعترى كل شيء في ذاكرتي. لنأخذ، مثلاً، الحكاية التي حكيتها تَوّاً عن أمي ومفتش الصحة: فبينما أنا على يقين لا بأس به أنني قد تذكرت أساسها بدقة كافية، لكنني حينما قلبتها في ذهني ثانية، وجدت نفسي غير متأكد تماماً من بعض التفاصيل. لسبب واحد، لم أعد متأكداً من أنها وجهت

الكلمات التالية بنصها للمفتش: "كيف لضميرك أن يرتاح وأنت تدين بوجودك لهذه الثروة الشريرة؟" الآن يبدو لي أنها حتى فى حالة الهياج والإثارة، كانت ستدرك ما تتطوى عليه هذه الكلمات من إخراج لها، وستدرك أيضًا أن هذه الكلمات تجعلها عرضة للسخرية. لا أظن أن أمى قد فقدت حتى سيطرتها على الموقف لهذه الدرجة. على الجانب الآخر، من الممكن أن أكون قد نسبت هذه الكلمات لها تحديدًا لأنها كانت قد وجهت مثل هذا السؤال لنفسها باستمرار أثناء حياتنا فى شنغهاى. والحقيقة أننا "كنا ندين بوجودنا" لشركة كانت هى قد عرفت ممارساتها بأنها شر لابد وأن يُنْتَقَد بشدة، وهذا النقد الشديد لابد وأنه كان مصدرًا حقيقيًا لعذابها.

فى الواقع، من الممكن أننى لم أتذكر بدقة السياق الذى تفوهت فيه بهذه الكلمات؛ وأنها لم تكن موجهة إلى مفتش الصحة، لكن إلى أبى، فى صباح آخر غير هذا بالأساس، أثناء تلك المشاجرة التى وقعت فى غرفة الطعام.

الفصل الخامس

أنا لا أتذكر الآن إذا ما كانت حكاية غرفة الطعام قد حدثت قبل أم بعد زيارة مفتش الصحة. كل ما أذكره أن الجو كان مطيرًا في تلك الظهيرة، مما جعل الجو كثيبًا في كل أنحاء المنزل، وأننى كنت أجلس فى المكتبة، وكانت مى لى تعتنى بى وأنا أذاكر فى كتب الحساب.

سميناها "المكتبة"، لكننى أعتقد أنها فى الحقيقة كانت فقط مجرد غرفة انتظار تصادف أن حوائطها قد اصطففت عليها الكتب. فقط كان هناك مساحة كافية فى منتصف أرضيتها لطاولة من الماهوجنى، وعليها كنت دائماً أقوم بأداء واجباتى المدرسية، وظهرى للباب المزدوج الذى يقود إلى غرفة الطعام. مى لى، المربية الخاصة لى، كانت تعتبر تعليمى أمرًا بالغ الأهمية، حتى عندما كنت أذاكر لمدة ساعة، لم يحدث أبدًا أن تسند طولها إلى الرف الذى كانت تقف أمامه، أو تجلس على الكرسي المقابل لى؛ فقد كانت تقف على رأسى بصرامة. منذ وقت طويل تعلم الخدم ألا يدخلوا علينا أثناء أوقات المذاكرة تلك، حتى والدى قبلاً بعدم إزعاجنا إلا فى حالات الضرورة القصوى.

وبالتالى، كان مثيرًا للدهشة أن يتقدم أبى بخطوات صاخبة إلى المكتبة فى فترة بعد الظهر تلك، غافلاً عن وجودنا، ويدخل غرفة الطعام، ويغلق الأبواب خلفه بقوة. خلال دقائق من هذا التدخل كان

هناك آخر من أمي، التي دخلت بخطوات مسرعة واختفت داخل غرفة الطعام. خلال الدقائق التي تلت ذلك، حتى من خلف الأبواب الثقيلة تلك، استطعت أن أسمع بعض الكلمات والعبارات العارضة التي أخبرتني بأن والدي في مناقشة حادة. لكن وبصورة محبطة، كلما حاولت أن أسترق السمع لكلمات أكثر، كلما تردد قلبي لفترة طويلة على الأرقام، تأتي كلمات التوبيخ الحتمية من مي لي.

لكن وقتئذ - لا أتذكر تمامًا كيف حدث هذا - تم استدعاء مي لي، وفجأة تركت وحدي على طاولة المكتبة. في البداية، واصلت مذكرتي فقط، تنتابني حالة من الهلع مما يمكن أن يحدث لو عادت مي لي ووجدتني قد تركت مقعدي. لكن كلما طال غيابها، كلما ازدادت رغبتني في استماع أوضح للحوار المكتوم في الغرفة المجاورة. أخيرًا نهضت وتقدمت إلى الباب، لكن حتى مع هذا، كنت أهرع عائداً إلى الطاولة كل بضع ثوان، مقتنعاً بإمكانية سماعي لأدبيب خطوات مربيتي. في النهاية، تمكنت من البقاء خلف الباب فقط وأنا أحمل مسطرة في يدي، حتى إذا ما باغتتني مي لي، ادعيت أنني كنت أقوم بقياس أبعاد الغرفة.

حتى على الرغم من هذا، تمكنت أن أسمع جملاً كاملاً فقط عندما ينسى والدي نفسيهما ويرفعان صوتهما. استطعت أن أحدد في صوت أمي الغاضب النبرة المستقيمة نفسها التي استخدمتها مع مفتش الصحة صباح ذلك اليوم. سمعتها تردد: "خزي!" عدة مرات، غالباً كانت تقصد ما أسمته، "التجارة المحرمة". عند نقطة ما قالت: "إنك تجعل منا جميعاً شركاء فيها! جميعنا! هذا عار!" أبى أيضاً بدا

غاضبًا، رغم أن غضبه قد أخذ صورة دفاعية يائسة. ظل يردد كلمات من قبيل: "الأمر ليس بسيطًا جدًا. الأمر ليس فى غاية البساطة تقريبًا." وعند نقطة بعينها زعق قائلاً:

"هذا فى غاية الرداءة! أنا لست فيليب. أنا لست بهذا الشكل. هذا فى منتهى الرداءة، بالفعل فى منتهى الرداءة!"

ثمة شىء كان يشوب صوته وهو يزعق بهذا الكلام، نوع مخيف من الإذعان، وبغثة انتابنى الغضب من مى لى لأنها تركتتى فى هذا الموقف. وربما حينئذ، عندما كنت أقف جوار الباب، ومسطرتى فى يدى، حائرًا بين رغبتى فى مواصلة الاستماع وشوقى للفرار إلى ملجأى فى غرفة اللعب وعساكرى الذمى، سمعت أمى تتفوه بهذه الكلمات:

"ألا تشعر بالخزى لأنك فى خدمة مثل هذه الشركة؟ كيف لضميرك أن ينعم بالراحة ووجودك مدين لهذه الثروة الشريرة؟"

لا أذكر ماذا حدث بعد ذلك: إذا ما كانت مى لى قد عادت، إذا ما كنت لم أزل فى المكتبة مع ظهور والدى. رغم هذا فأنا أتذكر أننى بشرت بوحدة من أطول فترات الصمت بين والدى - بعبارة أخرى، واحدة استمرت لأسابيع، وليس لأيام. بالطبع أنا لا أعنى أنهما لم يتواصلا تمامًا أثناء هذه الفترة، لكن كل أشكال الحوار ظلت فى حدود الضرورة.

لقد كنت معتادًا على مثل هذه الفترات ولم أنشغل بها كثيرًا. على أية حال، فهى لم تؤثر على حياتى مطلقًا إلا فى أضيق الحدود. على

سبيل المثال، كان أبى يظهر على الإفطار بـ "صباح الخير، على الجميع!" وكان يلقيها ببشاشة. ويضرب كلتا يديه ببعضهما البعض، بينما تتلقاه أمى فقط بنظرتها البليدة. فى مثل هذه المناسبات، ربما يحاول أبى مواراة إحراجة بالالتفات إلى، وهو لم يزل بنبرته البشوشة نفسها، ليسأل:

"وماذا عنك، يا بفن؟^(٤) هل من أحلام شيقة ليلة أمس؟"

وكما عرفت من خبرتى كان لابد أن أجيبه بحركة صوتية غامضة وأواصل تناولى للطعام. فيما عدا ذلك، كما أقول، كنت أستطيع ممارسة حياتى بصورة أكبر أو أقل من المعتاد. لكن أعتقد أنه كان يتحتم على، أحياناً على الأقل، أن أمعن التفكير فى هذه الأمور، لأن لدى ذكرى حوار بعينه مع آكيرا ذات مرة عندما كنا نلعب فى منزله.

ذكرياتى عن منزل آكيرا أنه، من وجهة النظر المعمارية، كان مثل بيتنا تماماً؛ فى الحقيقة، أذكر أن أبى أخبرنى بأن المنزلين قد شيدهما الشركة البريطانية نفسها قبل حوالى عشرين عاماً. لكن الأمر كان مختلفاً تماماً داخل بيت صديقى، وكان مصدراً للإدهاش والسحر بالنسبة لى. لم تكن المسألة فى تفوق اللوحات والزخارف الشرقية - ففى شنغهاى، فى تلك المرحلة من عمرى، لم أر فى ذلك ما يفوق العادة - لكن إلى حد ما الأفكار الغربية لعائلته فيما يخص

(٤) بفن طائر أبيض وأسود الريش، ذو منقار متوهج الألوان، يعيش بالقرب من البحر، ويوجد بكثرة عند شمال الأطلنطى. (المترجم)

استخدام عناصر الأثاث الغربى. السجاجيد التى حسبما كنت أتوقع أن أراها على الأرضيات كانت معلقة على الجدران؛ الكراسى كانت ذات ارتفاع غريب بالنسبة للطاولات؛ المصابيح كانت تتأرجح تحت مظلات كبيرة. الأكثر إدهاشاً كان زوجا من الغرف اليابانية المتطابقة قام والدا أكيرا بإنشائهما أعلى المنزل. هاتان الغرفتان كانتا صغيرتين، لكنهما كانتا مرتبتين ومزينتين بالتاتامى^(٥) والحصير اليابانى الذى يغطى الأرضيات، واللوحات الورقية المثبتة على الجدران، ومن ثم لحظة تكون بالداخل - على الأقل من وجهة نظر أكيرا - لا يمكن لأى شخص أن يقول بأنه لم يكن فى بيت يابانى أصلى شئ من الخشب والورق. أستطيع أن أتذكر إلى أى مدى كانت أبواب تلك الغرف على وجه التحديد مثيرة للفضول؛ فمن الخارج، الجانب "الغربى"، كانت مبطنة بمقابض نحاسية براقّة؛ من الداخل، الجانب "اليابانى"، كانت مبطنة بورق رقيق بحشوات مائية الألوان.

على أية حال، فى أحد الأيام الحارة، كنت أنا وأكيرا نلعب فى إحدى هذه الغرف اليابانية. كان يحاول أن يعلمنى لعبة تتضمن كومات من الكروت عليها صور شخصيات يابانية. تمكنت من التقاط مبادئ اللعبة وكنا نواصل ممارسة اللعب لعدة دقائق عندما سألته فجأة:

"هل تتوقف أمك أحياناً عن الكلام مع أبيك؟"

(٥) غطاء أرضيات تقليدى يابانى مصنوع من الروش المجفف. والروش نبات طويل يشبه العشب وينمو بالقرب من الماء. (المترجم)

نظر إلى نظرة عارية من المعنى، ربما لأنه فشل في استيعابي؛ كانت لغته الإنجليزية تخذله إذا ما تحدثت إليه خارج السياق هكذا. ثم، عندما كررت عليه السؤال، هز كتفيه بعدم اكتراث وقال:

"أمى لا تتحدث إلى أبى عندما يكون. أمى لا تتحدث مع أبى عندما يكون فى الحمام!"

بهذا، انتابته حالة من الضحك المسرحى الهادر، وانقلب على ظهره وأخذ يركل الهواء بقدميه. ولهذا اضطرت فى هذه اللحظة إلى إسقاط الموضوع. لكننى طرحت الموضوع وقد قررت أن أفهم وجهة نظره، وبعد بضع دقائق طرحت الأمر للنقاش ثانية.

فى هذه المرة بدا وقد استشعر جدتى، فترك لعبة الورق جانباً، وسألنى عدة أسئلة حتى إننى بشكل ما أو بآخر أخبرته بطبيعة قلقى. حينئذ انقلب على ظهره ثانية، لكن فى هذه المرة حرق ملئاً فى مروحة السقف التى كانت تدور فوقنا. بعد بضع لحظات قال:

"أعرف لماذا توقفا. أعرف السبب." ثم التفت إلى، وقال:
"كريستوفر، أنت لا الرجل الإنجليزى بشكل كاف".^(٦)

عندما طلبت منه توضيح الأمر، نظر ثانية إلى السقف واستكان هادئاً. أنا أيضاً انقلبت على ظهري وحدثت حذوه فى التحديق فى

(٦) نلاحظ أن الجملة ناقصة على مستوى الشكل والمعنى، ذلك أننا بصدد طفل يابانى يتحدث الإنجليزية مع طفل إنجليزى؛ ومن ثم يبدو الأداء اللغوى عاكساً لواقع معرفة الطفل بلغة أجنبية هو مضطر للتحدث بها مع صديق طفولته. (المترجم)

المروحة. كان يستلقي بعيداً عني قليلاً بعرض الغرفة، وعندما تحدثت ثانية، أذكر أن صوته بدا منفصلاً بشكل لافت الغرابة.

"الشيء نفسه عندي"، قال. "أبي وأمي يتوقفان عن الكلام لأنني لا الرجل الياباني بشكل كاف."

كما قد قلت بالفعل، كنت أميل لاعتبار آكيرا سلطة كونية في العديد من جوانب الحياة، ولذا كنت أستمع إليه بمنتهى الانتباه في ذلك اليوم. قال لي إن والدي توقفاً عن الكلام مع بعضهما البعض عندما يصبحان في غاية التعاسة بسبب سلوكي - وفي حالتني، كان هذا بسبب عدم تصرفي مثل الرجل الإنجليزي بصورة مرضية. لو كنت قد فكرت في الأمر، قال، كنت سأربط بين مرات صمت والدي وحالات فشلي في هذا الشيء. من جانبه، كان دائماً يعرف متى يخذل دمه الياباني، ولم يحدث أنه صُدم عند اكتشافه أن والديه قد توقفاً عن الكلام مع بعضهما البعض. عندما سألته لماذا لا يعنفوننا حين نسيء التصرف في هذا الأمر، أوضح لي آكيرا أن الأمر ليس على هذا النحو؛ لقد كان يتحدث عن الدفاعات التي تختلف تماماً عن الجُنَح العادية التي يمكن أن نُعاقب لأجلها. كان يشير إلى اللحظات التي تُحبط آباءنا بقسوة لدرجة أنهم لا يتمكنون حتى من عقابنا.

"أمي وأبي يحبطان جداً جداً"، قال بهدوء. "حتى إنهما يتوقفان عن الكلام."

ثم نهض وأشار إلى واحدة من ستائر الشمس المضلعة التي كانت في تلك اللحظة تتدلى جزئياً على إحدى النوافذ. قال، نحن

الأطفال مثل المفصلة التي تحفظ ارتباط الألواح ببعضها. ذات مرة أخبرني بهذا راهب ياباني. غالبًا ما نفشل في إدراك هذا، لكن نحن الأطفال لا نوثق عرى الأسرة فقط، بل والعالم كله معًا. لو لم نلعب دورنا، فسوف تسقط الألواح وتتداعى على الأرض.

لا أذكر من محادثتنا في ذلك اليوم أكثر من هذا، إضافةً إلى، كما أقول، أنني لم أنفق وقتًا طويلاً أمام هذه الأمور. مع ذلك، أذكر أكثر من مرة ميلى للاستفهام من أمى عما قاله صديقى. فى النهاية، لم أفعل هذا، رغم أنني فتحت الموضوع مع العم فيليب ذات مرة.

لم يكن العم فيليب عمًا حقيقيًا. لقد أقام بعض الوقت مع والدى كـ "ضيف عليهما" عند وصوله إلى شنغهاى قبل ميلادى بفترة، أيام كان موظفًا فى Butterfield and Swire. ثم، وبينما كنت أنا صغيرًا جدًا، استقال من الشركة بسبب ما كانت أمى دائماً تصفه بأنه "اختلاف جوهرى مع رؤسائه حول الطريقة التى ينبغى بها أن تتضج". عندما صرت كبيرًا بما فيه الكفاية لمعرفة، كان يدير مؤسسة مُحبة للبشر، تسمى الشجرة المقدسة، كرسى أعمالها لتحسين ظروف المناطق الصينية من المدينة. كان دائماً صديقاً للعائلة، لكن كما قلت، أصبح زائراً دائماً أثناء سنوات حملات أمى المناوئة للأفيون.

أستطيع أن أتذكر غالبًا الذهاب مع أمى إلى مكتب فيليب. كان مقر هذا المكتب داخل الأراضى التابعة لإحدى الكنائس فى وسط المدينة - فى ظنى الآن أنها الكنيسة المتحدة فى طريق سوتشو. كانت عربتنا تمضى مباشرة داخل هذه الأراضى وتقف إلى جوار مرج

كبير تظلمه أشجار الفاكهة. كان الجو هادئاً هنا، رغم ضجيج المدينة من حولنا، وكانت أمي، أثناء نزولها من العربة، تتوقف، وترفع رأسها وتقول: "الهواء. أكثر نقاءً هنا." كانت حالتها المزاجية تعادل بشكل ملحوظ، وأحياناً - لو كان الوقت مبكراً قليلاً - كنت أنا وأمي نمضي بعض الوقت في اللعب على العشب. لو لعبنا لعبة المطاردة، نطارد بعضنا البعض بين أشجار الفاكهة، كانت أمي تضحك غالباً، وترعق بالإنارة نفسها التي كنت أزعق أنا بها. أذكر أننا ذات مرة، توقفنا فجأة، وكنا في مغبة اللعب، عند رؤيتنا لرجل دين يخرج من الكنيسة. وقفنا وقتئذٍ في هدوء على حافة المرج وتبادلنا التحية معه عند مروره. لكن ما لبث أن اختفى من أمامنا حتى استدارت أمي، وأطلقت قهقهة تأمرية، وهي تتحنى على. من الممكن حتى أن تكون هذه الواقعة قد حدثت أكثر من مرة. على أية حال، أذكر أنني كنت مفتوناً بمسألة مشاركة أمي في شيء ما يمكن، مثلي تماماً، أن "توبّخ" لأجله. وربما كان هذا الجانب العفوي من تلك اللحظات حول فناء الكنيسة هو ما جعلها تبدو دائماً ذات خصوصية بدرجة ما بالنسبة لي.

ذكرياتي عن مكتب العم فيليب أنه كان آيلاً للسقوط. في كل مكان كان هناك صناديق مختلفة الأحجام، كومات من الأوراق، وأدراج مفككة، لم تزل بمحتوياتها، تتكدس بصورة مُهملة فوق بعضها البعض. كنت أنتظر ألا تستحسن أمي تلك الفوضى، لكنها كانت تتحدث عن مكتب العم فيليب على أنه إما مريح أو مزدحم فقط.

لم يفته أبداً أن يظهر اهتمامه بي في هذه الزيارات، يصافحني بحرارة، ويجلسني ثم يُشركني في الحوار لعدة دقائق بينما أمي تراقبنا

مبتسمة. غالبًا ما كان يعطيني هدية، شيئًا ما كان يتظاهر بأنه أعده وانتظرنى به - رغم أننى أدركت سريعًا أنه كان يهدينى أول شيء تقع عليه عيناه فى كل مرة. "خمن ماذا أحضرت لك، يا بفن!" كان يصرخ، بينما يحدق فى كل أنحاء الغرفة بحثًا عن شيء مناسب. بهذه الطريقة حصلت على مجموعة كبيرة من مكونات المكتب، حفظتها فى صندوق قديم فى غرفة اللعب: مرمدة سجائر، حامل أقلام من العاج. مرة واحدة فقط فشلت عيناه فى أن يجد شيئًا لى على الإطلاق، بعد أن كان قد أعلن أنه يحمل هدية لأجلى. بعدها جاءت لحظة من التوقف الحرج، قبل أن ينهض ويبدأ التجول فى مكتبه، وهو يتمتم: "وأين وضعتها؟ ماذا فعلت بها بحق الجحيم؟" - وأخيرًا، ربما من يأسه، تقدم صوب الحائط وخلع من عليه خريطة لإقليم يانتجزي، وقد أدى هذا إلى تمزيق أحد أركانها، ولفها وأهداها لى.

فى تلك المرة وضعت ثقتى فيه، كنت أنا والعم فيليب نجلس معًا فى مكتبه، فى انتظار عودة أمى من مكان ما. أقنعنى أن أجلس على كرسيه خلف مكتبه، بينما ظل هو يحوم بلا هدف فى أنحاء المكان. كان يسر إلى بكلامه المسلى القليل المعتاد، ومن الطبيعى أن يجعلنى أضحك فى أسرع وقت، لكن فى تلك المناسبة - بعد أيام فقط من مناقشتى مع أكيرا - لم أكن فى تلك الحالة المزاجية. على الفور أدرك العم فيليب ذلك وقال:

"إذن، يا بفن. نحن اليوم فى حالة اكتئاب إلى حد ما."

رأيتها فرصة سانحة لى وقلت: "عم فيليب، كنت فقط أود أن أسأل. فى ظنك كيف يمكن للواحد أن يكون إنجليزيًا بشكل أكبر؟"

"إنجليزياً بشكل أكبر؟" توقف عن القيام بأي شيء كان يفعله وصدق في. ثم، بتعبير متأمل، اقترب، وسحب كرسيًا إلى المكتب وجلس.

"الآن لماذا تريد أن تصبح إنجليزياً بشكل أكبر مما أنت عليه، يا بفن؟"

"فكرت فقط.... حسناً، فكرت فقط في ضرورة أن أصبح."

"من قال إنك لست إنجليزياً بما يكفي فعلاً؟"

"في الحقيقة، لا أحد." ثم بعد ثانية أضفت: "لكنني أظن أن والدي ربما يظنان هذا."

"وماذا تظن، يا بفن؟ أظن أنه ينبغي عليك أن تكون إنجليزياً بشكل أكبر؟"

"حقيقةً، لا يمكنني أن أقول، يا سيدي."

"لا، أعتقد أنك لا تستطيع. حسناً، هذا حقيقي، بالخارج هنا، أنت تكبر وحولك العديد من الصنوف المختلفة للأشياء؛ صينيين، فرنسيين، ألمان، أمريكيين، ماذا عليك. ليس ثم من عجب إذا ما كبرت وصرت هجيناً بدرجة ما." ثم أطلق ضحكة قصيرة واستأنف كلامه: "لكن هذا ليس بالشيء الرديء. أتعرف ماذا أعتقد، يا بفن؟ أعتقد أنه لن يكون رديئاً لو أن الأولاد أمثالك كبروا بشيء ولو قليلاً من كل شيء. حينئذ، سنعامل بعضنا البعض بصورة أفضل كثيراً. لتكن أقل هذه الحروب لقاء شيء واحد. آه نعم. ربما ذات يوم، تنتهي

كل هذه الصراعات، ولن تنتهى بفضل العظام من رجال الدولة، أو الكنيسة، أو المنظمات المماثلة لهذه. سيحدث هذا لأن الناس قد تغيرت. سيكونون جميعاً مثلك، يا بفن. مزيجا. لذا لماذا لا تصبح هجيناً؟ إنه شيء صحيح.

"ولكن إذا ما فعلت، كل شيء ربما...." توقفت.

"كل شيء ربما ماذا، يا بفن؟"

"مثل ذلك الشيش هناك" - أشرت - "لو سقطت المفصلة. ربما يتداعى كل شيء."

حرق العم فيليب في الشيش الذى أشرت إليه. ثم نهض، ذهب إلى النافذة ولمسها برفق.

"ربما يتداعى كل شيء. محتمل أن تكون على صواب. أظن أنه شيء لا يمكن أن نتجنبه بسهولة. الناس يحتاجون إلى الشعور بالانتماء. إلى أمة، إلى سلالة. وإلا، من يدري ما يمكن أن يحدث؟ حضارتنا هذه، ربما تتهار بالفعل. ويتداعى كل شيء، كما قلت." تنهد، وكأننى قد هزمته تَوّاً في المناقشة. "لذا فأنت تريد أن تصبح أكثر إنجليزية. حسناً، حسناً، يا بفن. إذاً ماذا علينا أن نفعل حيال هذا؟"

"كنت أتساءل، لو كان مناسباً، يا سيدى، لو أنك لا تمنع تماماً. أتساءل إذا ما كان لى أن أحاكيك أحياناً."

"تحاكينى؟"

"نعم، يا سيدى. أحياناً فقط. فقط لأتعلم القيام بالأشياء على الطريقة الإنجليزية."

"هذا إطراء كبير، أيها الصديق العجوز. لكن ألا تظن أن والدك هو من يستحق هذا الامتياز العظيم؟ أقول، فيما يخص القيام بالأشياء بالطريقة الإنجليزية كما أنزلت."

أشحت بوجهى بعيداً، ولابد أن العم فيليب قد استشعر أنه أخطأ فى قول شيء ما. عاد ثانية إلى كرسيه وجلس مرة أخرى أمامى.

"انظر،" قال بهدوء. "سأخبرك بما سوف نفعل. إذا ما انتابك القلق حول كيفية القيام بأداء الأشياء، أى شيء، إذا ما انتابك القلق حول الطريقة المناسبة للقيام بها، حينئذٍ فقط تأتى إلى وسوف نتناقش بعمق فى الأمر. سوف نتناوله باستفاضة حتى تخرج بالمفيد. الآن. تشعر أنك أفضل؟"

"نعم، يا سيدى، أظننى أفضل." استطعت أن أبتسم. "لك الشكر، يا سيدى."

"انظر هنا، يا بفن. ينتابك خوف بسيط وصحى، أنت نموذج رائع بالفعل. أنا واثق أن أمك وأباك فى منتهى الفخر بك."

"أتظن هذا فعلاً، يا سيدى؟"

"نعم. بالفعل. لذلك، تشعر أنك أفضل؟"

عند هذا، نهض على قدميه ليواصل تجواله فى أرجاء مكتبه. ولكى يعود إلى حالة خفة الدم المعروفة عنه، بدأ يسرد قصة غير

معقولة عن السيدة التى فى المكتب المجاور، مما جعلنى أنهار
ضاحكاً.

كم كنت معجباً بالعم فيليب! ولم يكن هناك أى سبب يجعلنى
أفترض أنه لم يكن فى الأصل مغرمًا بى؟ هذا ممكن جدًا فى هذه
المرحلة، لم يتمنى لى شيئاً سوى الخير، ولم يكن لديه أية فكرة، مثلى
تماماً، حول المسار الذى اتخذته الأمور.

الفصل السادس

عندما بدأت جوانب بعينها في سلوك أكيرا تضايقتي بشدة، كنا في الفترة نفسها تقريبًا - ذلك الصيف نفسه. تحديدًا، ثرثرتي التي لا تنتهي عن الإنجازات اليابانية. لقد كان دائمًا يستهدف القيام بهذا، لكن في ذلك الصيف، بدا أن الأمور قد وصلت إلى مستويات جائرة. كان صديقي، وبصورة متكررة، يوقف اللعب لمجرد أن يلقي على محاضرة حول أحدث الأبنية اليابانية التي تم تشييدها في منطقة المال والأعمال، أو عن الوصول الوشيك لقارب مسلح ياباني آخر إلى الميناء. حينئذٍ كان يُجبرني على الاستماع إلى أدق التفاصيل، وكل بضع دقائق، أكون مضطرًا للاستماع إلى زعمه بأن اليابان قد أصبحت، "دولة كبرى وعظيمة تمامًا مثل إنجلترا". أكثر الأشياء إثارة كانت تلك المناسبات التي يحاول فيها فتح باب الجدل عن ينخرط في البكاء بسهولة، الياباني أم الإنجليزي. لو أنني انتصفت للإنجليز في أي وقت، كان صديقي، على الفور، يطلب وضع الأمر في حيز الاختبار، بما يعنى عمليًا وضعي في مباراة مخيفة لمصارعة الساعدين حتى يحدث أحد شيئين، إما أن أستسلم أو أنخرط في البكاء.

في ذلك الوقت، بررت هوس أكيرا ببطولة سلالته بأنه في الواقع سيبدأ دراسته في اليابان في الخريف التالي. لقد رتب والداه إقامته مع أقاربه في نجاساكي، ورغم أنه سيعود في العطلات المدرسية إلى شنغهاي، فإننا أدركنا أن لقاءاتنا ستقل كثيرًا جدًا وعلى الفور جعلتنا

تلك الأنباء نشعر باليأس. لكن مع مقدم الصيف، بدا أكبرا وقد أقنع نفسه بتفوق الحياة بكافة جوانبها في اليابان وأصبح في حالة إثارة متزايدة بفكرة مدرسته الجديدة. بدورى انتابنى بالغ القلق من افتخاره المُلح بكل ما هو يابانى لدرجة أننى مع أواخر الصيف كنت فعليًا أتطلع إلى التخلص منه. حقيقةً، عندما أتى اليوم المنتظر، ووقفت خارج منزله ألوح للسيارة التى أقلته إلى الميناء، أعتقد أننى أبدًا لم أشعر بالأسى.

لكننى، بعد فترة قصيرة جدًا، بدأت أفقده. ليس لأننى لم أقم صداقات أخرى. على سبيل المثال، كان هناك أخوان إنجليزيان يعيشان بالقرب منى، وكنت ألعب معهما بانتظام، ورأيتهما بصورة أكثر بعد رحيل أكبرا. كنت على علاقة جيدة بهما، خاصة عندما يكون ثلاثتنا فقط فى اللعب. لكن زملاءهم فى المدرسة كانوا يشاركوننا اللعب أحيانًا - أولاد آخرين من مدرسة شنغهاى الحكومية - ثم تغير سلوكهما تجاهى، وكنت أحيانًا هدفًا لمقالب بعينها. بالطبع لم أهتم بهذا مطلقًا، مادمت رأيت أنها جميعًا كانت مقالب من النوع اللطيف لا تضمر بالأساس أى بغض حقيقى. حتى فى ذلك الوقت، كنت أدرك أنه إذا ما كان هناك مجموعة من خمسة أو ستة أولاد، جميعهم إلا واحد زملاء فى المدرسة نفسها، فإن الدخيل سيكون عرضة فى هذه الحالة لأن يصبح هدفًا لمزاح لا ينطوى على أذى. ما أعنيه هو لم أفكر بشكل سيئ فى أصدقائى الإنجليز؛ لكن مع ذلك، منعتنى هذه الممارسات من الوصول بعلاقتى معهم إلى المستوى نفسه من الحميمية والألفة مع أكبرا، ومع مرور الشهور، أعتقد أننى بدأت أفقد صحبته أكثر وأكثر.

لكن ذلك الخريف الذى شهد أول غياب لأكيرا على وجه التحديد لم يكن كثيبًا على الإطلاق. أذكر ذلك الخريف فترة كنت فيها غالبًا فى حالة من الفراغ، ظهيرات خاوية تمر الواحدة تلو الأخرى، تلاشى معظمها الآن من ذاكرتى. مع ذلك، عددٌ ضئيل جدًا من الأحداث وقع خلال تلك الفترة. أحداث أصبحت لاحقًا أعتبرها ذات دلالة معينة.

على سبيل المثال، الحادثة التى ارتبطت برحلتنا إلى مضمار سباق الخيول مع العم فيليب، تلك التى وقعت بكل تأكيد بعد أحد اجتماعات أمى صباح سبت ما. كما يمكن أن أكون بالفعل قد قلت، رغم تشجيع أمى لى للاندماج مع رفاقها فى الحملات المناوئة للأفيون فى حجرة الصالون، فلم يكن مسموحًا لى بدخول غرفة الطعام لحضور الاجتماعات نفسها. أذكر أننى ذات مرة سألتها عما إذا كان بإمكانى أن أحضر، والمثير للدهشة أنها أمنت التفكير طويلاً فى الأمر. وأخيرًا قالت:

"معذرة، يا بفن. لا السيدة أندروز ولا مدام كآلو تستحسنان اصطحاب الأطفال. إنه لشيء يُرثى له. فربما يمكنك أن تتعلم بعض الأمور بالغة الأهمية."

أبى، بطبيعة الحال، لم يكن محظورًا عليه حضور الاجتماعات، لكن بدا أن هناك فرضية قائمة تلزمه بالإحجام عن حضورها. من الصعب الآن أن أقرر ما إذا كان أيهما مسئولاً عن هذه الحالة؛ لكن بكل تأكيد، دائمًا ما كان إفطار صباح السبت الذى يعقد فيه أحد الاجتماعات مشوبًا بجو غريب. بالفعل لم تكن أمى تذكر الاجتماع نفسه لأبى، لكنها كانت تحيطه بنظرة اشمئزاز أثناء تناول الطعام.

يصبح أبى، من جانبه، مصابًا ببشاشة اضطرارية تستمر معه طيلة الصباح وقُدُمًا حتى يبدأ ضيوف أمى فى الوصول. كان العم فيليب دائمًا أول من يصل، وكان من المعتاد أن ينهمك مع أبى فى دردشة مصحوبة بكثير من الضحك تستمر لبضع دقائق فى الصالون. ثم مع وصول عدد أكبر من الضيوف، تأتي أمى لتأخذ العم فيليب جانبًا، حيث يبدأان فى التشاور بجدية بخصوص الاجتماع التالى. عند هذه النقطة دائمًا يقوم أبى بتغيب نفسه عادةً بأن يذهب إلى غرفة مكتبه.

فى ذلك اليوم الذى أجتره الآن، أذكر أننى سمعت الزوار وهم

يهمون بالمغادرة بعد انتهاء الاجتماع، وخرجت إلى الحديقة لأنتظر أمى - التى ظننت أنها، كالعادة سنتظهر بعد قليل للاستيلاء على أرجوحتى، وهى تتغنى طيلة الوقت بنغماتها الأسيرة. وعندما لم يظهر لها أى أثر بعد فترة، دخلت البيت لأتحرى الأمر، وحين دخلت إلى المكتبة وجدت باب غرفة الطعام مغلقًا؛ بما يعنى أن الاجتماع قد انتهى بالفعل، غير أن العم فيليب وأمى كانا ما زالا هناك. ثم ظهر أبى خلفى، وكان يظن، دون شك، أن المهمة الصباحية قد انتهت. عندما سمع الأصوات الآتية من غرفة الطعام، أوقفنى وقال لى:

"أوه، إنهم ما زالوا بالداخل."

"العم فيليب فقط."

ابتسم أبى، ثم تقدمنى إلى داخل غرفة الطعام. عبر الباب كنت أرى العم فيليب واقفًا على قدميه، ثم سمعت الرجلين وهما يضحكان بصوت مرتفع وتلا ذلك ضحك أكثر تشوبه روح الدعابة. حينئذ،

وبينما كنا ننتهى من تناول طعامنا، طرح العم فيليب اقتراحه: لماذا لا نذهب جميعًا إلى مضمار سباق الخيول لقضاء فترة بعد الظهر؟ فكرت أمى فى الأمر وأعلنت أنها فكرة رائعة. قال أبى أيضًا إنها فكرة جيدة، لكنه تحتم عليه الاعتذار بسبب الأعمال التى تنتظره فى غرفة المكتب.

"لكن بشكل ما يا حبيبتى"، قال وهو يلتفت لأمى، "لماذا لا تذهبين أنت مع فيليب؟ يبدو أنها ستكون ظهيرة رائعة."

"حسنًا، فى الواقع، أظن أن هذا ممكنًا"، قالت أمى. "قليل من الإثارة من الممكن أن يترك أثرًا جيدًا علينا. وعلى كريستوفر أيضًا."

وفى تلك اللحظة نظر جميعهم إلى- ورغم أننى كنت وقتئذٍ فى التاسعة فقط من العمر، فقد نجحت فى قراءة الموقف بدرجة ما من الدقة. بطبيعة الحال، كنت أعرف أننى فى وضع اختيار عرض: أن أخرج للذهاب إلى مضمار سباق الخيول أو البقاء فى البيت مع أبى. لكننى أعتقد أننى فهمت أيضًا المعانى الضمنية بعمق: لو أننى اخترت البقاء بالبيت، حينئذ سترفض أمى الذهاب إلى مضمار سباق الخيل وحدها فى صحبة العم فيليب. بعبارة أخرى، الخروج متوقف على ذهابى معها. إضافةً إلى أننى عرفت - وقد أدركت هذا بيقين هادئ - أن أبى وقتئذٍ كان يعتريه أمل ميئوس من تحقيقه فى عدم ذهابنا، لأن قيامنا بهذا سيتسبب فى ألم بالغ له. لم تش سلوكياته بما جعلنى أفترض هذا، لكن فى الحقيقة، كان هذا نتاج ما استوعبته خلال الأسابيع والشهور الماضية - ربما دون قصد. كانت هناك، بالطبع، أمورٌ لم أفهمها مطلقًا تلك الأيام، غير أننى تقريبًا أدركت هذا

بوضوح بالغ: فى تلك اللحظة، كان أبى يعتمد على تمامًا فى إنقاذ الموقف.

لكن ربما لم أفهم بما فيه الكفاية. لأنه عندما قالت أمى: "هيا، يا بفن. أسرع وأحضر حذاءك"، فعلت ذلك بحماس واضح، حماس اختلقته للاستعراض. وبإمكانى أن أحمل فى ذاكرتى من هذا اليوم صورة أبى وهو يشيعنا إلى الباب الأمامى، وهو يصافح العم فيليب، ضاحكًا وملوحًا لنا عندما أخذت العربية أمى، والعم فيليب وأنا بعيدًا فى طريقنا لنزهة ما بعد الظهر.

الذكريات القلائل التى ظلت واضحة من ذلك الخريف كانت أيضًا تخص أبى. تحديدًا، تلك اللحظات الغريبة من "تفاخره". كان أبى دائمًا معتدلاً فى طباعه وكان يرى التفاخر فى الآخرين ضعفاً. ولهذا السبب انتابنى الدهول فى ذلك الوقت لأنه من الشاذ جدًا أن أسمعته يتكلم بالطريقة التى تكلم بها فى عدة مناسبات متفرقة خلال تلك الفترة. تلك كانت جميعها لحظات قصيرة أصابتنى باندعاش ضئيل، ومع ذلك بقيت مع مرور السنوات فى ذاكرتى.

على سبيل المثال، تلك المرة التى كنا فيها على العشاء عندما قال لأمى بغتة:

"هل أخبرتك، يا حبيبتى؟ هذا الزميل عاد لرؤيتى، هذا المندوب عن عمال رصيف تحميل السفن وتفريغها. أراد أن يشكرنى على كل ما فعلته لأجلهم. كان يتحدث إنجليزية جيدة للغاية أيضًا. دائمًا ما يتكلم هؤلاء الصينيون بإسراف حين التعبير عن عواطفهم، بطبيعة

الحال. لابد أن يتناول الواحد أحاديثهم مع مقدار من الملح. لكن أتعرفين، يا عزيزتي، لدى انطباع واضح بأنه صادق فيما قال. قال إنني "بطلهم المفضل". ما رأيك في هذا؟ بطل مفضل!

ضحك أبي، ثم ترقب أمي بعناية. واصلت تناولها للطعام للحظة، ثم قالت:

"نعم، يا حبيبي. لقد سبق وأخبرتني بذلك."

بدا أبي متضائلاً قليلاً، لكنه في اللحظة التالية ابتسم ثانيةً ببشاشة وضحك مرة أخرى وهو يقول: "فعللاً أخبرتك!" ثم التفت إلي، قائلاً: "لكن بفن هنا لم يسمع بهذا بعد. أليس كذلك، يا بفن؟ بطل مفضل. هكذا يلقبون أباك."

لا أذكر عن أى شىء كان ذلك، ومن المحتمل ألا أكون قد أعرت الأمر كثيراً من الاهتمام. لقد تذكرت الواقعة فقط لأنها، كما قلت، كانت غريبة على أبي أن يتحدث عن نفسه بهذه الطريقة.

حادثة أخرى من هذا النوع وقعت ذات ظهيرة كان والديّ خلالها في الطريق إلى الحدائق العامة كي يستمعا إلى فرقة الآلات النحاسية. كنا قد خرجنا من العربية لتونا عند الطرف الأعلى من رصيف الميناء، وكنت أنا وأمي نحدق عبر الجادة^(٧) العريضة باتجاه البوابة داخل الحديقة. كانت إحدى ظهيرات أيام الأحد المشمسة، وأذكر أن الأرصفة على كلا الجانبين كانت مزدحمة بمتنزهين يرتدون ملابس

(٧) الجادة: شارع عريض تكتنفه الأشجار. (المترجم)

مبهجة وجميلة ويستمتعون بالنسيم الذى كان يهب من الميناء. رصيف الميناء نفسه كان مزدحمًا بالعربات، والسيارات والجُنُرُكُشَات،^(٨) وكنت أستعد أنا وأمى لعبوره، حين تقدم أبى خلفنا، بعد أن دفع للسائق أجرته، وقال بغتة بصوت مدوٍ للغاية:

"هل ترين، يا حبيبتي، إنهم فى الشركة الآن يعرفون. يعرفون أننى لست الشخص الذى يتزحزح عن مطالبه. بينتلى يعرف هذا، أيضًا. آه نعم، إنه الآن يعرف هذا تمام المعرفة!"

فى البداية لم تُظهر أمى بأى شكل أنها سمعت، تمامًا مثلما حدث فى واقعة العشاء. أخذت يدى وشققنا طريقنا وسط الزحام صوب الحديقة. "أحقًا يعرف؟" كل ما تمت به همسًا عندما بلغنا الجانب الآخر.

غير أن هذا لم يكن حقيقةً تنمة الأمر. دخلنا الحديقة العامة ولفترة، مثل كل أسرة أخرى دخلت الحديقة بعد ظهيرة أحد أيام الأحد، تمشينا حول المروج والمزاهر ونحن نلقى التحية على الأصدقاء والمعارف، ونتوقف بين الحين والآخر لدرشة قصيرة. أحيانًا كنت أرى أولادًا أعرفهم - من المدرسة أو من دروس البيانو فى منزل مدام لويس - لكنهم كانوا، مثلى، يمشون إلى جوار آبائهم متظاهرين بأعلى مستويات السلوك، وكنا نتعرف على بعضنا البعض بخجل، وربما أبدًا. كانت فرقة الآلات النحاسية ستبدأ العزف فى

(٨) الجُنُرُكُشَة: عربة صغيرة بدولابين تتسع لشخص واحد عادةً ويجرها رجل واحد، تستعمل فى اليابان. (المترجم)

الخامسة والنصف تمامًا، ورغم أن الجميع كانوا يعرفون هذا، فإن معظم الناس كانوا ينتظرون حتى تتدفع الأبواق بعرض الحديقة قبل أن يتحركوا حركة واحدة صوب منصة الفرقة الموسيقية.

دائمًا ما كنا نتأخر في التحرك، حتى إن كل المقاعد تكون قد شُغِلَتْ مع وصولنا. لم أكن أهتم بذلك كثيرًا، مادام أنه كان مسموحًا لنا نحن الأطفال بحركة أقل تقيّدًا حول منصة الفرقة، وأحيانًا ما كنت أيضًا أختلط مع الأطفال الآخرين للعب هناك. في تلك الظهيرة بعينها - لا بد أننا كنا في الخريف لأنني أذكر أن الشمس كانت بالفعل آخذة في الغروب فوق الماء خلف منصة الفرقة - كانت أمي قد تحركت بضع خطوات بعيدًا لتتحدث مع بعض الأصدقاء الواقفين على مقربة، وبعد دقائق عدة من الاستماع إلى الموسيقى، طلبت من أبي أن يأذن لي بالذهاب إلى بعض الأولاد الأمريكيين الذين كنت أعرفهم وكانوا يلعبون على الحافة الخارجية من تجمعات الناس. واصل النظر بإمعان إلى الفرقة الموسيقية ولم يرد، لذلك كنت على وشك تكرار طلبى، عندما قال بهدوء:

"كل هؤلاء الناس هنا، يا بفن. كل هؤلاء الناس. استفسر منهم وسوف يقولون أن لديهم معايير وقيمًا. لكنك ستري كلما كبرت، أن قليلين جدًا منهم لديهم بالفعل معايير وقيم. على الرغم من هذا، أمك تختلف. لا تخذل نفسها أبدًا. وتعرف، يا بفن، لهذا السبب تتجح في النهاية. لقد جعلت من أبيك رجلاً أفضل. أفضل كثيرًا. حسنا جدًا، ربما كانت صارمة، لست بحاجة لأن أعرفك هذا، ها ها! حسنا، إنها في منتهى الصرامة معي مثلما هي معك تمامًا. والمدهش أنني بهذا

إنسان أفضل. أخذت وقتًا طويلاً، لكنها نجحت. أريدك أن تعرف هذا، يا بفسن، والدك لم يعد اليوم الشخص نفسه الذي رأيته في ذلك الوقت، تعرف، وقت أن اندفعت أنت وأمك على. أتذكر ذلك، بالطبع نعم. تلك المرة حين كنت في مكتبي. آسف لأنه حدث واضطرت أن ترى والدك هكذا. حسناً على أية حال، لقد كان هذا فيما مضى. اليوم، شكرًا لأمك، بإمكانى أن أقول أنا الآن شخص أقوى بكثير، يا بفسن، ذات يوم ستفخر بي."

استوعبت قليلاً مما قاله، إضافةً إلى أنني شعرت لو أن أمى - التى كانت على مقربة منّا - سمعت كلمة من هذه الكلمات، كانت ستغضب. لهذا لم أرد على أبى حقيقةً. لدى إحساس بأننى ببساطة سألته ثانية، بعد بضع لحظات، عما إذا كان بإمكانى أن أذهب لأنضم إلى أصدقائى الأمريكيين، وكان ذلك نهاية الأمر.

لكن خلال الأيام اللاحقة، وجدت نفسى أمعن التفكير فى الكلام الغريب الذى قاله أبى، وتحديدًا، ذكره لحادثة ما قمت فيها أنا وأمى بمداهمته فى مكتبه. لوقتٍ طويل، لم يكن عندى فكرة عما أشار إليه، وحاولت، دون جدوى، أن أضاهى ذكرى أو أخرى مع كلماته. أخيرًا استقر فكرى على ذكرى واحدة من سنوات حياتى الأولى، حيث لم يكن عمري قد تجاوز الخامسة أو الرابعة بأى حال من الأحوال - ذكرى قد أصبحت بالفعل غامضة ومضبية فى عقلى، حتى حينئذٍ عندما كنت فى التاسعة من العمر.

كانت غرفة مكتب أبى فى أعلى طابق من المنزل وتطل على الحديقة الخلفية. لم يكن يسمح لى عادةً بدخولها، وبشكل عام لم يكن

مُحَبِّدًا أَنْ أَلْعَبَ فِي أَيِّ مَكَانٍ بِالقَرَبِ مِنْهَا. لَكِنْ كَانَ هُنَاكَ مَرَّ ضَيِّقٍ يَقُودُ مِنْ مَنْبَسَطِ الدَّرَجِ إِلَى بَابِ غُرْفَةِ الْمَكْتَبِ، عَلَى امْتِدَادِهِ، صَفٌّ مِنْ اللُّوْحَاتِ ذَاتِ بَرَاوِيزٍ ثَقِيلَةٍ زَهَبِيَّةِ الطَّلَاءِ. كَانَتْ لُوحَاتٌ دَقِيقَةٌ تَشْبَهُ تَصْمِيمَاتِ لَمِينَاءِ شَنْغَهَايَ إِذَا مَا شُوهِدَ مِنْ مَنْظُورِ شَخْصٍ يَقِفُ عَلَى الشَّاطِئِ فِي بُووتَانْغٍ؛ بِعِبَارَةٍ أُخْرَى، كُلُّ الْمَرَاكِبِ الْكَثِيرَةِ فِي الْمِينَاءِ كَانَتْ تَظْهَرُ وَمَعَهَا أَسْنَانُ الْمِينَاءِ الْعَظِيمَةِ فِي الْخَلْفِيَّةِ. رُبَّمَا يَرْجِعُ تَارِيخُ الصُّورِ عَلَى الْأَقْلِ إِلَى ثَمَانِينَاتِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ وَأُظِنُّ أَنَّهَا مِلْكٌ لِلشَّرَكَةِ مِثْلَ الْكَثِيرِ مِنَ التَّحَفِ وَالصُّورِ فِي الْمَنْزِلِ. الْآنَ، أَنَا نَفْسِي بِالْفِعْلِ لَا أَذْكَرُ هَذَا، لَكِنْ أُمِّي غَالِبًا مَا كَانَتْ تُخْبِرُنِي كَيْفَ كُنَّا نَقِفُ أَمَامَ هَذِهِ اللُّوْحَاتِ وَنَسْمِي الْمَرَاكِبَ الْكَثِيرَةَ الَّتِي فِي الْمَاءِ بِأَسْمَاءٍ مُضْحَكَةٍ. وَفَقًّا لِأُمِّي، كُنْتُ أَنْخَرُطُ سَرِيعًا فِي الضَّحْكَ وَكُنْتُ أحيانًا أَرْفُضُ إِنْهَاءَ اللَّعْبَةِ حَتَّى نَكُونَ قَدْ أَطْلَقْنَا اسْمًا عَلَى كُلِّ مَرَكَبٍ نَرَاهُ. لَوْ كَانَ الْأَمْرُ هَكَذَا - لَوْ كَانَ الضَّحْكَ الصَّاحِبَ بِالْفِعْلِ مِنْ عَادَتِنَا طِيلَةً هَذِهِ اللَّعْبَةِ - فَمِنْ الْمُؤَكَّدِ إِذْنِ أَنَّنَا لَا بَدَّ لَمْ نَكُنْ نَصْعَدُ لِنُسْكِيَ نَفْسَنَا بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ أَثْنَاءَ وَجُودِ أَبِي فِي غُرْفَةِ مَكْتَبِهِ. لَكِنْ عِنْدَمَا أَمَعَنْتِ التَّفَكِيرَ فِي كَلَامِ أَبِي أَثْنَاءَ وَقُوفِنَا عِنْدَ مَنْصَةِ الْفِرْقَةِ الْمَوْسِيقِيَّةِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، بَدَأْتُ أَتَذْكَرُ مَوْقِفًا لِي أَنَا وَأُمِّي وَكُنَّا نَقِفُ مَعًا بِالْفِعْلِ عَلَى أَرْضِيَّةِ الْعِلْيَةِ تِلْكَ، كُنْتُ فِي تَمَامِ اسْتِغْرَاقِي فِي مِمَارَسَةِ لَعِبَتِنَا تِلْكَ، عِنْدَمَا بَغْتَةً تَوَقَّفْتُ وَاسْتَكَانْتُ تَمَامًا.

ظَنَنْتُ فِي الْبَدَايَةِ أَنَّي عَلَى وَشْكِ التَّعَرُّضِ لِنُوبَةٍ مِنَ التَّعْنِيفِ، رُبَّمَا بِسَبَبِ شَيْءٍ مَا تَقَوَّهْتُ بِهِ تَوًّا وَلَمْ يُعْجِبْهَا. لَمْ يَكُنْ حَتَّى مَعْرُوفًا عَنْ أُمِّي أَنْ يَتَغَيَّرَ مَزَاجُهَا فَجْأَةً فِي مَغْبَةِ الْإِنْسِجَامِ وَتَعْنِفْنِي بِسَبَبِ

سوء تصرف كنت قد ارتكبته فى أول اليوم وهى قد تذكرته بغتة. لكن عندما لزمتم الصمت استعدادًا فقط لمثل هذا الانفجار، أدركت أنها تسترق السمع. ثم فى اللحظة التالية استدارت ودفعت الباب الذى انفتح بصورة فجائية جدًا على أبى فى مكتبه.

لمحت داخل الغرفة عبر كتلة جسم أمى. الصورة الثابتة هى لأبى ينهار فجأة على مكتبه، ووجهه يغطيه العرق وتلتوى قسماته من الإحباط. ممكن جدًا أنه كان ينشج وأن صوت نسيجه هو ما استلقت انتباه أمى. أمامه، وفى كل بقعة على مكتبه، كانت هناك أوراق، دفاتر، كراسيات. لاحظت - أظن أننى تتبعت اتجاه نظرة أمى - ورق وكراسيات أكثر على الأرض، كما لو كان قد قذف بها أرضًا فى نوبة عصبية حادة. كان ينظر لأعلى علينا، وهو فى حالة إجمال، ثم فى اللحظة التالية قال بصوت صدمنى بلا شك:

"ليس بإمكاننا أن نفعلها! لن نرجع أبدًا! أنت تطلبين الكثير جدًا، يا ديانا. هذا كثير جدًا!"

همست أمى له بشيء ما، شيء من التأنيب بلا شك كى يستعيد رباطة جأشه. فى هذه اللحظة استعداد أبى توازنه قليلًا، وصدق عبر أمى، نظر إلى لأول مرة. لكن وجهه تغضن على الفور تقريبًا باليأس، وقال ثانية وكان قد التفت لأمى وهو يهز رأسه بضعف:

"هذا ليس فى مستطاعنا، يا ديانا. سوف ننهار جميعًا. لقد فكرت فى كل شيء. لن نعود أبدًا إلى إنجلترا. لن نجد ما يكفى للحياة. بدون الشركة، نصبح مشردين."

ثم بدا وقد فقد السيطرة مرةً أخرى، وعندما بدأت أمي تقول شيئاً آخر - شيئاً بصوتها الهادئ الغاضب - بدأ أبي في الصراخ، لم يكن صراخه في وجهها بقدر ما كان في جدران غرفة المكتب.

"لن أفعل هذا، يا ديانا! يا إلهي، إلى ما تدفع بي؟ إن هذا فوق تحملي، فوق تحملي، أسمعين؟ فوق تحملي! لا أستطيع هذا."

من الممكن أن تكون أمي في هذه اللحظة قد أغلقت الباب عليه، وأخذتني بعيداً. لا أتذكر عن هذه الواقعة أكثر من ذلك. وبالطبع، لست متأكداً من أحاسيسي بالضبط، ناهيك عن نص الكلام، الذي تقوه به أبي ذلك اليوم. لكن هكذا تشكلت هذه الذكرى في عقلي، وأعترف أنني أضفت إدراكي البعدي لها.

في ذلك الوقت، كانت تلك تجربة مربكة بالنسبة لي فعلياً، ورغم أنني ربما وجدت من المثير أن يمر أبي، مثلي، بلحظات بكاء وصراخ، فإنني لم أسأل كثيراً عن سبب هذا كله. إضافةً إلي أنني عندما رأيت أبي في المرة التالية، وجدته قد عاد لطبيعته مرةً أخرى، أمي، من جانبها، لم تلمح إلى هذه الحادثة مرةً أخرى أبداً. ولو أن أبي، فيما بعد بسنوات، لم يتقوه بكلامه الغريب ونحن نقف بجانب منصة فرقة الآلات النحاسية، ربما ما كنت أبداً لألتقط هذه الذكرى مطلقاً.

لكن كما أقول، بعيداً عن كل هذه الحكايات الصغيرة الغريبة، فهناك قليل منها جدير بالتذكر في ذلك الخريف والشتاء الكئيب الذي حل بعده. كنت فاتر الهمة لوقت طويل من تلك الفترة وابتهجيت عندما

أَلَقْتُ مِى لى، إِلَى بِمَحْضِ الصَّدْفَةِ، بِأَخْبَارٍ عَنْ عَوْدَةِ أَكْبَرٍ مِنْ
الْيَابَانِ، وَأَنْ أَمْتَعْتَهُ، فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، يَتِمُّ إِنْزَالُهَا مِنَ السَّيَّارَةِ الْوَاقِفَةِ
فِي الْمَمْشَى بِجَوَارِ الْبَابِ.

الفصل السابع

شعرت بالبهجة لأن آكيرا قد عاد إلى شنغهاي ليس فقط للزيارة، لكن لأجل غير مسمى، ومعه خطط لاستئناف دراسته في مدرسته القديمة في نورث سيشوان روود مع بداية الفصل الدراسي الصيفي. لا أذكر أن أيًا منا قد احتفل بعودته بطريقة خاصة من أي نوع. لدى انطباع بأننا واصلنا صداقتنا من حيث انتهينا بها في الخريف السابق بأقل قدر من الجلبة. كنت أشعر بفضول كبير لسماع تفاصيل تجربة آكيرا في اليابان، لكنه أقنعني بأنه من الطفولي - وإلى حدٍ ما أقل من مستوى اهتماماتنا - أن نناقش مثل هذه الأمور، ولذلك أعلننا عن رغبتنا في استئناف صداقتنا وفقًا للروتين القديم وكأننا لم ننقطع أبدًا عن ذلك الروتين. خمنت بالطبع ألا تكون الأمور قد سارت معه على ما يُرام في اليابان، لكنني لم أبادر بالشك في نصف هذا إلا في هذا اليوم الربيعي الدافئ عندما مزق كُم الكيمون^(٩) الذي كان يرتديه.

عندما كنا نلعب بالخارج، كان آكيرا يرتدى ملابس مماثلة لملابسي إلى حدٍ كبير - قميص، وشورت، في الأيام الحارة، وقبعة ضد الشمس. لكن في ذلك الصباح بعينه وأثناء لعبنا على رابية في الحديقة الخلفية لمنزلنا، كان يرتدى الكيمون - وهذا ليس استثنائيًا، كان مجرد ثوب غالبًا ما يرتديه حول بيته. كنا نجرى أعلى وأسفل الرابية ونحن نؤدى دراما، عندما توقف فجأة على قمة الرابية وجلس

(٩) الكيمون: ثوب فضفاض واسع الرُدين يرتديه اليابانيون. (المترجم)

مقطب الجبين. ظننت أنه جرح نفسه لكن، عندما تقدمت نحوه، رأيته يتفحص قطع في كمّ الكيمونو. كان يفعل هذا بمنتهى التركيز، وأعتقد أنني قلت له شيئاً ما مثل:

"ماذا جرى؟ سوف تقوم خادمتك أو أى شخص آخر بحياسة ذلك في أسرع وقت."

لم يرد - بدا للحظة أنه قد نسي وجودى كليةً - وأدركت أنه كان غارقاً في كرب عميق أمام عيني. استمر في فحص القطع لبضع ثوان أخرى، ثم أرخى ذراعه، وحدث باندعاش في الأرض أمامه وكان مأساة هائلة قد حلت به توءاً.

"هذه ثالث مرة،" تمتم بهدوء. "للمرة الثالثة في أسبوع واحد أتعرض لفأل نحس."

حينئذٍ، عندما واصلت النظر إليه بارتباك إلى حدٍ ما، قال: "ثالث فأل نحس. الآن سيعيدنى أبى وأمى مرةً أخرى إلى اليابان."

بطبيعة الحال، لم أستطع أن أفهم كيف أن قطعاً صغيراً في كيمون قديم يمكن أن يفضى إلى كل هذه العواقب، لكننى في هذه اللحظة كنت منتبهةً جداً على إثر هذا المشهد لأهمية أن أربض إلى جواره وأطلب منه بالإحاح تفسيراً لكلماته. لكننى لم أستطع أن أخرج من صديقى إلا بأقل القليل ذلك الصباح - فقد ازدادت حدة تجهمه وانغلاقه - ويبدو أنني أذكر تفرقنا وعلاقتنا ليست في أفضل حال. مع هذا، فخلال الأسابيع اللاحقة، اكتشفت تدريجياً ما كان كامناً وراء سلوكه الغريب هذا.

منذ أول يوم له في اليابان، وأكيرا في منتهى التعاسة. ورغم أنه لم يُعلن عن هذا صراحةً، فقد حدثت أنه نبذ بجلافة بسبب "غرابته"؛ طباعه، وتصرفاته، وكلامه، ومئات الأشياء الأخرى التي جعلته موصومًا بالاختلاف، وأنه لم يُوبَّخ بطريقة مهينة من قِبَل أقرانه اليابانيين فقط، بل ومن معلميه وحتى - لقد ألمح إلى هذا أكثر من مرة - من الأقارب الذين كان يُقيم في بيتهم. في النهاية، كان حزنه عميقًا، واضطر والداه لإعادته لبيته في منتصف الفصل الدراسي.

استولت على صديقي فكرة أنه ربما يضطر للعودة إلى اليابان مرة أخرى. والحقيقة أن والديه افتقدا اليابان بصورة مزعجة وغالبًا ما تحدثا عن عودة الأسرة إلى هناك. لقد أدرك أكيرا - مع أخته الكبرى، إيتسوكو، التي لم تكن كارهة للعيش في اليابان على الإطلاق - أنه الوحيد في الأسرة الذي يتمنى أن يظل في شِنغهاي؛ وأن اعتراضه القوي فقط على الفكرة هو ما منع والديه من حزم الأمتعة والإبحار إلى نجاساكي، ولم يكن متأكدًا بالمرّة من طول المدة التي ستظل خلالها اختياراته تحظى بالأولوية على اختيارات أخته ووالديه. كانت الأمور في أفضل حالات التوازن، وأي استياء يجلبه على نفسه - أي خطأ، أدنى فشل دراسي - كان يمكن أن يقلب الموازين ضده. ومن ثم فقد افترض أن قطعًا صغيرًا في كُمّ الكيمونو ربما ينشق بسهولة عن أسوأ العواقب.

كما حدث، لم يُسَفر الكيمونو الممزق تقريبًا عن الغضب الشديد الذي كان يخشاه من قِبَل والديه، ولم يسفر الأمر بالمرّة عن شيء ذي بال. لكن خلال تلك الشهور التي تلت عودته، كان كل حادث مؤسف

صغير يقع تلو الآخر يدفع صديقي للعودة إلى كهف القلق والجزع. أعتقد أن أهم هذه الحوادث المؤسفة كانت المسألة الخاصة بلينغ تين وعملية السرقة التي قمنا بها - "جريمة ماضي" التي أثارت فضول سارة كثيرًا أثناء ركوبنا للباص هذه الظهيرة.

كان لينغ تين مع أسرة آكيرا طيلة فترة إقامتها في شنغهاي. ومن بين ذكرياتي الأولى عن زهابي إلى البيت المجاور للعب كانت عن هذا الخادم العجوز وهو يمشي متثاقلاً خلف مقشّته. كان يبدو عجوزاً للغاية، ودائماً ما كان يرتدي عباءة ثقيلة حتى في أيام الصيف، وقلنسوة وضميرة تتدلى من مؤخرة الرأس. نادراً ما كان يبتسم للأطفال، على عكس كل الخدم الصينيين في البيوت المجاورة، لكن لم يحدث أيضاً أن قطّب جبينه أو نهرنا، ولولا سلوك آكيرا معه، لما كان محتملاً أن أعتبره مصدر خوف. في الواقع، أذكر أنني كنت في البداية الأكثر ارتباكاً من جراء الذعر الذي يستولي على آكيرا كلما اقترب الخادم منا. على سبيل المثال، لو أن لينغ تين كان يمر بالكوريديور، كان صديقي يقطع أي شيء كنا نقوم به ويقف متصلاً في مكان جزء من الغرفة لا يراه الرجل العجوز ولا يتحرك ثانية حتى يزول الخطر. في تلك الأيام الأولى من صداقتنا، لم أكن بعد قد أصبت بعدوى الإحساس بالفرع الذي أصاب آكيرا، مفترضاً أنه ناتج عن شيء ما محدد حدث بين آكيرا و لينغ تين. كما أقول، لقد كنت مرتبكا للغاية، لكن كلما سألت آكيرا عن تفسير لسلوكه. كان يتجاهلني بمنتهى البساطة. بعد فترة اعتدت أن أقدر عميق ارتبائه لعدم قدرته على التحكم في فزعه من لينغ تين وتعلمت ألا أقول شيئاً كلما كانت مبارياتنا تتعطل بهذه الطريقة.

لكن ومع تقدمنا في السن، أتصور أن آكيرا بدأ يشعر بالحاجة إلى مبرر لخوفه. مع بلوغنا سن السابعة أو الثامنة، لم تعد رؤية لينغ تين تسبب لصديقي أى تَجَمُّد؛ وبدلاً من ذلك، كان يقطع أى شىء يقوم به وينظر إلى بابتسامة عريضة مشوبة بالغرابة. ثم يضع فميه بالقرب من أذنى، ويسرد باطراد رتيب وفضولى - لا يختلف عن الرهبان الذين سمعناهم أحياناً يترنمون في سوق بوونى روود - أكثر الإيحاءات فزعاً بالنسبة للخادم العجوز.

لهذا عرفت عن لينغ تين ولعه المخيف بالأيدى. حدث ذات مرة أن آكيرا نظر أسفل الكوريڨور المؤدى إلى غرفة لينغ تين في مناسبة نادرة كان الخادم قد ترك فيها بابهُ موارباً، ورأى الأيدى الكالحة للرجال والنساء والأطفال والقردة مُكومة على الأرض. مرة أخرى، رأى آكيرا الخادم في وقت متأخر من الليل وهو يحمل سلة إلى داخل البيت متخمة بأذرع قردة صغيرة ممزقة. نبهنى آكيرا بأننا ينبغى دائماً أن نكون تحت أعين حرسنا. لو أننا أعطيناها أقل فرصة، فسوف لن يتردد لينغ تين في قطع أيادينا.

عندما تساءلت عن سبب ولع لينغ تين الشديد بالأيدى، بعد عددٍ من هذه التعليمات، نظر آكيرا إلىّ بإمعان، ثم سأل عما إذا كان من الممكن أن يَأتمنى على أهم أسرار الأسرة. عندما أكدت له إمكانية هذا، أمعن التفكير لفترة أطول قليلاً قبل أن يقول في النهاية:

"إذن سأخبرك، أيها الفتى العجوز! سببٌ مفزع! سبب قطع لينغ تين للأيدى. سوف أخبرك!"

من الواضح أن لينغ تين قد اكتشف وسيلة يحول بها الأيدي الكالحة إلى عناكب. فى غرفته كانت هناك أحواض كثيرة بها سوائل عديدة ينقع فيها الأيدي الكثيرة التى مرة واحدة. ببطء تبدأ الأصابع فى الحركة وحدها - فى البداية ارتعاشات قليلة فقط، ثم حركات التوافقية، وأخيرًا تخرج شعرات قاتمات، ثم يأخذها لينغ تين من السائل ويضعها مفككة مثل العناكب، فى كل أنحاء المنطقة المجاورة. غالبًا ما كان أكيرا يسمع الخادم العجوز وهو يتسلل فى جوف الليل إلى الخارج فقط ليفعل هذا. حتى إن صديقى ذات مرة إحدى متحولات لينغ التى أخذت من محلولها قبل الأوان ولم تصبح بعد شبيهة بعنكبوت ويمكن بسهولة تسميتها يد كالحة، تتحرك فى الحديقة تحت العشب.

رغم أننى حتى فى هذه السن لم أستطع مطلقًا أن أصدق هذه القصص، فقد كانت بالفعل تقلقنى وترعبنى ولبعض الوقت كانت مجرد رؤية لينغ تين كافية لإثارة الفرع داخلى. فى الواقع، مع تقدمنا فى السن قليلًا، لم نستطع أننا أن يتخلص تمامًا من هلعنا من لينغ تين. كان هذا الشيء دائمًا ما يחדش كبرياء أكيرا، وحينما بلغنا الثامنة من العمر تقريبًا، بدأ يتزايد احتياجه المستمر لتحدى هذه المخاوف القديمة. غالبًا ما أتذكره وهو يسحبنى لمكان ما فى بيته حيث يمكننا التجسس على لينغ تين وهو يمسح الحمام أو يقوم بأى شئ آخر. لم أكن أمانع كثيرًا فى القيام بهذه الطلعات التجسسية، لكن الذى كان يصيبنى بالفرع هى تلك المرات التى كان أكيرا فيها يحملنى بإلحاح على التجاسر والاقتراب من غرفة لينغ تين.

حتى هذه النقطة حافظنا على ابتعادنا عن تلك الغرفة، مادام آكيرا دائماً ما أكد أن الأبخرة التي تتصاعد من سوائل لينغ تين كان من الممكن أن تتومنا مغناطيسياً وتسحبنا إلى الداخل عبر الباب. أصبحت الآن فكرة الاقتراب من الغرفة بالنسبة لصديقي هاجساً يستحوذ عليه ويستبد به. ربما نكون في حالة استغراق تام في حوار حول أمر مختلف تماماً، ثم بغتة، تظهر هذه التكشيرة الغريبة على وجهه ويبدأ في الهمس: "هل أنت خائف؟ كريستوفر، هل أنت خائف؟"

حينئذٍ كان يُجبرني على أن أتبعه داخل بيته، عبر تلك الغرف ذات الأثاثات الغريبة، إلى المدخل المقوس بدعاماته الثقيلة الذي يُعين بداية الجزء الخاص بالخدم. ساعة نمر تحت قوس المدخل، نجد أنفسنا نقف في كوريدور معتم أرضه مكسوة بألواح خشبية عارية ولامعة، على الطرف الآخر المواجه لنا، كان باب غرفة لينغ تين.

في البداية، كان يُطلب مني أن أقف على المدخل وأراقب بينما كان آكيرا يدفع نفسه خطوة بعد أخرى في الكوريدور حتى قطع نصف المسافة تقريباً باتجاه تلك الغرفة الكريهة. ما زلت أرى صديقي، بجسمه القصير المكتنز وقد تصلب من التوتر، ووجهه الذي كلما استدار لينظر نحوي يلمع من جراء العرق، ممناً نفسه ببضع خطوات أبعد قبل يلتفت إلى مراراً بابتسامة نصر عريضة. بعدئذٍ تأتي كل تحفيزاتهِ وتتمراتهِ حتى أتمكن من استجماع شجاعتى وأحذو حذوه في عمله البطولي هذا. لفترة ملحوظة، كما أقول، استبدت بأكيرا، إلى حد ما، اختبارات الشجاعة الخاصة بغرفة لينغ تين، واستهلكت كثيراً من متعة الذهاب للعب في بيته.

مع ذلك، ولبعض الوقت أيضاً، ظلت مسألة التقدم مباشرةً صوب الباب أكبر من كلينا، هذا بغض النظر عن الدخول عبره إلى الغرفة. عندما دخلنا غرفة لينغ تين أخيراً، كنا فى سن العاشرة، وكان هذا - رغم أننى لم أكن أعرف ذلك وقتئذٍ - هو عامى الأخير فى شنغهاى. كان ذلك عندما ارتكبت أنا وأكيرا حادثة السرقة الصغيرة - فعلة متهورة، ولدهشتنا، فشلنا تماماً فى تحاشي أصدائها الواسعة.

كنا دائماً على دراية بأن لينغ تين يرحل لمدة ستة أيام فى أوائل أغسطس لزيارة قريته الأم بالقرب من هانغتشو، وكنا قد تحدثنا كثيراً عن كيفية انتهاز الفرصة حينئذٍ لدخول تلك الغرفة أخيراً. وبالتأكيد، فى أول ظهيرة بعد رحيل لينغ تين، انطلقت إلى منزل أكيرا لأجد صديقى فى تمام الاستغراق بالأمر. يجب أن أقول إننى عمومًا كنت، وقتئذٍ، شخصاً تزيد ثقته بنفسه كثيراً حتى العام السابق من عمره، ولو أننى كنت لم أزل أشعر بقليل من تلك الرهبة القديمة من لينغ تين، فأنا بالتأكيد لم أكن أظهرها. فى الحقيقة، أظن أننى كنت الأكثر هدوءاً فى مشهد دخول الغرفة - وهذا شيء لاحظته صديقى بكل تأكيد ورأى أنه جانب إضافي فى هذا التحدى.

انقلب الأمر، فخلال تلك الظهيرة، كانت أم أكيرا تحيك فستاناً، ولسبب ما تطلب هذا الفستان منها أن تتحرك باستمرار من غرفة إلى أخرى، وأعلن أكيرا أنه من المخاطرة بحال مجرد التفكير فى مغامرتنا. بالتأكيد لم أتضايق لهذا، لكننى على يقين بأن أكيرا كان الأكثر امتناناً بهذا العذر.

لكن اليوم التالي، كان يوم سبت وعندما وصلت منزل أكيرا مع منتصف الصباح تقريبًا، كان والداه قد خرجا. لم يكن لأكيرا مربية، مثلي، وعندما كنا في سن أصغر كنا نتجادل غالبًا حول الأكثر حظًا منا. كان دائمًا يتبنى موقفًا مفاده أن أطفال اليابان ليسوا بحاجة إلى مربية لأنهم أكثر شجاعة من أطفال الغرب. ذات مرة سألته، أثناء واحدة من مجادلاتنا حول هذا الموضوع، من سيلبي حاجاته حال خروج أمه من المنزل، مثلاً، لو أنه أراد بعض الماء المثلج، أو لو أنه جرح نفسه. أذكر أنه أخبرني أن الأمهات اليابانيات لا يغادرن البيت أبدًا لو لم يسمح الأطفال تحديدًا لهن بهذا - ادعاء وجدت أن من الصعب الأخذ به، مادمت أعرف بحقيقة أن السيدات اليابانيات يتقابلن في دوائرهن بكثرة، مثلما تفعل السيدات الأوربيات، في آستور هاوس أو في قاعة مارسيل للشاي في سيتشوان روود. لكن عندما أوضح أنه في حالة غياب أمه تكون الخادمة موجودة لرعايته، وفي الوقت نفسه تكون له مطلق الحرية للقيام بما يحلو له دون أي قيود من أي نوع، بدأت أعتقد أنني الوحيد الذي يُخدَم. بشكل غريب ظلت أتبنى وجهة النظر هذه، حتى رغم أنه على المستوى الفعلي كانت هناك خادمة أو أخرى يتم تفويضها لمتابعة كل حركة نقوم بها، في تلك المناسبات التي نلعب فيها ببيتنا بينما تكون أمه غائبة عنه. في الحقيقة، كان هذا يعني وجود شخص عبوس، خاصةً عندما كنا أصغر سنًا، خائف، بلا شك، من العواقب الوخيمة إذا ما حل بنا أي شر، يقف في منطقة قريبة تمكنه من كبج جماحنا بينما نحن نبذل قصارى جهدنا في اللعب.

على الرغم من أننا، مع حلول ذلك الصيف، سُمِحَ لنا، بطبيعة الحال، أن نتحرك بحرية أكبر كثيرًا دون متابعة. في ذلك الصباح الذي دخلنا فيه غرفة لينغ تين، كنا نلعب في واحدة من غرف أكيرا قليلة الأثاث ذات الأرضيات المغطاة بالكامل في الطابق الثالث بينما الخادمة العجوز - الشخص الوحيد غيرنا الموجود في المنزل - كانت مستغرقة ببعض أعمال الخياطة في الغرفة التي تقع تحت غرفتنا بالضبط في في الطابق الثاني. أذكر أن أكيرا توقف في لحظة بعينها عما كان يفعل، ومشى على أطراف أصابعه إلى البلكونة ومال على قضبانها، بشكل جعلني أخاف عليه من السقوط. ثم حينما عاد مسرعًا، لاحظت أن الابتسامة العريضة الغريبة قد ظهرت على وجهه. أخبرني همسًا أن الخادمة قد غطت في النوم كما توقع.

"الآن لابد أن ندخل! هل أنت خائف، يا كريستوفر؟ هل أنت خائف؟"

أصبح أكيرا بغتة في حالة من التوتر الشديد لدرجة أن مخاوفي القديمة من لينغ تين عادت واستغرقتني للحظة. لكن عند هذه النقطة كان تراجع أينا مستحيلًا، وشققنا طريقنا بهدوء قدر الإمكان إلى جناح الخدم حتى وقفنا معا مرة أخرى في ذلك الكوريديور المعتم بالأواحه اللامعة العارية.

ما أذكره هو أننا مشينا بخطى واسعة وقليل من التردد أسفل الكوريديور حتى أصبحنا على بعد أربع أو خمس ياردات فقط من باب غرفة لينغ تين. حينئذ ثمة شيء جعلنا نتوقف، ولثانية، لم يكن أينا قادرًا على مواصلة التقدم؛ لو أن أكيرا في هذه اللحظة كان قد استدار

وجرى، كنت سأفعل مثله دون أدنى شك. لكن يبدو أن صديقي حينئذٍ كان قد وجد قدرًا أكبر من التصميم، وقال وهو يمد يده إلي: "هيا، أيها الفتى العجوز! سنذهب معًا!"

شبك ذراعه في ذراعي وقطعنا الخطوات القلائل الأخيرة على ذلك النحو. ثم دفع آكيرا الباب وأمعنا النظر داخل الغرفة.

رأينا غرفة قليلة الأثاث، مُرتَّبة، أرضيتها المبطنة بالألواح كانت مكنوسة بشكل جيد. النافذة مغطاة بستارة حاجبة للشمس، غير أن الضوء كان يرشح للداخل عبر حوافها. جو الغرفة كان ينضح برائحة بخور شاحبة، مَزَّار في الركن القصي من الغرفة، سرير ضيق خفيض، وخزانة ذات أدراج كبيرة بشكل مذهل، صقيلة بشكل رائع، ولها مقابض منمقة تتدلى من كل درج صغير.

دخلنا، ولبضع ثوان، ظللنا في حالة من السكون، نتنفس بالكاد. ثم أطلق آكيرا تنهيدة واستدار لي بابتسامة هائلة، في غاية الابتهاج بالتأكيد لأنه انتصر على مخاوفه القديمة. لكنه في اللحظة التالية تبدل سريعًا إحساسه بالانتصار إلى قلق مفاده أن خلو الغرفة من أى ملمح واضح للشر سيجعله مثار سخريّة واستهزاء. وقبل أن أتفوه بأى شيء، أشار بسرعة إلى خزانة الأدراج وهمس بإلحاح.

"هناك! هناك بالداخل! احترس، احترس، أيها الفتى العجوز! العناكب، إنها هناك بالداخل!"

لم يكن مقنعًا على الإطلاق ولا بد أنه قد أدرك هذا. مع ذلك، لمدة ثانية أو اثنتين، انسلت إلى رأسى صورة تلك الأدراج الصغيرة وهي

تتفتح أمام عيوننا بينما المخلوقات - في مراحل متعددة بين تحولها من أيدي إلى عناكب - تُخرج أطرافها التجريبية. لكن أكبرا كان حينئذ يشير بصورة مثيرة إلى زجاجة صغيرة تقف على طاولة خفيضة إلى جوار سرير لينغ تين.

"غسُول! همس. "الغسُول السحري الذي يستعمله! ها هو هناك!"

أغوتني فكرة أن أصب السخرية على هذه المحاولة البائسة للحفاظ على خيال جامح قد تجاوزه عمرنا، لكن في تلك اللحظة، داهمني طيف آخر مباغت للأدراج وهي تتفتح، وبقية من خوفى القديم منعني من أن أتفوه بكلمة. إضافة إلى أنني كنت قد بدأت أشعر بالقلق بسبب احتمالية قابلية للتحقق بشكل أكثر قوة: تحديداً، أنه من الممكن أن تكتشف الخادمة أو أى شخص آخر من الكبار وجودنا في تلك الغرفة. لم أستطع أن أبدأ في تخيل الخزي الذي كان سيلحق بنا، العقوبات، المناقشات الطويلة بين والدي ووالدي أكبرا. لم أستطع حتى أن أفكر كيف سنبدأ تفسير سلوكنا.

حينئذ فقط تحرك أكبرا للأمام، وقبض على الزجاجة وضمها إلى صدره.

"اذهب! اذهب!" هسهس، انتزعنا الهلع. اندفعنا خارج الغرفة باتجاه أسفل الكوريدور، ونحن نقهقه بصوت مكتوم.

عندما عدنا إلى الأمان في الطابق العلوى - كانت الخادمة قد بقيت نائمة - أكد أكبرا، ثانية، زعمه بأن الأدراج كانت مكتظة بالأيدي الكالحة. كنت أرى الآن أنه فعليا قلق بشأن استهزائي من

وهمنا الذى استقر طويلا وبدرجةٍ ما شعرت أنا أيضاً بالحاجة إلى الإبقاء عليه. ولذا لم أقل شيئاً يشوه هذا الادعاء، ولا طرحت أى افتراض يقول بأن غرفة لينغ تين قد خذلتنا أو أننا استدعينا شجاعتنا بناءً على ادعاءات زائفة. وضعنا الزجاجة على طبق فى منتصف أرضية الغرفة، ثم جلسنا كى نتفحصها.

نزع أكيرا السدادة بحرص. داخلها سائل شاحب ينضح برائحة ينسون غامضة. حتى اليوم لا أعرف لأى غرض كان الخادم العجوز يستعمل ذلك الغسول؛ فى تخمينى أنه دواء مُرخص قام بشرائه لعلاج حالة مرضية مزمنة. على أية حال، فشكله الغريب خدّم أهدافنا. بحرص شديد، غمسنا غصيناً فى الزجاجة وتركناه يقطر على ورقة. حذر أكيرا أنه لا يجب أن نترك أى قطرة تلمس أيدينا خشية أن نستيقظ فى اليوم التالى بعناكب فى أطراف أذرعنا. فى الواقع لم يصدق أى منا هذا، لكنه بدا مهماً بالنسبة لأكيرا أن نتظاهر، ثانية، بذلك، ولهذا قمنا بأداء مهمتنا بحرص مبالغ فيه.

فى النهاية، أعاد أكيرا السدادة إلى مكانها ووضع الزجاجة فى الصندوق المخصص للأشياء الخاصة، قائلاً إنه يسود القيام ببضع تجارب أخرى على الغسول قبل إعادته. على وجه العموم، عندما افترقنا ذلك الصباح، كنا نشعر بأننا فى قمة الاستمتاع.

لكن عندما أتى أكيرا إلى بيتى فى اليوم التالى بعد الظهر، أدركت على الفور أن هناك مشكلة ما قد ظهرت؛ كان مهموماً للغاية، غير قادرٍ على التركيز فى أى شىء. تجنبت لبعض الوقت أن أسأله عما يزعجه، لفرعى من أن يكون والداه بطريقةٍ ما قد اكتشفا ما قمنا

به فى اليوم السابق. رغم ذلك، فى النهاية، لم أعد قادرًا على التحمل وطلبت منه أن يخبرنى عن أسوأ ما لديه. مع هذا، أنكر آكيرا أن يكون لدى والديه أى شك فى أى شىء، ثم غرق ثانية فى كآبته. وبعد كثير جدًا من الضغط، استسلم أخيرًا وأخبرنى بما قد حدث.

حين وجد أنه من المستحيل أن يسيطر على شعوره بالنصر، كشف آكيرا لأخته، إيتسوكو، كل ما فعلناه. ومن المثير للذهول أن رد فعل إيتسوكو كان مفرعًا. أنا أسميته ذهولاً لأن إيتسوكو - التى كانت تكبرنا بأربع سنوات - لم تتفق أبدًا مع وجهة نظرنا بخصوص الطبيعة الشريرة للينغ تين. لكن الآن، مع سماعها لقصة آكيرا، حدثت فيه وكأنها توقعت أن يلتف على نفسه ويموت أمام عينيها. ثم أخبرت آكيرا أن الحظ ساعدنا فى النجاة؛ ذلك لأنها شخصيًا عرفت خدماً عملوا من قبل فى المنزل، تجاسروا وفعلوا ما قد فعلنا، وكان عقابهم على ذلك أن تلاشوا - اكتُشِفَت بقاياهم بعد أسابيع فى إحدى الحارات خارج حدود المستعمرة. قال آكيرا لأخته إنها تحاول أن ترهبه ليس أكثر، وإنه لا يصدقها مطلقًا. لكن من الواضح أنه صُدِّم، وأنا أيضًا أحسست برجفة انتابتنى عندما سمعت هذا "التصديق" - ومن مصدر ثقة مثل إيتسوكو - على كل مخاوفنا القديمة فيما يخص لينغ تين.

حينئذٍ أدركت أن ما يزعم آكيرا للغاية: هو أن شخصًا ما ينبغى عليه أن يعيد الزجاجة إلى غرفة لينغ تين قبل عودة الخادم العجوز خلال ثلاثة أيام. علاوة على إدراكنا أن تظاهرنّا بالشجاعة فى اليوم السابق قد تبخر تمامًا، وإمكانية دخول الغرفة مرة أخرى بداً يفوق قدراتنا.

لعدم قدرتنا على الاستقرار على أى لعبة من ألعابنا المعتادة، قررنا أن نمضى إلى مكاننا الخاص بجانب القناة. طوال الطريق إلى هناك، ناقشنا مشكلتنا من كل زواياها. ماذا سيحدث لو لم نعد الزجاجة إلى مكانها؟ ربما كان الغسول ثميناً جداً وربما يتم استدعاء الشرطة للتحقيق. أو ربما لا يخبر لينغ تين أى شخص عن اختفائه، لكنه سيقدر أن يُنزل بنا انتقاماً مروّعاً. أذكر إلى حدٍ أصبحنا فى غاية الارتباك لرغبتنا فى الحفاظ على خيالاتنا بخصوص لينغ تين، وإلى أى مدى أردنا أن نعمن التفكير فى أفضل طريقة لتحاشي الدخول فى مشاكل خطيرة. أذكر، على سبيل المثال، تفكيرنا فى لحظة من اللحظات أن الغسول عبارة عن دواء قام لينغ تين بشرائه بعد شهور من الادخار، وأنه سيصبح بدونه فى حالة من الإعياء الشديد؛ لكن حينئذٍ فى اللحظة التالية، دون إغفال هذه الفكرة الأخيرة، فكرنا فى افتراضات أخرى تُسلم بأن الغسول هو ما فكرنا فيه دائماً.

كان مكاننا بجوار القناة، والذى يبعد عن بيتنا حوالى ربع الساعة، يقع خلف بعض المخازن التابعة لشركة جاردين ميثوسين. لم نتأكد أبداً إذا ما كنا نتعدى على حرمة مكان ما؛ لأننا كى نصل إلى المكان كنا نمر عبر بوابة مفتوحة دائماً، ونعبر ساحة خرسانية مروراً ببعض العمال الصينيين، الذين كانوا يرمقوننا بشكوكية، لكنهم لم يعترضوا سبيلنا أبداً. بعدئذٍ كنا ندور حول جانب دار متداعية لصناعة المراكب وعلى امتداد فُرْضة^(١٠) قبل أن ننزل إلى رقعتنا من الأرض السوداء الصلبة التى تقع مباشرة على ضفة القناة. كان

(١٠) محطّ السّفن فى البحر. (المترجم)

ذلك المكان يتسع فقط بما يكفي لجلوسنا جنبًا إلى جنب قُبالة الماء، لكن حتى في أشد الأيام قِيظًا كانت المخازن التي تقع خلفنا تمنحنا ظلاً مؤكِّدًا، وفي كل مرة يمر بنا قارب أو يَنْكُ،^(١١) كان الماء يمس أقدامنا بنعومة. على الضفة المقابلة كان هناك عدد أكبر من المخازن، لكن أتذكر أنه كان هناك، تقريبًا أمامنا مباشرةً، فجوة بين بنايتين كنا نرى عبرها طريقًا تصطف على جانبيه الأشجار. غالبًا ما كنت أنا وآكيرا نأتى إلى المكان، رغم حرصنا على ألا نخبر آباءنا أبدًا خشية ألا يتقوا في لعبنا بالقرب من حافة الماء.

في تلك الظهيرة، لحظة جلوسنا، حاولنا لفترة أن ننسى مخاوفنا. أتذكر آكيرا وهو يبادر بسؤالى، كما يفعل غالبًا عندما نصل إلى مكاننا الخاص، عما إذا كنت أستطيع أن أسبح إلى هذه المركب أو تلك، في حالة الخطر. لكنه لم يكن يستطيع الاستمرار، وبغثةً، يبدأ في البكاء مما يصيبني بالذهول.

نادرًا ما كنت أرى صديقى ييكى. اليوم في الحقيقة، هذه هى الذكرى الوحيدة عندي لصديقى وهو ييكى. حتى عندما سقطت على قدمه كتلة كبيرة من الملاط حين كنا نلعب خلف دار الإرسالية التبشيرية الأمريكية، ورغم ما استحال إليه من وجهه من شحوب فإنه لم يبك. لكن فى تلك الظهيرة على ضفة القناة، بلغ آكيرا بالفعل ذروة تحكمه فى نفسه.

أذكر أنه كان يمسك فى يده قطعة من لحاء خشب مبلل، كان يقطع منها أثناء نشيجه قطعًا ويقذف بها إلى الماء. كانت لدى رغبة

(١١) سفينة شراعية صينية. (المترجم)

كبيرة في التخفيف عنه، لكنني تذكرت. لحيرتي أن أنهض لأجد الكثير من قطع الأخشاب تلك لأقطعها وأعطيها له، وكأنه علاج عاجل. ثم لم يبق له خشب كي يقذف به إلى الماء، وتمكن أكيرا من السيطرة على دموعه.

"عندما يكتشف والدي"، أخيرًا قال، "سيغضبنا بشدة. حينئذ لن يسمح لي بالإقامة هنا. حينئذ سنذهب جميعًا إلى اليابان."

كنت لم أزل غير قادر على التفوه بشيء. ثم، تمتم وهو يحذق في قارب كان يمر بنا: "لا أريد أن أعيش في اليابان أبدًا."

ولأن هذا ما كنت أقوله دائمًا عندما يصرح بذلك، فرددت صدى جملته: "وأنا لا أريد أبدًا أن أعيش في إنجلترا."

بهذا، استغرقنا الصمت لبضع لحظات أخرى. لكن ونحن نواصل النظر بإمعان إلى القارب، انشق ذهني عن الطريقة الأكيدة الوحيدة التي يمكن بها منع كل هذه الأصداء المروعة، وأخيرًا أخبرته ببساطة أن كل ما ينبغي علينا عمله هو أن نعيد الزجاجة إلى مكانها في الوقت المناسب، وسيكون كل شيء على ما يُرام.

بدا أن أكيرا لم يسمعني، ولذلك كررت النقطة عليه. استمر في تجاهله لي، حينئذ أدركت إلى أي مدى أصبح خوفه من لينغ تين حقيقيًا منذ أن قمنا بمغامرتنا في اليوم السابق؛ في الواقع، كنت أرى أن الخوف قد أصبح وقتئذ كبيرًا تمامًا مثلما كان دائمًا عندما كنا في سن أصغر، باستثناء أن أكيرا لم يعد قادرًا على الاعتراف به. كنت أدرك مأزقه وحاولت جدًّا التفكير في مخرج. في النهاية، قلت بهدوء:

"أكيرا. سنفعلها معًا، مرةً أخرى. تمامًا مثل آخر مرة. سنشيك أذرعنا ثانيةً، وندخل، لنضع الزجاجاة حيث وجدناها. لو فعلناها معًا هكذا، سنكون في أمان، لن يلحق بنا أى سوء. لا شيء مطلقًا. حينئذٍ لن يعرف أحد شيئًا عن فعلتنا."

أمعن أكيرا التفكير في هذا. ثم استدار ونظر إلى فرأيت نظرة امتنان عميق ومهيب في عينيه.

"غداً، بعد الظهر، فى الثالثة"، قال. "ستخرج أمى إلى المنتزه. لو ذهبت الخادمة فى النوم ثانيةً، سيكون لدينا فرصة".

أكدت له أن الخادمة من المرجح أن تذهب فى النوم ثانيةً، وكررت عليه أننا لو دخلنا الغرفة معًا، فلن يكون هناك ما يثير مخاوفنا.

"سنفعلها معًا، أيها الفتى العجوز!" قال وعلى شفثيه ابتسامة مفاجئة ونهض على قدميه.

فى طريق عودتنا، أنهينا وضع خططنا. وعدت بالمجىء إلى بيت أكيرا فى اليوم التالى قبل خروج أمه بفترة، وبمجرد أن تخرج، سنصعد إلى الطابق العلوى وننتظر معًا، زجاجة لينغ تين مستعدة حال ذهاب الخادمة فى النوم. ارتفعت معنويات أكيرا بشكل ملحوظ، لكننى أذكر، لحظة افترقنا بعد ظهيرة ذلك اليوم، صديقى وهو يلتفت إلى برباطة جأش غير مقنعة محذرًا إياى ألا أتأخر فى اليوم التالى.

كان اليوم التالى حارًا ورطبًا. مع مرور السنوات أمعنت التفكير مرارًا فى كل شيء أتذكره من ذلك اليوم، محاولاً أن أضع التفاصيل

العديدة فى ترتيبها المنطقى. لا أستطيع أن أتذكر الجزء الأول من الصباح. لدى صورة عن طريقتى فى وداع أبى عندما انطلق للعمل. كنت خارج البيت حينئذٍ، أتسكع حول طريق العربى منتظراً ظهوره. أخيراً ظهر، كان يرتدى بدلة بيضاء وقبعة بيضاء، ويمسك حقيبة أوراق وعصا. انحرف وحقق للخارج باتجاه بوابتنا. حينئذٍ، وبينما كنت أنتظر تقدمه نحوى، ظهرت أمى على عتبة الباب خلفه وقالت له شيئاً. تراجع أبى بضع خطوات، وتبادل بعض كلمات مع أمى، ابتسم وألقى بقبلة خاطفة على خدها، ثم تقدم بخطى واسعة إلى حيث كنت أنتظره. هذا كل ما أتذكره عن مغادرته فى ذلك اليوم. لا أذكر إذا كنا تصافحنا، إذا كان قد ربت على كتفى، إذا كان قد التفت عند البوابة ليودعنى بتلوحة أخيرة من يده. الانطباع العام فى ذاكرتى ينفى وجود شىء فى طريقة مغادرته ذلك الصباح يجعلها مختلفة عن طريقته فى المغادرة إلى العمل فى أى يوم آخر.

كل ما أذكره من بقية الصباح هو أنني لعبت بجنودى الدُمى على سجادة غرفة النوم، بينما كان ذهنى منجرفاً دائماً فى المهمة المروعة التى تنتظرنا بعد فترة فى ذلك النهار. أذكر أن أمى خرجت فى وقتٍ ما، وأناى تناولت الغداء مع مى لى فى المطبخ. بعد الغداء، قطعت المسافة القصيرة على طريقنا إلى حيث يقف شجر السنديان الضخم، فى محاولة منى لقتل الوقت حتى موعدنا فى الثالثة، انحرفت عن الطريق، بالضبط أمام أقرب سور للحديقة.

ربما لأننى كنت أحاول أن أشحذ شجاعتى، نجحت ذلك اليوم فى صعود واحدة من أشجار السنديان عند ارتفاع جديد. وحين حططت

مبتهجًا بانتصاري على أغصانها، اكتشفت أنني أطل على منظر عام يضم الوشيع وكل الأراضي الخاصة بالمنازل المجاورة. أذكر أنني بقيت هناك لبعض الوقت، كانت الرياح ترتطم بوجهي بينما يزداد قلقي بخصوص المهمة المزمع القيام بها. خطر ببالي، وأنا قلقٌ كما كنت، أن خوف آكيرا من غرفة لينغ تين أصبح الآن أكثر حدة، وأنه ينبغي على هذه المرة أن أمسك بزمام القيادة. رأيت أن هذه المسؤولية تُحتم علي، وتستوجب أن أظهر واثقًا قدر المستطاع وأنا أقدم نفسي في بيته. لكن مع الاستمرار في البقاء على الشجرة، ظل يخطر ببالي أي عدد من الاحتمالات التي يمكن أن تعترض طريقنا: أن تفشل الخادمة في الذهاب في النوم؛ ربما حتى تختار هذا اليوم دونًا عن كل الأيام لتنظيف الكوريدور الذي تقع عليه غرفة لينغ تين؛ أو ربما تغير أم آكيرا رأيها ولا تغادر البيت كما هو متوقع. وحينئذٍ بالطبع، كانت المخاوف القديمة غير المنطقية التي، رغم محاولاتي الدائمة، لم أستطع أن أطردها من ذهني.

أخيرًا نزلت عن شجرة السنديان، متمنيًا الذهاب للبيت كي أشرب كوبًا من الماء وأعرف كم الوقت. حين دخلت عبر بوابتنا، رأيت سيارتين في الممشى. شعرت بقليل من الفضول تجاههما، لكنني في تلك اللحظة كنت مستغرقًا في الانتباه لهما بدرجة كبيرة. حينئذٍ، وأنا أعبر الردهة حدثت عبر باب غرفة الاستقبال المفتوح ورأيت ثلاثة رجال يتحدثون إلى أمي، وهم يقفون وقبعاتهم في أيديهم. لم يكن في هذا ما يثير القلق - من الممكن جدًا أن يكونوا قد أتوا لمناقشة حملات أمي - غير أن الجو كان مشوبًا بشيء جعلني أتوقف للحظة

هناك في الردهة. بمجرد أن فعلت ذلك، توقفت الأصوات عن الكلام ورأيت وجوههم وهي تستدير ناحيتي. أدركت أن أحد الرجال هو مستر سيمبسون، زميل أبي في الشركة؛ الرجلان الآخران كانا غريبين. ثم ظهرت أمي في حدود رؤيتي لأنها مالت كثيرًا للأمام ونظرت إلي. أظن أنني قد استشعرت حينئذ شيئًا غير طبيعي يتجلى لذهني. على أية حال، في اللحظة التالية، كنت أهرع في اتجاه المطبخ.

لم ألبث أن وصلت إلى المطبخ حتى سمعت وقع أقدام ودخلت أمي. غالبًا ما حاولت أن أتذكر وجهها - التعبير الفعلى الذى كان يعتريه - في تلك اللحظة، لكن دون جدوى. ربما اضطررت غريزيًا ألا أنظر إليه. ما أذكره هو وجودها، الذى بدا طيفيًا وهائلًا، وكأننى صرت صغيرًا جدًا مرة أخرى، ونسيج العباءة الصيفية الباهتة التى كانت تلبسها. قالت لى بصوت خفيض، لكنه كان صوتًا مكتمل النبرات:

"كريستوفر، الرجلان اللذان أتيا مع مستر كريستوفر من الشرطة. لابد وأن أنهى كلامي معهما. بعدئذٍ أريد أن أتكلم معك على الفور. هل تنتظرني في المكتبة؟"

كنت على وشك أن أعترض، غير أن أمي رمقتني بنظرة أخرسنتي.

"في المكتبة، إذن"، قالت، وهي تستدير وتمضى بعيدًا. "سأتى فور ما أنتهى من كلامي مع الرجلين."

"هل ألم بأبى مكروه؟" سألت.

استدارت أمى إلى. "والدك لم يصل إلى العمل مطلقاً هذا الصباح. لكننى متأكدة أن هناك تفسيراً فى غاية البساطة. انتظرنى فى المكتبة. لن أتأخر."

تبعته إلى خارج المطبخ واتجهت صوب المكتبة. وهناك جلست على طاولة الواجب المدرسى وانتظرت، لم أكن أفكر فى أبى، لكن فى أكيرا وكيف كنت سأتأخر عليه فعلياً. تساءلت عما إذا كان يمتلك من الشجاعة ما يمكنه من إعادة الزجاجة بمفرده؛ حتى لو فعل، كان سيظل غاضباً منى. فى تلك اللحظة أحسست بمدى خطورة موقف أكيرا، بالفعل فكرت فى عصيان أمى والخروج تَوْأ. فى الوقت نفسه بدا أن المناقشة الدائرة فى غرفة الصالون ستستمر إلى حد مثير للسأم. كان هناك ساعة حائط فى المكتبة فحدقت فى عقاربها. فى لحظة ما، خرجت إلى الصلاة، متمنياً أن ألقت انتباه أمى وأطلب منها الإذن بالمغادرة، لكننى وجدت أن باب غرفة الصالون كان قد أُغلق. حينئذٍ، وبينما كنت أحوم فى الصلاة وأفكر فى أن أنسل للخارج، ظهرت مى لى وأشارت بصرامة صوب المكتبة. لحظة عُدت إلى المكتبة، أغلقت على الباب وصرت أسمع وقع أقدامها تروح وتجيء بالخارج. جلست ثانية وواصلت مراقبة ساعة الحائط. عندما تجاوزت العقارب الثالثة والنصف، لفتى كآبة، وصرت منتفخاً بالغضب من أمى ومن مى لى.

حينئذٍ سمعت الرجال يخرجون أخيراً. سمعت أحدهم يقول:

"سنفعل كل ما فى مستطاعنا، يا مدام بانكس. لابد أن نتمنى
الأفضل، ونثق بالله."

لم استطع أن أسمع رد أمى.

بمجرد أن رحل الرجال، اندفعت للخارج وطلبت السماح لى
بالذهاب إلى أكيرا. غير أن أمى تجاهلت طلبى تمامًا، مما أثار شديد
غضبى، وقالت: "لنرجع ثانيةً إلى المكتبة."

رغم أنى كنت مُحَبَّطًا فإننى امتثلت للأمر، وهناك فى المكتبة،
جلست، انحنت أمامى وأخبرتتى، بمنتهى الهدوء، أن أبى قد فُقد منذ
الصباح. قام مكتبه بإبلاغ البوليس الذى يقوم بالبحث، دون جدوى
حتى الآن.

"لكنه ربما يعود على العشاء"، قالت مبتسمة.

"بالطبع سوف يعود"، قلت بصوتٍ تمنيت أن يحمل إحساسى
بالانزعاج من هذه الجلبة الكبيرة. ثم نزلت عن الكرسي وطلبت
مُجَدِّدًا إذنا بالخروج. لكن فى هذه المرة فعلت ذلك بحماس أقل لأننى
أدركت من الساعة أنه لم يعد هناك أى معنى للذهاب إلى منزل
أكيرا. لابد وأن أمه قد عادت؛ ووجبة المساء الخاصة به ستقدم له
بعد قليل. شعرت ببالغ الامتعاض لأن أمى أصرت على الإبقاء على
حبيسًا فقط لتخبرنى بشيء أدركته بطريقةٍ أو بأخرى قبل أكثر من
ساعة ونصف الساعة. عندما أخبرتتى أخيرًا أنه بإمكانى أن أذهب،
صعدت إلى غرفتى ببساطة، وصفقت جنودى على سجادتى وبذلت
قصارى جهدى كى لا أفكر فى أكيرا أو مشاعره تجاهى فى تلك

اللحظة. لكنني ظلت أتذكر كل ما قلناه بجانب القناة، ونظرة الامتحان التي ألقى بها إلى. إضافةً إلى أنني لم أكن أود أن يعود أكيرا إلى اليابان أكثر مما كان هو يتمنى.

رافقني اكتتابي طوال الليل، لكن بالطبع تم تفسير ذلك على أنه رد فعل للموقف الخاص بأبي. طيلة المساء، كانت أمي تقول لي أشياء من قبيل: "يجب ألا نكتب. لا بد وأن هناك تفسيرًا في منتهى البساطة لغيابه." وكانت مي لي على غير العادة في غاية الرقة معي وهي تساعدني في الاستحمام. لكنني أذكر أيضًا، مع انقضاء وقت الليل، مرور أمي أيضًا بمثل هذه اللحظات "البعيدة" التي أدركتها جيدًا خلال الأسابيع التالية. في الواقع، أظن أنه في تلك الليلة نفسها، عندما كنت أستلقي في سريري، وكنت لم أزل مستغرقًا فيما سأقوله لأكيرا عندما ألقاه في المرة المقبلة، غمغت أمي، وهي تنظر بعينين خاويتين عبر الغرفة، قائلة:

"مهما حدث، بإمكانك أن تفخر به، يا بفن. بإمكانك دائمًا أن تفخر بما فعل."

الفصل الثامن

لا أتذكر الكثير عن الأيام التي تلت اختفاء أبي مباشرة، سوى أنني كنت في أغلب الأحيان مهمومًا بأكيرا جدًا - تحديدًا، بما سأقول له عندما أراه في المرة المقبلة - لدرجة أنني لم أستطع أن أحسم أي شيء. مع ذلك وجدت نفسي أقوم بإرجاء زيارة المنزل المجاور، وأفكر حتى في تجنب الحاجة لمواجهته تمامًا - وأن والديه بدافع الغضب الشديد من سوء تصرفه، ربما كانوا في تلك اللحظة يحزمون أمتعتهم استعدادًا للرحيل إلى اليابان. خلال تلك الأيام كان أي نوع من الجلبة بالخارج يجعلني أندفع إلى الطابق العلوي صوب النافذة الأمامية، حيث يمكنني أن أدقق النظر في فناء المنزل المجاور كى أتحرى أى إشارات تفيد تحريمًا للأمتعة.

حينئذٍ بعد مرور ثلاثة أو أربعة أيام، في صباح ملبد بالغيوم، كنت ألعب وحدي بالخارج على المرج الدائري أمام منزلنا عندما سمعت أصواتًا قادمة من السور المتاخم لمنزل أكيرا. وبسرعة أدركت أن أكيرا كان ينقل دراجة أخته حول ممشى عربتهم؛ غالبًا ما رأيته يحاول كثيرًا أن يركب هذه الدراجة، التي كانت كبيرة جدًا عليه، وتعرفت على الجلبة التي تصدرها العجلات أثناء كفاحه للتوازن على الدراجة. في لحظة ما سمعت تصادمًا وصرخة مع ارتطامه والدراجة بالأرض. الاحتمال الذي خطر ببالي هو أن أكيرا قد لمحني من الطابق العلوي وأنا ألعب وخرج بدراجته خصيصًا

لُيْلَتِ انتباهي. بعد بضع لحظات أخرى من التردد - خلالها استمر
أكيرا في التصادم بالدراجة - أخيرًا تقدمت بخطى واسعة إلى خارج
بوابتنا، واستدرت وحدقت داخل حديقته الأمامية.

حقيقةً كان أكيرا منفرج الساقين على دراجة إيتسوكو، مستغرقًا
في محاولاته لأداء بعض حركات السيرك التي تطلبت منه رفع يده
عن مقود الدراجة، تمامًا عند الدوران في دائرة صغيرة. بدا أنه في
حالة من الانهماك الشديد لدرجة أنه لم يلحظ وجودي، ولم يعلن عما
يفيد رؤيته لي. أخيرًا قلت ببساطة:

"آسف لأنني لم أستطع المجيء ذلك اليوم."

رمقني أكيرا بنظرة متجهمة، ثم عاد للاستغراق في
استعراضاته. كنت على وشك أن أفسر له سبب التخلي عنه، لكن
لسبب ما، وجدت نفسي غير قادرٍ على التقوه بأكثر من ذلك. وقفت
هناك أشاهده لفترة أطول قليلًا. ثم قلت وأنا أتقدم خطوة باتجاهه،
خافضًا صوتي إلى حد الهمس:

"ماذا حدث؟ هل أعدتها؟"

رمقني صديقي بنظرة غضب رافضة للألفة التي شيعت لها نبرة
صوتي، ثم دار بدراجته. أحسست أنني موشك على البكاء، لكنني
تذكرت ذات مرة جدلنا العدائي حول من هو أقرب إلى البكاء الياباني
أم الإنجليزي، فتمكنت من قمع دموعي. فكرت ثانية أن أخبره باختفاء
أبي، وفجأةً بدا هذا السبب مبررًا جوهريًا ليس فقط لتبرير خذلاني
له، ولكن لكثير من الإشفاق على. تصورت الصدمة والخزي اللذان

سيغيران وجه أكيرا لحظة أنطق بالكلمات: "لم أستطع المجيء ذلك اليوم لأن... لأن أبي قد أُخْتُطِف!" - لكنني بطريقةٍ ما لم أستطع أن أنطق بها. وبدلاً من ذلك، أعتقد أنني استدرت بالفعل وجريت عائداً إلى بيتي.

لم أر أكيرا خلال الأيام القليلة اللاحقة. ثم ذات ظهيرة أتى إلى بابنا، وسأل مي لي عني كالعادة. كنت في مغبة القيام بشيء ما، لكنني توقفت عن الاستمرار تماماً وخرجت لمقابلة صديقي. حيائي بابتسامة، وأثناء قيادته لطريقي إلى حديقة منزله، كان يربت ظهرى بحنان. كنت بالطبع متلهفاً لمعرفة ما حدث بالفعل فيما يخص مسألة لينغ تين، لكنني كنت أيضاً متحمساً أكثر لعدم نكء الجراح من جديد، فقاومت رغبتى فى السؤال عن أى شيء بخصوص هذا الموضوع.

ذهبنا إلى الحديقة الخلفية لمنزله - للشجيرات الكثيفة التى سمينها الغابة - وعلى الفور استغرقنا فى واحدة من رواياتنا الدرامية. لدى إحساس بأننا مثلنا مشاهد من إيفانهو، التى كنت أقرأها فى ذلك الوقت - أو ربما كانت واحدة من قراءات أكيرا عن مغامرات الساموراى اليابانى. على أية حال، بعد ساعة أو أكثر، توقف صديقى بغتةً ونظر إلى بغرابة. ثم قال:

"لو تحب، نلعب لعبة جديدة."

"لعبة جديدة؟"

"لعبة جديدة. عن والد كريستوفر. لو تحب."

تراجعت مذهولاً ولا أذكر ماذا قلت بعدئذ. اقترب بضع خطوات فى العشب الطويل ورأيت أنه ينظر إلى تقريباً برقة.

"نعم"، قال. "لو تحب، نلعب لعبة البوليس السرى. نبحث عن الأب. ننقذ الأب."

حينئذ أدركت أن سماع أكيرا بأخبار ما حدث لأبى - الأخبار التى بلا شك كانت موضوع الساعة فى دوائر الجيران - هو ما أعاده لطرق بابى. فهمت أيضًا أن هذا العرض الراهن كان طريقته فى التعبير عن اهتمامه ورغبته فى المساعدة، وأحسست بأن عاطفتى تجاهه تزداد. لكن فى النهاية، برباطة جأش:

"وهو كذلك. بإمكاننا أن نلعب هذه اللعبة لو أردت."

وهكذا بدأ، ما يبدو فى ذاكرتى وكأنه دهرٌ كاملٌ - رغم أنه فى الحقيقة لا يمكن أن يتجاوز فترة قوامها شهران أو أقل - حيث كنا يومًا بعد آخر نخترع ونفرغ كل طاقتنا فى اللعب بكل التغيرات اللانهائية على نية إنقاذ أبى.

فى الوقت نفسه، كانت التحريات الحقيقية حول اختفاء أبى مستمرة. عرفت هذا من الزيارات التى تلقيناها من الرجال الذين كانوا يمسون قبعاتهم فى أيديهم، ويتحدثون بوقار إلى أمى، ومن الحوارات المكتومة بين أمى ومى لى عندما تدخل أمى، مزمومة الشفتين، آخر النهار؛ وبالتحديد، كانت هناك تلك المحادثة التى جرت بينى وبينها عند مطلع السلم.

ليس لدى ذكرى حقيقية عما كنا نفعل قبل تلك اللحظة. لقد بدأت أصعد السلم مسرعًا، متلهفًا لإحضار شىء من غرفة اللعب، عندما أدركت أن أمى قد ظهرت أعلى السلم وفى طريقها للهبوط. لا بد وأنها

كانت موشكة على مغادرة البيت، لأنها كانت ترتدى فستانها البيج المميز، الفستان الذى ينضح برائحة تشبه رائحة الأوراق العطنة. أتصور أننى استشعرت شيئاً فى طريقتهما، لأننى توقفت فى مكانى على الدرجة الثالثة أو الرابعة وانتظرتها. ابتسمت وهى تقترب منى، ومدت يدها. فعلت هذا ولم يزل بيننا عدة درجات، لذلك فكرت للحظة أنها تريد مساعدتى لها فى نزول باقى درجات السلم، مثلما يفعل أبى أحياناً عندما ينتظرها أسفل الدرج. لكن كما حدث، طوقت كتفى بذراعها وهبطنا الدرجات الأخيرة معاً. ثم تركتتى ومضت باتجاه مشجب القبعات على الجانب الآخر من الردهة. أثناء ذلك، قالت:

"بفن، أنا أعرف مدى صعوبة هذه الأيام القليلة الماضية عليك. حتماً يبدو وكأن العالم كله ينهار. فى الواقع، إن هذا من الصعوبة بحال على أيضاً. لكن لا بد وأن تفعل مثلى. لا بد أن تستمر فى الصلاة لله وتظل متفائلاً. أتمنى ألا تكون غافلاً عن صلواتك، أليس كذلك، يا بفن؟"

"نعم، لست بغافل"، أجبت، بشكل ارتجالى إلى حد ما.

"إنها حقيقة محزنة"، استأنفت كلامها، "أن يُختطف الناس فى مدينة كهذه، بين الحين والآخر. إن هذا يحدث كثيراً فى الحقيقة، وفى أوقات كثيرة، وسأتطرف وأقول معظم الأوقات، يعود الناس فى حالة أمنة تماماً. لذلك لا بد أن نتحلى بالصبر. بفن، هل تسمعنى؟"

"أسمع طبعاً." كنت فى ذلك الوقت قد أدت ظهري لها، وكنت أتدلى بذراعى من عمود الدرايزين.

"ما ينبغي أن نقدره"، قالت بعد توقفٍ، "أنه قد تم إسناد القضية إلى أفضل المخبِرين السريين في المدينة. لقد تحدثت معهم، وهم في غاية التفاؤل وأن سر القضية سينكشف فوراً."

"ولكن كم سيستمر هذا؟" سألت بتجهم.

"لابد أن نتفائل خيراً. ينبغي أن نثق بالمخبِرين السريين. وربما نطلب هذا بعض الوقت، لكن لابد أن نتحلى بالصبر. ثم في النهاية ربما تصبح الأمور على ما يُرام، وكل شيء سيعود كما كان من قبل تماماً. لابد أن نواصل الدعاء لله ونتحلى بالتفاؤل دائماً. بفن، ماذا تفعل؟ هل سمعتني؟"

لم أرد على الفور، لأنني كنت أحاول أن أرى كم درجة بإمكان قدمي صعودها مع استمرارى في التشبث بعمود الدرايزين. ثم سألت:

"لكن ماذا لو أن المخبِرين في غاية الانشغال؟ بكل القضايا الأخرى التي يتحتم عليهم كشف أسرارها؟ جرائم القتل، وحوادث السطو. لن يمكنهم فعل أى شيء."

سمعت أمى وهى ترجع بضع خطوات نحوى، وعندما تحدثت بعدئذٍ، اعتبرت صوتها نبرة رقيقة وحذرة ومقصودة.

"بفن، ليس هناك سؤال على الإطلاق حول ما إذا كان المخبِرون السريون "في غاية الانشغال". الجميع في شنغهاى، أهم الشخصيات في هذا المجتمع في منتهى القلق على أبيك، ومهتمين جداً بتفسير الأمر. بعبارة أخرى شخصيات مهمة مثل مستر فورستر. ومستر كارميكل. حتى القنصل العام نفسه. أعرف أنهم جعلوا الأمر قضيتهم

الشخصية كي يروا أباك وهو يعود سالمًا بأقصى سرعة. وبالتالي فأنت تدرك، يا بفن، بأنه ليس أمام المخبزين السريين أى شىء سوى بذل قصارى جهدهم. وهذا ما يفعلونه، الآن، فى هذه اللحظة بالضبط. هل تعرف، يا بفن، أن المفتش كانغ نفسه قد عُين مسئولاً عن التحريات؟ نعم، هذا صحيح: المفتش كانغ. ومن ثم فأنت ترى، لدينا كل مبررات التفاؤل."

بلا شك كان لهذا الحوار بعض الأثر، لأننى أذكر أنى لم أشعر بالقلق تقريبًا بصورة كبيرة خلال الأيام العديدة اللاحقة. حتى فى الليل، حينما كان القلق يعاودنى، كنت غالبًا ما أذهب فى النوم وأنا أفكر فى مخبرى شنغهاى السريين وهم يتحركون حول المدينة، ويضيقونها أكثر وأكثر على المختطفين. أحيانًا، وأنا أستلقى فى الظلام، كنت أجد نفسى أنسج مشاهد درامية مُحكَّمة قبل الاستغراق فى النوم، وكانت تلك المشاهد تُشكِّل مادة لى ولأكيرا فى اليوم التالى.

لا أعنى بهذا، عَرَضًا، أننى وأكيرا لم نلعب خلال هذه الفترة لم نلعب ألعابًا لا علاقة لها بأبى؛ أحيانًا كنا ننسى أنفسنا لساعات فى واحدة من خيالاتنا التقليدية. لكن حينما كان صديقى يشعر بأننى شارد، أو أن جوارحى ليست فيما نفع، كان يقول: "أيها الفتى العجوز. سنلعب لعبة إنقاذ الأب."

كانت تمثيلاتنا عن أبى، كما أقول، تضم احتمالات لا نهاية لها، لكننا بسرعة كبيرة كنا قد رسخنا خطأ سرديًا يتكرر بشكل أساسى. أبى قد أُسِر فى منزل ما فى مكان ما خارج حدود المستعمرة. مختطفوه عبارة عن عصابة مصممة على انتزاع فدية ضخمة. كثير

من التفاصيل الأصغر تكررت كثيرًا حتى أصبحت راسخة أيضًا. على سبيل المثال، كانت الحالة دائمًا أن المنزل الذي أُسِر فيه أبي كان مريحًا ونظيفًا، رغم أنه محاط بأشكال الفزع في الحى الصينى. حقيقةً، ما زلت أذكر كيف رسخ هذا التقليد المتبع بالتحديد. ربما كانت تلك هى المرة الثانية أو الثالثة التى نحاول فيها هذه اللعبة، وكنت أنا وأكيرا نتبادل تمثيل دور المفتش الأسطورى كانغ - الذى كانت ملامحه الوسيمة وقبعته التى يرتديها بأناقة مبالغ فيها معروفة جدًا من صورهِ فى الصحف. لقد كنا فى تمام الاستغراق فيما تجلبه خيالاتنا من إثارة عندما، فجأة، لحظة ظهر أبى لأول مرة فى قصتنا، أوما أكيرا لى - مشيرًا إلى أننى يجب أن أمثل دوره - وقال: "أنت مربوط فى كرسى".

لقد كنا فى غاية الانهماك لكن الآن توقفت.

"لا،" قلت. "أبى ليس مُقيّدًا. كيف يمكن أن يكون مُقيّدًا طوال الوقت؟"

أكيرا، الذى لم يكن يحب أبدًا الاعتراض عليه أثناء كشفهِ لحكاية، كرر بضجر إن أبى مقيّد فى كرسى وأنا لابد أن أُلد هذا فى جذع شجرة على الفور. زعقت ردًا عليه: "لا!" وابتعدت ببطء. لكننى لم أغادر حديقة أكيرا. أذكر أننى وقفت على أول المِرج المُلحق بمنزله - حيث تنتهى "غابتنا" - وحدقت باندِهاش فى سحلية تتسلق جذع شجرة دَردار. بعد لحظة سمعت وقع أقدام أكيرا خلفى وأعددت نفسى لمناقشة شديدة الإرهاق. لكن، ما أثار دهشتى أننى عندما التفت إليه، رأيت صديقى يرمقنى بنظرة استرضاء. اقترب أكثر، وقال:

"أنت على حق. والدك ليس مقيداً. إنه فى غاية الارتياح. منزل المختطفين مريح. مريح جداً."

بعدئذ كان أكبرا هو من يبذل عناية فائقة ليؤكد راحة أبى ووقاره فى كل أعمالنا الدرامية. المختطفون دائماً يخاطبونه وكأنهم خدمه، يقدمون له الطعام، والشراب والصحف بمجرد أن يطلبها. بالتالى أصبحت شخصيات المختطفين بالنسبة إلى كائنات أكثر رقة؛ مع ذلك، ثبت أنهم ليسوا أشراراً، إنهم رجال من أسر تتصور جوعاً بالفعل. لقد ندموا فعلاً على ارتكابهم هذه الفعل العنيفة، هكذا فسروا لأبى، لكنهم لم يستطيعوا أن يروا أطفالهم يتضورون جوعاً حتى الموت. إن ما يفعلونه خطأ، هم يعرفون ذلك، لكن ماذا بأيديهم أن يفعلوا؟ لقد اختاروا مستر بانكس تحديداً لأن وجهات نظره المتعاطفة تجاه أزمة الصينيين الفقراء معروفة لدى الجميع، وأنه من المرجح أن يفهم الوضع المزعج الذى اضطروا لوضعه فيه. عند هذه النقطة، يتهد أبى - الذى كنت أمثل أنا دوره دائماً - بإشفاق، لكنه حينئذ يواصل قائلاً أياً كانت صعوبات الحياة، فلا يمكن التغاضى عن الجريمة. إضافة إلى أنه من الحتمى أن يأتى رجال المفتش كانغ إن أجلاً أو عاجلاً للقبض عليهم، حينئذ سيقى بهم فى السجن، وربما يُغدَمون. أين سيقى هذا بعائلاتهم؟ المختطفون - الذين يمثلهم أكبرا - سيردون بأنه حال اكتشاف البوليس مخبأهم، فإنهم سيسلمون أنفسهم بهدوء، ويتمنون الخير لمستر بانكس عندما يعود لأسرته. لكن حتى هذه اللحظة، هم مضطرون لبذل قصارى جهدهم لتنفيذ خطتهم. حينئذ سيسألون أبى عن العشاء المفضل الذى يطلبه، وسأطلب أنا نيابة عنه

مائدة كبيرة تضم أفضل الأطباق المفضلة لديه - قطعة لحم مشوية من خاصرة البقر، جزر أبيض بالزبد ودائمًا حدوق^(١٢) مسلوق في وسطه. كما أقول، آكيرا وليس أنا هو من كان أكثر ميلاً للإصرار على هذه الجوانب المترفة، وهو من أضاف الكثير من التفاصيل الصغيرة المهمة: غرفة أبي لابد أن تطل على منظر جميل على سطح النهر؛ وأن يكون سريره قد سرقه المختطفون لأجله من فندق بالاس، وبهذا تتحقق قمة الراحة. في وقت ما، نصبح أنا وآكيرا مخبرين سريين - رغم أننا أحيانًا كنا نمثل أدوارنا - حتى تأتي لحظة النهاية، بعد المطاردات، ومشاجرات الأيدي ومعارك المسدسات حول حارات الأحياء الصينية التي تشبه المطردة، أيًا كانت معالجاتنا وافتراضاتنا، كانت قصصنا تنتهي دائمًا باحتفال عظيم في منتزه جيسفيلد، احتفال يشهدنا، الواحد بعد الآخر، ونحن نتقدم إلى منصة أقيمت خصيصًا - أمي، وأبي، وآكيرا، والمفتش كانغ، وأنا - لتحية الجمهور الكبير المبتهج. كان هذا، كما أقول، الخط الأساسي لقصتنا، وأعتقد أنني، عَرَضِيًّا، كنت بطريقة ما أو بأخرى الشخص الذي ألعب دوره مرارًا وتكرارًا خلال تلك الأيام كثيرة الرذاذ في إنجلترا، حين كنت أملأ ساعاتي الفارغة بالتجوال حول نباتات السرخس بالقرب من بيت خالتي، أتمتع همسًا سطور آكيرا نيابة عنه.

ربما كان قد مر شهر على اختفاء أبي حين وانتنى الشجاعة أخيرًا وسألت آكيرا عما حدث بخصوص زجاجة لينغ تين. كنا في لحظات استراحة من اللعب، نجلس معًا في الظل على قمة رابيتا،

(١٢) الحدوق: سمك من فصيلة القد لكنه أصغر منه. (المترجم)

نشرب الماء المثلج الذى أحضرته لنا مى لى فى كوبيين. استرحت حين لم يعد أكيرا يُظهر أى إشارة للانزعاج من الأمر.

"أيتسوكو أعادت الزجاجاة،" قال.

لقد كانت أخته فى البداية مُجَبَّرة تمامًا. لكنها الآن، كلما أرادت أن تُجبر أكيرا على فعل شىء، كانت تهدده بكشف سره لوالديه. رغم ذلك، لم يكن ينزعج أكيرا كثيرًا بهذه الخدعة.

"لقد ذهبت إلى الغرفة أيضًا. لذلك فهى مذنبية مثلى تمامًا. هى لم تقل."

"إذا فليس هناك أى مشكلة،" قلت.

"لا توجد مشكلة، أيها الفتى العجوز."

"لذلك فأنت لست مضطرًا للذهاب والعيش فى اليابان."

"اليابان لا." التفت لى وابتسم. "سأعيش فى شنغهاى للأبد." ثم نظر إلى بوقار وسأل: "لو لم يجدوا والدك. لابد أن تذهب إلى إنجلترا؟"

لسبب ما لم تخطر أبدًا هذه الفكرة المروعة ببالى. فكرت فى السؤال بامعان، ثم قلت:

"لا. حتى لو لم يظهر أبى، فإننا سنعيش هنا للأبد. سوف لن نرغب أمى فى عودتى إلى إنجلترا. إضافةً إلى أن مى لى لن تحب الذهاب إلى هناك. إنها صينية."

للحظة، استمر أكيرا فى التفكير، وهو يحدق فى مكعبات الثلج الطافية فى الكوب. ثم رفع عينيه ناظراً إلى واتجه إلى تماماً.

"أيها الفتى العجوز!" قال. "نحن نعيش هنا معاً، دائماً!"

"هذا صحيح،" قلت. "سوف نعيش فى شنغهاى للأبد."

"دائماً! أيها الفتى العجوز!"

هناك واقعة صغيرة أخرى حدثت خلال تلك الأسابيع التالية لاختفاء أبى. واقعة صرت أعتقد الآن أنها بالغة الأهمية. دائماً لم أكن أعتبرها هكذا؛ فى الواقع، لقد نسيته تماماً بطريقةٍ ما أو بأخرى عندما حدث شىء ما، محض صدفة، منذ بضع سنوات مضت، شىء ما جعلنى لا أتذكرها فقط، بل وأقدر لأول مرة المعنى العميق لما قد شاهدته فى ذلك اليوم.

بدأ الأمر بعد فترة قصيرة من قضية مانارينج، عندما كنت أجرى بحثاً حول خلفيات تلك السنوات التى قضيتها فى شنغهاى. أظن أننى ذكرت هذا البحث من قبل، حيث أجريت جزءاً كبيراً منه فى المتحف البريطانى. أعتقد أن تلك كانت محاولتى، جزئياً على الأقل، كرجل بالغ فى أن أضع يدي على طبيعة تلك القوى التى لم تواتى الفرصة لفهمها وأنا طفل. كان فى نيّتى أيضاً أن أعد نفسى لليوم الذى أبدأ فيه جدّياً تحرياتي حول قضية والدى - التى ظلت إلى يومنا هذا مستعصية على الحل رغم الجهود المستمرة لشرطة شنغهاى. وتظل نيّتى، ضمناً، أن أباشر مثل هذه التحريات فى المستقبل القريب. فى الحقيقة، أنا متأكد أننى فعلت الضغوط على وقتى أقل حدة.

على أية حال، كما أقول، لقد أنفقت عددًا كبيرًا من الساعات في المتحف البريطاني منذ بضع سنوات مضت أجمع مادة معرفية عن تاريخ تجارة الأفيون في الصين في ذلك الوقت. في فترات عديدة، كتبت أيضًا عدة خطابات وأرسلتها إلى الصين طالبًا المعلومات غير المتاحة لي في لندن. ومن ثم تلقيت، ذات يوم، قصاصة صفراء من جريدة نورث تشاينا ديلي North China Daily يرجع تاريخها إلى ثلاث سنوات بعد رحيلي من شنغهاي. بعث لي مراسلي بمقال عن التغيرات التي حدثت في نظم التجارة في الموانئ التي لها حق الامتياز - والتي قد طلبتها بلا شك - لكن كانت الصورة الفوتوغرافية التي صادف أن تكون على الجانب العكسي هي التي أسرت انتباهي على الفور.

لقد حفظت تلك الصورة الصحفية في درج مكتبي، داخل علبة سيجار معدنية، ومن وقت لآخر كنت أخرجها وأتفحصها عن كثب. كانت تظهر ثلاثة رجال في جادة تفرشها أوراق الأشجار، يقفون أمام سيارة كبيرة. ثلاثتهم كانوا صينيين. اثنان منهم كانا للخارج، وكانا يرتديان بذلتين غربييتين بياقات منشيات، ويمسكان قبعتين بولر^(١٣) وفي يد كل منهما خيزرانة. الرجل الممتلي الذي كان يتوسط الرجلين الآخرين كان يرتدى الملابس التقليدية الصينية: عباءة قاتمة، كاب، وذيل خنزير في مؤخرة شعره. وكما في معظم الصور الصحفية آنذاك، كان هناك استعداد مسرحي مصطنع للصورة، وتقريبًا جار مقص مراسلي على مربع كامل من يسارها. مع ذلك،

(١٣) البولر: قبعة مستديرة سوداء. (المترجم)

فمن أول وهلة وقعت عيناي عليها - بدقة أكثر على الشخصية المركزية التي ترتدى العباءة القائمة - أصبحت الصورة مصدرًا لاهتمام استثنائي مني.

إلى جوار هذه الصورة، داخل علبة السيجار المعدنية في الدرج، أحفظ الخطاب الذي تلقيته من المراسل نفسه بعدها بشهر أو أكثر ردًا على التساؤلات الأخرى. وفيه، يبلغني أن الرجل الممتلئ الذي يرتدى عباءة وكاب هو وانغ كو، قائد عسكري وكان وقت التقاط الصورة ذا نفوذ كبير في إقليم هونان مُشكلاً قوة عسكرية مختلفة العناصر تتكون من ثلاثمائة رجل تقريبًا. ومثل كثير من طائفته، فقد معظم قوته بعد هيمنة تشيانغ كاي - شيك، لكنه قد أشيع أنه لم يزل على قيد الحياة أيضًا ويسترخي في حالة من الترف الواضح في مكان ما في نانكينغ. أما بخصوص سؤالى المحدد، فقد أفاد مراسلي بأنه لم يستطع أن يتأكد إذا ما كان لوانغ كو أية علاقات معروفة مع شركة Butterfield and Swire أم لا. على أية حال، فمن وجهة نظره الشخصية، ليس ثم من مبرر يجعلنا نفترض أنه في وقت ما لم يكن له تعاملات مع الشركة المذكورة آنفًا. ففي ذلك الوقت، يوضح مراسلي، كانت أي سُحُنات من الأفيون - أو أي سلع مرغوبة - تمر عبر اليانغتيز إلى هونان، كانت عُرضة لغارات قطاع الطرق والقراصنة الذين أربّهوا الإقليم. فقط القادة العسكريون الذين كانت تمر السُحُنات عبر أقاليمهم هم من كانوا يستطيعون توفير نوع ما من الحماية اللازمة، وشركة مثل Butterfield and Swire لا بد بالتأكيد قد قطعت شوطًا لضمان صداقة مثل أولئك الرجال. أيام طفولتي في شنغهاي، لا بد وأن وانغ كو، بما كان يملك من قوة، قد اعتُبر، بلا شك، حليفًا مرغوبًا. انتهى

خطاب مراسلى باعتذاره عن عدم قدرته على تقديم كمية أكبر من المعلومات المؤكدة.

كما قلت، لم أحت مراسلى لإرسال هذه المعلومات إلا بعد خمسة أو ستة أسابيع من الصورة التى كانت فى الصحيفة. والسبب فى تأخرى هو أننى وبصورة مثيرة للإزعاج لم أستطع لوقت طويل أن أتذكر السياق الذى فعلت هذا فيه، رغم تأكيدى من أننى رأيت الرجل الممتلى فى مكان ما فى الماضى. لقد ارتبط الرجل عندى بمشهد ينطوى على ورطة أو كراهية، لكن ذاكرتى لم تتمخض عن أكثر من ذلك. حينئذ، ذات صباح، وبمحض الصدفة، وأثناء تجولى فى كينسينجتون هاى ستريت بحثاً عن سيارة أجرة، عاودتنى ثانية بشكل مفاجئ تماماً.

لم أعر الرجل الممتلى كثيراً من انتباهى عندما وصل منزلنا لأول مرة. ومع ذلك فقد كان هذا بعد أسبوعين أو ثلاثة فقط من اختفاء أبى وأكم من الغرباء كانوا يدخلون ويخرجون: رجال شرطة، رجال من القنصلية البريطانية، رجال من شركة Swire، سيدات كن عند دخولهن إلى البيت ورؤيتهن لأمى يفتحن أذرعهن وينخرطن فى بكاء مكروب. أذكر أن أمى كانت ترد على ذلك، بابتسامة رابطة الجأش، وفى تقدمها صوب السيدة، كانت تتجنب العناق على وجه التحديد، وهى تقول بنبرات صوتها الواثقة شيئاً من قبيل: "أجنيس، مبتهجة لقدمك". حينئذ، كانت تأخذ يدي ضيفتها - اللتين ربما مازالتا معروضتين بصورة محرجة فى الهواء - وتقودها إلى غرفة الصالون.

على أية حال، كما أقول، لم يثر وصول الرجل الصيني الممتلئ في ذلك اليوم كثيرًا من انتباهي. أذكر أنني نظرت لأسفل من نافذة غرفة اللعب الخاصة بي ورأيت أنه وهو ينزل عن سيارته. اعتقد أن مظهره في هذه المناسبة كان مماثلًا لمظهره في الصورة الصحفية: عباءة قائمة اللون، كاب، ذيل خنزير. لاحظت أن السيارة كانت فارغة ولا معة، وأن لديه رجلين لمعاونته إضافة إلى السائق، غير أن هذا حتى لم يكن ملحوظًا بصورة كبيرة؛ في تلك الأيام التي تلت اختفاء أبي، عدد من كبار الزوار كان قد أتى إلى منزلنا. رغم هذا، انتابني نوع من الذهول الغامض من طريقة العم فيليب، الذي كان في البيت خلال الساعات السابقات، في التقدم لتحية الرجل الممتلئ. لقد أسرفا في تبادل التحية - وكأنهما كان أقرب الأصدقاء لبعضهما البعض - بعدئذ تقدم العم فيليب أمام الزائر ليُدخله إلى المنزل.

لا أتذكر ماذا فعلت خلال الفترة القصيرة التالية. بقيت في المنزل - رغم أن بقائي لم يكن بسبب الرجل الممتلئ، الذي، كما أقول، لم يشد انتباهي كثيرًا. في الواقع، في البداية عندما سمعت الجلبة في الطابق السفلي، أذكر دهشتي لأن الزائر كان لم يزل معنا. اندفعت عائدًا إلى نافذة غرفة اللعب الخاصة بي، فرأيت أن السيارة لم تنزل واقفة على ممشى العربة، والخدم الثلاثة الذين كانوا داخل السيارة - الذين أيضًا كانوا قد سمعوا الجلبة - يندفعون خارج السيارة وعلى وجوههم تعبيرات ذعر وخطر. ثم رأيت الرجل الممتلئ أسفل يمشي بهدوء تام صوب السيارة، مشيرًا إلى رجاله بعدم القلق. فتح السائق الباب للرجل الممتلئ، وأثناء ركوبه للسيارة،

ظهرت أمى فى المشهد. حقيقةً، صوتها فى البداية هو ما جعلنى أندفع إلى النافذة. كنت أحاول أن أقنع نفسى أنه الصوت نفسه الذى كانت تستخدمه حال غضبها منى أو من أى من الخدم، لكن عندما ظهرت أمى أسفلى، كانت كل كلمة منها قد صارت مسموعة بقوة، والاجتهاد فى استراق السمع أصبح لا قيمة له. ثمة شيء فيها قد فقد السيطرة، شيء لم أعده أبدًا من قبل، ومع ذلك فقد سجلته فورًا على أنه شيء قد قبلته فى أعقاب اختفاء أبى.

كانت تصرخ فى الرجل الممتلىء، بينما يحاول فعليًا العم فيليب كبها. كانت أمى تقول للرجل الممتلىء إنه خائن لأبناء جلدته، وإنه وكيل للشيطان، ولا تريد عونًا من أمثاله، وإذا عاد ثانية إلى هذا المنزل، فسوف تبصق عليه مثلما تفعل مع فصيل الحيوانات القذرة التى ينتمى إليها.

امتص الرجل الممتلىء كل هذا بمنتهى الهدوء. أشار إلى رجاله بركوب السيارة، وبينما كان السائق يدير محرك السيارة، ابتسم من نافذته غالبًا باتجاه أمى، وكأنها كانت تودعه بأرق كلمات الوداع. ثم انطلقت السيارة وكان العم فيليب يقنع أمى بالدخول.

عندما دخلا إلى الردهة، كانت أمى قد استكانت صامتة. وكنت أسمع العم فيليب يقول: "لكننا يجب أن نسلك كل الطرق الممكنة، أليس كذلك؟" ومضى وقع أقدامه فى أثر أمى إلى غرفة الصالون، انغلق الباب ولم أسمع أكثر من ذلك.

بطبيعة الحال، كان من المؤسف بحال أن أرى أمى وهى تتصرف بهذه الطريقة. فلو أنها وجدت أن الصراخ فى ضيغها نوع

من التحرر بعد أسابيع من إحكامها كبح جماح مشاعرها، إذن فقد عشت أنا أيضًا شيئًا مماثلًا. ومشاهدتي لها وهي تتفجر هكذا هو ما سمح لي، بعد أسبوعين أو ثلاثة، أخيرًا أن أعبر عن خطورة ما ألم بنا، وذلك قد انشق عن شعورٍ هائل بالارتياح.

سوف يتحتم على أن أقر، ضمناً، أنه ليس بمستطاعى أنؤكد بيقين تام أن الرجل الصينى الممتلئ الذى رأيته فى ذلك اليوم هو نفسه الرجل الذى كان فى الصورة الصحفية - فالرجل الآن قد حُدد بأنه القائد العسكرى وانغ كو. كل ما يمكننى قوله إننى من أول مرة وقعت عيناي على الصورة، ذلك الوجه - وهو الوجه، وليس العبادة، والكاب وذيل الخنزير فى مؤخرة رأسه، التى يمكن بالطبع أن تكون ملمحاً لأى رجل صينى - قد انطبع داخلى على نحو واضح كوجه رأيته خلال الأيام التالية لاختفاء أبى مباشرة. وكلما أمعنت تقليب هذه الواقعة بعينها فى رأسى، كلما اقتنعت بأن الرجل الذى فى الصورة هو نفسه الذى زار منزلنا فى ذلك اليوم. أعتقد أن هذا الاكتشاف على درجة كبيرة من الأهمية - فربما يساعد كثيراً فى إلقاء الضوء على مكان وجود والدى، ويصبح جوهرياً لتلك التحريات التى، كما قد ذكرت، نويت منذ فترة طويلة أن أبشرها.

الفصل التاسع

هناك بُعدٌ أكثر عمقاً لهذه الواقعة التي صورتها توتاً ترددت في ذكره هنا، لعدم تيقني من وجود أساس له. إن له علاقة مع طريقة العم فيليب ذلك اليوم عندما حاول كبح جماح أمي أمام منزلنا، ومرة أخرى، ثمة شيء في صوته حينما قال وهما أثناء دخولهما إلى المنزل: "لكننا يجب أن نسلك كل الطرق الممكنة، أليس كذلك؟" ليس هناك شيء مادي على الإطلاق بإمكانني أن أضغ إصبعي عليه، لكن الطفل حينئذ يكون أكثر إحساساً على المستويين النفسي والفسولوجي بهذه الأشياء الأقل ملموسية. على أية حال، أحسست بأن هناك شيئاً بعينه غريب في العم فيليب ذلك اليوم. لا أعرف لماذا، لكن تلبسني انطباع غريزي أن العم فيليب في هذه المناسبة لم يكن متضامناً معنا؛ وأن الألفة التي تسم علاقته بالرجل الصيني الممتلئ أكبر بكثير من تلك التي تسم علاقته بنا؛ حتى إنه - ومن المحتمل جداً أن يكون هذا مجرد تصورات خيالية مني - تبادل النظرات مع الرجل الممتلئ بينما كانت السيارة آخذة في الانطلاق. كما أقول، ليس بإمكانني الإشارة إلى أي شيء مادي أدعم به انطباعاتي، ومن المحتمل بشكل كبير أنني أتخيل بأثر رجعي بعض الملاحظات في ضوء ما قد حدث في النهاية للعم فيليب.

حتى اليوم، أشعر أن تذكري للشكل الذي انتهت به علاقتي مع العم فيليب يجلب بعض الألم. كما أكون من المحتمل أن أوضحت،

فقد أصبح مع مرور السنوات شخصية مؤهلة بالنسبة لى، أذكر أننى تأملت فكرة أننى لا أمانع كثيرًا فى إمكانية أن يحل العم فيليب دائمًا محل أبى. أعترف أننى فى النهاية وجدت أن هذه الفكرة غير مقنعة بدرجة غريبة، لكن الشاهد من الكلام هو أن العم فيليب كان يتمتع بمكانة شخصية عندى، ولا عجب مطلقًا فى أننى قد تخلّيت عن حذرى فى ذلك اليوم وحذوت حذوه.

أقول "تخلّيت عن حذرى" لأننى لبعض الوقت قبل ذلك اليوم الأخير، كنت أترقب أمى بقلق متزايد. حتى عندما تطلب منى أن أتركها وحدها، كنت أستمّر فى مراقبتها بانتباه بالغ فى الغرفة التى تدخلها، وكنت أراقب الأبواب والنوافذ التى يمكن أن يدخل عبرها المُختطفون. طوال الليل كنت أظل متيقظًا منصتًا لحركاتها فى كل أرجاء المنزل، وكانت يدي دائمًا متأهبة على سلاحى - عصا ذات طرف حاد أعطانى أكيرا إياها.

لكن، عندما أمعن التفكير فى هذا، ينتابنى شعور داخلى عميق، بأننى كنت لم أزل فى هذه المرحلة أعتقد حقًا أن مخاوفى قابلة للتحقق. حتى حقيقة أننى اعتبرت أن عصا مدببة الطرف كانت كافية لردع المختطفين - لأننى غالبًا ما كنت أروح فى النوم متخيلًا أننى فى مغبة قتال مع عشرات من الدخلاء يصعدون درج السلم فى بيتنا، وأنا أسقطهم الواحد تلو الآخر بعصاى - ربما تثبت المستوى الوهمى الغريب الذى بلغته مخاوفى فى التأثير على فى ذلك الوقت.

رغم ذلك، ليس ثم من شك فى القلق الذى شعرت به على سلامة أمى، وذهولى لأن الكبار الآخرين لم يتخذوا أية خطوات على

الإطلاق لحمايتها. لم أكن أحب أن تبعد أمي عن عيني خلال هذه الفترة، وكما أقول، لم أكن أبدًا لأتخلي عن حذري في ذلك اليوم لأجل أى شخص سوى العم فيليب.

كان صباحًا مشمسًا، مُنسيمًا. أذكر أنني، من نافذة غرفة اللعب الخاصة بي، كنت أشاهد الأوراق وهي تتطاير أمام فناء منزلنا وتحط على ممشي السيارة. كان العم فيليب في الطابق السفلي مع أمي منذ فترة قصيرة بعد الإفطار، واستطعت أن أسترخي لفترة، مُصدقًا أنه ليس من الممكن أن يصيبها مكروه مادام العم فيليب إلى جوارها.

ثم بعد فترة سمعت العم فيليب يناديني. خرجت إلى منبسط الدرج، وحين نظرت لأسفل وأنا أستند قضيب البلكونة، رأيت أمي وفيليب يقفان في الردهة، يحدقان لأعلى في. لأول مرة منذ أسابيع أحسست بأنهما يكتان شيئًا ما مفرحًا، وكأنهما استمعا لتوهما إلى نكتة. كان الباب الأمامي مواربًا، وشعاع ممتد من نور الشمس يشرق بعرض الردهة. قال العم فيليب:

"انظر هنا، يا بفن. كنت دائمًا تقول إنك تريد أكورديون. حسنًا، لقد نويت أن أشتري لك واحدًا. بالأمس رأيت موديلًا فرنسيًا ممتازًا في فاترينة في هانكو روود. لم تكن لدى البائع فكرة عن ثمنه بالضبط. أقترح عليك أن نذهب معًا لمعاينته. إذا أعجبك، فهو لك إذا. خطة جيدة؟"

جعلني هذا أنزل السلم بسرعة هائلة. قفزت الأربع درجات الأخيرة وأخذت أدور حول الكبار، وأنا أرفرف بذراعي مثل طائر

القنص. عندما فعلت ذلك، ضحكت أُمى مما أثار ابتهاجى - ضحكت بطريقة لم أسمعها تضحك بها منذ فترة. فى الحقيقة، من الممكن أن يكون هذا الجو - هذا الشعور بأن الأشياء ربما بدأت تعود إلى ما كانت عليه - هو الذى لعب دورًا جوهريًا فى جعلى "أتخلى عن حذرى". سألت العم فيليب عن موعد ذهابنا، فهز كتفيه مستهجنًا وقال:

"لماذا لا نذهب الآن؟ لو تركناه، ربما يراه شخص آخر. ربما يكون هناك من يشتريه فى هذه اللحظة، حتى ونحن نتكلم!"

اندفعت صوب الباب، وثانيةً ضحكت أُمى. ثم أخبرتنى أُمى بضرورة أن أرتدى سترةً مناسبةً وكذا حذاءً مناسبًا. أذكر أننى فكرت فى الاعتراض على الجاكت، لكن حينئذٍ قررت ألا أعترض خشية أن يغير الكبار رأيهم، ليس فقط فيما يخص الأوكرديون، ولكن أيضًا فى هذه الحالة البهيجة برمتها التى كانت تلفنا.

لوحى لأُمى بسرعة عندما كنت أنا والعم فيليب ننطلق عبر الفناء الأمامى. ثم بعد أن تقدمنا عدة خطوات، وبينما كنت أسرع باتجاه العربة التى كانت تنتظرنا، قبض العم فيليب على كتفى، وهو يقول: "انظر! لوح لأمك!" رغم أننى كنت قد فعلت هذا بالفعل. لكننى لم أشك فى أى شىء بخصوص ذلك وقتئذٍ، واستدرت كما طُلب منى، ولوحى مرة أخرى لأُمى، التى كانت تقف متأنقةً على عتبة الباب.

معظم الطريق، كانت العربة تسلك الذى كانت تسلكه عادةً أثناء ذهابى أنا وأُمى إلى وسط البلد. كان العم فيليب هادئًا فى هذه الرحلة،

مما أدهشنى قليلا، لكننى لم أركب أبداً معه وحدى فى عربة من قبل، وافترضت أن هذه ربما تكون عادته الطبيعية. كلما كنت أشرح له أى شىء نمر به، كان يرد ببشاشة كافية؛ لكن فى اللحظة التالية كان يحدق بصمت فى المشهد ثانية. كانت الشوارع العريضة التى تكتنفها الأشجار والتى تفرشها الأوراق الساقطات تفسح مجالاً للشوارع الضيقة المزدحمة، وبدأ سائقنا يزعم فى الجتركشات والمشاة الذين يعترضون طريقنا. مررنا بمحلات التحف الصغيرة فى نانكنغ روود، وأتذكر أننى أطلعت عنقى لأرى فاترينة محل الدُمى فى ركن كوانغسى روود. كنت قد بدأت لتوى أشم الرائحة العطنة للمحاصيل الزراعية عندما وصلنا سوق الخضراوات، عندما طرق العم فيليب بغتة بخيزرانتة كى يوقف العربة.

"من هنا، سوف نمضى سيرا على الأقدام"، قال لى. "أعرف طريقاً مختصراً جيداً. سيكون أسرع بكثير."

كان هذا قراراً غاية فى الصواب. كنت أعرف بحكم خبرتى إلى أى حد تصبح شوارع نانكنغ روود مزدحمة بالناس لدرجة أن العربة أو السيارة تقف محلك سر لمدة خمس، وربما حتى عشر دقائق فى كل مرة. لهذا سمحت له أن يساعدى فى النزول من العربة دون مناقشة. لكن حينئذ، أذكر، داخلنى أول إحساس بأن هناك خطأ ما. ربما كان شيئاً فى لمسة العم فيليب وهو يُنزلنى؛ ربما كان شيئاً آخر فى طباعه. لكنه حينئذ ابتسم وقال عبارة لم تدركها مسامعى فى الضجيج الذى كان يحاصرنا. أشار إلى حارة قريبة وظللت أنا أمشى خلفه وعلى مقربة منه ونحن نشق طريقنا بين كتل الناس الظرفاء.

انتقلنا من تحت الشمس الساطعة إلى الظل، ثم استدار إلى، تمامًا في
مغبة التدافع. سأل، وهو يضع يده على كتفى:

"كريستوفر، هل تعرف أين نحن الآن؟ هل بإمكانك أن تُخمين؟"

نظرت حولى. ثم أشرت باتجاه آرش حبرى كان الناس تحته
يتدافعون حول أكشاك الخضر اوات، وأجبت: "نعم. هذا طريق
كيوكيانغ من هناك."

- "آه. إذا أنت تعرف أين نحن." أطلق ضحكة غريبة. "تعرف
طريقك حول المكان هنا جيدًا."

أومأت وانتظرت، الإحساس الذى كان يعلو من أعماق جوفى
بأن هناك رعبًا هائلًا يوشك أن يكشف عن نفسه لى. ربما كان العم
فيليب موشكا على التصريح بشيء آخر - ربما يكون قد خطط للأمر
كله بطريقة مختلفة تمامًا - لكن لحظتئذٍ، وبينما كنا نقف هناك
والتدافع ينال منا من كل جهة، أعتقد أنه رأى على وجهى أن اللعبة
قد انتهت. اعترى وجهه ارتباك مفزع، ثم قال، بصوت مسموع بالكاد
فى تلك الجلبة:

"إلى اللقاء."

قبض على كتفى ثانيةً وترك نظرتَه تتجول حوله. ثم بدا وقد
اتخذ قرارًا كنت قد توقعته مسبقًا.

"إلى اللقاء!" قال، بصوت أعلى هذه المرة، وكان صوته يرتجف
بالعاطفة. ثم أضاف: "لم أرد لك سوءًا. أتفهم ذلك؟ لم أرد لك سوءًا."

بذلك دوّم حول نفسه وتلاشى فى الزحام. بذلت محاولة ضعيفة للحاق به، وبعد لحظة لمحت جاكته الأبيض وهو يسرع بين الناس. ثم مر تحت الأرّش واختفى عن عيني.

لبضع لحظات تاليات ظلت أقف فى الزحام، محاولاً ألا أسعى إلى فهم ما حدث توّاً. ثم بدأت أتحرك فجأة، عائداً فى الاتجاه نفسه الذى أتينا منه، إلى الشارع الذى قد تركنا فيه العربة. متجاهلاً كل تقاليد اللياقة والذوق، بدأت أشق طريقى بقوة فى الزحام، أحياناً كنت أندفع بعنف، أحياناً كنت أحشر نفسى فى الثغرات الضيقة بين الناس، لدرجة أن الناس كانوا يضحكون أو يصرخون خلفى بغضب. وصلت إلى الشارع لأكتشف، بطبيعة الحال، أن العربة قد انطلقت فى طريقها منذ وقتٍ طويل. لبضع ثوانٍ مشوبة بالحيرة والارتباك، وقفت فى منتصف الشارع، محاولاً أن أصوغ فى رأسى خارطة لطريق العودة إلى البيت. ثم بدأت أجرى بأقصى سرعة ممكنة.

جريت أسفل كيوكيانغ روود، وعبر الأحجار غير المستوية لطريق يونان، اندفعت بين زحام أكبر على امتداد طريق نانكينغ. عندما وصلت أخيراً إلى بابلينغ ويل روود، كنت قد بدأت ألهث، لكننى تشجعت لأننى قد غادرت فقط هذا الطريق المستقيم الطويل، الخالى من الناس نسبياً.

ربما لأننى كنت فى تمام وعيى بالطبيعة شديدة الخصوصية لمخاوفى - أو ربما لتحول عميق فى سلوكياتى كان يحدث داخلى - لم يحدث أن التمسست المساعدة من أى من الكبار الذين مررت بهم ولو لمرة واحدة، ولم أحاول أن أستوقف عربة أو سيارة. انطلقت

عدوًا أسفل ذلك الطريق الممتد، ورغم أنني حتى كنت قد بدأت ألهث على الفور بصورة مثيرة للشفقة، وحتى رغم أنني كنت أعرف أن طريقي في العدو لابد وأنها تبدو مروعة لمن يشاهدونني، وحتى على الرغم من أن الحرارة والتعب خفضا سرعتي لمرات إلى أقل من خطوة المشي المعتادة، فأنا أعتقد أنني لم أتوقف مطلقًا. ثم أخيرًا كنت أمر بمقر القنصلية الأمريكية، ثم بمنزل عائلة روبرتسون. تركت طريق بوبلينغ ويل إلى طريقنا والانعطافة الثانية أخذتني إلى المسافة المتبقية إلى بوابتنا.

كنت أعرف بمجرد أن عبرت بوابتنا - رغم أنه لم يكن هناك شيء واضح يخبرني بهذا - أنني تأخرت كثيرًا، وأن الأمر قد انتهى منذ فترة طويلة مضت. وجدت الباب الأمامي مغلقًا بالرتاج. جريت باتجاه الباب الخلفي، الذي انفتح لي، وجريت في أنحاء المنزل وأنا أصرخ مناديًا، لسبب ما ليس على أمي، ولكن على مي لي - ربما حتى في هذه المرحلة، لم أتمن أن أعترف بما ينطوي عليه الصراخ على أمي.

بدا المنزل خاويًا. وقتئذٍ بينما كنت أقف مذهولاً في مدخل الردهة، سمعت صوت قهقهة. كان قادمًا من المكتبة، وعندما استدرت واتجهت صوبه، رأيت، عبر الباب الموارب، مي لي جالسة على طاولة المذاكرة الخاصة بي. كانت تجلس مستقيمة الظهر تمامًا، وعندما ظهرت على عتبة الباب، نظرت إلي وأطلقت قهقهة أخرى، كما لو كانت تستمتع بنكتة سرية وتحاول أن تكتم ضحكتها. تكشف لي أن مي لي كانت تبكي، وعرفت، كما كنت قد عرفت طوال العدو

الْقاسى فى طريق عودتى للبيت، أن أمى قد اختفت. وفار داخلى حنقٌ
بليدٌ على مى لى، التى رغم كل ما أمرتتى به من خوفٍ منها واحترام
لها على مدار السنين، أدركت الآن أنها مدّعية ودجالة: شخصية غير
قادرة على الأقل أن تتحكم فى هذا العالم المروع الذى يعلن عن نفسه
من حولى؛ امرأة ضئيلة جديرة بالشفقة، شيدت نفسها فى عيني على
مظاهر خادعة، امرأة لا وزن لها حين تتصادم القوى الكبرى
وتتقاتل. وقفت على عتبة الباب وقذفتها بأقسى نظرات الازدراء.

لقد تأخر الوقت الآن - ساعة أو أكثر قد مضت منذ أن سجلت
تلك الجملة الأخيرة - ومع ذلك فأنا هنا، لم أزل على مكتبى. أعتقد
أننى أقلب هذه الذكريات فى عقلى، بعضها لم يطف على سطح عقلى
لسنوات كثيرات. لكننى أيضاً أنظر للأمام، إلى اليوم الذى أرجع فيه
أخيراً إلى شنغهاى؛ إلى كل الأشياء التى سوف نفعلها أنا وأكيرا
هناك. لقد شهدت المدينة، بطبيعة الحال، الكثير من التغيرات. لكننى
أعرف أيضاً أن أكيرا لن يحب أكثر من أن يأخذنى فى جولة حول
المدينة، ليبرينى معرفته الواسعة بأكثر المراكز أهمية فى المدينة.
سيعرف فعلياً أفضل أماكن الطعام، والشراب، والتنزه؛ أفضل
المؤسسات التى سيمكننا الذهاب إليها بعد يوم شاق، لنجلس ونتجاذب
أطراف الحديث فى الليل، نتقايط القصص عن كل ما قد حدث منذ
آخر مقابلة لنا.

لكن الآن لابد أن آخذ قسطاً من النوم. هناك عمل كثير لابد من
إنجازه فى الصباح، لابد أن أعوض الوقت الذى ضاع بعد الظهر مع
سارة لمشاهدة لندن من الطابق العلوى فى ذلك الباص.

الكتاب الثالث

لندن، ١٢ أبريل ١٩٣٧

الفصل العاشر

بالأمس، كان ضوء غرفة مكتبي معتمًا، عند عودة الصغيرة جينيفر من رحلة تسوقها مع ميس جيفنز. هذا المنزل الشاهق الضيق، الذي اشتريته من ميراثي عن خالتي، يطل على ميدان رغم جماله المعتدل، فإنه لا يحظى بكثير من الشمس مثل باقي الميادين المجاورة. شاهدتها من نافذة غرفة مكتبي، أسفل الميدان، تمضي عائدة وقادمة من سيارة أجرة، وهي تصف حقائب المشتريات بجوار القضبان، بينما ميس جيفنز تفتش في حافظة نقودها عن الأجرة. في النهاية، عندما دخلتا، سمعتهما تتشاجران، ورغم أنني زعقت لتحيتهما من أعلى مهبط الدرج، فإنني قررت ألا أنزل. كان شجارهما تافهًا كما تبين لي - بخصوص شيء قامتا بشرائه بينما لم يكن ينبغي - لكن في تلك اللحظة كانت حالة من الإثارة لم تزل تتلابني بسبب رسالة الصباح - والنتائج التي قادتني إليها - ولم أكن أود لحالة الشعور بالانتصار أن تتهشم.

عندما نزلت إلى الطابق الأرضي، كانتا قد توقفتا منذ فترة طويلة عن الشجار، ووجدت جينيفر تحوم حول غرفة الصالون بعصاة فوق عينيها، ويداه ممتدتان أمامها.

"أهلا، جيني،" قلت، وكأنني لم ألحظ فيها شيئًا غير معتاد. "هل أحضرت كل متطلبات الفصل الدراسي الجديد؟"

كانت تندفع بخطورة باتجاه دولا ب عرض التحف لكننى قاومت
رغبتي الملحة فى تنبيهها. توقفت فى الوقت المناسب تمامًا، لمسته
بيديها وقهقهت.

"أوه، عمى كريستوفر! لم لم تحذرنى؟"

"أحذرك؟ من ماذا؟"

"لقد صرت ضريرة! ألا ترى. أنا ضريرة! انظر!"

"آه نعم. هكذا."

تركتها تتحسس طريقها حول الأثاث ومضيت صوب المطبخ،
حيث كانت ميس جيفنز تفرغ حقيبة على الطاولة. ألقت على التحية
بأدب، لكنها تأكدت أننى لاحظت نظرتها باتجاه بقايا غدائي الذى
تركته فى الطرف القصى من الطاولة. منذ رحيل بولى، خادمتنا، فى
الأسبوع الماضى، وميس جيفنز تكره أى شىء يكون مفاده قيامها
بمثل هذه الواجبات.

"ميس جيفنز،" قلت لها، "ثمة شىء يتحتم على مناقشته معك." ثم
خففت صوتى، وأنا ألقى بنظرة عبر كتفى: "شىء وثيق الصلة
بجينييفر."

"تفضل، يا مستر بانكس."

"فى الواقع، يا ميس جيفنز، أود لو دخلنا إلى الكونسيرفاتورى،
فكما أقول، الأمر على درجة ما من الأهمية."

لكن فى هذه اللحظة بالضبط أتى صوت تصادم من غرفة
الصالون. مرت بى ميس جيفنز مندفعة وهى تصرخ من مدخل
الباب:

"جينيڤر، كف عن هذا! قلت لك إن هذا سيحدث!"

"لكننى ضريرة"، أتى الرد. "لا حيلة لى فى هذا."

بدت ميس جيفنز مشتتة الفكر، إذ تذكرت أنى كنت أتحدث إليها. فى النهاية، رجعت وقالت فى هدوء: "معذرة، يا مستر بانكس. ماذا كنت تقول؟"

"فى الحقيقة، يا ميس جيفنز، أظن أننا سنستطيع أن نتحدث بحرية أكثر فى المساء بعد أن تكون جينيڤر قد نامت."
"حسنًا جدًا، سأتى وأراك حينئذ."

لو كان لدى ميس جيفنز أية هواجس بخصوص ما كنت أود مناقشته معها، لما أظهرتها فى ذلك الوقت. فقد ألقت إلى بواحدة من ابتساماتها الكتومة، قبل أن تمضى إلى مهمتها فى غرفة الصالون.

لقد مر ثلاثة أعوام تقريبًا منذ أن سمعت لأول مرة عن جينيڤر. لقد دعانى صديق المدرسة القديم أوسبورن، الذى لم أكن قابلته لفترة قصيرة، إلى حفل عشاء. كان لم يزل آنذاك على طريق جلاستر، وفى تلك الليلة قابلت للمرة الأولى المرأة الشابة التى أصبحت منذئذ زوجته. كان بين الضيوف الآخرين فى تلك الليلة ليدى بيتون، أرملة رجل الخير المعروف. ربما لأن الضيوف جميعًا كانوا غرباء على - فقد أمضوا الليل كله يتبادلون النكات عن أناس لا أعرف عنهم شيئًا - وجدت نفسى أكثر من الكلام بشكل ما مع ليدى بيتون، أكثرت من الكلام جدًا معها لدرجة أن الشك انتابنى أحيانًا فى أننى أصبحت عبئًا عليها. على أية حال، توفًا بعد أن تناولنا الحساء بدأت تخبرنى عن

حالة محزنة ساقتها الصدفة إليها مؤخرًا في وظيفتها كأمين صندوق لمؤسسة خيرية تهتم بأحوال اليتامى. زوج وزوجة لقيا حتفهما غرقًا في حادث ركوب الزوارق في كورنويل منذ عامين، وطفلتهمما الوحيدة، طفلة الآن عمرها عشر سنوات، كانت آنذاك تعيش في كندا مع جدتها. وهذه السيدة العجوز في حالة صحية بالغة التردى، نادرًا ما تخرج أو تستقبل زائرين.

"عندما كنت في تورونتو الشهر الماضى،" أخبرتنى ليدى بيتون، "قررت أن أهاثفهما بنفسى. كانت الفتاة المسكينة الصغيرة تعيش، لأنها تفتقد إنجلترا كثيرًا. وأما بالنسبة للسيدة، فهى بالكاد تعتنى بنفسها، ولا يهتم الفتاة الصغيرة."

"هل مؤسستك قادرة على مساعدتها؟"

"سأبذل قصارى جهدى. لكن لدينا عددٌ كبير من الحالات، كما تعرف. وعلى نحو صارم، فهى ليست حالة أولوية. ومع ذلك، فهى لديها سقف تعيش تحته، وقد ترك لها والداها تركة معقولة تُعينها. المهم فى هذا النوع من العمل هو ألا تغالبك مشاعر شخصية تجاهه. لكن عندما التقيت بالفتاة المسكينة، لم أتمكن من أن أفعل شيئًا إلا الاستغراق فى حالتها. إن روحها مريحة للغاية، وهذا غير طبيعى تمامًا، وحتى رغم هذا فمن الواضح أنها فى غاية التعاسة."

من الممكن أن تكون قد أخبرتنى بمعلومات أكثر عن جينيفر مع استمرارنا فى تناول الطعام. أذكر أننى كنت أنصت بأدب جم، لكن ردودى كانت قليلة. فقط بعد ذلك بفترة طويلة، بالخارج فى الردهة،

والضيوف يغادرون، وكان أوسبورن يناشدنا أن نبقى لفترة أطول، أخذت ليدي بيتون جانباً.

"أتمنى ألا تعتبرى هذا غير ملائم"، قلت. "لكن هذه البنت التى حدثتني عنها قبل فترة. جينيفر هذه. أود أن أفعل شيئاً لمساعدتها. حقيقةً، يا ليدي بيتون، أنا على أتم استعداد لأخذها عندي."

ربما لا ينبغي أن أعتبر رد فعلها للوهلة الأولى مشيناً لها؛ إذ إنها تراجعت بنظرة مشوبة بالشك. على الأقل، هكذا بدا الأمر لى. فى النهاية قالت:

"هذا منتهى العطف منك، يا مستر بانكس. سوف أتصل بك لنناقش الأمر، لو سمحت لى."

"ليدي بيتون، أنا فى منتهى الجدية. لقد ورثت مؤخرًا، ولذا، ستكون قدرتى على كفالتها كبيرة."

"أنا متأكدة من هذا، يا مستر بانكس. حسنًا لننحدث باستقاضة حول الأمر." عند هذا الحد، استدارت لضيوف آخرين تبادلت معهم كلمات وداع صاخبة؛ مرحلة.

غير أن ليدي بيتون فى الحقيقة لم تتصل بى إلا بعد ما لا يقل عن أسبوع. من المحتمل أنها كانت تستفسر عن شخصيتى؛ ربما ببساطة لأنها كانت تملك من الوقت ما يمكنها من إعادة التفكير فى الأمر فى أكثر من مرة؛ على أية حال، لقد تغير سلوكها معى تمامًا. على الغداء فى كافيه رويال، وأثناء لقاءاتنا التالية، لم تستطع أن تتعامل بود أكثر معى، ووصلت جينيفر إلى منزلى بعد مرور أكثر من ثلاثة أشهر على حفل العشاء فى شقة أوسبورن.

كانت في صحبة ممرضة كندية اسمها ميس هانتر، رحلت ثانيةً بعد أسبوع، بعد أن قبّلت البنت ببشاشة وذكّرتها بأن تكتب لجديتها. فكرت جينيفر بإمعان في الاختيار بين ثلاث غرف نوم عرضتهم عليها، ووقع اختيارها على أصغر غرفة، لأن الرف الخشبي الصغير، كما قالت، الذي يمتد على أحد الجدران ملائم جدًا "لمقتنياتنا". التي تضم، حسبما اكتشفت على الفور، بعض القواقع البحرية التي انتقتها بعناية، ثمرات جوز الهند، أوراقًا مُجفّفة، بلورات صخرية، وقليلًا من مثل هذه الأشياء التي جمعتها مع الوقت. صفت مقتنياتنا بعناية بطول الرف ونادتنى ذات يوم لأعينها.

"لقد أطلقت اسمًا على كل واحدة"، أوضحت. "أعرف أن هذه الممارسة نوع من الحمق، لكنني أحب مقتنياتى تلك للغاية. ذات يوم، يا عم كريستوفر، عندما أفرغ من مشاغلي، سأحدثك عن كل واحدة على حدة. لو سمحت، أخبر بولى أن تتعامل بحذر أكثر وهي تنظف المكان هنا."

أنت ليدى بيتون لمساعدتي في إجراء المقابلات الشخصية لاختيار مربية، لكن جينيفر نفسها، التي كانت تسترق السمع على كل ما يحدث من الغرفة المجاورة، هي من كانت لها اليد العليا في اختيار القرار. كانت تظهر بعد كل مرشحة لإصدار حكم إدانة. "غاية في البشاعة"، وصفت إحدى المرشحات. "منتهى الهراء فيما يخص وظيفتها الأخيرة لدى الطفلة التي ماتت بذات الرئة. لقد سممتها." وقالت عن واحدة أخرى: "ليس من الممكن أن نوافق عليها. إنها في منتهى العصبية."

استلقت انتباهي في ميس جيفنز أنها مملة وفاترة، لكنها لسبب ما نالت استحسان جينيفر بسرعة، ولابد أن أعترف، أنها في العامين ونصف العام منذئذٍ بررت بدرجة كبيرة إيمان اختيار جينيفر بها.

تقريبًا كل من قدمت له جينيفر قد لاحظ إلى أي مدى تبدو رابطة الجأش مقارنةً بأي طفلة مرت بمأساتها. في الواقع، كانت سلوكياتها تتطوى على ثقة ملحوظة بالنفس، وبالتحديد، قدرتها على الاستهانة بالانتكاسات التي يمكن أن تجعل بنات أخريات ينفجرن باكيات. والمثال الواضح على هذا، كان رد فعلها فيما يخص صندوق ثيابها.

بعد وصولها بعدة أسابيع، أشارت بصورة متكررة إلى صندوق ملابسها الذي سيصل بحرًا من كندا. أذكر، على سبيل المثال، أنها ذات مرة وصفت لي تفصيلًا مدينة ألعاب خشبية صنعها لها شخصٌ ما وسوف تأتي في صندوق ملابسها. في مناسبة أخرى عندما فكرت فيها وهي ترتدي تاثيرا محددًا أحضرته وهي عائدة من سيلفريدج مع ميس جيفنز، نظرت إلى برزانة وقالت: "عندي رباط شعر سيلائمه جدًا. سيصل في صندوق ملابسى."

لكنني، ذات يوم تلقيت خطابًا من شركة الشحن تعتذر فيه عن فقدان صندوق الملابس في البحر وتعرض تعويضًا عنه. عندما أخبرت جينيفر بذلك، حدقت ببساطة في البداية. ثم أطلقت ضحكة خفيفة وقالت:

"حسنًا في تلك الحالة، سنضطر أنا وميس جيفنز أن نذهب في مهمة شراء ضخمة."

عندما لم تُظهر أى شىء يَنُم عن انزعاج من خسارتها بعد يومين أو ثلاثة، شعرت بميل لحتمية الكلام معها، وذات صباح بعد الإفطار، وقعت عيني عليها وهى تتجول فى الحديقة، فخرجت لأنضم إليها.

كان صباحًا مشمسًا منعشا. حديقتي ليست كبيرة، حتى بمقاييس المدينة - مستطيل أخضر يطل عليه عددٌ من البيوت المجاورة - لكنها جيدة التخطيط، وتمنح، رغم كل شىء، شعورًا مريحًا بالخصوصية. عندما تقدمت إلى المرج، كانت جينيفر تتطلق فى الحديقة وفى يدها حصان دُمية، وكانت تحركه بطريقة حالمة للأمام أعلى الشجيرات الصغيرة. أذكر أننى كنت مهومًا إلى حدٍ ما بأن الحصان من الممكن أن يتعرض للأذى من جراء الندى وكنت على وشك أن أوضح لها ذلك. لكننى قلت ببساطة عندما اقتربت منها فى النهاية:

"صادفت أشياءوك ذلك الحظ العاثر. لقد تلقيت الأمر بطريقة غاية فى القوة، لكن لابد وأنت صُدِمت ببشاعة."

"أوه...." واستمرت فى تحريك حصانها دونما اكتراث. "لقد أثار ذلك قليلًا من الإزعاج. لكن بإمكانى فعليًا أن أشتري أشياء أكثر بمبلغ التعويض. قالت ميس جيفنز إنه بإمكاننا الخروج للتسوق يوم الثلاثاء."

"مع ذلك. انظر، أعتقد أنك فى منتهى الشجاعة. لكن، أتعرفين، لست بحاجة لهذا التظاهر، أظنك تفهمين ما أعنى. لو أردت التخلي عن حذرك قليلًا، ليكن ذلك. لن أفشى ذلك لأحد، ولا لميس جيفنز، بكل تأكيد."

"وهو كذلك. أنا لست منزعة. ومع ذلك، فكلها مجرد أشياء. عندما تفقد أمك وأباك، لن تكثر كثيرًا بالأشياء. أليس كذلك؟" عند هذه النقطة، أطلقت ضحكتها الخفيفة.

تلك كانت واحدة من المرات القليلات التي أذكر أنها أوردت فيها ذكر والديها. ضحكت أنا أيضًا، وقلت: "لا أعتقد"، وبدأت أعود باتجاه المنزل. لكن حينئذٍ استدرت إليها وقلت:

"أتعرفين، يا جيني، لست متأكدًا من حقيقة هذا. ربما تقولين مثل هذا للكثيرين وسيؤمنون به. لكن أعرف أن هذا ليس صحيحًا. عندما أتيت من شنغهاي، كانت الأشياء التي أتت في صندوق ملابس، تلك الأشياء، كانت مهمة بالنسبة لي. ولم تزل كذلك."

"هل تسمح لي برؤيتها؟"

"أريك إياها؟ حسنًا، معظمها لن يمثل لك شيئًا."

"لكنني أحب الأشياء الصينية. أريد أن أراها."

"معظمها ليس صينيًا كما تظنين"، قلت. "حسنًا، ما أحاول توضيحه هو أن صندوقي كان مهمًا بالنسبة لي. لو أنني فقدته، كنت سأنزعج."

هزت كتفها غير مبالية ووضعت حسانها أعلى وجنتها. "لقد كنت منزعة. لكنني لم أعد. ينبغي عليك أن تنظر في الحياة إلى الأمام."

"نعم، من قال لك إنها أفضل طريقة. وهو كذلك، كما تريد. انسى صندوق ملابسك الآن. لكن تذكرى...." تراجعت، غير مدرك ما كنت قد نويت قوله.
"ماذا؟"

"أوه لا شيء. فقط تذكرى، لو أن هناك ما تريد إخبارى به، أو أن هناك ما يضايقك، فأنا دائماً هنا."

عندما تقدمت عائداً إلى المنزل، حدثت خلفى ورأيت أنها عادت لتجوالها فى الحديقة مرة أخرى، وهى تحرك حصانها فى أقواس وهمية فى الهواء.

لم أعط مثل هذه الوعود لجينيفر بسهولة. آنذاك، كانت نيتى هى تحقيقها كاملةً، وولعى بجينيفر قد تزايد فقط فى الأيام التالية. ومع ذلك ها أنا ذا اليوم، أخطط للتخلي عنها؛ ولا أعرف حتى لأى فترة من الوقت. من الممكن، بالطبع، أن أكون مُبالغاً فى تصويرى لاعتمادها على. لو سارت الأمور على ما يُرام، فربما أعود إلى لندن قبل العطلة المدرسية القادمة، وبالكاد ستلاحظ غيابى. ومع ذلك، فأنا مضطر للاعتراف، تماماً مثلما اضطررت للاعتراف أمس لميس جيفنز، أن سفرى ربما يطول قليلاً. عدم التحديد هذا هو ما يخدع أولوياتى، وأشك فى أن جينيفر سوف تتأخر فى بلوغ النتائج. فأياً كان القناع الشجاع الذى ترتديه، فأنا أعرف أنها سوف تعتبر قرارى خيانة.

ليس من السهل أن أوضح كيف أصبحت الأمور هكذا. ما أستطيع قوله هو أن الأمر بدأ منذ عدة سنوات مضت - من قبل

وصول جينيفر بفترة طويلة - كشعور غامض كان ينتابني من حسين
لآخر بأن هناك شخصاً أو آخر يستهجنني، وأنه فقط يستطيع إخفاء هذا
كلية. الغريب في الأمر، أن هذه اللحظات كانت تداهمني في صحبة
الناس الذين قد توقعت منهم أكبر قدر من التقدير لمنجزاتي. عندما
أتحدث إلى أحد رجال الدولة على العشاء، مثلاً، أو إلى ضابط شرطة،
أو حتى عميل، ينتابني ذهول مفاجئ حين يصافحني بفتور، أو يُبدي
ملاحظة فظة ونحن في مغبة المزاح، لامبالاة مهذبة في حين أنني كنت
أتوقع فعلياً نوبة من العرفان المتدفق بالجميل. في البداية، حينما كانت
حوادث كهذه تقع، كنت أقلب ذاكرتي بحثاً عن إساءة وجهتها دون قصد
للشخص؛ لكنني في النهاية أرغمت نفسي على قبول أن ردود الأفعال
هذه لها علاقة بشيء أكثر عمومية في فهم الناس لي.

لأن ما أتحدث عنه هنا على درجة كبيرة من الغموض، فمن
الصعب أن أتذكر أمثلة توضح ما أصف. لكن أعتقد أن مثلاً واحداً
يتمثل في الحوار الغريب الذي قام بيني وبين مفتش بوليس من
إكسيتر في ذلك الزقاق المظلم خارج قرية كورينغ في سومرست
الخريف الماضي.

كانت إحدى أكثر الجرائم التي حققت فيها إثارةً للإحباط. لم
أصل القرية إلا بعد أربعة أيام من اكتشاف جثث الأطفال في الزقاق،
وكان السقوط المتواصل للأمطار قد حول الحفرة التي وُجدوا فيها إلى
نهر موحل - مما جعل عملية جمع الدلائل ذات الصلة بالقضية غاية
في الصعوبة. رغم ذلك، حين بدأت أسمع وقع خطوات المفتش وهي
تقترب، كنت قد كونت رؤية واضحة تقريباً حول ما قد حدث.

"عمل شديد الإزعاج،" قلت له وهو يتقدم نحوي.

"لقد أمرضني، يا مستر بانكس،" قال المفتش. "حقيقةً أمرضني."

كنت أنحني وأنا أتفحص الوشيع، لكنني آنذاك نهضت على قدمي، ووقفنا في مواجهة بعضنا البعض تحت رذاذ متواصل، حينئذ قال:

"تعرف، يا سيدي، في هذه اللحظة تحديدًا، أتمنى من كل قلبي لو كنت نجارًا. هذا ما كان أبي يتمناه لي. أتمنى فعلاً، يا سيدي. اليوم، بعد هذا، فعلاً أتمنى."

"أوافقك، هذا مروع. لكن الواحد لا ينبغي أن يتراجع. لابد أن نهتم بنشر العدالة."

هز رأسه بإحباط. ثم قال: "أنا جئت إلى هنا كي أسألك، يا سيدي، عما إذا كنت قد كونت رؤية في هذه القضية. لأنك ترى...." نظر لأعلى على الدموع الساقطة فوقه، ثم استمر بإعياء: "تعرف، تحرياتي الخاصة قادتني إلى نتيجة محددة. نتيجة أنا إلى حد ما نافر من الوصول إليها."

نظرت إليه بوقار وأومات. "أخشى أن يكون ما وصلت إليه صحيحًا،" قلت بإجلال. "منذ أربع سنوات، كانت هذه الجريمة تبدو من البشاعة بحيث يعجز الإنسان عن مجرد تخيلها. لكن الآن، يبدو الواقع أكثر بشاعة بالفعل."

"كيف هذا، يا سيدى؟" امتقع وجه المفتش بشدة. "كيف يمكن أن يتحقق مثل هذا الشيء؟ حتى بعد كل هذه السنوات لا أستطيع أن أفهم مثل...." سقط صامتًا وأشاح بوجهه بعيدًا عنى.

"لسوء الحظ، لا أرى أى إمكانية أخرى،" قلت فى هدوء. "فى الواقع، هذا صادم. الأمر يبدو وكأننا نحدد مباشرة فى غياهب العتمة."

"رجل مجنون كان يمر، شىء من هذا القبيل كنت سأقبله. لكن هذا.... ما زلت نافرًا من تصديق ذلك."

"أخشى أنه يتحتم عليك،" قلت. "يتحتم علينا أن نقبل هذا. لأنه ما حدث."

"أنت متأكد من ذلك، يا سيدى؟"
"أنا متأكد."

كان يحدد فى الحقول المجاورة إلى صف المنازل الريفية فى مرمى البصر.

"فى أوقات كهذه،" قلت، "لا أستطيع أن أفهم جيدًا، ويصبح الواحد فائر الهمة. لكن لو كان لى أن أقول ذلك، من الأفضل أنك لم تأخذ بنصيحة والدك. لأن نوعيتك من الرجال، يا سيادة المفتش، شديدة الندرة. وأمثالنا ممن من واجبهم مقاومة الشر، نحن.... كيف لى أن أقولها؟ نحن مثل البرمة التى تربط الشرائح الخشبية للنافذة. لو فشلنا فى إمساكها بقوة، سيتداعى كل شىء. إن من الأهمية بحال، يا مفتش، أن تستمر."

ظل صامتًا للحظةٍ أخرى. ثم عندما تحدث ثانيةً، تراجعت مندهشًا من جفاء صوته.

"أنا مجرد شخص ضئيل، يا سيدى. لذا سأظل هنا وأفعل كل ما فى وسعى لمحاربة الأفعى. لكنها حيوان برؤوس متعددة. حال قطع رأس، سينبت مكانها ثلاث. هكذا يبدو الأمر بالنسبة لى، يا سيدى. إنه يزداد سوءًا. يزداد سوءًا كل يوم. ما حدث هنا، هؤلاء الأطفال الصغار...." التفت حوله ورأيت آنذاك الغضب يعترى وجهه. "أنا رجل ضئيل. لو كنت رجلاً أقوى" وهنا، دونما شك، صوب نظرة اتهام مباشرة فى عيني - "لو كنت رجلاً أقوى، وقتها أقول لك، يا سيدى، لم أكن لأتردد كثيرًا. كنت سأقتحم قلبها." "قلبها؟"

"قلب الأفعى. سأذهب إليه. لماذا كنت سأهدر وقتًا ثمينًا فى مصارعة رؤوسها الكثر؟ كنت سأذهب اليوم إلى حيث يقع قلب الأفعى وأذبح الشئ مرة واحدة وللأبد قبل.... قبل...."

بدا أن الكلمات قد نفذت منه ووقف بالفعل يحدق فى. لا أتذكر بالتحديد ما قلته ردًا عليه، من الممكن أن أكون قد غمغمت بشيء مثل:

"حسنًا، هذا منتهى الإطراء منك، ومضيت بعيدًا.

هناك أيضًا واقعة من الصيف الماضى، فى مناسبة زيارتى لجمعية الجغرافيا الملكية كى أسمع هـ. ل. مورتيمر وهو يلقى محاضراته. كان مساءً غاية فى الدفء. كان جمهور المستمعين البالغ

مائة تقريبًا يتشكل من شخصيات متميزة في كل مناحي الحياة؛ تعرفت، بين الآخرين، على شريف ليبرالى، ومؤرخ أكسفوردي شهير. تحدث بروفيسور مورتيمر لأكثر من الساعة، بينما كانت قاعة المحاضرات تزداد ازدحامًا. كان بحثه بعنوان: "هل النازية تمثل تهديدًا للمسيحية؟"،

وكانت في الواقع مناظرة هجومية عنيفة لإثبات أن المصادقة الكونية قد أضعفت يد بريطانيا في الشئون العالمية. في النهاية عندما قُدمت الأسئلة، بدأ جدل قوى يشتعل في أرجاء القاعة، ليس عن أفكار بروفيسور مورتيمر، لكن بخصوص تحرك القوات الألمانية باتجاه رينلند. كانت هناك أصوات متحمسة تتدد بالممارسة الألمانية، وفي ذات الوقت، أصوات أخرى تتغاضى عنها، غير أنني كنت مرهقًا في تلك الليلة بعد أسابيع من العمل المكثف، ولم أبذل أى مجهود حقيقى للمتابعة.

في النهاية، أشاروا إلينا بالخروج من القاعة إلى غرفة مجاورة، حيث قدمت لنا المرطبات. تقريبًا، لم تكن الغرفة واسعة بما يكفى، لدرجة أنني عندما دخلت - وكنت بطريقة ما أو بأخرى بين آخر من دخلوا - كان الناس يزاحمون بعضهم البعض بصورة غير مريحة. وخرنت في ذاكرتى صورة لنساء بديئات ترتدين مرايل يخرقن الزحام بصرامة باستخدام مرافقهن وهن يحملن صوانى الشيرى،^(١٤) والأساتذة ذوى الشعر الرمادى الذين يشبهون الطيور الذين يقفون

(١٤) الشيرى: نوع من الخمور إسبانية الأصل. (المترجم)

زوجا زوجا يتجاذبون أطراف الحديث وهم يميلون برؤوسهم للوراء للحفاظ على مسافة مهذبة. شعرت أنه من المستحيل أن أظل في مثل هذه البيئة، وكنت أشق طريقى باتجاه باب الخروج، عندما شعرت بيد تمس كتفى. استدرت لأجد كانون مورلى، يبتسم فى وجهى، رجل دين قدم لى خدمة لا تُقدَّر بثمن فى قضية حققت فيها مؤخرًا، ولم أرى حيال ذلك سوى أن أقف وأحييه.

"لقد كانت ليلة فى غاية الروعة"، قال. "لقد منحتنى كثيرًا مما يستحق التفكير."

"نعم، غاية فى التشويق."

"لكن ينبغى أن أقول، يا مستر بانكس، إننى عندما رأيتك هناك على الجانب الآخر من الغرفة، تمنيت إلى حدٍ ما أن تقول شيئًا."

"معذرة لأننى كنت أشعر بالإرهاق إلى حدٍ ما هذه الليلة. إضافة إلى أن جميع من فى الغرفة بدوا يعرفون أكثر بكثير عن الموضوع."

"أوه، هراء، هراء." ضحك، وضربنى بود على صدرى. ثم مال مقتربًا أكثر - ربما يكون خلفه من دفعه - لدرجة أن وجهه كان على بعد بوصات من وجهى، وقال: "للأمانة، لقد ذهبت قليلًا لأنك لم تشعر باضطرابك إلى التّقدم بمداخلة. كل هذا الكلام عن أزمة فى أوروبا. تقول إنك كنت مرهقًا؛ ربما كنت مهذبًا. ومع ذلك، أنا مندهش لأن الموضوع تسرب من يديك."

"تسرب من يدي؟"

"ما قصدت قوله، سامحنى، أنه من الطبيعى جدًا أن ينظر بعض الحضور إلى أوروبا على أنها مركز اضطراب هائل فى الوقت الراهن. لكنك، يا مستر بانكس. بالطبع، تعرف الحقيقة. تعرف أن الجوهر الحقيقى لأزممتنا الراهنة يكمن فى منطقة أبعد."

نظرت إليه بإمعان، ثم قلت: "معذرة، يا سيدى. لكننى لست على دراية تامة بما تقول."

"أوه تعالى، تعالى. "كان يبتسم بفطنة. "أنت من بين الجميع."

"حقيقةً، يا سيدى، لا أعرف، يا سيدى، لماذا تظن أنه ينبغى على أن أكون على دراية خاصة بمثل هذه الأمور. هذا حقيقى، لقد تحرّيت عن جرائم كثيرة خلال السنوات الماضية، وربما أكون قد رسمت صورة عامة عن كيفية إعلان أشكال معينة من الشر عن نفسها. لكن فيما يخص السؤال عن كيفية الحفاظ على توازن القوى، وكيفية احتوائنا لصراع الطموحات العنيف فى أوربا، فيما يخص هذه القضايا، فليس لدى أى نظرية ضخمة بهذا الشكل."

"لا توجد نظرية؟ ربما لا." استمر كانون مورلى فى التوجه إلى بابتسامته. "لكن لديك، لنا أن نقول، علاقة خاصة، فى الواقع، بما هو مصدر كل الاضطرابات الراهنة. أوه، تقدم، يا رفيقى العزيز! أنت تعرف جيدًا ما أقصد! أنت تعرف أكثر من أى شخص أن بؤرة العاصفة ليست فى أوروبا على الإطلاق، لكنها فى الشرق الأقصى. فى شنغهاى، على سبيل الدقة."

"شنغهاى،" قلت بضعف. "نعم، أعتقد.... أعتقد أن هناك بعض المشاكل فى تلك المدينة."

"مشاكل فى الواقع. وما كان ذات مرة مجرد مشكلة محلية سُمح لها أن تكبر وتتفاقم. وتنتشر سمها مع السنوات فى مساحات أوسع من العالم، مباشرةً على حضارتنا. لكن قلما تحتاج مثلى أن يُذكرك بهذا."

"أظنك ستجد، يا سيدى،" قلت، ولم أعد أحاول مواراة سخطى، "إننى اجتهدت كثيرًا فى السنوات الماضية كي أتحرى عن انتشار الجريمة والشر أينما أعلنت عن نفسها. لكن بالطبع، قد استطعت القيام بهذا فى إطار دائرتى المحدودة فقط. أما فيما يخص ما يحدث فى الأماكن البعيدة، فبالأكيد، يا سيدى، نادرًا ما تتوقع منى..."

"أوه تقدم! حقًا!"

ربما كنت قد فقدت صبرى تمامًا، لكن فى هذه اللحظة بالضبط أتى قسٌ بعد أن شق طريقه بصعوبة بين الناس لتحيته. قدما كأنون مورلى بعضنا البعض، لكننى بسرعة انتهزت فرصة وفررت.

هناك عدد آخر من الأحداث المماثلة التى، إن لم تكن صريحة تمامًا، فإنها تكونت على مدار فترة من الزمن لتدفعنى باستمرار فى اتجاه بعينه، وبالطبع، الصدام مع سارة هيمينجس فى حفل زفاف أحد أفراد عائلة درايكوت.

الفصل الحادى عشر

لقد مضى الآن أكثر من عام بالفعل. كنت أجلس بالقرب من مؤخرة الكنيسة - وكان متوقعًا ألا تصل العروس قبل عدة دقائق أخرى - حينما أتت سارة مع السير سيسيل ميدهيرست على الجانب الآخر من جناح الكنيسة. بالتأكيد، لم يكن سير سيسيل يظهر أكبر سنًا بصورة ملحوظة مما كان عليه عندما رأيته آخر مرة على المأدبة التى أقامتها مؤسسة ميرديث على شرفه؛ لكن الأقاويل الكثيرة التى أفادت أنه قد استعاد شبابه بشكل هائل على أثر زواجه من سارة بدت نوعًا من المبالغة. مع ذلك، كان يبدو سعيدًا للغاية، وهو يلوح بمرح لمن يعرفهم من الناس.

لم أتحدث إلى سارة حتى انتهت الطقوس. كنت أتمشى حول ساحة الكنيسة بين الضيوف المتفرقين هنا وهناك، عندما وجدتها بغتة تظهر إلى جانبي.

"الآن، يا كريستوفر،" قالت. "أنت الوحيد هنا الذى لم يهنئنى بالفعل على قبعتى. صنعتها لى سيليا ماثيسون."

"إنها رائعة. حقيقةً، مثيرة للإعجاب. وكيف حالك؟"

كانت المرة الأولى التى نتحدث فيها منذ فترة وأعتقد أننا درشنا بأدب لفترة أثناء تحركنا ببطء حول جماعات الناس. حينئذٍ عندما توقفنا ثانيةً، سألت:

"وهل السير سيسل على ما يُرام؟ إنه يبدو ملائمًا للغاية."

"أوه، إنه فى حالة رائعة. كريستوفر، بإمكانك أن تخبرنى. هل الناس فى حالة بالغة الانزعاج لزواجه منى؟"

"فى حالة من الانزعاج؟ أوه لا، لا. لماذا يشعرون بذلك؟"

"أعنى، بسبب كونه أكبر كثيرًا فى السن. بالطبع، لن يصرح لنا أحد. لكن أخبرنى أنت. لقد انزعج الناس، أليس كذلك؟"

"بقدر ما أدركت، الجميع سعداء. بالطبع، انتابتهم الدهشة. لقد كان الأمر مفاجئًا جدًا. لكن لا أعتقد أن الجميع كانوا سعداء."

"حسنًا إذا، هذا فقط يثبت ما خفت منه. لا بد وأنهم رأوا أننى عذراء عجوز. ولهذا لم يشعروا بالانزعاج. أنا واثقة أنهم كانوا سينزعجون لو حدث هذا قبل بضع سنوات."
"أحقًا..."

ضحكت سارة لعدم ارتياحى ومست ذراعى. "كريستوفر، أنت غاية فى الروعة. لا تقلق. لا تقلق لهذا مطلقًا." ثم أضافت: "تعرف، لا بد أن تأتى لزيارتنا. سيسل يذكر مقابلاته لك، فى تلك المأدبة. وهو يود أن يراك ثانية."

"يسعدنى هذا."

"أوه، لكن لا بد وأن الوقت تأخر كثيرًا الآن. سنسافر، تعرف. سنبحر إلى الشرق الأقصى فى غضون ثمانية أيام."

"أحقًا. هل ستغيبان للأبد؟"

"ربما شهر. ربما حتى سنوات. ومع ذلك، ينبغي عليك أن تأتي لزيارتنا عندما نعود."

أشك أنني ارتبكت قليلاً حين سماعي لهذه الأخبار. لكن في هذه اللحظة بالضبط، ظهر العريس والعروس على العشب، وقالت سارة:

"أليس في منتهى الروعة معاً؟ كلاهما يليق بالآخر جداً." ظلت للحظة تحقق فيهما بطريقة حاملة. ثم قالت: "كنت أسأل تَوَّاً عما يأملانه في المستقبل. وقال آليسون إنهما فقط يريدان بيتاً ريفياً صغيراً في دورسيت، لا يغادرانه لسنوات وسنوات. لا يغادرانه حتى يصبح لديهما أطفال، ويشيبان ويتغضنان. ألا ترى أن هذا غاية في الروعة؟ أتمنى ذلك لهما. ومن الرائع جداً، الطريقة التي التقيا بها بمحض الصدفة هكذا."

استمرت تحقق فيهما وكأنها منومة مغناطيسياً. أخيراً أفاقت من غشيتها، وأعتقد أننا أنفقنا بضع دقائق تبادلنا فيها أخبار الأصدقاء المشتركين. ثم أتى آخرون وانضموا لنا، وبعد فترة تسالت مبتعداً.

التقيت بسارة مرة أخرى، بعد فترة في اليوم نفسه، في الفندق الريفى المطل على المنحدرات الجنوبية، حيث أقيم حفل الاستقبال. كنا في أواخر منتصف النهار، وكانت الشمس آخذة في الغروب. كميات غير عادية من الشراب كانت قد استهلكت، وأذكر أنني مشيت في الفندق عبر جماعات من المدعوين كانت شعورهم قد تشعّعت، وانتثروا على الأريكة وأخذوا يستندون على الجدران في اختلال، حتى خرجت إلى الشرفة المنسمة، حينئذٍ لمحت سارة، تميل مستتدة

الدرابزين، وتحقق في الخارج على الحديقة. كنت متجهًا صوبها، عندما سمعت صوتًا من خلفي، ورأيت رجلًا ممثلًا أحمر الوجه يهرول خلفي بعرض الشرفة. قبض على ذراعي، ثم وقف هناك يستعيد أنفاسه، وهو ينظر مليًا في وجهي بانطباع تسمه الجدية. ثم قال:

"انظر، لقد كنت أترقب. لقد شاهدت ما حدث، ورأيتهم مبكرًا أيضًا. إن ذلك من قبيل الخزي، وكأخ للعريس، أريد أن أقدم خالص الاعتذار لك. هؤلاء السكارى البلهاء، أنا لا أعرف من هم. أنا آسف، أيها الفتى العجوز، لا بد وأن هذا كان في منتهى الإزعاج."

"أوه، من فضلك لا تتزعج"، قلت ضاحكًا. "أنا حتى لم أتضايق. لم يشربوا كثيرًا وكانوا يسلون أنفسهم فحسب."

إن هذا سلوك بربرى. أنت ضيف، مثلهم تمامًا، ولو لم يمثلوا لتقاليد الذوق والتحضر، سيطردون."

"حسنًا، حقيقةً، أعتقد أنك تلقيت الأمر من زاوية خطأ. إنهم لم يقصدوا أي شيء. على أية حال، أنا لم أتعرض لأي إهانة. والإنسان لا بد وأن يستطيع تقبل نكتة خفيفة أحيانًا."

"لكنهم كانوا في الحالة نفسها طيلة الوقت بعد الظهر. لقد رأيتهم من قبل، وحتى في الكنيسة. هذا زفاف أخي. ولن أقبل سلوكيات من هذا النوع. في الواقع، سوف أقوم بالتعامل مع الأمر كله هنا بالخارج وفي هذه اللحظة. تعال معي، أيها الرفيق الكبير. وسنرى ما إذا كانوا لا يزالون يرونك مسليًا."

"لا، انظر، أنت لا تفهم. رغم أى شيء، فأنا استمتعت بالنكتة مثلهم تمامًا."

"لكننى لن أقبل هذا! كثيرٌ من هذه الممارسات تنتشر هذه الأيام. سيتمادون فيها أكثر وأكثر، لكن اليوم لا. ليس فى حفل زفاف أخى. هيا، ستأتى معى."

كان يجذبني من ذراعى ورأيت قطرات العرق تنتشر على وجهه. لست متأكدًا مما فعلته بعدئذٍ، لكن حينئذٍ، تقدمت سارة بخطواتها صوبنا، وفى إحدى يديها كوكتيل، وقالت للرجل أحمر الوجه:

"أوه، روديريك، لقد تلقيت الأمر من زاوية خطأ. إنهم أصدقاء كريستوفر. إضافةً إلى أن كريستوفر هو آخر شخص يمكن أن تشمله بالحماية."

تثقلت نظرات الرجل أحمر الوجه بيننا. أخيرًا سأل سارة: "هل أنت متأكدة؟ لأننى رأيت هذا مستمرًا طوال اليوم. فى كل مرة يقترب هذا الرجل منهم..."

"أنت تقلق نفسك كثيرًا، يا روديريك. إنهم أصدقاء كريستوفر. لو أنه مختلف معهم بأى شكل، كنت ستعرف فورًا بهذا. فى الواقع، بإمكان كريستوفر هنا أن يكافئهم، أو على الجانب الآخر يكيل لهم بيديه، ما يشاء، بإشارة من عينه. لذا عليك أن تذهب، يا روديريك. انطلق واستمتع."

شملنى الرجل الأحمر بانحناءة احترام جديدة، ثم مد يده بارتباك. "أنا أخو جيمى"، قال، وأنا أصفاحها. "سعيد بمقابلتك. لو تأمرنى بأى

شيء، حسناً، تعال وستجدنى. أعتذر عن أى سوء فهم. حسناً، وقت ممتع."

رأيناه وهو يتراجع باتجاه المنزل. ثم قالت سارة:

"هيا، يا كريستوفر. لماذا لا تأتى وتتحدث إلىّ لبعض الوقت؟"

أخذت رشفة من كأسها ومضت. اقتفيت أثرها عبر الشرفة حتى أصبحنا على الدرايزين، ننظر للخارج على الحديقة.
"شكراً لك على ذلك"، أخيراً قلت.

"أوه، عفواً. كريستوفر، ماذا كنت تفعل طيلة الوقت بعد الظهر؟"

"أوه، لا شيء. حقيقةً، كنت فقط أفكر. فى تلك الليلة التى كانت منذ بضع سنوات مضت، تلك المأدبة التى أقيمت للسير سيسيل. كنت أتساءل حينما التقيت به فى تلك الليلة، هل فكرت أنك ذات يوم سوف..."

"أوه، كريستوفر" - قاطعتنى وأدركت أنها تقريباً ثلثة - "سأخبرك، بإمكانى أن أخبرك. عندما قابلت سيسيل فى تلك الليلة، وجدته غاية فى السحر والجاذبية. لكن فى الحقيقة، لم أفكر بصددته أكثر من ذلك. بعد ذلك بفترة طويلة، أوه، بعام، وربما أكثر. أوه نعم، سأخبرك، أنت صديق عزيز. كنت على هذا العشاء وكان الناس يتحدثون عن موسولينى، وبعض الرجال إنها لم تعد نكتة، وبالإمكان جداً اندلاع حرب أخرى، أسوأ بكثير من السابقة. كان هذا عندما أتى شخصٌ ما بذكر اسم سيسيل. قال إن احتياجنا الآن لأشخاص مثله

أكثر من أى وقتٍ مضى، وفى الواقع لم يتوجب عليه أن يتقاعد، رغم أنه بالتأكيد قد ترك خلفه فائضا من القوة الدافعة. حينئذٍ قال شخصٌ ما، إنه رجل المهام الصعبة، وقال آخر، لا، ليس هذا من قبيل العدل تجاهه، لقد كبر جدًا فى السن، لم يبق لديه من الرفاق الحميمين أى شخص، إنه الآن حتى بلا زوجة. وعندما سمعت الجملة. فكرت، أحقًا، حتى ذلك الرجل العظيم، بكل منجزاته، فى حاجة إلى شخصٍ ما، شخص ما يحقق الفرق. شخص ما يساعده فى نهاية مسيرته الحياتية، شخص ما يحشد كل ما يحتاجه لانطلاقة أخيرة عظيمة."

سقطت صامتة للحظة، لذا قلت: "ويبدو أن السير سيسيل رأى الأمر من هذه الناحية أيضًا."

"بإمكانى أن أصبح مقنعة وقتما أريد، يا كريستوفر. إضافةً إلى أنه أقر بوقوعه فى حبى بعد أن رآنى للمرة الأولى مباشرةً على هذه المأدبة."

"ياللروعة."

أسفلنا، تحت على العشب، بعيدًا إلى حدٍ ما، عدد من الضيوف كانوا يختفون خلف البركة. كنت أرى رجلًا واحدًا، ياقته تلتصق برقبتة، يصوب على بعض البط. فى النهاية، قلت:

"مسألة سير سيسيل هذه التى تتوجب دفعة أخيرة. درة تساج منجزاته. أى شىء بالضبط كان فى عقلك وكنت تؤدين منحه إياه؟ ولهذا السبب ستغيبان لشهور؟"

أخذت سارة نفسًا عميقًا وأصبحت نظرتها جادة وثابتة.
"كريستوفر. لابد وأنت تعرف الإجابة."

"لو كنت أعرف الإجابة...."

"أوه، لأجل الله. نحن سنتجه إلى شنغهاي، بالطبع."

من الصعب أن أصف بالفعل شعوري عندما سمعتها تقول ذلك. ربما لأنه لم يزل هناك قدر ما من الدهشة. لكنني أتذكر نوعًا من الارتياح، أكثر من أي شيء آخر؛ شعور غريب بأنني بين الحين والآخر، وكلما كنت أضع عيني عليها خلال تلك السنوات الماضية في نادي كارينغروث، ثمة جزء مني كان ينتظر هذه اللحظة؛ وأن كل صداقتي مع سارة كانت دائمًا تتحرك باتجاه هذه النقطة فقط، والآن قد بلغت. كان للكلمات التي واصلنا تبادلها بعدئذ وقع أليف، وكأننا قد دربنا عليها عدة مرات مسبقًا في مكان ما.

"سيسيل يعرف المكان جيدًا،" كانت تقول. "يشعر بأنه ربما يستطيع ضبط الأمور هناك وأحس بحتمية ذهابه. لذا فسوف نذهب الأسبوع القادم. لقد حزمنا أمتعتنا فعليًا."

"حسنًا، إذا، أتمنى للسير سيسيل، أتمنى لكما، أطيب الأمنيات في تحقيق مهمتكما في شنغهاي. هل تتطلعين إليها؟ لدى انطباع بذلك."

"نعم، بالطبع. بالطبع أن أتطلع إلى هذا. لقد انتظرت طويلاً حدوث مثل هذا. أنا أشعر بمنتهى الملل من لندن و.... وكل هذا - أشارت للخلف باتجاه الفندق. "لم أعد شابة، وأحيانًا ما فكرت في أن فرصتي لن تأتي أبدًا. لكن ها نحن، نعتزم الذهاب إلى شنغهاي. الآن، يا كريستوفر، ما الأمر؟"

"أظن أن هذا ربما لا يبدو مهمًا بالنسبة لك"، قلت. "لكننى سأذكره على أية حال. أتعرفين، دائمًا كنت أنوى العودة إلى شنغهاى بنفسى. أعنى، كى.... كى أحل المشاكل هناك. كان هذا فى نيتى دائمًا."

للحظة، ظلت تحقق للخارج فى الغروب. ثم استدارت وابتسمت لى، وظننت أن ابتسامتها كانت مشحونة بالأسى، ومشوبة بالتوبيخ. مدت يدها ومست وجنتى برفق، ثم استدارت للخلف لترمق المنظر مرة أخرى.

"ربما يحل سيسيل الأمور بسرعة فى شنغهاى"، قالت. "وربما لا. على أية حال، لابد أن نظل هناك لفترة طويلة. لذلك، لو كان ما قلته للتو صحيحًا، يا كريستوفر، فمن الممكن جدًا، إذا، أن نراك هناك. أليس كذلك؟"

"نعم"، قلت. "بطبيعة الحال."

لم يحدث أن رأيت سارة هيمينجيس ثانيةً قبل أن تُبحر. لو كان لديها الحق فى توبيخى على تأجيلى طيلة تلك السنوات، فأى قدر أكبر من خيبة أملها سألتقاءه حال فشلى؟ لأنه من البديهي، مهما حقق السير سيسيل من تقدم فى شنغهاى، فسيظل الحل غير قائم فى مرمى البصر. فالتوتر لم يزل يزداد طردًا فى العالم؛ العارفون من الناس شبهوا حضارتنا بكومة من التبن التى تندفع أعواد ثقاب مشتعلة صوبها بقوة. فى الوقت نفسه، ها أنا ذا، لم أزل فاطر الهمة فى لندن. لكن مع مجيء خطاب الأمس، يمكن القول بأن القطعة الأخيرة من

أحجية الصور المقطوعة قد أخذت مكانها. بالتأكيد لقد آن الأوان كي أذهب إلى هناك بنفسى، إلى شنغهاى، كي أذهب إلى هناك و - بعد كل هذه السنوات - "أذبح رأس الأفعى" كما قال مفتش شرطة الريف الغربى المذهب.

لكن سيكون لهذا مقابل ما. مبكرًا هذا الصباح، مثل أمس، ذهبت جينيفر للتسوق - لشراء بعض الأغراض التى ادعت أهميتها للفصل الدراسى الجديد. عندما ذهبت، كانت تبدو مبتهجة وسعيدة، لا تعرف شيئًا بعد عن خططى، أو عما تناولناه بالمناقشة أنا وميس جيفنز ليلة أمس.

طلبت من ميس جيفنز الدخول إلى الصالون، وكان على أن أدعوها للجلوس ثلاث مرات قبل أن تمتثل لطلبى. ربما لأنها كانت على معرفة طفيفة بما أود أن أصرح به، وأحست أن جلوسها معى يعتبر نوعًا ما من التواطؤ. وضحت الموقف لها بأفضل طريقة ممكنة لدى؛ حاولت أن أجعلها تستوعب الأهمية البالغة للقضية؛ إضافة إلى أنها قضية ارتبطت بها لسنوات كثيرة جدًا، جدًا. استمعت بسبلادة، حينئذٍ، عندما توقفت، وجهت سؤالها البسيط: كم سأغيب؟ أعتقد أننى آنذاك تحدثت لبعض الوقت، محاولاً أن أشرح لها لماذا يتعذر على أن أضع إطارًا زمنيًا لقضية من هذا النوع. لدى شعور بأنها هى التى قاطعتنى فى النهاية لتطرح استفسارًا ما، وبعد ذلك أنفقنا عدة دقائق على ترتيبات سفرى المتعددة. تَوَّأ بعد أن ناقشنا هذه الأمور باستفاضة، ونهضت على قدميها لتترك الغرفة، قلت لها:

"ميس جيفنز، أنا مدرك تمامًا أن غيابى على المدى القصير، حتى مع بذلك لقصارى جهدي، سيضع جينيفر أمام بعض العسرات.

لكنني أتساءل عما إذا كنت قد فكرت في ذلك على المدى البعيد، إن هذا تقريبًا في مصلحتنا تمامًا، أنا وچينى، أن أتبع الخطّة التي شرحتها لك. مع ذلك، كيف لچينيفر أن تحب وتحترم حارسًا عرفت أنه قد تخلى عن أجلّ واجباته عندما آن الأوان أخيرًا؟ أيّا كان ما تتمناه الآن، فسوف تحتقرنى عندما تكبر. وأى خيرٍ سيجلبه علينا هذا لأينا؟"

رمقتى ميس چيفنز بثبات، ثم قالت: "عندك حق، يا مستر بانكس." ثم أضافت: "لكنها ستفتقدك، مع ذلك، يا مستر بانكس."

"نعم. نعم، بالإمكان التصديق على ذلك. لكن، يا ميس چيفنز، ألا ترين؟" ربما أكون قد رفعت صوتى فى هذه النقطة. "ألا ترين إلى مدى صارت الأمور بالغة الإلحاح؟ الاضطراب المتزايد فى كل أنحاء العالم؟ لابد أن أمضى!"

"بالطبع، يا مستر بانكس."

"معذرة. أنا أعتذر. فأنا الليلة فى حالة عصبية سيئة إلى حدٍ ما. عموماً، لقد كان يومًا مشحونًا."

"هل تريدنى أن أخبرها؟" سألت ميس چيفنز.

فكرت فى ذلك، ثم هزرت رأسى. "لا، سأتحدث إليها. سأتحدث إليها فى وقتٍ مناسب. وسأكون ممتنًا لك لو لم تخبريها بشيء حتى أكون قد رأيتهَا."

كنت قد عزمت ليلة أمس على أن أتحدث إلى چينيفر أن أتحدث اليوم إليها. لكن مع إمعان التفكير، شعرت أن اعتزامى القيام بذلك

سابق لأوانه؛ إضافةً إلى أنه ليس من الضروري تمامًا التأثير سلبيًا على حالتها المزاجية الإيجابية الحالية فيما يخص فصلها الدراسي المقبل. سيكون من الأفضل، عمومًا، أن أتنازل الآن عن الموضوع، وسوف أكون قادرًا على الذهاب لرؤيتها في مدرستها حال الانتهاء من ترتيباتي. جينيفر طفلة بالغة الشجاعة، وليس هناك ما يبرر انهيارها فعليًا لمجرد أني رحلت.

رغم ذلك، لا حيلة لي في تذكرى الآن لذلك اليوم الشتوى منذ عامين عندما قمت بزيارتها لأول مرة في مدرسة سانت مرجريت. كنت أجرى تحريات بالقرب منها، وكان ذلك فى أوائل التحاقها بالمدرسة، حيث قررت أن أزورها للاطمئنان أن كل شيء على ما يُرام.

تتكون المدرسة من قصر محاط بعدة أفدنة. خلف القصر، ينحدر المرج إلى البحيرة. ربما لهذا السبب الأخير، فى كل مرة زرت المدرسة خلال المناسبات الأربعة التى قمت فيها بزيارتها، كنت أجد الضباب يطوق المكان. الإوز يتجول بحرية، بينما عمال البستنة بوجوههم المتجهمة يعتنون بالأرض السبخية. على وجه العموم، فهذا جو صارم إلى حد ما، رغم أن المديرات بقدر ما رأيتهن، يظهرن حضورًا أكثر مودة. فى ذلك اليوم بالتحديد، أذكر بالذات ميس اسمها ناتينغ، امرأة طيبة فى الخمسينيات من العمر، كانت تقودنى عبر الطرقات الباردة. وعند نقطة ما، توقفت عند كوة وقالت بصوت خفيض:

"كل شيء على ما يُرام، يا مستر بانكس، هى مستقرة كما توقعنا. مع ذلك، من المحتمل وجود بعض الصعوبات فى البداية، ما

دامت البنات الأخريات ما زلن يعتبرنها وافدة جديدة عليهن. ومن الممكن أن تتعامل واحدة أو اثنتان منهن معها بقليل من الغلظة أحياناً. مع الفصل الدراسي المقبل، سيتلاشى كل هذا، أنا واثقة."

كانت جينيفر تنتظرني في غرفة كبيرة مبطنة بخشب السنديان، حيث كان هناك جذع شجرة يحترق في المدفأة. تركتني الناطرة معها، وابتسمت جينيفر بخجل إلى حد ما من مكان وقوفها بجوار رف المستوقد.

"إنهم لا يحافظون على المكان دافئاً بما يكفي هنا،" قلت، وأنا أفرك يدي وأتحرك باتجاه النار. "أوه، يجب أن تشعر بمدى البرودة هنا في مَهْجَعْنَا. قطع الجليد على ملاءاتك!" قهقهت.

جلست على كرسي بالقرب من المدفأة، لكنها ظلت واقفة. كنت أخشى من أنها ربما تشعر بالحرج لرؤيتي في هذا السياق المختلف، لكنها على الفور بدأت تدرش بحرية تامة، عن البَدْمَنْتَن^(١٥) والبنات التي أحبتهن، الطعام، الذي قالت عنه "يخنة"،^(١٦) يخنة، يخنة.

"أحياناً ما يكون صعباً،" قلت في لحظةٍ ما، "عندما تكونين وافدة جديدة. إنهم لا.... يتعصبون ضدك أو أي شيء؟"

"أوه لا،" قالت. "حسناً، يوجد قليل من المضايقة أحياناً، لكنهن لا يقصدن شيئاً من ذلك. جميعهن لطيفات هنا."

(١٥) تنس الريشة. (المترجم)

(١٦) يخنة: طعام مطهوٍ بالغلي البطيء.

كنا قد تحدثنا لمدة عشرين دقيقة عندما نهضت على قدمي وأعطيتها كرتونة أحضرتها في حقيبتى.

"أوه، ما هذا؟" تعجبت باستثارة.

"جبنى، هذا ليس... هذا ليس هدية كما تظنين."

انتبهت لنبرة التحذير في صوتي، ونظرت إلى الصندوق الذى بين يديها بإرهاق مبالغت. "ما هذا إذا؟" سألت.

"عليك بفتحه. لترى بنفسك."

راقبتها وهى تفض غطاء الصندوق - كان فى حجم علبة حذاء تقريبًا - وتتنظر - وحدقت داخله. تعبيرات وجهها - الحذرة فعليًا - لم تتغير على الإطلاق. ثم مدت يدها داخل الصندوق وتحسست شيئًا ما.

"معذرة،" قلت برقة، "هذا كل ما استطعت استرداده. اكتشفت أن صندوقك، لم يُفقد فى البحر على الإطلاق، لكنه سُرق مع أربعة صناديق أخرى من محطة لندن. فعلت كل ما استطعت، لكن اللصوص بالفعل قد دمروا كل ما لم يمكنهم بيعه بسهولة. لم أجد أثرًا للملابس وخلافه. فقط هذه الأشياء الصغيرة."

أخرجت سوارًا، وكانت تتفحصه بعناية وكأنها تفتش عن تشوهات فيه. أعادته، ثم أخرجت زوجًا من أجراس فضية صغيرة وتفحصتهما بالطريقة نفسها. ثم أعادت الغطاء على الصندوق ونظرت إلى.

"هذا منتهى العطف منك، يا عم كريستوفر،" قالت بهدوء. "ولابد أنك مشغول للغاية."

"لم يكن في هذا أى تعطيل لى. أنا بالفعل آسف لأننى لم أستطع استعادة ما هو أكثر من ذلك."

"هذا منتهى العطف منك."

"حسنًا، من الأفضل علىّ أن أتركك تعودين إلى درس الجغرافيا. أنا لم آت فى وقتٍ مناسب تمامًا."

لم تتحرك، لكنها استمرت واقفة هناك بهدوء، ترمق الصندوق الذى بين يديها. ثم قالت:

"كنت تنسى أحيانًا، عندما كنت فى المدرسة. أحيانًا فقط. كنت تعد الأيام حتى تأتى العطلات مثلما تفعل البنات الأخريات، ثم تفكر فى أنك سترى ماما وبابا مرةً أخرى."

حتى فى هذه الظروف، لم تنزل مثار دهشة أن أسمعها تذكر والديها. انتظرتها كي تقول أكثر لكنها لم تفعل؛ وجدت ببساطة لأعلى فى وكأنها كانت بالفعل قد طرحت على سؤالاً. فى النهاية، قلت:

"أعرف أنه أحيانًا ما يكون صعبًا. وكأن العالم كله قد انهار من حولك. لكننى سأقولها لك، يا جينى. أنت تلعبين دورًا هائلًا إذ تعيدين ترتيب القطع ثانيةً. بالفعل. أعرف أن الصورة لن تعود ثانيةً أبدًا كما كانت، لكننى أعرف أنه ينبغى عليك الآن الاستمرار لبناء مستقبل سعيد لنفسك. وسأكون هنا دائمًا لمساعدتك، أود أن تعرفى هذا."

"أشكرك"، قالت. "وأشكرك على هذه الأشياء."

بقدر ما أستطيع أن أذكر، هكذا انتهى لقاءنا في ذلك اليوم. تحركنا بعيدًا عن الدفء النسبي للمدفأة، عبر الغرفة المعرضة لتيارات الهواء وللخارج إلى الكوريدور، حيث شاهدتها تمضي عائدةً إلى فصلها.

في ذلك النهار الشتوي منذ عامين، لم تكن لدى أي فكرة أن كلماتي مثلت لها أي شيء سوى أنها قائمة على أسس قوية. عندما أعاد زيارة مدرسة سانت مرجريت ثانيةً، كي أودعها، ربما بالفعل نلتقي ثانيةً في الغرفة نفسها المعرضة لتيارات الهواء، إلى جوار المدفأة نفسها. لو حدث هذا، فالأمور ستكون أكثر صعوبة بالنسبة لي، لأن فرصة جينيفر في أن تفشل في تذكر لقائنا الأخير هناك بوضوح تام ستكون ضئيلة. لكنها فتاة ذكية، وأيًا كانت مشاعرنا لحظتنا، ربما ستعي جيدًا كل ما سأقوله لها. ربما حتى تدرك، أسرع من مربيتها ليلة أمس، أنها عندما تكبر - عندما تصبح هذه القضية ذكرى انتصار - ربما تفرح فعلاً لأنني نهضت لأداء تحديات مسئوليتي.

الكتاب الرابع

فندق کاتای، شنغهای،

۲۰ سبتمبر ۱۹۳۷

الفصل الثانى عشر

المسافرون فى بلاد العرب كثيرًا ما لاحظوا أن السكان المحليين يقتربون بوجوههم من بعضهم البعض بشكلٍ مريبٍ أثناء الكلام. بطبيعة الحال، يُعتبر هذا ببساطة واحدة من العادات المحلية التى تختلف عن عاداتنا، وسيخلص أى زائر متفتح العقل بعد قليل إلى أن هذا لا يعنى شيئًا. لقد خطر ببالي أنه ينبغى على أن أرى وأصادف حالةً مماثلة أصبحت، خلال الأسابيع الثلاثة التى قضيتها هنا فى شنغهاى، مصدرًا دائمًا للإثارة: تحديدًا الطريقة التى يبدو بها الناس مصريين هنا على منع الواحد من الرؤية كلما سحت الفرصة. ما يلبث شخص أن يدخل غرفة أو يترجل عن سيارة حتى يقوم شخصٌ ما أو آخر بوضع نفسه وهو يبتسم أمام عينيه كاسرًا خط الرؤية، حاجبًا قراءته البصرية الأساسية لكل الأشياء المحيطة. لأن الشخص الذى يحجب رؤيتك غالبًا ليس مضيفك أو مرشدك فى تلك اللحظة، فلو كان هناك أى زلة فى هذا الاتجاه، فلن يكون هناك أبدًا نقص فى المشاهدين الذين يتوقون إلى الاستفادة من النقيصة. قدر ما أستطيع التأكيد، كل الجماعات الدولية التى يتشكل منها المجتمع هنا - الإنجليز، والفرنسيين، والأمريكيين، واليابانيين والروس - يشتركون فى هذه الممارسة بالدرجة نفسها من الحماس، والنتيجة التى لا مفر منها هى أن هذه العادة قد تنامت داخل مستعمرة شنغهاى العالمية بصورة فريدة من نوعها، متجاوزة كل حدود الطبقات والأعراق.

لقد أخذت بضعة أيام بالفعل لأضع يدي على هذا الشذوذ المحلي، وأدرك أن هذا هو ما كان كامناً في عمق الارتباك الذي هدد بقهرى لفترة مع بداية وصولي إلى هنا. الآن، رغم أنني ما زلت أجد نفسي منزعاً من هذا بين الحين والآخر، فإنه لم يصبح أمراً جديراً بالاهتمام. إضافةً إلى أنني اكتشفت عادةً ثانيةً متممةً تمارسها شنغهاي كي تجعل الحياة أكثر سهولة: يبدو أنه من المسموح به جداً هنا أن تقوم بدفعات فظة مفاجئة لإزاحة الناس عن طريقك. رغم أنني لم تواتني الشجاعة للتمتع بهذا التصريح شخصياً، فإنني فعلياً شاهدت عدداً من النساء المهذبات في التجمعات الاجتماعية يوجهن دفعات بالغة القوة دون التفوه ولو بكلمة.

في ليلتي الثانية هنا عندما دخلت قاعة الرقص في الطابق الأخير من فندق بلاس، لم أكن بعد قد عينت أيّاً من هاتين الممارستين الغريبتين، وبالتالي وجدت أن معظم تلك الليلة مشوبة بالإحباط بسبب ما كنت أعتبره آنذاك طبيعة هذه المستعمرة العالمية جامحة الازدحام. بخروجي من المصعد، لمحت بالكاد السجادة القطيفة التي تقود إلى قاعة الرقص - صف من البوابين الصينيين على امتدادها - عندما وضع أحد مضيفي البريطانيين، مستر ماكدونالد من القنصلية البريطانية هيكل جسده العريض أمامي. أثناء تقدمنا باتجاه مدخل الباب، لاحظت الطريقة الساحرة بدرجةٍ ما لكل بواب، عند مرورنا، ينحني ولأعلى يشبك يديه المرتديتين قفازاً أبيض في بعضهما البعض. لكننا كنا بالكاد نمر بالرجل الثالث - ربما كان هناك ستة أو سبعة في المجموع - حتى عندما حَجب مُضيفي الآخر، مستر

جرايسون تحديدًا ممثل المجلس المحلي لشنغهاي الذي تقدم إلى جانبي ليستكمل ما كنا نتحدث بصددہ أثناء صعودنا في المصعد، هذا المشهد. ولم ألبث أن دخلت القاعة التي، وفقًا لمضيفي، كنا سنرى فيها "أروع برنامج للغناء والرقص وحشدًا من صفوة شنغهاي" حتى وجدت نفسي في خضم حشد متدافع من الناس. السقف المرتفع فوقى، بثرياته المتقنة، جعلني أعتقد أن أبعاد القاعة كانت شاسعة جدًا، رغم أنني لبعض الوقت لم تكن لدى طريقة كي أتيقن من ذلك. أثناء اختراقى للزحام خلف مضيفي، رأيت نوافذ كبيرة على امتداد أحد جوانب القاعة، عبرها كان الغروب ينسل، في تلك اللحظة، إلى الداخل. لمحت أيضًا منصة على الجانب الآخر، عليها عدد من الموسيقيين في حلل بيضاء يتجاذبون أطراف الحديث. كانوا، مثل الجميع، في انتظار شيء ما - ربما كانوا ببساطة ينتظرون الليل. كان هناك حالة من القلق بشكل عام، مع تزاخم الناس ودورانهم حول بعضهم البعض بلا هدف واضح.

غاب مضيفاي تقريبًا عن مرمى بصرى، لكنني حينئذٍ رأيت ماكدونالد يومئ لي، وأخيرًا وجدت نفسي أجلس على طاولة صغيرة عليها مفرش أبيض منسج شق رفيقاي طريقهما إليها. من زاوية الرؤية الخفيفة هذه - رأيت حقيقة أن مساحة واسعة من الأرضية قد أخليت - من المفترض أنها لبدء برنامج الغناء والرقص - وأنا كل الحضور تقريبًا قد ضغطوا أنفسهم في شريط ضيق نسبيًا بطول الجانب المزجج من القاعة. كانت الطاولة التي نجلس عليها جزءًا من صف طويل، رغم أنني عندما حاولت أن أرى إلى أي مدى يمتد

الصف، وجدتي قد حُجبت مرةً أخرى. لم يكن هناك من يجلس على الطاولات المجاورة لنا مباشرة، ربما لأن الجمهور المتزاحم جعل الجلوس إلى الطاولات غير عملي. بعد قليل، كانت طاولتنا، حقيقةً، تشبه قاربًا صغيرًا تهاجمه من كل الجهات نوبات مدٍ من صفوة المجتمع في شنغهاي. إضافةً إلى أن وصولي لم يمر مرور الكرام؛ فقد سمعت تمتمات من حولي تتناقل الأخبار، وكانت النظرات تتزايد طردياً في اتجاهنا.

رغم كل هذا، وبعد أن أصبحت الأمور مستحيلة تمامًا، أذكر أنني حاولت الاستمرار في الحوار الذي كنت قد بدأت مع مضيفي في السيارة التي أقلتنا إلى فندق بالاس. في نقطة ما أتذكر أنني كنت أقول لماكدونالد:

"أنا أقدر اقتراحك جدًا، يا سيدى. لكن في الحقيقة، يسعدنى أن أسعى في تحرياتي وحدى. هذا ما اعتدت عليه في عملي."

"كما ترى، يا صديقي القديم،" قال ماكدونالد. "فقط فكرت في التنويه. بعض هؤلاء الزملاء الذين أتحدث عنهم، يعرفون المدينة كلها تمامًا. وأفضل ما عندهم ستجده على الدرجة نفسها من الدقة مثلما في إسكوتلاند يارد. فقط فكر في أنهم من الممكن أن يوفرُوا عليك، وعلينا، بعضًا من ثمين الوقت."

"لكنك ستتذكر، يا مستر ماكدونالد، كلامي لك. لقد غادرت إنجلترا لحظة تمكنت من ضياغة رؤية واضحة لهذه القضية. بعبارة أخرى، وصولي إلى هنا ليس هو نقطة البداية، لكنها ذروة سنوات عمل كثيرة."

"بعبارة أخرى،" قال جرايسون فجأة، "أنت قد أتيت إلى هنا لتستكمل ملف القضية وتتحرى ما تبقى منها كي تغلقه للأبد. مدهش! إنها أخبار رائعة!"

ألقي ماكdonالد بنظرة ازدراء إلى عضو المجلس المحلي، ثم استأنف كلامه وكان الأخير لم يقل شيئاً.

"لا أقصد أن أشكك بأى شكل فى قدراتك، أيها الصديق. فتاريخك يعلن عن نفسه، على أية حال. كنت فقط أقترح مساعدة ضئيلة من شخصى. بطبيعة الحال، تتحرك تحت إمرتك. فقط، كما تفهم، للتعجيل بالأمور. فبوصولك إلى هنا فقط، ربما لا يبدو واضحاً تماماً مدى خطورة موقفنا. أعرف أن كل شيء يبدو هادئاً للغاية هنا. لكنى بدرجة ما أخشى ألا يكون معنا من الوقت ما يُسعفنا."

"أنا ممتن جداً لإلحاحك، يا مستر ماكdonالد. لكن بإمكانى فقط أن أقولها ثانية، لدى كل ما يدعونى للإيمان بأن كل شيء سوف يصل إلى نتائج مرضية فى وقتٍ قصير نسبياً. شريطة أن، كما أشرت، أن تتاح لى فرصة مواصلة تحرياتى دون معوقات."

"هذه أخبار رائعة!" قال جرايسون متعجباً، ظافراً بنظرة فائرة أخرى من ماكdonالد.

خلال معظم الوقت الذى قضيته فى صحبة ماكdonالد ذلك اليوم، كان سامى يزداد من تظاهره بأنه ليس أكثر من موظف قنصلى مسئول عن أمور البروتوكول. لم يكن فضوله المُغالى فيه لمعرفة خططى - أو إلحاحه على فرض "مساعدين" على - فقط هو ما

فضحه؛ لكن حالة الازدواجية المهذبة إضافةً إلى سلوكياته الراقية الفاترة التي كشفت أنه رجل استخبارات. عند تلك النقطة في المساء، لابد وأننى قد أصبحت في ضجرٍ من التكيف مع تمثليته، لأننى طرحت سؤالاً عليه وكان الحقيقة قد أعلنت بيننا منذ وقتٍ طويلٍ مضى.

"مادام أننا نناقش مسألة المساعدة، يا مستر مكدونالد،" قلت له، "هناك ما أظن أنك تستطيع القيام به وسيكون في غاية الأهمية."

"جربنى، أيها الصديق القديم."

"كما ذكرت من قبل، أنا مهتم جدًا بما أعتقد أن قوات الشرطة هنا قد أسمته قتلة الثعبان الأصفر."

"أوه نعم؟" رأيت الحذر يلف وجه مكدونالد. جرايسون، على الجانب الآخر، بدا أنه لا يعرف ما أشرت إليه، وأخذ يتنقل بنظراته بيننا.

"في الواقع" - واصلت كلامى، وأنا أرمق مكدونالد بعناية - "عندما جمعت أدلة كافية عن هؤلاء الذين يُطلق عليهم قتلة الثعبان الأصفر قررت أخيرًا أن آتى إلى هنا."

"فهمت. إذا أنت مهتم بمسألة الثعبان الأصفر." نظر مكدونالد فى كل أنحاء القاعة برباطة جأش. "مسألة خطيرة. لكننى لم أظن أنها على هذه الدرجة من الأهمية، مقارنة بالصورة الأكبر."

"على النقيض. أظن أنها وثيقة الصلة بالموضوع جدًا."

"أنا آسف جدًا،" تمكن جرايسون من القول أخيرًا. "لكن بالفعل من قتلة الثعبان الأصفر هؤلاء؟ لم أسمع عنهم مطلقًا."

"هذا ما يطلقه الناس على المنتقمين الشيوعيين،" أخبره ماكدونالد. "شيوعيون يقتلون أقارب أحد أعضاء جماعتهم لأنه تحول إلى مُخْبِر يشي بهم." ثم قال لى: "إن هذا يحدث من وقت لآخر. الشيوعيون متوحشون في مثل هذه الأمور. لكن هذا الأمر بين الصينيين. تشيانج كاي-شيك مهيم تمامًا على الشيوعيين الحمر ويخطط للقضاء على ذلك، يابانيون أو لا يابانيون. نحن نحاول أن نرتفع عن هذا، كما نعرف. أنا مندهش لأنك مهتم بكل ذلك، أيها الرفيق القديم."

"لكن هذه المجموعة بعينها من المنتقمين،" قالت، "قتلة الثعبان الأصفر هؤلاء. إنهم مستمررون منذ وقتٍ طويل. يظهرون ويختفون منذ الأعوام الأربعة الأخيرة. وخلال تلك الفترة لقي ثلاثة عشر شخصًا مصرعهم حتى اليوم."

"سوف تعرف التفاصيل أفضل مني، أيها الرفيق القديم. لكن من خلال ما سمعت، سبب استمرارهم هو أن الشيوعيين الحمر لا يعرفون من هو خائنهم. فقد بدأوا بذبح أشخاص على سبيل الخطأ. تعرف، هذه هي الرؤية البلشفية للعدل، على وجه التقريب. في كل وقت تتغير أفكارهم بشأن كينونة الثعبان الأصفر، يخرجون ويقتلون عائلة أخرى."

"سيعيننا هذا على فهم الأمور بشكل كبير، يا مستر ماكدونالد، لو تمكنا من التحدث إلى هذا المُخْبِر. الرجل المُشار إليه باسم الثعبان الأصفر."

هز ماكدونالد كتفه باستهجان. "كل هذا بين الصينيين، أيها الرفيق القديم. لا يعرف أحد منا من هو هذا الثعبان الأصفر. أتصور أن الحكومة الصينية ستفعل خيرًا بإعلانها عن هويته قبل أن يتعاملوا مع الكثير من الأبرياء خطأً على أنهم أقاربه. لكن بصدق، أيها الرفيق القديم. كل هذا بين الصينيين. من الأفضل أن تتحى هذا الأمر جانبًا." "من الأهمية بمكان أن أتمكن من التحدث إلى المُخبر."

"حسنًا، مادمت تحتاج هذا بقوة، سوف أتحدث مع بضع أشخاص. لكنني لا أعدك بالكثير. هذا الرجل يبدو في غاية الأهمية بالنسبة للحكومة. ورجال تشيانج يتكتمون أمره جدًا، كما أتصور."

عند هذه النقطة أدركت أن عددًا أكبر من الناس أصبح يضغطنا من كل ناحية، ليس فقط من أجل رؤيتي شخصيًا، لكن للتجسس على الحوار الدائر بيننا. في مثل هذه الظروف لم يكن من الممكن أن أتوقع كلامًا صريحًا من ماكدونالد، وقررت أن أتجاهل الموضوع وقتئذٍ. في الواقع، لقد غالبتني في تلك اللحظة رغبة في أن أنهض وأنتفص قليلا من الهواء، لكن قبل أن أتحرك، مال جرايسون للأمام بابتسامة بشوشة وقال:

"مستر بانكس، أدرك أن هذا ليس الوقت المناسب. لكنني فقط أردت أن أصرح بكلمة سريعة. تعرف، يا سيدى، لقد كُلفت بالمهمة السعيدة لترتيب الاحتفال. أعنى، مراسم الترحيب بك."

"مستر جرايسون، لا أود أن أبدو غير ممتن، لكن كما قال مستر ماكدونالد توءًا، الوقت ضاغطٌ إلى حدٍ ما. وأشعر أنه قد تم الترحيب بى بكرم يفوق الحد بكثير...."

"لا، لا، يا سيدى" - ضحك جرايسون بعصبية - "لقد كنت أشير إلى حفل الترحيب. أعنى، الحفل الخاص بعودة والديك بعد كل سنوات الأسر هذه."

أعترف أن هذا أذهلنى وربما للحظة ظلت فقط أرمقه. أطلقت ضحكة عصبية أخرى وقلت:

"بالطبع، أدرك، أن هذا سابق لأوانه إلى حد ما. عليك أولاً أن تقوم بمهمتك. وبالطبع، لا أريد أن أسبق الأحداث. ومع ذلك، كما تعرف، نحن مضطرون للاستعداد. بمجرد أن تعلن عن حل القضية، سوف ينظر الجميع إلينا، المجلس المحلى، ليقيم احتفالاً جديراً باللحظة. سوف يرغبون فى احتفال خاص جداً، وسوف يريدونه على الفور. لكنك ترى، يا سيدى، أن نرتب شيئاً فى الظروف التى نتحدث فيها، فليس هذا بالأمر الهين. لذلك ترى، أتساءل عما إذا كنت تقبل أن أضع أمامك قليلاً من الآراء الأساسية. سؤالى الأول، يا سيدى، قبل أى شىء آخر، هو عما إذا كنت سعيداً باختيار جيسفياد بارك مكاناً للاحتفال؟ سوف نطلب، تعرف، مكاناً شاسعاً...."

بينما كان جرايسون يتكلم، أدركت بثبات صوت - كان يأتى من مكان ما فى جلبة الزحام - طلق نارى بعيد. لكن كلمات جرايسون كانت بغتة قد توقفت بسبب دوى هادر هز القاعة. نظرت لأعلى بانزعاج، لأرى فقط أن جميع الناس من حولى يبتسمون، ويضحكون أيضاً، ولم تزل كؤوس الكوكتيل فى أياديهم. بعد لحظة، استطعت أن أتبين حركة فى الزحام باتجاه النوافذ. قررت أن أنتهز الفرصة لأغادر الطاولة، نهضت واقفاً وانضمت للاندفاع. كان هناك كثير

من الناس أمامى فلم أتمكن من رؤية أى شىء، وكنت أحاول أن أشق طريقى للأمام عندما أدركت أن هناك امرأة رمادية الشعر إلى جانبى تتحدث إلى.

"مستر بانكس"، كانت تقول، "هل لديك أى فكرة عن مدى شعورنا بالارتياح لأنك الآن هنا معنا؟ بالطبع، لم نحب أن نظهر ذلك، لكننا فى منتهى الاهتمام بـ، حسنًا" - تحركت باتجاه صوت إطلاق النار - "زوجى، يصر على أن اليابانيين لن يجرؤوا أبدًا على مهاجمة المستعمرة العالمية. لكن تعرف إذا، يقول هذا عشرين مرة فى اليوم على الأقل، لكن هذا بالكاد ينشر الطمأنينة. أقول لك، يا مستر بانكس، عندما بلغت زوجى أنباء وصولك الوشيك، كانت هذه هى أولى الأخبار السعيدة التى نسمعها هنا منذ شهور. حتى إن زوجى توقف عن ترديد تعويضته عن اليابانيين، توقف على الأقل بضعة أيام. يا إلهى!"

انفجارٌ مدوٍ آخر هز جنبات الغرفة، مثيرًا بضع هتافات ساخرة. حينئذٍ لمحت طريقًا صغيرًا أمامى، انفتحت بعض النوافذ الفرنسية، واندفع الناس للخارج إلى الشرفة.

"لا تقلق، يا مستر بانكس"، قالها شاب، وهو يمسك مرفقى. "ليس هناك أى فرصة لأى من ذلك كى يصل إلى هنا. كلا الجانبين فى منتهى الحذر الآن بعد يوم الاثنين الدامى."

"لكن من أين يأتى هذا؟" سأله.

"أوه، إنها السفينة الحربية اليابانية فى الميناء. القذائف فوقنا فعليًا وتهبط هناك عبر الجُؤن. بعد الظلمة تكون فى مرمى البصر تمامًا. تشبه، إلى حدٍ ما، الشهب المترقبة."

"ماذا لو أن واحدةً أخطأت الهدف؟"

لم يكن الشاب الذى كنت أتحدث إليه هو من ضحك على هذه الفكرة فحسب، بل وآخرون كثيرون حولنا أيضًا - فكرت بصوتٍ مرتفع إلى حدٍ ما. حينئذٍ قال صوتٌ آخر:

"سوف يتحتم علينا الثقة بأن اليابانيين يصوبونها على الهدف. مع ذلك، لو أخفقوا، فمن المحتمل فقط أن يُسقطوا واحدة خلف خطوطهم."

"مستر بانكس، هل تهتم بهذه الأمور؟"

أحدهم كان يمد يده لى بنظارة أوبرا. عندما أمسكتها، وكأننى قد أعطيت إشارة. تقدم الناس أمامى، ووجدت نفسى فعليًا قد انتقلت إلى النافذة الفرنسية المفتوحة.

خطوت للخارج إلى شرفة صغيرة. أحسست بنسيم دافئ وكانت السماء قرنفلية داكنة. كنت أنظر لأسفل من ارتفاع شاهق، وكانت القناة ظاهرة عبر الصف التالى من البنايات. خلف الماء كانت هناك كتلة من الأكواخ والحجارة يتصاعد منها عمود رمادى من الدخان باتجاه السماء الليلية.

وضعت النظارة على عيني، لكن التركيز البؤرى كان خطأ تمامًا ولم أستطع أن أرى شيئًا. عندما عبثت بقرص البؤرة، وجدت نفسى أهدق فى القناة، حيث أصبت بدهشة باهتة عندما رأيت أن العديد من

القوارب لم تزل تمارس أنشطتها الطبيعية إلى جوار القتال مباشرة. ركزت على قارب بعينه، مركبة تشبه البارجة ذات المجداف الوحيد - كانت مكتظة بالصناديق والحزم فبدأ من المستحيل أن تمر أسفل كوبرى القناة الخفيض الواقع تحتى مباشرة. بينما كنت أشاهد، وصلت المركب إلى الكوبرى بسرعة، وكنت واثقاً أننى سأرى صندوقاً أو اثنين على الأقل يسقطان من أعلى الركاب إلى الماء. لبضع ثوان تاليات، واصلت التحديق فى النظارة على القارب، وقد نسيت القتال تماماً. أمعنت النظر فى المراكبى، الذى كان مثلى مستغرقاً تماماً فى مصير حمولته وغافلاً عن الحرب الدائرة على بعد ستين ياردة إلى يمينه. ثم تلاشى القارب تحت الكوبرى، وعندما رأيته ينزلق إلى الجانب الآخر، والحمولة المتزعزعة لم تزل على حالها، أنزلت النظارة عن عيني وتتهدت.

أدركت أن حشداً كبيراً من الناس كان يقف خلفى عندما كنت أنظر على القناة. أعطيت النظارة لشخص ما كان على مقربة منى وقلت دون أن أوجه كلامى إلى شخص بعينه: "إذا، هكذا الحرب. منتهى الروعة. هل هناك الكثير من الجرحى. أظن؟"

أدى هذا إلى كثير من الثرثرة. قال أحد الأصوات: "هناك كثير من القتلى فى تشابى. لكن اليابانيون سيأخذونهم خلال بضعة أيام أخرى لاحقاً وستعود الأمور إلى هدوئها ثانية."

"لسنا متأكدين تماماً"، قال شخص آخر. "لقد أذهل الكيومينتانغ الجميع، وأراهن أنهم سيواصلون هذا. أراهن على صمودهم لفترة طويلة بعد الآن."

ثم بدأ الجميع حولى فى الجدل على الفور. بضعة أيام، بضعة أسابيع، أى اختلاف تحقق؟ الصينيون ستضطرون للاستسلام إن أجلاً أو عاجلاً، لذلك فلماذا لا يستسلمون الآن؟ اعترضت أصوات كثيرة على أن النتيجة محددة تماماً. الأشياء تتغير بين عشية وضحاها، وهناك عوامل كثيرة تتضارب مع بعضها البعض.

"إضافةً إلى،" سأل شخصٌ ما، "ألم يحضر مستر بانكس؟"

كان هذا السؤال يهدف بوضوح إلى أن يكون بلاغياً وجيهاً، مع ذلك ظل معلقاً فى الهواء، مما جعل كل العيون تستكين ملتفتةً إلى على الفور ثانية. فى الواقع، هاجستى فكرة أن المجموعة التى كانت فى الشرفة فقط، لكن كل الناس فى قاعة الرقص قد لفهم الصمت وكانوا فى انتظار إجابتى. فكرت فى أن ذلك الوقت ملائم عن غيره للإدلاء بتصريحى - وقت انتظرته من أول لحظة دخلت فيها القاعة - أعلنت بصوتٍ عالٍ، بعد أن تتحننت:

"السيدات والسادة: أرى جيداً أن الموقف هنا قد أصبح مُرهقاً إلى حدٍ ما. ليس لدى رغبة فى إثارة آمال زائفة فى مثل هذا الوقت. لكن دعونى أقول إننى ما كنت لآتى إلى هنا الآن لو لم أكن متفائلاً بخصوص فرصى فى الوصول بهذه القضية، فى أقرب وقت فى المستقبل، إلى نهاية طيبة. فى الحقيقة، سيداتى وسادتى، لى أن أقول إننى أكثر من متفائل. ومن ثم أتوسل صبركم حتى نهاية الأسبوع المقبل أو شىء من هذا القبيل. حسناً، بعدئذٍ سوف نرى ما قد تحقق."

بمجرد أن نطقت بهذه الكلمات، بدأت أوركسترا الجاز على الفور فى المرقص. ليس عندى فكرة عما إذا كان ذلك مجرد

مصادفة، لكن على أية حال فقد كان الأثر الذى أحاط بكلامى طيبًا إلى حدٍ ما. أحسست أن التركيز فى القاعة قد انتقل من على، ورأيت أن الناس بدأت فى الرجوع إلى داخل القاعة، وعندما كنت أحاول أن أجد طاولتنا مرةً أخرى - كنت بصورةٍ ما قد فقدت اتجاهى - لاحظت أن فرقة من الراقصات قد احتلت أرضية القاعة.

كان هناك ما يزيد عن العشرين راقصةً تقريبًا، كثيرات منهن كن "أوراسيات"، ترتدين ثيابًا متماثلة فقيرة المظهر تزدان برسومات للطيور. عندما بدأت الراقصات فى عرضهن الأرضى، بدا أن كل من فى القاعة قد فقد اهتمامه بالمعركة الدائرة عبر الماء، رغم أن الجلبة كانت لم تزل مسموعة بوضوح فيما وراء الموسيقى المرححة. وكما كان الأمر بالنسبة لهؤلاء الناس وكأن فقرة فى حفل قد انتهت وبدأت أخرى. شعرت تجاههم، ولم تكن هذه هى المرة الأولى منذ وصولى إلى شنغهاى، بنوبة من الاشمئزاز. ليس ببساطة بسبب فشلهم بفداحة طيلة هذه السنوات فى النهوض لتحدى المسألة، وسماحهم للأمور بالانزلاق إلى هذه الدرجة المروعة بكل تشعباتها الهائلة. إن ما صدمنى بهدوء، منذ اللحظة الأولى لوصولى، هو رفض الجميع هنا الاعتراف باستحقاقهم اللوم بشدة. خلال هذين الأسبوعين من وجودى هنا، فى كل تعاملاتى مع هؤلاء المواطنين، عاليهم وسافلهم، لم أشهد - ولا مرة - ما يمكن أن أطلق عليه شعورًا صادقًا بالخزى. هنا، بعبارةٍ أخرى، فى مغبة هذا الاضطراب الهائل الذى يهدد بابتلاع العالم المتحضر كله، اتفاق تأمرى محزنٌ على الإنكار؛ إنكار المسؤولية انقلب على نفسه وأضحى فاسدًا، يعلن عن

نفسه بنوع من الدفاع المغرور واجهته كثيراً. وهنا يوجد، ما اصطلح على تسميتهم بصفوة شنغهاي، يتعاملون بمنتهى الازدراء مع معاناة جيرانهم الصينيين الذي يعيشون على الجانب الآخر من القناة.

كنت أتحرك على طول خط الظهور الذي تشكل لمشاهدة البرنامج الراقص، محاولاً احتواء شعوري بالنقزز، عندما أدركت أن شخصاً ما كان يشد ذراعى بقوة واستدرت لأجد سارة.

"كريستوفر"، قالت، "لقد كنت أحاول الوصول إليك طوال الوقت. أليس لديك من الوقت ما يمكنك من إلقاء التحية على أصدقائك القدامى من الوطن؟ انظر، سيسيل هناك، إنه يلوح لك."

أخذت بعض الوقت كي أتمكن من رؤية السير سيسيل بين الناس؛ كان جالساً وحده على طاولة في الركن القصي من القاعة، وكان بالفعل، يلوح لى. لوحته له، ثم نظرت إلى سارة.

كانت تلك هي أول مرة تجمعنا الصدفة منذ وصولي. داخلني انطباع بأنها علي ما يُرام؛ لقد حولت شمس شنغهاي شحوبها المألوف إلى تألق. إضافةً إلى أنها ظلت مرحلة الطابع وواقعة من نفسها، ونحن نتبادل بضع كلمات ودودة. الآن فقط، بعد أحداث الليلة الماضية، أجد نفسي أمعن التفكير ثانيةً في لقائنا الأول هذا، في محاولة لاكتشاف إلى أي مدى خدعت. ربما يكون الإدراك البعدي فقط هو ما جعلني أتذكر شيئاً ما متكلفاً كان يشوب ابتسامتها عن عمد، تحديداً عندما كانت تذكر اسم السير سيسيل. ورغم أننا تبادلنا ما هو أكثر قليلاً من المزاح، كانت هناك عبارة ظلت تعاودني قالتها - عبارة أربكتني إلى حدٍ ما حتى في تلك الليلة - طوال اليوم بعد الليلة الماضية.

كنت أتساءل عن مدى استمتاعها هي والسير سيسيل بالعام الذي أمضياه هنا. كانت تؤكد لى أنه على الرغم من أن السير سيسيل لم يحقق الاختراق الذى تمناه، فقد حقق مع ذلك كثيرًا مما جعله يحظى بامتنان المجتمع. حينئذٍ بالتحديد سألت، لم أكن أحمل فى عقلى الكثير:

"هكذا إذا ليس لديكما خطًا حالية لمغادرة شنغهاى؟"

سخرت سارة من ذلك السؤال، ورمقت سيسيل بنظرة أخرى فى ركنه القصى، ثم قالت: "لا، نحن مستقران هنا تمامًا فى الوقت الراهن. الميتروبولو مريح للغاية. لا أتوقع أن نغادر بسرعة إلى أى مكان. لن يحدث حتى يأتى من ينقذ الموقف، هكذا."

قالت كل هذا - بما فى ذلك تنويها الأخير هذا عن الإنقاذ - وكأنها تحكى نكتة، ورغم أننى لم أدرك بالضبط ما قصدت، فقد أجبته بضحكة صغيرة لمجاراتها. تكلمنا بعدئذٍ، قدر ما أتذكر، عن أصدقائنا المشتركين فى إنجلترا حتى وضع وصول جرايسون نهاية فعلية لحوار بدا فى ظاهره لا ينطوى على أى تعقيد.

الآن فقط، كما أقول، بعد الليلة الماضية، وجدت نفسى أفتش ذاكرة لقاءاتى مع سارة فى هذه الأسابيع الثلاثة، فلا أجدنى أعود إلا إلى هذه الجملة الوحيدة المضافة كنوع من الفكرة البعيدة لإجابتها المرححة.

الفصل الثالث عشر

قضيت معظم فترة بعد ظهيرة أمس داخل بيت القارب بصخب صريره حيث تم اكتشاف الجثث الثلاث. احترم البوليس رغبتى فى إجراء تحريأتى دون إزعاج لدرجة أننى فقدت إحساسى بالزمن ولم ألحظ غروب الشمس بالخارج. عندما عبرت رصيف الميناء وتمشيت أسفل طريق نانكينغ، كانت الأضواء الساطعة قد أنارت وازدحمت الأرضفة بحشود المساء. بعد اليوم الطويل المُحِيط، شعرت بحاجتى للاسترخاء قليلاً وأشق طريقى إلى ملتقى طريقى نانكينغ وكيانغسى، إلى نادى صغير كنت قد أخذت إليه فوراً بعد وصولى. لم يكن هناك ما يميز المكان؛ مجرد دور تحتانى، حيث يقوم عازف بيانو فرنسى فى معظم الليالى بأداء فقرات حزينة من بيزيت وجيرشوين. لكنه كان مُشبعاً لاحتياجاتى بما فيه الكفاية، وقد عُدت إلى هناك مرات عديدة خلال هذه الأسابيع. فى الليلة الماضية، قضيت حوالى الساعة على طاولة فى أحد الأركان، أتناول قليلاً من الأطعمة الفرنسية وأضع ملاحظاتى حول ما اكتشفته فى بيت القارب، بينما راقصوا التاكسى يتمايلون مع زبائنهم مع الموسيقى.

صعدت سُلماً يقود إلى الشارع عاقداً العزم على العودة إلى الفندق، حينما صادف أن انغمست فى حوار مع بواب روسى. كان أحد النبلاء، ويتحدث إنجليزية رائعة تعلمها، كما أخبرنى، من مربيته قبل الثورة. كنت قد اعتدت أن أتبادل معه بضع كلمات فى كل مرة أزور فيها النادى، وكنت ليلة أمس أفعل هذا ثانية عندما - لم أعد

أتذكر الأمر الذى كنا نتناقش بصدده - ذكر مصادفةً أن السير سيسيل وليدى ميدهورست قد مرا عليه فى أول الليل.

"أعتقد،" قلت ملاحظاً، "كانا فى طريقهما إلى البيت للنوم." عند هذا، فكر النبيل للحظة، ثم قال: "لاكى تشانس هاوس. نعم، أعتقد أن السير سيسيل قد ذكر أنهما فى الطريق إلى هناك."

لم يكن منشأة مدنية أو عسكرية أعرفها، غير أن النبيل أكمل كلامه دون أن يساعد فى إعطائى أى تفاصيل عن الاتجاهات، ومادام أن المكان لم يكن بعيداً، فقد انطلقت صوبه.

كانت توجيهاته واضحة بما يكفى، لكننى كنت لم أزل غير واثق من طريقى حول الشوارع الجانبية فى نانكينغ روود، وحدث أننى ضللت الطريق قليلاً. لم أكن لأكثرث بهذا كثيراً. فالجو فى تلك المنطقة من المدينة ليس مثيراً للהלح، حتى بعد حلول الظلام، ورغم أن المتسول الغريب قد بادر بتوجيه الكلام إلىّ، وعند لحظة ما اعترض طريقى بحار ثمل، فقد وجدت نفسى أنجرف مع الجمهور الليلي بحالة مزاجية لا تبتعد كثيراً عن الهدوء. بعد العمل الضاغط فى بيت القارب، كان مريحاً لى أن أكون بين الباحثين عن المتعة من كل جنس وصنف؛ وأن أشم روائح الطعام والبخور وهى تهب عند مرورى بكل باب تسطع منه الأنوار.

فى الليلة الماضية، أيضاً، كما اعتدت بصورة متزايدة أن أفعل متأخراً، أظن أننى نظرت حولى، بقصد استكشاف وجوه من يمر بى من الناس، أملاً فى أن أجد أكبراً. لأننى فى حقيقة الأمر، قد رأيت

صديقي القديم على وجه التأكيد تقريبًا بعد وصولي إلى شنغهاي بفترة قصيرة في ثاني أو ثالث ليلة لي هنا. كان هذا في الليلة التي قرر فيها مستر كيسويك التابع لجاردين ماثيسون وبعض المواطنين البارزين حتمية "تذوقى لحياة الليل". كنت لم أزل أعانى حالة من الارتباك خلال تلك الفترة، وكنت أجد التجول في حانات الرقص والنوادي مثيرًا للضجر. كنا في منطقة الاستمتاع في نطاق الامتياز الفرنسى - أرى الآن أن من يقومون على استضافتي يستمتعون إلى حد ما بإثارة ذهولى بأكثر المنشآت المدنية والعسكرية فظاعة - وكنا في طريق خروجنا من أحد الأندية عندما لمحت وجهه يمر بين جمع من الناس.

كان أحد أفراد مجموعة يابانيين يرتدون حلاً أنيقة، وكان واضحًا أنهم في طريقهم إلى المدينة. بالطبع، لمحتة بسرعة خاطفة - لأن ظلال الناس كانت تتعكس في واقع الأمر على صف من المصابيح التي كانت تتدلى على عتبة الباب - بشكل لم أتمكن معه من التيقن من أنه أكيرا تأكيدًا. ربما لهذا السبب، وربما لسبب آخر، لم أفعل شيئًا لألفت انتباه صديق طفولتى. ربما يصعب فهم ذلك، لكن بإمكانى فقط أن أقول إن الأمر كان على ذلك النحو. أظن أننى كنت أعتقد حينئذٍ فى إمكانية تكرار فرص كثيرة مماثلة؛ ربما شعرت أن لقاءنا بهذه الطريقة، مصادفةً، عندما يكون كلُّ منا بصحبة رفاق آخرين، ليس مناسبًا - وليس جديرًا، حتى، بلم الشمل الذى كثيرًا ما توقعته طويلًا. على أية حال، فأنا قد تركت اللحظة تمر مرور الكرام، وببساطة اقتفيت أثر مستر كيسويك والآخرين صوب السيارة الليموزين التي كانت بانتظارنا.

على أية حال، فخلال تلك الأسابيع الماضية، كان لدى الكثير من دوافع الندم على تصرفى فى تلك الليلة. ذلك رغم أننى، حتى فى أكثر الأوقات ازدحاماً، كنت أصر على تفحص المارة، فى الشوارع فى ردهات الفنادق، أثناء قيامى بأداء مهامى، أملاً فى الالتقاء به مرة أخرى. أدرك أنه بإمكانى اتخاذ خطوات إيجابية فى محاولة تحديد مكانه؛ لكن القضية لابد وأن يكون لها الأولوية، فى واقع الأمر. وشنغهاى ليست هى هذا المكان الشاسع؛ فنحن على يقين من أن الصدفة ستجمعنا إن أجلاً أو عاجلاً.

لكن لأرجع إلى أحداث الليلة الماضية. فتوجيهات البواب قادتني أخيراً إلى ميدان ما حيث تتقاطع عدة شوارع وتظهر تجمعات الناس أكثر كثافة منها فى أى مكان آخر. أناس يحاولون بيع سلعهم، وآخرون يحاولون التسول، وآخرون أيضاً يقفون فقط للفرجة وتجاذب أطراف الحديث. جنركشة^(*) وحيدة كانت قد اندفعت بين حشود الناس حتى بلغت مكاناً فى منتصفهم، وعند مرورى كان سائق الجنركشة يجادل أحد المتفرجين بفظاظة. استطعت أن أرى لاكى تشانس هاوس فى الركن القصوى، قبل فترة طويلة كان الوصول إليه يتم عبر ممر ضيق من درج مغطى ببلش^(**) قرمزي.

فى البداية دخلت غرفة تشبه فى اتساعها غرفة متوسطة الاتساع فى فندق، حيث يتجمع حوالى ستة من الصينيين حول طاولة قمار.

(*) عربة صغيرة بدولابين تتسع لشخص واحد عادةً ويجرها رجل واحد تستعمل فى اليابان. (المترجم)

(**) البلش: نسيج ذو وبر أطول من وبر المخمل. (المترجم)

عندما تساءلت عما إذا كان مستر سيسيل بالبناية، تشاور اثنان من العاملين، بعدئذ أشار لى أحدهما بأن أتبعه.

قادنى لأعلى على درج لطابق آخر، إلى ممر خافت الإضاءة، ثم إلى غرفة مليئة بالدخان كان بها مجموعة من الفرنسيين يلعبون الورق. عندما هزرت رأسى، هز الرجل كتفيه غير مبالٍ ودعانى ثانية. بهذا الشكل أدركت على الفور أن المبنى كان أحد مراكز القمار، يتكون من غرفٍ صغيرة بعض الشيء، كل غرفة منها يلعب فيها نوعٌ بعينه من القمار أو آخر يبدأ. لكننى صرت ساخطاً على الطريقة التى يومئ بها دليلى عامداً كلما كررت اسم سارة أو السير سيسيل، فقط ليقودنى أيضاً إلى غرفة أخرى معبأة بالدخان حيث لا أجد فقط غير العيون الحذرة اليقظة ترمقنى. على أية حال، كلما رأيت أشياء أكثر فى هذه البناية، كلما أدركت أنه ليس من المحتمل مطلقاً أن يأتى السير سيسيل بسارة إلى هذا المكان؛ وكنت على وشك أن أقطع عن البحث عندما دخلت عبر باب ووجدت السير سيسيل يجلس إلى طاولة، ويحقق فى عجلة الروليت.

كان هناك حوالى عشرين شخصاً يلتفون حول الطاولة، معظمهم من الرجال. لم تكن الغرفة معبأة بالدخان كمثيلاتها، لكن شعوراً أكبر بالقيظ طوقنى. كان السير سيسيل فى تمام استغراقه ورمانى بتلويحة ترحاب غاية فى التهذب قبل أن يعود بعينه للتركيز ثانية فى عجلة الروليت.

مجموعة من الكراسى الضخمة البالية المكسوة بقماش أحمر وُضِعَتْ فى محيط الغرفة. على أحدها، رجل صينى عجوز - يرتدى

بدلة غريبة مبتلة بالعرق - كان يغط في النوم. المقعد الوحيد الآخر الذي كان مشغولاً كان في الركن الظليل في أبعد نقطة من طاولة القمار، هو ذلك المقعد الذي كانت سارة تجلس فيه سائدة رأسها إلى عقب يدها، بعينين شبه مغمضتين.

عندما جلست إلى جوارها انتبهت. "آه، كريستوفر. ماذا تفعل هنا؟"

"كنت فقط في طريقى من هنا. معذرة. لم أقصد إزعاجك."
"فقط كنت في طريقك من هنا؟ هذا المكان؟ لا أصدق ذلك. لقد كنت تقتفى أثرنا."

كنا نتحدث بنبرات منخفضة حتى لا نشتت انتباه المقامرین عن الطاولة. من مكان ما في البناية، استطعت أن أسمع بصورة خافتة شخصاً ما يعزف الترومبيت.

"لأبد أن أعترف"، قلت، "صادف أنني سمعت بمجيئك إلى هنا. ومادام أنني كنت في طريقى من هنا....."

"آه، كريستوفر، لقد كنت وحيداً."

"بقوة. لقد قضيت يوماً كثيلاً إلى حد ما، وشعرت بقليل من الإجهاد، هذا كل ما في الأمر. رغم أنه ينبغي على أن أقر بترددى لو أنني كنت أعرف بتواجدكما في مكان كهذا."

"لا تكن فظاً. أنا وسيسيل، نستمتع ببعض الوقت في ممارسة الحياة الوضيعة. إن ذلك ممتع. وهذا جزء من نمط الحياة في

شنغهاى. الآن، أخبرنى عن يومك الكئيب هذا. تبدو مكتئبًا. أعتقد أنه لم يحدث أى تقدم فى قضيتك بعد."

"ليس ثم من تقدم، غير أننى لست مكتئبًا. لقد بدأت الأشياء تتبلور."

عندما بدأت أصف لها كيف قضيت أكثر من ساعتين على يدى وركبتى فى قارب يرتطم بالأمواج يحمل ثلاث جثث متعفنة، تبدلت قسّمات وجهها، وأوقفتنى عن الكلام.

"مفزع. شخصٌ ما فى نادى التنس كان يقول، إن أطراف الجثث كلها قد قطّعت. هل هذا صحيح؟"

"نعم للأسف."

تغيرت قسّمات وجهها مرةً أخرى، "مريع للغاية. لكن هؤلاء كانوا عمال مصانع صينيين، أليس كذلك؟ بالتأكيد، ليسوا على علاقة قوية بـ.... بوالديك."

"بالفعل، أعتقد أن هذه الجريمة لها علاقة قوية بقضية والدى."

"حقًا؟ كانوا يقولون فى نادى التنس إن جرائم القتل هذه جزء من أعمال مجموعة الفأر الأصفر. يقولون إن الضحايا من أقرب الناس وأعزهم إلى الفأر الأصفر."

"الشعبان الأصفر."

"عفوًا؟"

"المُخبر الشيوعي. الثعبان الأصفر."

"آه، نعم. حسناً على أية حال، إن هذا في غاية البشاعة. ماذا يفعل الصينيون، ينحرون بعضهم البعض في وقتٍ كهذا؟ ربما ظننت أن الحمر والحكومة سيشكلون جبهة موحدة ضد اليابانيين لفترة قصيرة فقط على الأقل."

"أعتقد أن الكراهية بين الشيوعيين والقوميين تزداد عمقاً."

"هذا ما يقوله سيسيل. آه، انظر إليه، كيف يمكنه أن يلعب هكذا؟"

تتبعت نظرتها ورأيت أن سير سيسيل - الذي كان ظهره لنا - كان قد مال على أحد الجانبين، لدرجة أنه ألقى معظم وزنه على الطاولة. وبدا من الممكن جداً أنه على وشك الانزلاق تماماً عن كرسيه.

رمقتني سارة بتخرج. ثم نهضت، متجهةً إليه، ووضعت يديها على كتفيه، وهمست في أذنه برفق. نهض السير سيسيل ودار بعينه في محيط المكان. من الممكن أكون قد أشحت بنظري بعيداً عنهما للحظة، لأنني لست متيقناً تماماً مما قد حدث بالضبط فيما بعد. رأيت سارة تتراجع للخلف، وكأنما قد تلقت ضربة قوية، وللحظة بدت على وشك فقدان توازنها، لكنها استعادت لياقتها. عندما أمعنت النظر في ظهره، كان السير سيسيل قد عاد ثانية إلى الجلوس بصورة مستقيمة، والتركيز في اللعب، ولم أستطع أن أرى ما إذا كان هو الذي تسبب في التراجع المضطرب لسارة.

رأيتني أرمقها، فابتسمت عائدةً للجلوس ثانيةً إلى جوارى.

"إنه مُرهَق"، قالت. "إنه فى غاية الغضب. لكن رجل فى مثل سنه بحاجة لقدر أكبر من الراحة."

"هل تأتبان كثيرًا إلى مثل هذا المكان؟"

أومأت، "وَقَلِيل من الأماكن الأخرى المشابهة. سيسيل لا يحب هذه الأماكن المبهرجة الكبيرة كثيرًا. لا يظن أنه من الممكن الخروج رابحًا من هذه الأماكن."

"هل ترافقينه دائمًا إلى مثل هذه المحافل؟"

"لأبد أن يكون هناك من يعتنى به. إنه ليس شابًا، فهمت. آه، أنا لا أمانع فى هذا. إن هذا مثير بدرجةٍ ما. وهذا كل ما تنطوى عليه مثل هذه المدينة حقًا."

شهقة عامة انطلقت حول طاولة القمار وأخذ اللاعبون يتجاذبون أطراف الحديث. رأيت سيسيل يحاول الوقوف، وفى هذه اللحظة فقط أدركت كم هو ثمل. تقهقر جالسًا فى كرسيه، لكن فى محاولة ثانية، تمكن من الوقوف واتجه صوبنا لكن كانت مشيته معتورة بالترنح. نهضت على قدمى، توقعت أن نتصافح، لكنه أراح يده على كتفى، بغية التوازن أكثر من أى شىء آخر.

"ابنى العزيز، ابنى العزيز. سررت لرؤيتك."

"هل أصبت أى حظ فى اللعب، يا سيدى؟"

"حظ؟ آه، لا، مطلقًا. حظى الليلة ليس موائيًا. أسبوع بائس فى مجمله، لقد كان سيئًا، سيئًا. لكنك لا تعرف أبدًا. سوف أنهض ثانيةً، ها ها! أبعت من الرفات."

كانت سارة أيضاً واقفة ومدت يدها لمساعدته، لكنه أبعدّها دون أن ينظر إليها. ثم قال لى:

"أقول لك. ما رأيك فى كوكتيل؟ هناك بار فى الطابق الأرضى."

"هذا منتهى العطف منك، يا سير. لكننى لابد وأن أعود إلى الفندق الذى أقيم فيه. هناك يوم شاق فى انتظارى غداً."

"جميل أن أراك تجتهد فى عمالك. بالطبع، لقد أتيت إلى هنا فى هذه المدينة بغية تصنيف الأشياء بنفسى قليلاً. لكن تعرف" - انحنى بوجهه على حتى أصبح على بعد بوصة أو اثنتين منى - "الأمر أكثر تعقيداً بما لا أطيق. أكثر تعقيداً على كل المستويات."

"سيسيل، يا حبيبى، لنذهب الآن إلى بيتنا."

"البيت؟ هل تسمين جحر الفئران فى ذلك الفندق بيتاً؟ إنك تمتازين عنى، يا عزيزتى، لكونك تلك المتشردة الحقيرة. لذلك فأنت لا تكثرين بتسميته بيتاً."

"لنذهب الآن، يا حبيبى. أنا متعبة."

"أنت متعبة. صغيرتى المتشردة الحقيرة متعبة. بانكس، هل لديك سيارة بالخارج؟"

"لا للأسف. لكن لو تحب بإمكانى البحث عن تاكسى."

"تاكسى؟ أتظن نفسك فى بيكاديللى؟ تعتقد أنه بمستطاعك استيقاف تاكسى بالخارج هناك؟ سوف يقطعون رقبتك على الفور، هؤلاء الصينيون."

"حبيبى، سيسيل، من فضلك اجلس هنا حتى يأتى كريستوفر
ومعه بوريس." ثم قالت لى: "لأبد وأن سائقنا فى مكان ما على مقربة
من هنا. هل تمنع فى تحمل هذه المشقة؟ المسكين سيسيل فى أسوأ
حالاته الليلة بما لا يمكنه من التحمل."

أخذت طريقى إلى خارج الفندق، وأنا أبذل كل ما فى وسعى
لأبدو على أعلى درجة من اللياقة، واضعاً نصب عينى أهمية أن
أذكر طريق العودة إلى الغرفة. كان الميدان بالخارج متخماً كعادته
بالناس، لكن على البعد رأيت شارعاً تصطف فيه الجرنكشات
وعربات التاكسي. أخذت طريقى إلى هناك، وبعد فترة من التنقل بين
العربات مردداً اسم السير سيسيل للسائقين من ذوى الجنسيات
المتعددة، تلقيت ردّاً فى النهاية.

عندما رجعت إلى منزل القمار، كانت سارة ومعها السير سيسيل
بالخارج. كانت تساعد بكلتى يديها، لكن هيئته الفارعة المنحنية بدت
قادرة على هزيمتها فى أى لحظة. وبينما كنت أهرول باتجاههما،
سمعتَه يقول:

"يا عزيزتى، أنت من لا يريدونها بالداخل هناك. عندما كنت
معتاداً على التردد على هذا المكان بنفسى، كانوا دائماً يعاملوننى
كشخصية ذات حيثية ملكية. آه، نعم، حيثية ملكية. إنهم لا يحبون
نوعيتك من النساء. إنهم يريدون سيدات حقيقيات أو عاهرات. وأنت
لست أيّاً منهن. لذلك فقد رأيت، هم لا يحبونك مطلقاً. لم أواجه أية
مشاكل هنا إلا بعد إصرارك على المجيء إلى هنا معى."

"هيا، يا حبيبى. ها هو كريستوفر. رائع، يا كريستوفر. انظر، يا حبيبى، لقد بحث عن بوريس ووجده لأجلنا."

لم تكن المسافة إلى المتروبول كبيرة، غير أن السيارة لم تكن تتقدم إلا ببطء يشبه حبو طفل بين المشاة والجرنكشات. طوال الرحلة، ظلت سارة تمسك بذراع السير سيسيل وكتفه بينما كان يراوح بين النوم واليقظة. كلما عاودته اليقظة، كان يحاول أن يُعيد سارة، لكنها كانت تضحك وتواصل إمساكه بقوة أكبر فى العربة المتمايلة.

جاء دورى لمساعدته حين كنا نواجه عقبة الباب الدوار فى مدخل المتروبول، والمصعد من بعده، بينما كانت سارة تتبادل كلمات الترحاب الودودة مع موظفى اللوبى. ثم وصلنا أخيراً إلى الجناح الخاص بهم واستطعت أن أضع السير سيسيل فى أحد المقاعد المريحة.

ظننت أنه سوف يذهب فى النوم، لكنه، على العكس من ذلك، تملكته يقظة مباغثة وبدأ يوجه لى أسئلة عديمة المعنى عجزت عن فهمها. ثم عندما ظهرت سارة خارجة من الحمام مرتدية الفلانيلة وبدأت تمسح على جبهته، قال لى:

"بانكس، يا بنى، بإمكانك أن تتحدث بصراحة. هذه الخادمة المومس. كما ترى، إنها تصغرنى ببضع سنوات. هى نفسها ليست فى ربيع العمر، توافقتى، هاها! لكنها لم تزل أصغر منى بعدد لا بأس به من السنوات. قل لى صراحةً، يا ابنى، هل تعتقد، فى مكان كمكان

الليلة، حيث وجدتنا الليلة، مكان كهذا، هل تظن أن غريبًا يبحث عني وعنهما....حسنًا، لنتكلم بصراحة! ما أتكلم عنه هو، هل تعتقد أن الناس يحسبون، أو يتعاملون مع زوجتي على أنها مومس؟"

لم تتغير، بقدر ما استطعت أن أرى، تعبيرات وجه سارة، رغم أن طريقتهما في مساعدته بدت أكثر إلحاحًا، وكأنها تتمنى أن تأتي معاملتها له بتغير في حالته المزاجية. هز السير سيسيل رأسه بغضب وكأنه يتجنب ذبابة، ثم قال:

"هيا، يا بني. تحدث الآن بصراحة."

"الآن، الآن، يا حبيبي،" قالت سارة بهدوء. "إنه في حالة سيئة."

"سأفشى لك سرًا، يا ابني. سأطلعك على سر. إن هذا يمتعني. أحب أن يخطيء الناس في زوجتي ويحسبونها مومسًا. ولهذا أحب اعتياد الأماكن المشابهة لمكان الليلة. ابتعدى عني! اتركيني وحدي!" دفع سارة جانبًا، ثم استأنف كلامه: "سبب آخر يدفعني إلى مثل هذه الأماكن، بالتأكيد أنت خمنت، أنا مدين بمبلغ من المال. أصبحت مدينًا بدرجة ما، تعرف. بالطبع، ليس ثم من شيء سأستعيده."

"يا حبيبي، كريستوفر كان في قمة الذوق معك. لا ينبغي أن نثير سأمه."

"ما الذي تقوله هذه المومس؟ سمعت ما قالت، يا بني؟ حسنًا، لا. لا تستمع إليها. لا تنصت إلى المومسات، هذا ما أقول. سيضللوك. تحديدًا في أوقات الحرب والصراع. لا تنصت أبدًا إلى مومس في وقت الحرب."

نهض على قدميه دون مساعدة، وللحظة وقف فاقداً لاتزانه أمامنا في منتصف الغرفة، وياقته المفكوكة تبرز عن رقبتة. ثم اتجه صوب غرفة النوم، وأغلق الباب خلفه.

رمتى سارة بابتسامة، ثم مضت خلفه. لولا تلك الابتسامة - أو، إلى حدٍ ما، ما يشبه الاستغاثة لكنت قد انسحبت تحديداً في هذه اللحظة. وبقيت في الغرفة، بطبيعة الحال، افحص بشرود سلطانية صينية كانت موضوعة على حامل بالقرب من المدخل. لفترة، سمعت السير سيسيل يزعم؛ ثم طغت على المكان حالة من الصمت.

ظهرت سارة بعد حوالي خمس دقائق وبدأت عليها علامات الدهشة حين وجدت أنني لم أزل في المكان.
"هل هو على ما يُرام؟" سألت.

"إنه نائم الآن. سيصبح على ما يُرام. أعتذر لما تسببنا لك فيه من إزعاج، يا كريستوفر. قليلاً ما تجد لدينا ما كنت تصبو إليه عندما أتيت تبحث عنا هذا المساء. سوف نرتب مناسبة لتعويضك عما حدث. سنأخذك للعشاء في مكانٍ ما. مطعم آستور هاوس لم يزل يقدم طعاماً جيداً."

كانت تقودني إلى خارج الغرفة، لكنني استدرت عند الباب وقلت:

"الذي حدث. هل يحدث كثيراً؟"

تتهدت. "كثيراً جداً. لكن لا ينبغي أن تظن أنني أبالى. كل ما في الأمر أنني أشعر بالقلق أحياناً. فيما يخص قلبه، تعرف. ولهذا السبب أذهب معه دائماً."

"أنت تعتنين به جيدًا."

"لا يجب أن يسيطر عليك انطباعٌ سيئٌ. سيسيل رجلٌ الحبيب. لابد وأن نأخذك للعشاء في أقرب فرصة. في وقت لا تكون فيه مشغولاً. لكنني أظن أنك مشغول على الدوام."

"بهذه الطريقة يقضى السير سيسيل كل أماسيه؟"

"معظمها. وبعض نهاراته أيضًا."

"هل هناك ما يمكنني القيام به؟"

"أى شيء يمكنك القيام به؟" أطلقت ضحكة خفيفة. "انظر، يا كريستوفر، أنا بخير. حقيقةً، لا يجب أن تأخذ انطباعًا سيئًا بخصوص سيسيل. إنه عزيز. أنا.... أحبه كثيرًا."

"حسنًا، إذًا، سأقول طابت ليلتك."

تقدمت خطوة أخرى باتجاهي ورفعت يدها بتراخ. وجدت نفسي أمسكها، لكن دون أن أعرف ماذا أفعل بعد ذلك، قبلت ظهر يدها. ثم، غمغت مرة أخرى بـ "تصبحين على خير"، وخطوت إلى الكوريدور.

"لا تقلق على، يا كريستوفر،" همست من الباب. "أنا في أحسن حال."

كانت تلك هي كلماتها لي ليلة أمس. لكن اليوم، تعاودني أولى كلماتها بصورة وثيقة، كلماتها التي قالتها لي قبل أسابيع ثلاثة عندما رأيته لأول مرة في مرقص فندق بالاس. "لا أتوقع زهابنا إلى مكان

بشكل متعجل، "كانت تقول. "لو لم يأت شخصٌ ما للإنقاذ." ما الذى
تقصد أن تسر به لى فى تلك الليلة بهذه الملاحظة؟ كما أقول، حتى
وقتما أربكتنى، وربما كنت سأتناقش معها بصورة أعمق حول هذه
النقطة لولا أن جرايسون كان قد ظهر من بين الناس فى هذه اللحظة
بالتحديد وكان يبحث عني.

الكتاب الخامس
فندق كاثای، شنغهای،
۲۹ سبتمبر ۱۹۳۷

الفصل الرابع عشر

أسأت تدبير أمر مقابلتى هذا الصباح مع ماكدونالد فى القنصلية البريطانية، وعندما تذكرتها الليلة امتلأت بالإحباط. والحقيقة هى أنه قد أعد نفسه جيدًا بينما أنا لم أفعل. سمحت له، مرارًا وتكرارًا، أن يقودنى فى طرقات مزيفة، ولتبيد طاقتى أخذ يجادلنى حول الأشياء التى قرر التسليم بها معى منذ البداية. ورغم أى شىء، كنت أكثر تطرفاً معه منذ أربعة أسابيع مضت، فى ذلك المساء فى مرقص فندق بالاس، عندما حملته لأول مرة على فكرة اللقاء مع الثعبان الأصفر هذه. لقد أمسكت ماكدونالد، على حين غرة حينئذ، واستطعت على الأقل أن أحمله على الاعتراف بدوره الحقيقى هنا فى شنغهاى. لكن هذا الصباح لم أجبره حتى على التمثيلية التى يلعب فيها ببساطة دور موظف مسئول عن الأمور الخاصة بالبروتوكول.

أعتقد أننى استخفيت به. فقد ظننت أن الأمر ببساطة لا يتعدى لومه وتأنيبه على تأخره فى ترتيب ما طلبت منه. الآن فقط أدرك كيف نصب فخاخه، مدركًا أننى حال الضيق، سوف يأتى بالأفضل لى بسهولة. كان من الحمق أن أظهر سخطى بالطريقة التى تصرفت بها؛ لكن هذه الأيام المتواصلة من العمل المكثف قد أصابتنى بالإرهاق. وبطبيعة الحال، حدث الصدام غير المتوقع مع جرايسون، رجل المجلس البلدى، عندما كنت فى طريقى إلى مكتب ماكدونالد. فى الواقع، أقول إن هذا أكثر من أى شىء آخر هو ما أصاب توازنى

بالاختلال هذا الصباح، لدرجة أنني كنت شارد الذهن في أمور أخرى طوال معظم مناقشاتي التالية مع مكدونالد.

ظللت أنتظر لعدة دقائق في الردهة الصغيرة في الطابق الثاني لمبنى القنصلية. أخيرًا أتت السكرتيرة لتبلغني أن مكدونالد جاهز لاستقبالي، وكنت قد عبرت السلم الرخامي ووقفت أمام باب المصعد عندما أتى جرايسون مسرعًا أسفل السلم وناداني.

"صباح الخير، يا مستر بانكس! أنا في غاية الأسف، ربما لا يكون هذا الوقت مناسبًا."

"صباح الخير، يا مستر جرايسون. في الحقيقة هذا الوقت ليس مناسبًا. لتوى كنت في طريقى للقاء صديقنا مكدونالد."

"أوه، حسنًا إذًا، لن أعطلك. فقط كنت هنا في المبنى وسمعت أنك هنا أيضًا." وجلجلت ضحكة مبتهجة في أنحاء المكان.

"رائع أن أراك ثانية، يا مستر جرايسون. لكنني الآن...."
"لن آخذ من وقتك ثانية، يا سيدى. لكن معذرة، تعرف، لقد كنت صعبًا قليلًا في المراقبة مؤخرًا."

"حسنًا، مستر جرايسون، لو أن الأمر يمكن التعامل معه باختصار شديد."

"آه، بمنتهى الاختصار. تعرف، يا سيدى، إن هذا يبدو وكأنه قفز للأمام، لكن قدرًا قليلًا من التخطيط المستقبلي مطلوب في هذه الأمور. لو أن الأشياء ليست مهيأة للخدش في هذا الحدث المهم، لو أن الأمور تبدو حتى رديئة قليلًا أو عديمة الإتقان....."

"مستر جرايسون....."

"أنا فى غاية الأسف. كنت فقط أود أن ألفت انتباهك إلى بضعة تفاصيل بخصوص ما يخص حفل الاستقبال والترحيب. لقد استقررت الآن فى جيسفيلد بارك كمكان لإقامة الدعوى. سنقوم بإقامة سرادق به مسرح ونظام تكبير للصوت... أنا متأسف جدًا، سأصل إلى النقطة الجوهرية. مستر بانكس، فى الواقع أود أن أناقش معك ما يخص دورك فى الأحداث. ما نشعر به هو أن المراسم لا بد وأن تكون بسيطة. لقد تصورت أن تقوم بإلقاء كلمة مختصرة ربما بخصوص كيفية قيامك بالوصول إلى حل القضية. ما هى الخيوط والمفاتيح الحيوية التى قادتك فى النهاية إلى والدك، شىء من هذا القبيل. فقط بضع كلمات على عجلة، سيكون الجمهور فى حالة من الاستمتاع والامتنان. ثم فى نهاية حديثك، فكرت فى أنهم ربما يهتمون بالتوجه إلى المنصة."

"هم، يا مستر جرايسون؟"

"والداك، يا سيدى. كانت فكرتى فى أنهما ربما يصعدان إلى المنصة، يلوحان، ويعبران عن شكرهما للتهنئات والتصفيق، ثم يتراجعان. لكن بطبيعة الحال، هذه ليست أكثر من مجرد فكرة. أنا واثق أن لديك بعض الاقتراحات الرائعة الأخرى...."

"لا، لا، يا سيد جرايسون" - فجأة شعرت بموجة عظيمة من السأم تتأبى - "كل ما اقترحته يبدو رائعًا، رائع. الآن، لو كان هذا هو كل ما لديك. فإنه ينبغى على، فى الواقع...."

"أمر واحد فقط يا سيدى. مسألة بسيطة، لكنها مسألة ستضيفى بالغ الأثر لو تحققت بهذه الطريقة. فكرتى كانت، فى لحظة تقدم والديك لصعود المنصة، تقوم فرقة الآلات النحاسية بالعزف. مقطوعة مثل "أرض الأمل والمجد". بعض زملاي لا يحبذون الفكرة، لكن فى تصورى...."

"مستر جرايسون، فكرتك تبدو غاية فى الروعة. وفوق ذلك، أنا فى غاية الامتنان لكامل ثقتك فى قدرتى على حل لغز هذه القضية. لكن الآن، من فضلك، مستر ماكدونالد فى انتظارى من فترة." "بالطبع. حسناً، شكراً جزيلاً على ما منحتنى من وقت للتحدث إليك."

ضغطت زر المصعد، وبينما كنت أنتظر، واصل جرايسون التردد. فى الواقع لقد أشحت بوجهى بعيداً عنه واتجهت بوجهى قبالة باب المصعد، حينئذ سمعته يقول:

"الأمر الوحيد المتبقى وأريد الاستفسار عنه، يا مستر بانكس. هل لديك أى تصور عن مكان جلوس والديك يوم الاحتفال؟ ترى لابد أن نكون فى تمام ثقتنا أن انتقالهم من وإلى المنتزه سيتم فى الحدود الدنيا من مضايقات الجمهور."

لا أستطيع أن أتذكر بماذا أجبته. ربما انفتح باب المصعد فى تلك اللحظة، واستطعت أن أودعه دون أى كلمة سوى تحيته بتهذيب. لكن هذا السؤال كان آخر ما علق فى ذهنى طيلة لقائى بمستر ماكدونالد، والذي، كما أقول، كان هو السبب أكثر من غيره فى منعى من التفكير

بوضوح فيما كنت أود الانتهاء منه. والليلة، ثانيةً، وجدت السؤال نفسه يعاود تفكيرى مرةً أخرى، الآن لأن متطلبات اليوم قد أصبحت فى هامش تفكيرى.

ليس الأمر هو أننى لم أفكر مليًا فى مسألة المكان الذى ينبغى أن يجلس فيه والذى. لقد كان الأمر دائمًا يبدو سابقًا لأوانه - ربما حتى "غواية القدر" - أن أمعن التفكير فى هذه الأسئلة بينما لم تزل هناك الكثير من التعقيدات المستعصية على الحل. أعتقد أن المناسبة الوحيدة طيلة الأسابيع الماضية التى فكرت فى الأمر بصورة حقيقية كانت ليلة لقائى بصديق الدراسة القديم، أنتونى مورجان.

لم يمر وقت طويل بعد وصولى إلى هنا - ليلتى الثالثة أو الرابعة. لقد أدركت لبعض الوقت أن مورجان كان يعيش فى شنغهاى، ولكن مادمنًا لم نكن صديقين حميمين فى مدرسة سانت دانستان - رغم كوننا فى الفصل نفسه طيلة الوقت - فلم أقم بوضع ترتيبات خاصة للقائى به. لكننى حينئذ قد تلقيت منه مكالمة هاتفية فى صباح ذلك اليوم الثالث. بإمكانى أن أقول بأنه أحس بالاستياء لإخفاقى فى التواصل معه، وفى النهاية وجدت نفسى أتفق على لقاء فى ذلك المساء فى أحد فنادق الامتياز الفرنسى.

كان الجو مظلمًا تمامًا عندما وجدته ينتظر فى ردهة الفندق بأضوائها الخافتة. لم أكن قد رأيته منذ أيام المدرسة، وأصابتنى الصدمة حين رأيت إلى مدى قد صار مُتعبًا وبدينا. لكننى حاولت أن أبعد هذا الانطباع عن نبرتى ونحن نتبادل التحايا الحارة.

"غريب"، قال، وهو يربت ظهرى. "وكأننا لم نفترق لوقت طويل. ومع هذا يبدو وكأن دهرًا قد انقضى."

"هذا ما قد حدث بالفعل."

"أتعرف"، واصل كلامه، "لقد تلقيت خطابًا فى اليوم التالى من إمريك، الدنمركى؟ هل تتذكره؟ إمريك الدنمركى! لم أسمع عنه لسنوات! على ما يبدو أنه يعيش الآن فى فيينا. إمريك العجوز. هل تذكره؟"

"نعم، بالطبع"، قلت، رغم أن ما يحضرنى فقط لا يتعدى بعض الذكريات البعيدة عن هذا الولد. "إمريك العجوز الطيب."

خلال النصف الساعة التالية أو أكثر، ظل مورجان يثرثر بلا توقف. لقد عاد إلى هونج كونج مباشرة بعد أكسفورد، ثم انتقل إلى شنغهاى قبل أحد عشر سنة مضت بعد حصوله على وظيفة جيدة فى جاردين ماثيسون. ثم عند لحظة قطع قصته ليقول:

"لن تصدق المشاكل المريعة التى عانيتها مع السائقين منذ بداية كل هذا البلاء. قتل أحد الأشخاص العاديين فى اليوم الأول للقصف اليابانى. وجدوا آخر، واكتشفوا أنه أحد قطاع الطرق. لو لم يستمر فى الحركة لأداء مهام العصابة التى ينتمى إليها، لما وُجد أبدًا عندما تريد الذهاب إلى أى مكان. أخذنى مرة عند النادى الأمريكى والدم يضح قميصه بالكامل. ليس دمه، لقد استتجت على الفور. لم ينطق بأى كلمة على سبيل الاعتذار، نموذج الرجل الصينى. تلك كانت القشة التى كسرت ظهر البعير بالنسبة لى. ثم رأيت اثنين آخرين، لم

أستطع القيادة على الإطلاق. أحدهم قام فعلاً بضرب سائق جرنكشة. والسائق الذى معى الآن ليس أفضل كثيراً، لذا دعنا نحتفى بالرب حتى نبلغ غايتنا فى سلام."

لم أع معنى تلك الجملة الأخيرة، مادامنا حسبما أتذكر لم نكن قد اتفقنا على أى مكان آخر نذهب إليه فى تلك الليلة. لكننى لا أشعر وكأننى أخذته فيها، ثم إنه قد تحرك بسرعة ليخبرنى عن الأشياء الناقصة فى الفندق. فالردهة التى كنا نجلس فيها، كما أفضى إلى، ليست دائماً خافتة الإنارة: فقد أدت الحرب إلى وقف إمدادات مصابيح الإنارة من مصانع التشابى؛ فى أماكن أخرى من الفندق، يضطر النزلاء للتجول فى الظلام. ووضح أيضاً أن ثلاثة على الأقل من أعضاء فرقة الرقص فى الركن القصى من الغرفة لا يقومون بالعزف على آلاتهم.

"ذلك لأنهم فى واقع الأمر ليسوا سوى حمالين حقائب. والموسيقيون الحقيقيون إما أنهم قد فروا من شنغهاى أو قتلوا فى الحرب. مع هذا، يقومون بتمثيل معقول للشخصيات، أليس كذلك؟"

والآن مادام أنه قد وضح الأمر، رأيت أن تمثيلهم للشخصيات كان، فى واقع الأمر، بائساً إلى أبعد حد. أحدهم بدا فى تمام الضجر وكان فى منتهى الضيق من الإمساك بقوس كمنجته بالقرب من آله الموسيقية، الآخر كان يقف غافلاً تماماً عن آلة الكلارينيت التى كان يحملها وهو ينظر فاغراً فاه باندعاش للموسيقيين الحقيقيين من حوله. فقط حين هنأت مورجان على عميق معرفته بالفندق أخبرنى أنه كان فى الواقع يقيم فيه لمدة شهر كامل، واصفاً شفته فى هونجكيو بأنها

أبعد ما تكون عن الراحة منها إلى الحرب. عندما غمغمت ببعض كلمات الشفقة لأنه اضطر إلى مغادرة موطنه، تغيرت حالته المزاجية بغتة، وللمرة الأولى رأيته في حالة من الأسى استدعت إلى ذاكرتي ولذا تعيشاً منعزلاً كنت قد عرفته أيام المدرسة.

"على أية حال لم يكن ينطوى على مفهوم الوطن بما تحمله الكلمة من معنى"، قال، وهو يحدق في كأس الكوكتيل. "أنا فقط، بعض خدم كانوا يجيئون ويذهبون مكان بئس صغير في الحقيقة. منحني مبرراً معقولاً للفرار. لقد كان مكاناً صغيراً وبائساً. كل أثاثاته كانت صينية. لم أستطع الجلوس بارتياح في أى مكان. كان عندي طائر مغرد ذات مرة، لكنه مات. هنا أفضل لى. أسرع كثيراً لسد نقاط ضعفى." ثم نظر في ساعته، وتجرع كأسه وقال: "حسناً، من الأفضل ألا نتركهم في انتظارنا. السيارة بالخارج."

ثمة شيء غريب في سلوكيات مورجان - نوع من الإلحاح اللامبالى - جعل من الصعب مواجهته بأية اعتراضات. إضافة إلى أن هذه الأيام كانت أولى أيامى في المدينة، عندما كنت مستغرقاً في الانتقال من مناسبة إلى أخرى بواسطة العديد من مستضيفي. لذا مضيت في أثر مورجان إلى خارج الفندق، وقبل أن يمر وقت طويل كنت أجلس إلى جواره في مقعد سيارته الخلفى، وتحركنا عبر الشوارع الليلية الحية في منطقة الامتياز الفرنسى.

وعلى الفور تقريباً، تفادى السائق لتوه تراماً قادمًا، وظننت أن هذا سوف يدفع مورجان ثانية للخوض في مشاكله مع السائقين. لكنه الآن قد استغرق في حالة التأمل، وأخذ يحدق صامتاً خارج نافذته

على ما نمر به من مصابيح النيون والألوية الصينية. عند لحظة ما، عندما تقدمت إليه بملاحظة، فى محاولة لاستكشاف أى شىء بخصوص الحدث الذى نتقدم إليه: "هل تعتقد أننا سنتأخر؟" نظر فى ساعته ثانية وأجاب ذاهلاً: "إنهم فى انتظارك منذ وقتٍ طويل، لن يمانعوا فى انتظارك لبضع دقائق أخرى." ثم أضاف: "لابد وأن هذا يبدو غريباً عليك."

لفترة بعد ذلك تقدمت بنا السيارة، دون أن نتجاذب الكثير من أطراف الحديث. فجأة دخلنا إلى شارع جانبى على جانبيه أرصفة تحتشد عليها أشباح آدمية رابضة. كنت أراهم فى ضوء مصابيح الإنارة، يجلسون، القرفصاء، بعضهم يتكوم نائمًا على الأرض، يضغطون بعضهم البعض فى حيز ضيق، لدرجة أنه لم يتبق سوى مساحة كافية فقط فى منتصف الشارع للمرور بالسيارات. كانوا أناسًا من مختلف الأعمار - رأيت أطفالاً يغطون فى النوم على أذرع أمهاتهم - وكانت متعلقاتهم تتكوم إلى جوارهم وحولهم، صرر ملابس بالية، أقفاص طيور، عجلات اليد هنا وهناك تتكوم عليها ممتلكاتهم. لقد أصبحت معتادًا على مثل هذه المشاهد، لكن فى تلك الليلة حدثت خارج السيارة فى فزع. كانت معظم الوجوه صينية، لكن عندما اقتربنا من نهاية الشارع، رأيت حشودًا من الأطفال الأوربيين - الروس، على حد اعتقادى.

"لاجئون من شمال القناة"، قال مورجان بلطف، وأشاح بوجهه بعيدًا. رغم كونه أصلاً من اللاجئين، فقد بدا وكأنه لا يشعر بأى نوع من التقمص العاطفى تجاه أقرانه الأكثر بؤسًا. حتى عندما ظننت أننا

قد دهسنا جثة نائمة، ونظرت للخلف في ذعر، غمغم رفيقي فقط بـ،
"لا تقلق. ربما كانت فقط صرة ملابس رثة."

حينئذٍ، وبعد بضع دقائق من الصمت، روعني بضحكة. "أيام
المدرسة،" قال. "جميعها تعاودك. لم تكن سيئة تمامًا، على ما أظن."

نظرت إليه ولاحظت أن الدموع تتشع من عينيه. ثم قال:

"تعرف، كان ينبغي علينا أن نتوحد. الوحيدان البائسان. هذا هو
ما كان ينبغي علينا القيام به، كان ينبغي علينا أن نتوحد معًا. لا
أعرف لماذا لم يحدث. لم نكن لنشعر بأننا اقتلعنا من الأشياء لو كنا
فعلنا ذلك."

التفت إليه باندهاش. غير أن وجهه، الذي لمحتة في الأضواء
المتغيرة، أخبرنا بأنه في مكان ما بعيد.

كما قد قلت، أذكر جيدًا جدًا أن أنتوني مورجان كان أحد
الكيانات "المنعزلة البائسة" أيام المدرسة ليس لأنه كان هدفًا لتتمرنا
ومضايقاتنا على وجه التحديد، كما أذكر، بل لأن مورجان نفسه قد
وضع نفسه في هذه الحالة منذ مرحلة مبكرة جدًا. هو من كان يختار
دائمًا أن يمشي وحده، ويتأخر خلف المجموعة الرئيسة عدة ياردات؛
هو الذي كان في أيام الصيف المشرقة يرفض أن ينضم إلى قافلة
اللعب، وكنا نجده يملأ كراسته بالرسومات العبثية. أذكر كل هذا
بمنتهى الوضوح. في الحقيقة، بمجرد أن وقعت عيني عليه في تلك
الليلة في ردهة الفندق الكئيب، عاودت ذهني على الفور صورة مشيته
المنعزلة المتجهمة خلف بقية الزملاء عند عبورنا الساحة المربعة بين
المرسم والدير. غير أن تأكيده على أنني كنت مثله "منعزل بائس"،

وأنه كان ينبغي علينا أنا وهو أن نكون معًا، كان شيئًا مثيرًا للدهشة، لقد أخذت فترة حتى أدركت أن ما قاله ليس ببساطة سوى فاصل من خداع الذات من ناحية مورجان - من المرجح جدًا أن هذا ليس سوى شعور اخترعه منذ سنوات مضت ليجعل ذكرياته عن هذه الفترة التعيسة مستساغة عقليًا. كما أقول، هذا لم يحدث لي تَوًّا، وعندما أعيد التفكير في الأمر الآن أرى أن ردى ربما كان متبلدًا قليلًا. ذلك لأننى حسبما أذكر قد قلت شيئًا ما من قبيل:

"لأبد وأنه كان ينبغي عليك الانخراط فى علاقة مع شخص آخر، أيها الصديق القديم. لقد كنت دائمًا عرضة للقفز والتشهير. أستطيع القول بأنك كنت تفكر فى ذلك الزميل بيجليسورث. أدريان بيجليسورث. لقد كان بالفعل منطويًا إلى حد ما."

"بيجلِسورث؟" فكر مورجان فى ذلك، ثم هز رأسه. "أذكر هذا الفتى. كان بدينًا إلى حد ما، وغليظ الأذنين؟ العجوز بيجليسورث. لى، لى. لكن لا، لم أكن أفكر فيه."

"حسنًا، ليس أنا، أيها الرجل العجوز."

"غير معقول." هز رأسه ثانيةً، ثم استدار إلى نافذته.

أنا أيضًا أشحت بوجهى بعيدًا، وخلال الفترة القليلة التالية كنت أهدق فى الشوارع الليلية خارج السيارة. ثانيةً كنا نتحرك فى منطقة تسلية مزدحمة، ونظرت فى وجوه الناس، متمنيًا أن ألمح وجه أكيرا. ثم دخلنا إلى أحد الأحياء السكنية به سياج من شجيرات صغيرة وأشجار، وبعد قليل توقفت السيارة فى ساحة محيطة بمنزل كبير.

غادر مورجان العربى بسرعة. أنا أيضاً غادرتها - لم يبذل السائق أى جهد لمساعدتى - وتبعته على ممر مفروش بالحصى يقودنا حول جانب البيت. أعتقد أننى كنت أتوقع استقبالا كبيرا من نوع ما، لكننى رأيت حينئذ أن هذا لم يكن بانتظارنا؛ كانت معظم جنبات المنزل مظلمة، وباستثناء سيارتنا، كانت هناك سيارة أخرى وحيدة فى حوش البيت.

كان من الواضح أن مورجان يألف هذا المنزل، فاتجه بنا إلى باب جانبي محاط بشجيرات عالية. فتحه دون أن يرن جرسه وأشار إلى بالدخول.

وجدنا أنفسنا فى ردهة فسيحة مضاءة بالشموع. حدثت أمامى، فرأيت أعمالاً خشبية عتيقة مزخرفة، ومزهريات ضخمة من البورسلين، وصندوقاً ثقيلاً به أدراج. كانت رائحة الهواء - الناضحة برائحة البخور الممتزج برائحة الغائط - مريحة بصورة غريبة.

لم يظهر خادم أو مضيف. ظل رفيقى يقف إلى جوارى دون أن ينطق بكلمة. بعد فترة، خطر ببالى أن ينتظر تعليقا منى على الأشياء المحيطة بنا، لذا بادرت قائلاً:

"عرفت بالفنون اليدوية الصينية ضئيلة. لكن حتى بالنسبة لعينى، من الواضح أن الأشياء المحيطة بنا جميلة إلى حد ما."

رمقنى مورجان باندعاش. ثم هز كتفيه بلامبالاة وقال: "أعتقد أنك على حق. حسناً لندخل."

تقدم مورجان الطريق بنا إلى داخل المنزل. كنا نمشي في الظلام لعدة خطوات، ثم سمعت أصواتًا تتجاذب أطراف الحديث بالماندارين، ورأيت ضوءًا يأتي من مدخل يتدلى عليه ستارة من خيوط ملصوم بها حبات خرز. عبرنا الستارة، وبعد ذلك عبرنا ستارة أخرى، إلى غرفة أخرى كبيرة دافئة مضاءة بالشموع والمصابيح.

ماذا أذكر الآن من كل بقية ذلك المساء؟ لقد أصبح كل شيء تله الضبابية قليلًا في عقلي، لكن دعني أحاول أن ألم نثارها معًا بصورة واضحة قدر المستطاع. فكرت في الأولى عند دخول تلك الغرفة هي أننا قد عكرنا صفو احتفال عائلي ما. فقد لمحت طاولة كبيرة مفروشة بالطعام، وكان يجلس حولها ثمانية أو تسعة أشخاص. جمعهم كانوا صينيين؛ أصغر من فيهم - رجلان في العشرينيات من العمر - كانا يرتديان بدلتان غريبتان، لكن باقى الناس كانوا يرتدون الملابس الشعبية الصينية. سيدة عجوز، كانت تجلس على طرف الطاولة، وكان أحد الخدم يساعدها في تناول الطعام. جنتلمان كبير السن - كان فارع الطول بصورة مثيرة للدهشة ومتحرر بدرجة تتفوق عنه صفة الشرقى - حدث أنه الرجل الأول في هذه الأسرة، لأنه هب واقفًا على الفور عند وصولنا، ثم حذا حذوه الشباب الآخرون. لكن عند هذه اللحظة، ظل انطباعي عن هؤلاء الناس غامضًا، لأن الغرفة نفسها قد بدأت بمنتهى السرعة تمثل بؤرة لاهتمامي.

كان السقف مرتفعًا تحمله دعائم خشبية. وخلف من كانوا يتناولون العشاء، إلى اليمين في الخلف بهو المغنين، من درابزونه يتدلى حامل مصابيح ورقية. هذا الجزء من الغرف هو الذى استلقت

انتباهي، ثم واصلت النظر عبر الطاولة عليه، وقلمما كنت أسمع كلمات الترحيب التي نطق بها مضيفي. لأن ما اتضح لي هو أن المؤخرة كلها نصف الغرفة التي كنت أقف فيها وقتئذ كانت في واقع الأمر القاعة الأمامية لمنزلنا القديم في شنغهاي.

من الواضح أن هناك عملية إحلال وتبديل واسعة النطاق قد حدثت مع مرور السنوات. على سبيل المثال، لم أستطع أن أدرك مطلقاً كيف أن المناطق التي دخلنا عبرها أنا ومورجان لتونا لها علاقة بـردهتنا القديمة. لكن بهو المغنين الذي في المؤخرة يتطابق بشكل واضح مع الشرفة التي كانت أعلى السلم الدائري الكبير في بيتنا.

تقدمت، وربما أكون قد ظلت واقفاً هناك لبعض الوقت أحرق في بهو المغنين، أقتفى بعيني المسلك الذي كان يأخذه سلمنا. وبينما كنت أفعل ذلك، وجدت ذكرى قديمة تعاودني، ذكرى تنتمي لطفولتي عندما كنت معتاداً على الهبوط على السلم الممتد الدائري بسرعة هائلة وأقفز درجتين أو ثلاث في نهاية السلم - وعادةً ما كنت أرفرف بذراعي - لأهبط في أعماق مضجع كان يوضع على مقربة. كان أبي يضحك كلما شاهدني أفعل ذلك؛ بينما كانت أمي ومي لي تستكران ذلك. في الحقيقة، كانت أمي، التي لم توضح أبداً السبب في استنكارها هذه الممارسة على وجه التحديد، دائماً تهددني بحمل المضجع بعيداً لو أنني ألححت على ممارسة هذه العادة. ثم ذات مرة، عندما صرت في الثامنة من العمر تقريباً، حاولت هذا العمل البطولي للمرة الأولى منذ شهور واكتشفت أن المضجع لم يعد قادراً على

امتصاص أثر وزني الزائد. أحد أطراف المضجع انهار تمامًا، وهويت أنا على الأرض؛ وارتطمت بقوة. مع ذلك، وفي اللحظة التالية، قد تذكرت أن أمي كانت تهبط السلم خلفي، وكنت قد ثبتت نفسي لأقصى أنواع التوبيخ. لكن أمي، لاحت فوقى وانفجرت في الضحك. "انظر إلى وجهك، يا بفن!" كانت تتساءل. "لو أنني أستطيع فقط أن أرى وجهي!"

لم يصبني أي ضرر على الإطلاق، لكن مع استمرار أمي في الضحك - وربما لأنني كنت ما أزال خائفًا من التوبيخ - بدأت أظهار بأقصى ألم يمكن أن أشعر به في كاحل قدمي. حينئذ توقفت أمي عن الضحك وساعدتني برفق كي أنهض. أذكرها وهي تساعدني على المشي ببطء حول الردهة، وذراعها يطوق كتفي، وتقول: "الآن، ذلك أفضل، أليس كذلك؟ فقط سنمشي هذه المسافة. الآن، لا شيء."

لم أتلق أي توبيخ على ما حدث وبعد بضعة أيام دخلت لأجد أن المضجع قد تم إصلاحه؛ لكن رغم أنني استأنفت عادة القفز من الدرجة الثانية أو الثالثة، فإنني لم أحاول الطفو في المضجع ثانية أبدًا.

مشيت بضع خطوات حول الغرفة، محاولاً أن أحدد بالضبط الموقع الذي كان فيه المضجع. وبينما كنت أفعل ذلك، اكتشفت أن صورته في عقلي مشوبة بضبابية شديدة - رغم أنني استطعت بمنتهى الوضوح استعادة الملمس الحريري لنسيجه.

ثم في النهاية، أدركت وجود الآخرين في الغرفة، وأدركت حقيقة أنهم كانوا يراقبونني بابتسامة رقيقة. مورجان والرجل الصيني كبير

السن يتشاوران في هدوء. تقدم مورجان خطوة للأمام، عندما رأى
أستدير، وتتحنن وبدأ في التقديم.

كان واضحاً أنه على علاقة صداقة بالأسرة ونطق الأسماء دون
تردد. بينما كان يفعل هذا، كان كل فرد يخصني بانحناء تحية
وابتسامة، وهو يشبك كلتي يديه في بعضهما البعض. السيدة العجوز
التي كانت تجلس على طرف الطاولة، التي قدمها مورجان باختلاف
أكثر، ظلت ترمقني بشعور جامد. لين كان هو اسم الأسرة - فيما
عدا ذلك فأنا لا أذكر أية أسماء - ومن هذه النقطة، أمسك مستر لين
نفسه، الجنئلمان العجوز الضخم، بعصا المبادرة.

"أنا واثق، يا سيدى الطيب،" قال بإنجليزية واهنة النبرة، "أن
عودتك إلى هنا حارة المشاعر."

"نعم، هذا صحيح." وأطلقت ضحكة خفيفة. "نعم، ومشوبة بقليل
من الغرابة أيضاً."

"لكن هذا طبيعي،" قال مستر لين. "الآن، تعامل بمنتهى الأريحية
من فضلك. يقول مستر مورجان إنك تناولت العشاء بالفعل. لكن كما
ترى، لقد أعددنا لك العشاء. لا نعرف إذا ما كنت تستسيغ المطبخ
الصيني وأطباقه أم لا. لذلك استعرنا طبّاخ جارنا الإنجليزي."

"لكن ربما لا يكون مستر بانكس جوعاً."

أحد الرجلين اللذين يرتديان ملابس غريبة قال هذه الجملة. ثم
استدار الأخير لى وأكمل قائلاً: "جدي رجل دقة قديمة جداً. ينزعج
بشدة لو أن الضيف لم يقبل كل طقوس كرمه." ابتسم الشاب ابتسامة

عريضة للرجل العجوز. "من فضلك لا تدعه يتمر عليك، يا مستر بانكس."

"حفيدي يعتقد أنني صيني دقة قديمة." قال مستر لين، وهو يتقدم بالقرب مني، والابتسامة لا تفارق وجهه أبدًا. "لكن الحقيقة هي أنني ولدت وتربيت في شنغهاي، هنا في المستعمرة الدولية. اضطر والدای للفرار من قوات الإمبراطورة دواجر، للاختباء هنا، في مدينة الأجانب، وكبرت كأحد سكان شنغهاي من البداية إلى النهاية. حفيدي هنا لا يعي شيئاً عن شكل الحياة في الصين الحقيقية. هو يعتبرني دقة قديمة! تجاهله، يا سيدى العزيز. لست بحاجة للاتصاق بالبروتوكول هنا في هذا البيت. إذا لم تكن عندك رغبة في الطعام، فلا عليك إذا. فأنا بالتأكيد لن أتمرر عليك."

"لكنك حقيقة في غاية الطيبة"، قلت، ربما بقليل من الارتباك، لأننى فى الحقيقة كنت لم أزل أحاول تحديد الكيفية التى تبدلت بها البناية.

ثم فجأة قالت السيدة شيئاً بالماندارين. فقال الشاب الذى تحدث إلى من قبل:

"جدتى تقول إنها كانت تظن أنك لن ترجع أبدا. لقد كانت فترة انقطاع طويلة. لكنها الآن قد رأتك، هى فى منتهى السعادة بوجودك هنا."

حتى قبل أن ينتهى من الترجمة، كانت السيدة العجوز تتحدث ثانية. هذه المرة، عندما انتهت، ظل الشاب صامتا للحظة. نظر إلى جده وكأنه يطلب منه العون، ثم بدا وكأنه قد اتخذ قراراً.

"لابد أن تلتمس لأمى المعذرة،" قال. "أحياناً ما تبدو غير قادرة على التركيز."

الجدة، التى ربما كانت تفهم الإنجليزية، تمللت بضجر من أجل الترجمة. فى النهاية تنهد الشاب وقال:

"جدتى تقول إنه حتى موعد قدومك هذا المساء، كانت تستاء منك. بعبارة أخرى، كانت غاضبة لأنك ستأخذ منزلنا منا."

نظرت إلى الشاب، وكنت فى غاية الارتباك، لكن السيدة العجوز عادت تتحدث ثانية.

"تقول إنها لفترة طويلة،" يترجم الحفيد، "تمنت أن تظل بعيداً. كانت تعتقد أن هذا البيت يخص أسرتنا الآن. لكن الليلة، عندما رأتك شخصياً، ورأت المشاعر فى عينيك، فهى قادرة على استيعاب الأمر. فهى تشعر من كل قلبها أن الاتفاق صحيح."

"الاتفاق؟ لكن بالتأكيد...."

سمحت للكلمات أن تتلاشى فى فمى. فعلى الرغم من حالة الارتباك التى انتابتنى، وبينما كان الشاب يقوم بترجمة كلمات جدته، بدأت أستعيد واحدة من الذكريات البعيدة بخصوص مثل هذه الترتيبات الخاصة بمنزلى القديم وعودتى إليه. لكن كما أقول، ذكرى هذا الأمر كانت مضربة جداً، وأحسست أننى بفتح مناقشة هذا الأمر فإننى فقط سوف أورط نفسى. على أية حال، فى هذه اللحظة تحديداً قال مستر لين:

"أخشى ألا نكون جميعًا مراعين لمشاعر مستر بانكس. ها نحن،
نجعله يثرثر معنا، بينما لابد، في الواقع، وأنه في غاية الاشتياق
للتحرك بين جنبات هذا البيت مرةً أخرى." ثم استدار إلى بابتسامة
ودودة، وقال: "تعال معي، يا سيدى الطيب. سيكون لديك متسع من
الوقت للتحدث إلى الجميع فيما بعد. تعال من هنا وسوف أقودك إلى
كل أنحاء المنزل."

الفصل الخامس عشر

خلال العدة دقائق التاليات، تبعت مستر لين فى كل أنحاء المبنى. رغم تقدمه فى العمر، لم يظهر عليه من علامات الوهن إلا القليل؛ كان يحمل جسمه البدين بثبات، ورغم البطء، فإنه كان قلما يتوقف لاستعادة التنفس بانتظام. كنت أقتفى أثر عباءته القاتمة وشبشبه الهامس صعودًا وهبوطًا على السلم الضيق، وفى الطرقات الخلفية التى غالبًا ما كانت مضاءة بمصباح واحد. مضى بى عبر أماكن كانت خالية من الأثاث وعليها خيوط عناكب، مرورًا بصناديق خشبية بها نبيذ الأرز مرصوفة بعناية فائقة. فيما عدا ذلك، كان المنزل فخماً؛ كانت هناك بارافانات وسجاد حوائط جميلة، عناقيد بورسالىن معروضة فى فجوات جدارية. بين الحين والآخر، كان يفتح بابًا، ثم يتراجع للخلف ليسمح لى بالدخول. دخلت العديد من الغرف، لكن - لبعض الوقت على الأقل - لم أر شيئاً ألفه على الإطلاق.

ثم فى النهاية دلفت عبر باب فأحسست بشيء يطرق ذاكرتى. أخذت بضع ثوانٍ أخرى، لكننى أدركت حينئذٍ بموجة من الأحاسيس "مكتبتنا القديمة". لقد تغيرت كثيرًا: كان السقف أكثر ارتفاعًا، تم إضافة حائط داخلها لتجعل المساحة على هيئة حرف L؛ وحيث كان هناك فيما قبل باب مزدوج يؤدي إلى غرفة الطعام، أصبح هناك فاصل وضعت خلفه المزيد من صناديق نبيذ الأرز. لكنها بلا شك الغرفة نفسها التى كنت أعمل فيها الواجب المدرسى أيام طفولتى.

تقدمت أكثر في عمق الغرفة، وأنا أنظر حولي في كل أرجاء المكان. بعد فترة أدركت أن مستر لين ينظرني فألقيت إليه بابتسامة واعية. عندها قال:

"لا شك في أن تفاصيل كثيرة قد تغيرت. من فضلك اقبل اعتذارى. لكن لا بد أن تفهم، خلال الثماني عشرة سنة التي أقمنا فيها هنا، كانت هناك بضعة تغييرات لا يمكن تجنبها لمواجهة احتياجات أهل بيتي وعملي. وأنا أعى جيداً أن المستأجرين الذين سبقونا ومن قبلهم، قد قاموا بتغييرات واسعة. ومن المؤسف، يا سيدى العزيز، لكننى أعتقد أن قليلين قد استشرفوا أنك ووالديك في يوم ما سوف..."

تراجع، ربما لأنه ظن أننى لا أصغى إليه، ربما لأنه، مثل كل الصينيين، كان منزعجاً من الاعتذارات. واصلت النظر حولي لفترة أطول، ثم سألته:

"إذا هذا المنزل، لم يعد مملوكاً لشركة Butterfield and Swire؟"
بدا مندهشاً، ثم ضحك. "سيدى، أنا صاحب هذا المنزل."
رأيت أننى أهنته، وقلت بسرعة: "نعم، بالطبع. ألتمس منك المعذرة."

"لا عليك، يا سيدى الطيب" - عاودته ابتسامته المعتدلة بسرعة - "كان سؤالاً معقولاً. مع كل ذلك، عندما كنت تعيش هناك أنت ووالداك العزيزان، كان هذا هو الحال دون شك. لكن أعتقد أن هذا قد انتهى منذ زمن. يا سيدى العزيز، أراك تدرك ملياً إلى أى مدى تغيرت شغهاى مع مرور السنوات. لقد تغير كل شيء، كل شيء تغير وتغير للمرة الثانية. كل هذا" - تنهد وتحرك باتجاهنا - "فهذه

تغيرات ضئيلة بالمقارنة. كانت هناك أجزاء من هذه المدينة كنت أعرفها فيما مضى جيدًا، أماكن كنت أمشي فيها كل يوم، الآن أذهب إلى هناك ولا أعرف من أى طريق أمضى فيها. تغيرات، تغيرات طوال الوقت. والآن، اليابانيون، يأملون فى إضفاء تغييراتهم هنا على المكان. إنها أقسى التغيرات التى يمكن أن تستبد بنا. لكن على الإنسان أن يلزم التفاؤل."

للحظة، وقفنا معًا فى حالة من الصمت، وواصلنا التطلع فى محيطنا. ثم قال بهدوء:

"أسرتى، بالطبع، ستأسى لترك هذا البيت. فقد مات أبى هنا. اثنان من أحفادى ولدا هنا. ولكن حين تحدثت زوجتى قبل قليل - وعليك أن تسامح صراحتها، يا مستر بانكس - كانت تتحدث إلينا جميعًا. سوف نعتبر هذا شرفًا وامتنيازًا عظيمين أن نعيد هذا البيت لك ولوالديك. الآن، يا سيدى الطيب، لنكمل إذا أردت."

أعتقد أنه لم يمر وقت طويل بعد ذلك وصعدنا سلمًا يغطيه السجاد - سلم، بالتأكيد، لم يكن موجودًا حينما كنت أعيش هنا - ودلفت إلى غرفة نوم فخمة الأثاث. كانت هناك أنسجة أنيقة، ومصابيح تلقى بوهج أحمر على جنبات المكان. "غرفة زوجتى"، قال مستر لين.

رأيت أنها تشبه الحرم، بُدّوار^(*) مريح دافئ حيث تخلو المرأة العجوز فيه إلى نفسها معظم يومها. فى الضوء الدافئ للمصباح،

(*) البُدّوار: مخدع السيدة أو حجرة لبسها. (المترجم)

استطعت أن أرى طاولة لعب عليها عدد أنواع مختلفة من مباريات الورق التي بدت أنها تؤدي، طاولة للكتابة به طابور من الأدراج المزدانة بشرابات مذهبة على أحد الجانبين سرير بأربعة ملصقات به طبقات من ستائر لها شكل البرقع. في أماكن أخرى وقعت عيناى على العديد من الزخارف الرائعة، وأشياء مسلية أخرى لم أستطع تحديد طبيعتها بالضبط.

"لأبد وأن المدام تحب هذه الغرفة،" أخيراً قلت. "أرى أن عالمها هنا."

"إنها تركتها. لكن لا ينبغي عليك أن تتشغل بها، يا سيدى الطبيب. سنجد لها غرفة أخرى وسوف تحبها بالشكل نفسه."

لقد تحدث ليطمئننى، لكن ثمة شيء مشوب بالهشاشة قد دخل صوته. الآن مشى إلى داخل الغرفة، إلى تسريحة، واستغرقه شيء صغير - ربما بروش. وبعد عدة لحظات، قال بهدوء:

"كانت في غاية الجمال عندما كانت أصغر سناً. أروع زهرة، يا سيدى العزيز. لا يمكنك أن تتخيل. أنا مثل الغربيين في هذا الجانب من الحياة. لم أرد أبداً زوجة أخرى سواها. زوجة واحدة، تكفى جداً. بالطبع، أخذت أخريات. أنا رجل صينى، ورغم ذلك، لو أننى قد عشت حياتى كلها هنا في مدينة الأجانب. كنت أشعر بأننى مضطر لأخذ زوجات أخريات. لكنها كانت الوحيدة التى اهتمت بها. كل الأخريات قد ذهبن، وهى قد بقت. أفقد الأخريات، لكننى سعيد من كل قلبى لأننا فى عمرنا الكبير لم يعد لنا سوانا." لبضع ثوانٍ، بدا أنه

قد نسي وجودي. ثم استدار إلى وقال: "هذه الغرفة. أتساءل كيف ستأتي وتستخدمها. معذرة، إن هذا خارج سياق الموضوع تمامًا. لكن هل تظن أن هذه الغرفة ستكون لزوجتك الطيبة؟ بالطبع، أنا أعرف أن الكثير من الأجانب، مهما بلغ بهم الثراء، فالزوج والزوجة يستخدمان الغرفة نفسها. أنا أتساءل إذا ما كانت هذه الغرفة ستذهب لك ولزوجتك الطيبة. أعرف أن في هذا فضولاً مني، وخروجاً تاماً عن سياق الموضوع. لكن هذه الغرفة لها مكانة خاصة جدًا عندي. وأملى أن تجعلها لأكثر الاستخدامات خصوصية."

"نعم...." نظرت في أنحاء الغرفة ثانية بإمعان أكثر. ثم قلت: "ربما ليست زوجتي. زوجتي، كما تفهم، لأكن صريحاً..." أدركت أنني في هذا الكلام عن زوجة، كانت صورة سارة عالقة في ذهني. ولكي أوارى ارتباكى، واصلت الكلام بسرعة: "ما أقصده، يا سيدي، هو أنني لم أتزوج بعد. ليس لدى زوجة. لكنني أعتقد أن هذه الغرفة ستكون مناسبة لأمي."

"آه نعم. ورغم كل الأشياء المربكة التي ستعانيها، فإن هذه الغرفة ستكون نموذجية لها. ووالدك؟ أتساءل، هل سيشاركها هذه الغرفة بالطريقة الغربية؟ من فضلك، سامحني على تطفلي المبالغ فيه."

"هذا ليس تدخلاً، يا مستر لين. مع ذلك فبسماحك لي بالدخول إلى هنا، فإنك أنت الذي منحتني كل هذه الألفة والحميمية. ولديك الحق، كل الحق في توجيه هذه الأسئلة. المسألة فقط هي أن كل هذا جاء مباغتاً، وليس لدى من الوقت، بعد، ما يمكنني من وضع خططي...."

دلفت إلى حالة من الصمت وواصلت إمعان النظر في تفاصيل الغرفة. ثم بعد فترة، قلت له: "مستر لين، أخشى أن يضايقك هذا. لكنك كنت أكثر تفتحًا وكرمًا من توقعاتي، وأشعر أنك جدير بأمانتي. لقد قلت الآن بنفسك، كم من الحتمى أن يقع بيت تحت طائلة التغييرات عندما يتغير سكانه. حسنًا، يا سيدى، رغم ما لهذه الغرف من قرب إلى نفسك، فما أخشاه هو أن أسرتى مع عودتها لسكنى هذا المنزل سوف تقوم بوضع تغييراتها الخاصة بها. أخشى أن تتغير هذه الغرفة أيضًا لأبعد مما تتخيل."

أغلق مستر لين عينيه، وحط علينا صمتٌ ثقيل. خشيت أن تتأبه نوبة غضب، وللحظة ندمت على صراحتى المفرطة معه. لكن عندما فتح عينيه، وجدته يرمقنى بلطف.

"بالطبع،" قال، "هذا طبيعى جدًا. سوف ترغب فى إعادة هذا البيت تمامًا إلى ما كان عليه عندما كنت طفلًا. هذا طبيعى جدًا. سيدى الطيب، أنا أفهم هذا تمامًا."

فكرت فى هذا للحظة، ثم قلت: "حسنًا، بالفعل، يا مستر لين. لسبب واحد، حسبما أتذكر، كانت هناك أشياء كثيرة فى المكان تزعجنا. أمى، مثلاً، لم يكن لها حجرة مكتب تخصها أبدًا. لم يكن مكتب أمى الصغير فى غرفة نومها كافيًا على الإطلاق لكل أعمالها الخاصة بحملات التوعية. أبى أيضًا كان يريد ورشة صغيرة لأعماله الخشبية. ما أقوله هو ليست هناك حاجة للرجوع بعقارب الوقت فقط لمجرد العودة."

"هذا تفكير غاية في الحكمة، يا مستر بانكس. ورغم أنك لم تأخذ لك زوجة بعد، فربما يأتي اليوم الذي تفكر فيه بحاجتك للزوجة والأطفال قريبًا."

"هذا وارد بالتأكيد. لسوء الحظ، في الوقت الراهن، مسألة الزوجة هذه، في حالتي، مع ذلك فالعادات الغربية....." أصبحت في حالة من الارتباك الشديد وتوقفت عن الكلام. غير أن الرجل العجوز أوماً بحكمة، وقال:

"بالطبع، فيما يخص الأمور المتعلقة بالقلب، لا تبدو الأشياء بسيطة مطلقًا." ثم سأل: "ألا تتمنى أن يكون لديك أطفال، يا سيدي الطيب؟ أتساءل كم من الأطفال تريد أن تنجب."

"في الحقيقة، أنا عندي طفلة بالفعل. بنت صغيرة. رغم أنها ليست، في واقع الأمر، ابنتي بمعنى الكلمة. إنها يتيمة وهي الآن تحت رعايتي. وأنا أعتبرها ابنتي بالفعل."

لم أكن قد فكرت في جنيفير لبعض الوقت، وذكرى لها بهذه الطريقة غير المتوقعة أفضى فوران شعور بداخلي. جرت صورها في مخيلتي؛ فكرت فيها وهي في مدرستها، وتساءلت ماذا عنها، وما الذي تفعله في ذلك اليوم.

ربما قد أشحت بوجهي بعيدًا كي أوارى مشاعري. على أية حال، عندما نظرت إلى مستر لين بعدها، كان مستر لين يومئ ثانية.

"نحن - الصينيين - معتادون تمامًا على مثل هذه الترتيبات،" قال. "صلة الدم غاية في الأهمية. لكن هكذا تكون من أهل بيتك. لقد

تبنى أبى بنتاً يتيمة وكبرت معنا وكأنها أختى. هكذا كنت أعتبرها، رغم أننى كنت أعرف أصلها طيلة الوقت. عندما ماتت، فى وباء الكوليرا كنت أنا ما أزال شاباً، شعرت بكثير من الأسى لأجلها، الأسى نفسه الذى شعرت به مع موت أخواتى الشقيقات.

"أنا فى غاية السعادة بالحديث معك، يا مستر لين، لو كان لى أن أقول ذلك. من النادر أن تصادف شخصاً على هذه الدرجة من الفهم الفورى."

اتجه إلى بانحناءة خفيفة، جاعلاً أطراف أصابعه تلامس بعضها البعض أمامه. "عندما يعيش المرء طويلاً مثلى، وفى مغبة الهياج الذى تشهده هذه السنوات، يمر بكثير من الأفراح والأتراح. أتمنى أن تسعد ابنتك بالتبنى هنا. أتساءل أى غرفة ستختارها لها. لكن بالطبع، سامحنى! كما قلت، إنك سوف تقوم ببعض التغييرات."

"فى الحقيقة، إحدى الغرف التى رأيناها قبل قليل ستكون ملائمة لجينفير. غرفة بها رف خشبى صغير يمتد بطول الحائط."

"هل تحب مثل هذا الإفريز؟"

"نعم. لتضع عليه متعلقاتها. وفى الحقيقة هناك شخص آخر سيسكن هنا فى هذا البيت. أعتقد أنها من الناحية الرسمية تعتبر خادمة، لكنها فى بيوتنا تَعْلُو عن هذه المرتبة قليلاً. اسمها مى لى."

"هل كانت مربيتك، يا سيدى الطيب؟"

أومأت. "ستكون طاعنة فى السن الآن وأعتقد أنها ستكون جديرة بالراحة من عملها. الأطفال مُرهقون للغاية. كانت لدى نية دائمة فى أن تقيم معنا هنا عندما تكبر فى السن."

"هذا منتهى طيبة القلب منك، يا سيدى. غالبًا ما يسمع المرء عن العائلات الأجنبية التى تطرد المربية عندما تزداد نفقاتها. مثل هؤلاء النساء غالبًا ما نراهن تقضين آخر أيامهن فى الشوارع متسولات."

ضحكت. "قلما فكرت فى إمكانية حدوث هذا لى لى. فى الحقيقة، إن مجرد الفكرة تعتبر من قبيل العبث. على أية حال، كمًا أقول، سوف تعيش معنا هنا. بمجرد أن أنتهى من مهمتى، سأركز تفكيرى على تحديد محل إقامتها. لا أتصور أن هذا من الصعوبة فى شىء."

"قل لى، يا سيدى الطيب، هل ستمنحها غرفة فى أجنحة الخدم أم مع العائلة؟"

"مع العائلة، بكل تأكيد. ربما تكون وجهة نظر والدى مناهضة لى فى هذا الأمر. لكن فى الواقع، أنا صاحب الكلمة الآن فى البيت." ابتسم مستر لين. "وفقًا لعاداتكم، سيكون الأمر هكذا بالتأكيد. بالنسبة لنا كصينيين، لحسن الحظ بالنسبة لى، يستمر الكبار فى حكم المنزل تمامًا حتى وهم فى أرذل العمر."

ضحك الرجل العجوز فى نفسه واستدار صوب الباب. كنت على وشك أن أتبعه، لكن فى تلك اللحظة بالضبط - بصورة مباغتة تمامًا وفى غاية الوضوح - وجدت ذكرى تعاودنى. وقد فكرت فيها منذئذٍ، ولا أدري لماذا هذه الذكرى على وجه التحديد دون غيرها. كانت ذكرى إحدى المناسبات وأنا فى سن السادسة أو السابعة، عندما كنت أتسابق أنا وأمى على امتداد أحد المروج. لا أعرف على وجه التحديد مكانها؛ أظن الآن أننا كنا فى أحد المنتزهات - ربما جيسفيلد بارك -

ذلك لأننى أذكر وجود سور معترش إلى جوار المكان الذى كنا نتسابق فيه، سور كانت تغطيه الأزهار المتسلقة واللبلابيات. كان أحد الأيام الدافئة، لكنه لم يكن يوماً مشمساً على وجه التحديد. كنت أتحدى أمى باندفاع فى السباق، إلى علامة ما على بعد مسافة قصيرة أمامنا، على سبيل استعراض قدرتى المتطورة على العدو. لقد اعتبرت إمكانية الفوز عليها أمراً مفروغاً منه تماماً، وأنها حينئذٍ، ستعبر، بطريقتها المعتادة، عن اندهاشها المسرور بهذا الإعلان الجديد عن تفوقى الناضج. لكنها ظلت متساوية معى فى السباق مما أثار انزعاجى، وكانت تضحك وهى تواصل العدو بجانبى، رغم أننى كنت أعدو بكل قوتى. لا أذكر فعلياً من الذى فاز منا، لكننى ما زلت أذكر سخطى عليها، وإحساسى بأننى ظلمت ظلماً شديداً. تلك كانت الذكرى التى عاودتنى فى تلك الليلة وأنا أقف فى الجو الدافئ الحميم بغرفة نوم مدام لين. أو ربما جزء منها: ذكرى لى وأنا أندفع مع الريح بكل قوتى؛ وحضور ضحكات أمى إلى جانبى؛ حفيف جوبتها، والإحساس المتفجر بالإحباط.

"سيدى،" قلت لمضيفى، "أتساءل عما إذا كان لى أن أسالك. تقول إنك عشت حياتك كلها فى المستعمرة. أتساءل إذا ما إذا كنت خلال ذلك الوقت قد التقيت بأمى."

"لم يحدث أبداً أن أسعدنى حظى والتقيت بها شخصياً، قال مستر لين." "لكننى بالطبع أعرفها، وأعرف الكثير عن حملتها العظيمة. كنت معجباً بها، مثل كل أصحاب الأفكار الجميلة. أنا واثق أنها سيدة رائعة. وسمعت ما قيل من أنها فى غاية الجمال."

"أعتقد أنها كانت هكذا. المرء لا يفكر أبدًا فيما كانت أمه جميلة أم لا."

"لقد سمعت ما قيل عن أنها أجمل امرأة إنجليزية في شنغهاي."
"أعتقد أنها كانت هكذا. لكنها بطبيعة الحال، ستصبح أكبر سنًا الآن."

"هناك نوع بعينه من الجمال لا يخبو. زوجتي" - أوما للغرفة -
"بالنسبة لي هي لم تنزل على الدرجة نفسها من الجمال مثلما كانت يوم تزوجتها."

عندما قال هذا، شعرت بغتة وكأنني أتطفل وفي هذه المرة كنت أنا من بادر بالمغادرة.

لا أذكر تفاصيل أكثر عن زيارتي للمنزل ذلك المساء. ربما قضينا ساعة أخرى، نتجاذب أطراف الحديث ونحن نتناول الطعام مع الأسرة حول المائدة. في كل الأحوال، أعرف أنني غادرت أسرة لين بعد أن توصلنا إلى أفضل صيغة. لكن وأثناء رحلة العودة شعرت أنا ومورجان بالإرهاق إلى حد ما.

ربما كان خطئي. لقد كنت في هذه المرحلة أشعر بالإرهاق والإجهاد المشوب بعصبية إلى حد ما. أخذنا طريق العودة ليلاً، وخلال بعض الوقت كان الصمت مهيمناً، وكان عقلي قد بدأ ربما في الانجراف ثانية في المهمة الهائلة التي تنتظرني. لأنني أذكر أنني قلت لمورجان بطريقة مفاجئة تمامًا:

"انظر، أنت هنا منذ بضع سنوات الآن. قل لي، هل صادف أن قابلت مفتشاً بعينه اسمه كانج؟"

"المفتش كانج؟ رجل شرطة أم ماذا؟"

"عندما كنت طفلاً، كان المفتش كانج أسطورة. في الحقيقة، لقد كان هو الضابط المسئول أصلاً عن قضية والديّ."

ومما أثار دهشتي أني سمعت مورجان يقهقه بجانبى. ثم قال:

"كانج؟ كانج العجوز؟ نعم، بالطبع، لقد كان مفتش شرطة. حسناً إذاً، لا عجب إذ لا شيء يخفى على أحد في هذه الأيام."

كانت نبرته مفاجئة لى، فقلت بفتور: "فى تلك الأيام، كان المفتش كانج أكثر رجال البوليس السرى احتراماً فى شنغهاى، إن لم يكن فى الصين كلها."

"حسناً، أستطيع القول بأنه لم يزل يتمتع باسم معروف. الرجل العجوز كانج. حسناً أنا لم ألتق به أبداً."

"أنا سعيد على الأقل لأنه لم يزل فى المدينة كما سمعت. هل لديك أى فكرة عن مكان وجوده؟"

"أبسط الطرق هى أن تتجول فقط حول المدينة الفرنسية فى أى ليلة بعد حلول الظلام. من المحتمل أن تصادفه إن آجلاً أم عاجلاً. عادةً ما تراه مكوماً على الرصيف. أو إذا سمح له بالدخول إلى أحد الجحور فى بار من البارات، فستجده يغط فى النوم والشخير فى أحد الأركان."

"هل تعنى أن المفتش كانج قد أصبح سكيراً؟"

"خمور. وأفيون. والمخدرات الصينية التقليدية. لكنه حسن السمعة. يحكى قصصاً عن أمجاده والناس الذين أعطوه العملات التذكارية."

"أظن أنك تتحدث عن رجل خطأ غير الذى أقصده، أيها الرفيق العجوز."

"لا تفكر هكذا، أيها الفتى العجوز. العجوز كانج. لقد كان بالفعل رجل بوليس. دائماً كنت أتصور أنه يدعى كل هذا. معظم قصصه منافية للطبيعة والعقل. ما الأمر، أيها الرفيق العجوز؟"

"المشكلة معك، يا مورجان، لأنك لا تكف عن تسفيه كل شىء. فى البداية سفهتني مع بيجليسورث. والآن تسعى للتسفيه من شخصية المفتش كانج وتحوله إلى صعلوك عديم القيمة. وجودك هنا، أيها الرجل العجوز، أصاب عقلك بالضعف."

"الآن انظر هنا، كف عن الصياح قليلاً. ما أقوله لك، سوف تسمعه من أى شخص آخر تسأله. وأنا إلى حد ما معترض على تعليقاتك. عقلى لم يصبه أى ضعف."

عندما أنزلني عند فندق كاثاي، كنا، على ما أظن، قد استعدنا ولو بدرجة ضئيلة صيغة الحوار المتحضر، لكن فراقنا كان فاتراً بصورة واضحة، ومنذئذ لم أر مورجان ثانية. أما بالنسبة للمفتش كانج، كانت نيتي بعد تلك الليلة أن أسعى لمقابلته دون تأجيل، لكن لسبب ما - ربما خشيت أن يكون كلام مورجان حقيقياً - لم أضع

هذا على رأس أولوياتي - على الأقل، لم أحاول حتى أمس، عندما قادني البحث في أرشيف الشرطة إلى اسم المفتش مورجان ثانيةً بطريقة غاية في الدرامية.

هذا الصباح، عندما ذكرت المفتش كانج، مصادفةً، وبصورة عرضية على ماكدونالد، لم يكن رد فعله مشابهاً لرد فعل مورجان في تلك الليلة، وأشك أن هذا سبب آخر لضجري من ماكدونالد عندما التقينا في مكتبه الساكن المطل على الأراضي المحيطة بالقنصلية. ومع ذلك، بقليل من الجهد، أعرف أنه باستطاعتي الاستفادة من هذا قدر الإمكان. خطئي الجوهرى هذا الصباح هو أنني سمحت له باستفزازي للخروج عن أعصابي. عند نقطة ما، أخاف، بأنني فعلياً قد صرخت فيه.

"مستر ماكدونالد، ألا يكفي ببساطة أن تترك الأمور لما تصر على تسميته بـ "قدراتي"! أنا لا أملك مثل هذه "القدرات"! أنا مجرد بشر، وبإمكانى فقط أن أحقق أهدافى لو تلقيت أشكال الدعم الأساسية التى تسمح لى بالمضى قدماً فى عملى. لم أطلب منك الكثير، يا سيدى. تقريباً لم أطلب منك أى شىء على الإطلاق. وما طلبته، قد وضحته تماماً لك. أتمنى أن تتحدث إلى هذا المخبر الشيوعى. فقط تحدث إليه، حوار قصير يكفي. لقد وضعت هذا الطلب أمامك فى أوضح صورة. أنا فاشل فى فهم السبب الذى لأجله تأخرت الترتيبات. لماذا هذا يا سيدى؟ ما الذى يعوقك؟"

"لكن انظر هنا، أيها الرفيق القديم، هذا ليس من اختصاص مكتبى. إذا ما أردت، سأحضر مفوض الشرطة لمقابلتك. حتى مع

ذلك، إذا أردت، فأنا لست واثقًا تمامًا أنك سوف تذهب إلى أي شيء مفيد. ليس هم من لديهم الثعبان الأصفر..."

"أنا أقدر تمامًا أن الحكومة الصينية هي من تضع الثعبان الأصفر تحت الحماية. ولهذا السبب أتيتك ولم أذهب إلى الشرطة. أنا أعى تمامًا أنه في أمر على هذا النحو من الأهمية، لا يكون للشرطة أي علاقة."

"سأرى ماذا أستطيع أن أفعل، أيها الفتى العجوز. لكن لا بد أن تفهم، هذه ليست مستعمرة بريطانية. لا يمكننا أن نوجه أوامر للصينيين فيها. لكنني سأحدث إلى شخص ما في الموقع المناسب. رغم ذلك لا تراهن على شيء يحدث بسرعة كبيرة. تشيانج كاي شيك كان لديه مخبرون من قبل، لكن لم يكن لأحدهم مثل هذه المعرفة الواسعة بشبكة الحمر. تشيانج يود لو يخسر بضع معارك مع اليابانيين قبل أن يسمح لأي شيء أن يحدث لفتى الثعبان الأصفر هذا. تعرف، بقدر اهتمام تشيانج فإن العدو الحقيقي ليس هو اليابانيين بل الحمر."

تتهدد بصوت عال. "مستر ماكدونالد، أنا لا يعني تشيانج كاي شيك أو أولوياته. أنا الآن تحديدًا، بصدد قضية ينبغي حل لغزها، وأريدك أن تفعل كل ما في استطاعتك لتأمين مقابلة لى مع هذا المخبر. أنا أضع هذا الأمر أمامك شخصيًا، وإذا ما ضاعت جهودي هباءً لأن هذا الطلب البسيط لم يُنفذ، فلن أتردد فى أن أعلن أنك السبب لأننى أتيتك..."

"الآن حقًا، أيها الصديق العزيز، من فضلك! لست بحاجة أن تسلك هذا المسلك معي! لست بحاجة على الإطلاق! جميعنا أصدقاء هنا. كلنا نتمنى لك النجاح. صدقتي، جميعنا نتمنى ذلك. انظر هنا، أنا قلت إنني سأفعل كل ما في وسعي. سأحدث إلى بعض الناس، أنت تعرف، الناس في هذا النوع من المهن. سأحدث إليهم، سأخبرهم بمدى ما تشعر به. لكن عليك أن تفهم، ليس لدينا الكثير مما نستطيع عمله مع الصينيين." ثم مال للأمام وقال بحسن ظن بالناس: "أنت تعرف، ربما تجرب الفرنسيين. فإديهم الكثير من التفاهات الصغيرة مع تشيانج. تعرف!، نوع من التفاهات غير الرسمية. جانب من الأشياء لا تقترب منه. ها هم الفرنسيون لك."

ربما كان اقتراح مكدونالد ينطوي على شيء. ربما أتمكن في الواقع من الحصول على بعض المساعدات من السلطات الفرنسية. لكن بصراحة، منذ هذا الصباح، لم أضع هذا الاختيار في الاعتبار. من الواضح لي أن مكدونالد، ولأسباب لم تنزل بعد غير واضحة بالنسبة لي، يراوغ، وساعة يدرك الأهمية الملحة لتأمين طلبتي، فسوف يبذل كل ما هو ضروري. لسوء الحظ، من المحتمل أن أكون قد تعاملت مع مقابلة هذا الصباح بطريقة تنقصها الكفاءة وسوف ينبغي على أن أحدث إليه بصراحة في وقت آخر. الأمر لا يمثل إمكانية أتطلع إليها، لكنني على الأقل في المرة القادمة سأدخل له بطريقة مختلفة، ولن يجد من السهل أن يردني صفر اليدين.

الكتاب السادس

فندق كاشاي، شنغهاي،

٢٠ أكتوبر ١٩٣٧

الفصل السادس عشر

عرفت أننا كنا في مكانٍ ما داخل منطقة الامتياز الفرنسي، على مبعدةٍ من الميناء، لو لم أكن قد ضللت الطريق. كان السائق يقود بنا السيارة عبر أزقة صغيرة لا تتناسب أى سيارة، وكان يُطلق نفير السيارة بين الحين والآخر كثيرًا كي يتتحي المشاة عن طريقه، وبدأت أشعر بأننى مثير للسخرية كأنما أشبه رجلاً أدخل حصاناً إلى منزله. غير أن السيارة توقفت أخيراً، وأشار السائق إلى مدخل حانة بهجة الصباح، وهو يفتح الباب.

أخذنى إلى الداخل رجل صينى نحيل ذو عين واحدة. الذى اجتاحنى اليوم هو شعور عام بأسقف خفيفة، وخشب قائم ورطب والرائحة المعتادة لمياة البواليع. غير أن المنشأة كانت نظيفة بما فيه الكفاية؛ فى لحظةٍ ما تقدمنا حول ثلاث نساء مُسنات جاثيات على ركبهن، ينظفن ألواح الأرضية باجتهاد وإتقان. فى مكان ما قرب مؤخرة المبنى، وصلنا إلى كوريدور به صف طويل من الأبواب. ذكرنى المشهد بالإسطبلات أو حتى السجن، غير أن هذه المهاجع، قد اتضح أنها، كانت مسكونة بنزلاء الفندق الصغير. طرق الرجل الأعور أحد الأبواب، ثم فتحه قبل أن يأتية أى رد من الداخل.

تقدمت إلى داخل مساحة صغيرة ضيقة. لم تكن هناك أية نوافذ، لكن الجدران الداخلية لم تكن ترتفع لملامسة السقف - مسافة قدم أو أكثر كانت عبارة عن شبكة من السلك - مما يسمح بنفاذ النور

والهواء إلى الداخل. رغم كل هذا، كان المهجع فاسد الهواء ومظلمًا، وحتى حينما تكون شمس الظهيرة ساطعة بالخارج، فإنها تؤدي فقط إلى انعكاس بعض الأشكال الغريبة على الأرض عبر السلك. كان الجسد الراقد على السرير يبدو نائمًا، لكنه حرك ساقيه عندما أخذت موقعًا في فجوة بين السرير والحائط. غمغم الرجل الأعور بشيء ما وتلاشى، وانغلق الباب خلفه.

كان مفتش الشرطة السابق، كونج، يبدو أكبر قليلًا من هيكل عظمي. كان جلد وجهه ورقبته متغضنا وتعترية مساحات من البقع. فمه كان مفتوحًا بوهن وارتخاء؛ ساق نحيلة مثل عصاه كانت تومئ من أسفل البطانية الخشنة، رغم أنني رأيت نصفه العلوي في قميص تحتاني أبيض. في البداية لم يبذل أي محاولة للوقوف، وبدأ فقط وعلى نحو غير واضح أنه يسجل حضوري. ولم يبذل مباشرة تحت تأثير الأفيون أو الكحول، وأخيرًا، عندما استأنفت التعريف بنفسى والغرض من المجيء لمقابلته، أصبح أكثر تماسكًا، وبدأ يظهر علامات الاحترام.

"معذرة، يا سيدى" - عندما تحدث باللغة الإنجليزية، أتت لغته لبقة وسلسة بما فيه الكفاية - "ليس لدى شأى." وبدأ يغمغم بكلمات بلغة الماندرين، وهو يهز ساقيه بعشوائية تحت البطانية. ثم بدا وقد تذكر نفسه ثانية وقال: "من فضلك، سامحنى. فأنا لست على ما يُرام. لكننى سوف أستعيد صحتى الجيدة على الفور."

"أمل ذلك بمنتهى الصدق"، قلت. "مع ذلك، فقد كنت أحد أفضل أفراد البوليس السرى الذين خدموا فى الـ SMP."

"حقاً؟ رائع منك أن تقول هذا، يا سيدى. نعم، ربما كنت ضابطاً جيداً ذات يوم." بجهد مفاجئ، عدل من وضعه، وأنزل قدمه الحافية بحوية على الأرض. ربما بدافع التواضع أو الاحتشام، وربما بسبب شعوره بالبرد، ترك البطانية تلتف حول منتصف جسده. "لكن فى النهاية،" استأنف كلامه، "هذه المدينة تهزمك. كل إنسان يخدع صديقه. يحدث أن تثق فى شخصٍ ما، وتكتشف أنه عضو فى واحدة من العصابات. الحكومة عبارة عن مجموعة من العصابات أيضاً. كيف يمكن لمخبر سرى أن يقوم بواجبه فى بلد كهذه؟ بإمكانى إحضار سيجارة لك. هل ترغب فى تدخين سيجارة؟"

"لا، أشكر. يا سيدى، اسمح لى أن أقول هذا. عندما كنت ولداً صغيراً، كنت أتتبع أعمالك البطولية بإعجاب شديد."

"عندما كنت ولداً صغيراً؟"

"نعم، يا سيدى. الولد الموجود فى الباب المجاور وأنا" - أطلقت ضحكة قصيرة - "كنت نعتاد اللعب بتمثيل دورك. لقد كنت... لقد كنت بطلنا."

"أهكذا؟" هز الرجل العجوز رأسه وابتسم. "أهكذا حقاً. حسناً إذاً، أنا فى غاية الأسف لأننى لا أستطيع تقديم أى شىء لك. لا شاي، ولا سجائر."

"بالفعل، يا سيدى، بإمكانك تقديم ما هو أكثر أهمية لى. لقد أتيتك اليوم لاعتقادى أنك قادر على تزويدى بمعلومات موثوق بها. فى ربيع العام ١٩١٥، كانت هناك قضية قمت أنت بالتحقيق فيها، حادثة

رمى بالرصاص فى مطعم اسمه وو تشينج لوو فى طريق فوتشو. ثلاثة سقطوا قتلى وأصيب عدد كبير بجروح. لقد قمت بالقبض على رجلين من الضالعين فى الحادث. القضية يشار إليها بحادثة وو تشينج لوو فى سجلات الشرطة. أعرف أنه قد مرت سنوات عديدة الآن على القضية، لكن أيها المفتش كانج، أنا أسأل إذا ما كنت تذكر هذه القضية؟"

خلفى، ربما من غرفتين أو ثلاث، سمعت صوت سعال شديد. ظل المفتش كانج مستغرقاً فى التفكير، ثم قال: "أذكر قضية وو تشينج لوو تلك جيداً. لقد كانت إحدى اللحظات المرضية جداً فى حياتى. أحياناً أمعن التفكير فى تلك القضية، حتى فى هذه الأيام، وأنا أستلقى هنا فى سريري هذا."

"إذاً، ربما ستتذكر أنك حققت مع أحد المشتبه فيهم وقررت فيما بعد بأنه لا علاقة له بحادث إطلاق النار. وفقاً للسجلات، كان اسم الرجل، تشيانج وى. لقد حققت معه بخصوص قضية وو تشينج لوو، لكنه قدم اعترافات لا علاقة لها مطلقاً بالقضية."

رغم أن جسمه ظل كجوال مترهل من العظام، فإن عيني المخبر السرى العجوز قد أصبحت الآن مفعمتان بالحياة. "هذا صحيح"، قال. "لم تكن له أية علاقة بحادث إطلاق النار. لكنه كان خائفاً وبدأ يتكلم. اعترف بكل شيء. اعترف، أذكر جيداً، بأنه كان عضواً فى عصابة اختطاف قبل عدة سنوات مضت."

"رائع، يا سيدى! هذا بالضبط ما ورد فى السجلات. الآن، أيها المفتش كانج، هذا غاية فى الأهمية. هذا الرجل أعطاك بعض عناوين. عناوين البيوت التى اعتادت العصاة أن تضع فيها أسراها."

كان المفتش كانج يحدق فى الذباب الذى كان يطن حول شبكة الأسلاك قرب السقف، لكن عيناه الآن استدارتا ببطء إلى حيث أجلس. "الأمر هكذا"، قال بهدوء. "لكن، يا مستر بانكس، لقد فتشنا كل هذه البيوت بعناية. وعمليات الاختطاف التى تحدث عنها كانت قبل سنوات فى الماضى. لم نجد شيئاً يثير الشكوك فى هذه البيوت."

"أعلم، أيها المفتش كانج، أنك قد فعلت كل ما يمليه عليك واجبك بمنتهى الدقة. لكنك بالطبع، كنت تقوم بالتحقيق فى حادث إطلاق النار. ومن الطبيعى بحال أنك لم تضع طاقتك فى هذا الجانب من المسألة. ما أفترضه هو أن هناك أفراداً تتمتع بالقوة ربما تكون أقدمت على تفتيش أحد هذه البيوت، ومن المحتمل أنك لم تصر على ذلك."

عاد المخبر السرى العجوز إلى الاستغراق فى أفكاره ثانية. وأخيراً قال: "هناك منزل وحيد. أتذكر الآن. أتانى رجالى بتقارير. وأذكر أنها أزعجتى فى وقتها. منزل واحد أخير، بلا تقرير. لقد تم منع رجالى بطريقة ما. نعم، أذكر أننى تجولت حوله. أنف رجل البوليس السرى. ستعرف ما أقصده، يا سيدى."

"وهذا المنزل الباقي. لم تر أبداً تقريراً بخصوصه."

"بالضبط، يا سيدى. لكن كما تقول، لم يكن الأمر ذا أولوية كبيرة عندى. بالطبع تعرف أن قضية وو تشينج لوو كانت قضية ضخمة. لقد تسببت فى إثارة غضب عام وكانت انتهاكاً سافراً للقانون. واستمرت عملية البحث عن القتلة لأسابيع."

"وأظن أن اثنين من زملاء المهنة المعروفين قد أخفقوا فى كشف غموضها."

ابتسم المفتش كانج. "كما قلت، لقد كانت إحدى اللحظات المرضية لى فى تاريخى المهنة. لقد أتيت للتحقيق فى القضية حين أخفق الآخرون. وتمكنت خلال بضعة أيام من القبض على القتلة." "لقد اطلعت على سجلات القضية. وأحسست بعميق الإعجاب تجاهك."

لكن الرجل العجوز يحدق فى الآن بإمعان. فى النهاية قال ببطء: "ذلك المنزل. المنزل الذى فشل رجالى فى الذهاب إليه. ذلك المنزل. أنت تقصد.....؟"

"نعم. أعتقد أنه المكان الذى يحبسون فيه والدى."

"فهمت." صمت لبرهة، ليستوعب هذه الفكرة الهائلة.

"ليس هناك ادعاء بالإهمال من جانبك"، قلت. "دعنىؤكد لك ثانية، لقد قرأت التقارير بكثير من الإعجاب. لقد أخفق رجالك فى الدخول إلى ذلك المنزل لأن هناك رجالاً من المراتب العليا فى قوة الشرطة قد اعترضتهم. رجال نعرف الآن أنهم كانوا ضالعين فى منظمات إجرامية."

بدأ السعال يعلو ثانيةً. وظل المفتش كانج صامتًا للحظة أخرى، ثم رمقني مرةً أخرى وقال ببطء: "لقد أتيت لتسألني. لقد أتيت تسأل إذا ما كان بمستطاعى مساعدتك فى معرفة هذا المنزل."

"لسوء الحظ، الأرشييف فى حالة من الفوضى العارمة. من المثير للخرى استيعاب الكيفية التى تدار بها الأمور فى هذه المدينة. ربما تكون قد وُضِعَت الملفات فى غير أماكنها، وربما يكون بعضها قد فُقد تمامًا. فى النهاية، قررت أنه من الأفضل المجيء إلى هنا لأجلك. لأسألك، رغم أنه من غير المحتمل، إذا ما كنت تذكر شيئًا، أى شيء عن ذلك البيت."

"ذلك المنزل. دعنى أحاول أن أتذكر." أغلق الرجل العجوز عينيه للتركيز، لكنه بعد فترة، هز رأسه. "حادثة وو تشينج لوو. لقد مر عليها أكثر من عشرين عامًا. معذرة، ليس فى ذاكرتى أى شيء عن هذا المنزل."

"من فضلك حاول أن تتذكر أى شيء، يا سيدى. ألا تذكر حتى اسم المنطقة الكائن بها؟ إذا ما كان، على سبيل المثال، فى المستعمرة الدولية؟"

فكر للحظةٍ أخرى، ثم هز رأسه ثانيةً. "لقد مر على الأمر وقتٌ طويل. ورأسى لا تعمل طبيعياً. أحياناً لا أتذكر شيئاً، ولا حتى اليوم الماضى. لكننى سأحاول أن أتذكر. ربما غداً، ربما بعد غد، سأستيقظ وأتذكر شيئاً ما. مستر بانكس، أنا فى غاية الأسف. لكن الآن، لا، لا أذكر أى شيء."

كان الوقت مساءً عندما رجعت إلى المستعمرة الدولية. اعتقد أنني قضيت ساعة أو أكثر في غرفتي، أقلب في الأوراق مرة ثانية، محاولاً أن ألقى خلف ظهري خيبة الأمل التي لحقت بي جراء لقائي بالمفتش العجوز. لم أنزل لتناول العشاء إلا بعد أن تجاوزت عقارب الساعة الثامنة، عندما جلست على طاولتي المعتادة في الركن في غرفة الطعام الفخمة تلك. أذكر أن شهيتي للطعام كانت فاترة ذلك المساء، وكنت على وشك التنازل عن الطبق الرئيسي وأعود إلى عملي عندما حمل النادل إلى رسالة من سارة.

إنها معي الآن هنا. ليست سوى كتابة متعجلة على ورقة بلا سطور، الحافة العليا منها ممزقة. أشك في أنها قد أمعنت التفكير في الكلمات؛ إنها تطلب مني ببساطة أن ألتقي بها على الفور في منتصف المسافة بين الطابق الثالث والرابع للفندق. الآن، وبالنظر في الورقة ثانيةً بدت علاقتها بذلك الحدث العرضي البسيط في بيت مستر توني كيسويك واضحة تماماً، بعبارة أخرى، من المحتمل ألا تكون سارة هي التي كتبت هذه الورقة على الإطلاق لولا ما حدث بيننا وقتئذٍ. رغم هذا فمن الغريب جداً، عندما قدمها النادل لي في البداية، أخفقت في استنتاج مثل هذه العلاقة، وجلست لبضع لحظات، وجلست مرتبكاً بسبب استدعائها لي بمثل هذه الطريقة.

في هذه اللحظة ينبغي هنا أن أقول إنني قد هرعت إليها ثلاث مرات أو يزيد منذ الليلة التي التقيت بها في لاي تشانس هاوس. في مرتين منها، رأينا بعضنا البعض بسرعة خاطفة في وجود آخرين، وما دار بيننا من حوار كان قليلاً للغاية. في المرة الثالثة أيضاً - ليلة

العشاء فى منزل مستر كيسويك، رئيس جاردين ماتيسون - أعتقد أننا كنا فى مكان عام أيضاً، ولم نتبادل حتى ولو كلمة واحدة؛ مع ذلك، ومع الإدراك البعدى للأمور، كان لقائى معها هناك من الممكن أن يعتبر بدرجةٍ ما نقطة تحول مهمة.

فى ذلك المساء وصلت متأخراً قليلاً، وعندما ظهرت فى الجدل الشاسع فى بيت مستر كيسويك، كان هناك أكثر من ستين ضيفاً قد جلسوا فى أماكنهم على الطاولات العديدة التى وُضعت بين نباتات الزينة وسيقان النباتات المتدلية. لمحت سارة فى الجانب القصى من الغرفة - لم يكن السير سيسيل موجوداً - لكننى رأيت أنها كانت أيضاً تبحث عن مقعدها للجلوس، ولذا لم أقم بأى محاولة للاقترب منها.

بمجرد تقديم الحلوى بعد الطعام - وحتى قبل أن يأخذ الضيوف وقتاً كافياً للانتهاء من طبق الحلوى - وقبل أن تتغير خريطة الجلوس الأصلية للضيوف ويتخاطبوا مع بعضهم البعض بحرية. بدا أن هذه إحدى عادات شنغهاى فى مثل هذه المناسبات. الآن ليس ثم من شك، أنه قد رسخ فى عقلى مع الوصول لهذه النقطة، كنت سأذهب على الفور إلى سارة وأتبادل معها بضع كلمات. لكن عندما ظهرت الحلوى أخيراً، لم أستطع الفكاك من المرأة التى كانت تجلس إلى جوارى، والتى كانت تريد أن توضح بالتفصيل الموقف السياسى فى الهند الصينية. ثم لم ألبث أن تخلصت منها حتى وقف المضيف ليعلن أن الوقت قد حان "لتبادل الأماكن". ومضى فى تقديم مؤدى الفقرة الأولى - وكانت سيدة رشيقة القوام، ظهرت على طاولة خلفى،

ومضت إلى المقدمة وبدأت في إلقاء قصيدة ممتعة، من الواضح أنها من إبداعها.

تبعها رجل قام منفردًا بغناء بضعة مقاطع من جيلبرت وسوليفان،^(*) وحدث أن معظم المحيطين بي قد أتوا وهم على أتم الاستعداد لتقديم فقرة. تقدم الضيوف، الواحد تلو الآخر، لأداء فقرته، أحياناً الفقرة كانت تضم ضيفين أو ثلاثة؛ كانت هناك قصائد غزلية، فقرات مسرحية كوميدية مكررة. كان الإيقاع عبثياً بصورة متكررة، وأحياناً بذيئاً أيضاً.

بعدئذٍ شق رجل ضخماً أحمر الوجه - عرفت فيما بعد أنه مدير بنك شنغهاي وهونج كونج - طريقه بين الناس وأخذ مكانه في المقدمة مرتدياً نوعاً من التتاك فوق معطف العشاء، وبدأ يقرأ من ورقة ملفوفة هاجباً جوانب عديدة للحياة في شنغهاي. كانت كل الإشارات تقريباً - للأفراد، لتجهيزات الحمامات في بعض النوادي، للحوادث التي وقعت في مطاردات الأرانب وكلاب الصيد مؤخرًا - مجهولة بالنسبة لي، لكن وبمنتهى السرعة ضجت كل جنابات الغرفة بالضحك. عند هذه اللحظة نظرت حولى بحثاً عن سارة، ورأيتها تجلس بعيداً في ركن بين مجموعة من السيدات، تضحك من أعماقها مثل الجميع. السيدة الجالسة بجانبها كانت تقريباً قد أتت على كمية معقولة من الشراب، فكانت بالتبعية تصيح بصخب شديد.

(*) جيلبرت وسوليفان إشارة إلى و س جيلبرت W S Gilbert (١٨٤٢ - ١٩٠٠) وأرثر سوليفان Arthur Solivan (١٨٣٦ - ١٩١١) العصر الفيكتوري وقد كتباً معاً أربعة عشر عملاً كوميدياً للأوبرا. (المترجم)

كانت فقرة الرجل ذى الوجه الأحمر قد استمرت ربما لخمس دقائق - وخلالها فقط ارتفع مستوى المرح الصاخب - عندما ألقى بوابل مؤثر من ثلاثة أو أربعة أسطر جعلت الغرفة فعلياً تضج بالعواء. عند هذه اللحظة صادف أن لمحت سارة مرةً أخرى. فى البداية ظهر المشهد على حاله كما كان من قبل: سارة تضحك بلا توقف بين رفيقاتها من السيدات. لو أننى كنت قد واصلت مشاهدتها لبضع لحظات أخرى، كان هذا فقط لاندهاشى من أنها بعد أقل من عام، أصبحت بالفعل تتمتع بألفة كبيرة مع مجتمع شنغهاى لدرجة أن هذه النكات الغامضة استطاعت أن تخضعها لهذه الحالة. وحينئذٍ، وبينما كنت أرمقها بنظرتى، ممعناً التفكير فى هذه النقطة، أدركت بغتةً أنها لم تكن تضحك على الإطلاق؛ إنها لم تكن، كما ظننت، تكفكف دموع الضحك، لكنها كانت تبكى بالفعل. للحظة واصلت النظر إليها، غير قادر تماماً أن أصدق عينى. ثم، مع مواصلة الضجيج، نهضت بهدوء وتحركت بين الناس. بعد قليل من المناورات، وجدت نفسى أقف خلفها، والآن ليس هناك من شك. فى مغبة هذا المرح، كانت سارة تبكى غير قادرة على التحكم فى نفسها.

لقد اقتربت نحوها من الخلف لذلك عندما عرضت عليها منديلاً، أجفلت. ثم نظرت لأعلى إلى، ظلت تحقق فى - ربما لحوالى أربع أو خمس ثوان - بنظرة ثاقبة امتزج فيها الامتتان بما يشبه الاستفسار. ملت برأسى لأقرأ نظرتها بصورة أوضح، لكنها حينئذٍ كانت قد أخذت المنديل واستدارت لتستأنف مشاهدة الرجل ذى الوجه الأحمر. وعندما انخرطت القاعة فى موجة الضحك التالية، أطلقت

سارة أيضاً ضحكة وارفة بتظاهرة رغبة مؤثرة، حتى وهى تضغط
بالمنديل قريباً من عينيها.

حينئذ أخذت طريقى إلى مقعدى وأنا واع تماماً بأننى ربما ألفت
انتباهاً غير مرغوب فيه إليها، وفى الحقيقة، لم أقرب منها فى تلك
الليلة إلا لأتبادل معها كلمات الوداع عند مدخل القاعة مع الضيوف
الكثيرين الذين كانوا يودعون بعضهم البعض.

لكننى أعتقد، أننى بعد مرور بضعة أيام، قد سيطر على ظنّ
مبهم بأننى سمعت منها شيئاً بخصوص ما قد حدث. آنذاك كان
استغراقى فى تحقيقاتى الذى كان حين وصلتى هذه الرسالة فى قاعة
الطعام فى فندق كاثاى قد بلغ مدى جعلنى أخفق فى استتباط أى رابط
مع الحدث السابق، وأخذت طريقى إلى السلم الكبير، متسائلاً لماذا
تود رؤيتى.

ما وصفته سارة بأنه مهبط الدرج، كان فى الحقيقة عبارة عن
منطقة ضخمة بها الكثير من المقاعد الفخمة، وطاولات موزعة هنا
وهناك ونخلات زينة فى مزهريات كبيرة. فى الصباح، على وجه
التحديد، مع النوافذ المفتوحة ومراوح السقف الدوارة، تخيلت أنه
مكان جميل بما يكفى لنزول الفندق كى يقرأ الصحف ويتناول بعض
القهوة. رغم أنه فى الليل يصمه الفراغ والهجران؛ ربما بسبب النقص
فى الإضاءة، فلم تكن هناك إضاءة غير تلك القادمة من السلم، وما
يتسلل للداخل عبر النافذة من بركة الماء أسفلها. فى ذلك المساء
بالذات، كانت المنطقة خالية من الناس تماماً باستثناء سارة، التى كان
خيالها ينعكس على الألواح الزجاجية الضخمة، وهى تحقق للخارج

فى السماء المعتمدة. وبينما كنت أشق طريقى باتجاهها، تعثرت فى أحد الكراسى، فجعلها الصوت تنتبه وتلفت.

"ظننت أن هناك قمرًا"، قالت. "لكن ليس ثم من قمر. ليس هناك حتى قذائف تُطلق الليلة."

"نعم. الجو يتسم بالهدوء فى هذه الليالى الأخيرة."
"سيسيل يقول إن الجنود من الجبهتين قد أعياهم الإجهاد الآن."
"أظن هذا."

"كريستوفر، تعال هنا. كل شىء على ما يُرام. لن أفعل لك شيئًا. لكن لابد أن نتحدث بهدوء أكثر."

اقتربت حتى أصبحت إلى جوارها. كنت أرى آنذاك بركة الماء أسفل النافذة، وخط الضوء يحدد واجهة الماء للمتنزه.

"لقد رتبت كل شىء"، قالت بهدوء. "لم يكن الأمر سهلاً، لكن كل شىء قد تم ترتيبه الآن."

"ماذا قد فعلت بالضبط؟"

"كل شىء. الأوراق، القوارب، كل شىء. لا يمكننى البقاء هنا أكثر من هذا. لقد بذلت قصارى جهدى، والآن أن متعبة جدًا. لقد عزمت على الرحيل."

"فهمت. وسيسيل. هل يعرف بنواياك؟"

"لن يكون الأمر مفاجئاً له تمامًا. لكننى أعتقد أنه سيكون صدمة، سيان. هل أنت مصدوم، يا كريستوفر؟"

"لا، ليس بالضبط. لقد استطعت أن أخمن حدوث هذا من واقع ملاحظاتي. قبل شروعك في هذه الخطوة العنيفة المتطرفة، هل أنت واثقة من عدم.....؟"

"أوه، لقد أمعنت التفكير في كل شيء يمكن التفكير فيه. لا جدوى. حتى لو كانت لدى سيسيل الرغبة في الرجوع إلى إنجلترا غداً. إضافة إلى أنه قد خسر الكثير من أمواله هنا. وقد قرر ألا يعود إلا بعد استرداده كاملاً."

"أرى أن هذه الرحلة إلى هنا كانت مخيبة لآمالك إلى حدٍ ما. معذرة."

"ليست الرحلة فقط إلى هنا على وجه التحديد." وأطلقت ضحكة، ثم هدأت. بعد لحظة قالت: "لقد حاولت أن أحسب سيسيل. حاولت بمنتهى القوة. هو ليس رجلاً سيئاً. ربما تظن أنه هكذا، خاصةً بالهيئة التي رأيته عليها هنا. لكنه لم يكن هكذا دوماً. وأدركت أن لحالته هذه علاقة كبيرة بي. ما يحتاجه في هذه المرحلة من حياته هو فترة راحة جيدة. لكنني أتيت فأحس أنه لابد وأن يبذل مجهوداً أكبر قليلاً. تلك كانت غلطتي. عندما خرجنا للمجيء إلى هنا، حاول في البداية، حاول بكل ما في وسعه. لكن الأمر كان فوق احتماله، وهذا ما حطمه. ربما حين أرحل، ربما يتمكن ثانيةً من استعادة تماسكه."

"لكن إلى أين ستذهبين؟ هل ستعودين إلى إنجلترا؟"
"حتى الآن، ليس معي من المال ما يكفي للعودة. سأأجبه إلى ماكاو،^(*) ثم بعد ذلك، سينبغي علي أن أقرر. أي شيء يمكن أن

(*) ماكاو منطقة صغيرة تقع على السواحل الجنوبية للصين، تعتبر ماكاو جاذبة=

يحدث حينئذٍ. في الواقع، لهذا السبب أردت أن أتحدث إليك. كريستوفر، سأعترف، أنا أشعر بالفزع إلى حدٍ ما. لا أريد أن أذهب إلى هناك وحدي. كنت أتساءل إذا ما كنت ستأتي معي."

"هل تقصدين أذهب معك إلى ماكاو؟ أذهب معك غداً؟"

"نعم تذهب معي غداً إلى ماكاو. بإمكاننا أن نقرر إلى أين نذهب فيما بعد. لو كنت تريد، بإمكاننا أن نتنقل حول بحر الصين الجنوبي لفترة. أو بإمكاننا الذهاب إلى أمريكا الجنوبية، نهرب مثل اللصوص في الليل. أليس هذا ممتعاً؟"

أعتقد أنني اندهشت حين سمعتها تنطق بهذه الكلمات؛ لكن ما أذكره الآن، ويطغى على أي شيء آخر، هو الشعور الملموس بالراحة. في الواقع، لقد انتابني نوعٌ ما من الشعور بالدوار، الشعور الذي يسببه الهواء المنعش والنور بعد الحبس لفترة طويلة في غرفة معتمة. وكان هذا الاقتراح الذي طرحته - الذي رغم تمام معرفتي بأنها ألقت به بطريقة مفاجئة - قد حمل معه سلطةً هائلة، شيئاً ما حمل نوعاً من التحلة لم أجروُ أبداً على تمنيه.

لكن لم يلبث هذا الإحساس أن يستبد بي، حتى اعتقدت أن جزءاً ما مني ينمو سريعاً منذراً إياي بإمكانية أن يكون هذا اختباراً ما من أي نوع قد وضعته لي. لأنني أذكر أنني عندما أجبتها أخيراً، كان هذا لأقول:

=السائحون لوجود العديد من الكازينوهات فيها ولانتشار القمار وكونه قانونياً فيها.

"الصعوبة تكمن فى عملى هنا. لابد على الانتهاء من هنا أولاً. ومع كل هذا، فالعالم كله على شفا كارثة. كيف سيظن الناس بى بعد أن تركتهم جميعاً فى هذه المرحلة؟ إضافة إلى ذلك، كيف ستظنين أنت بى؟"

"أوه، يا كريستوفر، نحن نتشابه فى سوء الطوية. ينبغى علينا أن نكف عن التفكير بهذه الطريقة. وإلا فلن يتبقى لنا شىء، فقط قدر أكثر مما حصدها طيلة هذه السنوات. قدر أكبر من العزلة، أيام أكثر من حياتنا الفارغة إلى من كل الأشياء التى تخبرنا دومًا أننا بعد لم نحقق ما يكفى. لابد وأن نلقى بهذا خلف ظهورنا الآن. اترك عملك، يا كريستوفر. لقد أنفقت ما يكفى من عمرك فى هذا كله. لنهرب غدًا، دون أن نفقد يومًا واحدًا، لنرحل قبل أن يتأخر بنا الوقت."

"يتأخر بنا الوقت على ماذا، بالضبط؟"

"يتأخر بنا على..... أوه، لا أعرف. كل ما أعرفه هو أننى قد أضعت كل هذه السنوات بحثًا عن شىء ما، غنيمة ما أو تذكارات كنت سأحصل عليه لو أننى بالفعل، بالفعل قد بذلت ما يكفى لأستحقه. لكننى لم أعد راغبة فيه، أريد الآن شيئًا آخر، شيئًا دافئًا ينطوى على مأوى، أستطيع اللجوء إليه، بغض النظر عما أفعل، بغض النظر عن من أصبحت أنا. أريد شيئًا ما فقط يكون هناك، دائمًا، كسماء غدٍ. هذا ما أريده الآن، وأظن أنه هو ما تريده أنت أيضًا. لكن أوانه سيكون قد فات فورًا. سنصبح فى حالة من الجمود والصلابة بحيث يصبح من المستحيل أن نتغير. لو لم ننتهز فرصتنا الآن، فربما لا تواتى أينا فرصة أخرى. كريستوفر، ماذا تفعل فى هذا النبات البائس؟"

فى الواقع؁ لقد أدركت أننى كنت أقشر؁ بذهن شارد؁ الأوراق
عن نخلة كانت تقف بجانبنا وألقى بها على السجادة.

"آسف" - وأطلقت ضحكة - "أنا مدمر إلى حد ما." ثم قلت:
"حتى لو كنت على صواب؁ فما تقولين به الآن؁ ليس سهلاً على.
لأنه؁ كما تفهمين؁ هناك جينيفير."

عندما قلت هذا؁ عاودتنى صورة واضحة لآخر مرة تجاذبت
معى فيها أطراف الحديث؁ المرة التى ودعنا فيها بعضنا البعض فى
غرفة الجلوس فى مؤخرة مدرستها؁ وكانت شمس الربيع الإنجليزى
الرقيقة تلقى بأشعتها على الحوائط المبطنة بالسنديان. فجأة؁ تذكرت
وجهها ثانية عندما استوعبت كلامى لأول مرة؁ الإيماءة المتفكرة التى
ألقنتى بها وكأنها قد أمعنت التفكير فى الأمر؁ ثم تلك الكلمات المبالغئة
تماماً التى ردت بها.

"تعرفين؁ هناك جينيفير؁" قلت ثانية؁ مدركاً أننى كنت موشك
على الانزلاق فى أحد أحلام اليقظة. "الآن حتى؁ ستكون فى
انتظارى."

"لكننى فكرت فى هذا. لقد فكرت فى هذا كله بمنتهى الدقة. أنا
أعرفها تماماً وبإمكاننا أن نصبح أصدقاء. أكثر من أصدقاء. ثلاثتنا؁
بإمكاننا أن نصبح؁ حسناً؁ أسرة صغيرة؁ تماماً مثل أى أسرة أخرى.
لقد فكرت فى هذا؁ يا كريستوفر؁ من الممكن أن يكون رائعاً لنا
جميعاً. بإمكاننا أن نرسل لها؁ بمجرد أن نستقر على خطة. ربما حتى
نرجع إلى أوربا؁ إلى إيطاليا؁ مثلاً؁ ويمكنها اللحاق بنا هناك. أعرف

أنه بإمكانى أن أصبح أمًا لها، يا كريستوفر، أنا واثقة من إمكانية هذا.

واصلت التفكير بهدوء للحظة، ثم قلت: "حسنًا جدًا."

"ماذا تعنى، يا كريستوفر، بـ "حسنًا جدًا"؟"

"أعنى، نعم، سأذهب معك، سأفعل ما قلت به. نعم، ربما تكونين على حق. جينيفير، نحن، كل شيء، ربما يتحول كل شيء إلى الأفضل."

بمجرد أن قلت هذا، استطعت أن أشعر بثقل هائل ينزاح عني، كبير جدًا لدرجة أنني سمحت بسهولة لتتهيدة صاخبة أن تفارق صدرى. فى الوقت نفسه، اقتربت خطوة منى، ولثانية حدثت بعمق فى وجهى. فكرت حتى فى أنها ستقبلنى، لكنها بدت وكأنها تراجع نفسها فى اللحظة الأخيرة، وقالت بدلاً من القبلية:

"اسمع إذا. استمع بعناية، لابد وأن نفعل هذا بطريقة صحيحة. لا تجهز أكثر من حقيبة سفر واحدة. ولا تشحن أى صناديق للثياب. سيكون هناك بعض المال فى انتظارنا فى ماكاو، لذلك بإمكاننا شراء ما نحتاج إليه هناك. سوف أرسل شخصًا ما لإحضارك، سائق، غداً، بعد الظهر فى تمام الثالثة والنصف. سأهتم بمسألة أن يكون شخصًا موثوقًا به، لكن فى الوقت نفسه، لا تخبره بأى شيء مادمت لست مضطرًا إلى ذلك. سيأتى بك إلى حيث أكون أنا فى انتظارك. كريستوفر، تبدو وكأنك تلقيت ضربة قوية على رأسك. لن نخذلنى، أليس كذلك؟"

"لا، لا. سأكون مستعدًا. غدًا في الثالثة والنصف. لا عليك، سوف.... سأتبعك إلى أى مكان، إلى أى مكان فى العالم تريد الذهاب إليه."

ربما كان ذلك ببساطة حافزًا؛ ربما ذكرى افتراقنا فى تلك الليلة التى حملنا فيها السير سيسيل من نادى القمار؛ على أية حال، لقد تقدمت للأمام بغتة، وأمسكت إحدى يديها بكلتى يدي، وقبلتها. بعد ذلك، أعتقد أننى نظرت لأعلى، وكنت لم أزل أقبض على يدها، غير متيقن من تصرفى التالى؛ من الممكن حتى أن أطلق قهقهة خرقاء. فى النهاية، حررت يدها برقة ولمست خدى.

"شكرًا لك، يا كريستوفر،" قالت بهدوء. "شكرًا لك على الموافقة. كل شيء يبدو فجأة مختلفًا تمامًا. لكن من الأفضل أن تمضى الآن، قبل أن يرانا أحد هنا. هيا، هيا انطلق."

الفصل السابع عشر

فى تلك الليلة ذهبت إلى السرير بذهن مزدحم بالأفكار، غير أننى استيقظت فى الصباح التالى بحالة مهيمنة من الهدوء والسكينة. وكأننى تخلصت من حمل ثقيل، وعندما، وأنا أرتدى ملابسى، فكرت ثانية فى موقفى الجديد، أدركت أننى مثار إلى حد ما.

كثير من أحداث ذلك الصباح قد أصبحت غامضة فى ذهنى. ما أذكره هو أننى قد استبدت بى فكرة أن أكمل، فى الوقت الذى تبقى لى، أكبر عدد من المهام التى خططت لإنجازها فى الأيام التالية؛ أما أن أفعل عكس هذا فسوف أكون قد تنازلت عن الحد الأدنى لما يمليه على ضميرى. إن اللامنتقية الواضحة فى اتخاذ هذا الموقف قد أخفقت فى إزعاجى، وبعد الإفطار، تحركت نحو عملى بكثير من الإلحاح، وأنا أندفع صعوداً وهبوطاً على السلم وأستحث السائقين للإسراع فى شوارع المدينة المزدحمة. واليوم على الرغم من أن الأمر لا يعنينى كثيراً، فإننى ينبغى أن أقول إننى زهوت كثيراً لاستطاعتى الجلوس إلى الغداء بعد الثانية دون أن أفكر فى أن ما تحركت لإنجازه قليل أم كثير.

مع ذلك، وفى الوقت نفسه، عندما استعدت ذكرى ذلك اليوم، يهيمن على انطباعى بأننى ظللت على وجه التحديد منفصلاً عن نشاطاتى. بينما كنت أهرول حول المستعمرة الدولية وأتحدث مع الكثيرين من أبرز المواطنين فى المدينة، ثمة جانب منى كان بالفعل

يسخر من الطريقة الجادة التي كانوا يحاولون بها الإجابة عن أسئلتى، وعلى الطريقة المتعاطفة التي كانوا يحاولون بها مساعدتى. لأن الحقيقة هي كلما أمضيت في شنغهاي وقتاً أطول، كلما ازداد تقزى ممن يطلقون عليهم قادة المجتمع. فكل يوم تقريباً من أيام تحرياتي كان يكشف عن جانب جديد من الإهمال، والفساد أو الانحطاط إلى وضع أسوأ مع مرور السنوات. ومع ذلك طيلة الأيام منذ وصولي، لم يحدث أن صادفت شعوراً صادقاً بالخزي، أو اعترافاً وحيداً بأنه لولا المراوغات، وقصر النظر، والتضليل المباشر الذي يمارسه هؤلاء القائمون على الأمور، لما تدنى الوضع إلى هذا المستوى من التردى والتأزم. في وقت معين من ذلك الصباح، وجدت نفسي في نادى شنغهاي، للالتقاء بثلاثة أعضاء بارزين من "النخبة". واصطدمت مجدداً بخيالاتهم الأجوف، وإنكارهم المستمر لجدارتهم باللوم في الأمر كله، أحسست بالسعادة للخلاص بحياتي من هؤلاء الناس نهائياً. حقيقةً، في مثل هذه اللحظات، شعرت بتمام اليقين أنني اتخذت القرار السليم؛ لأن الافتراض الذي يجتمع عليه الجميع بالفعل هنا - بأن حل الأزمة يعتبر مسئوليتى أنا وحدى - لا يعتبر فقط عديم الأساس، لكنه جدير أيضاً بأعلى مشاعر الازدراء. تصورت الذهول الذي سيبدو على وجوه الأشخاص أنفسهم عندما يسمعون بأخبار رحيلى - السخط والهلع اللذان سيتبعان هذا بسرعة - وسوف أقر بأن هذه الأفكار منحنتى الكثير من الرضا.

بعدئذٍ، وبينما كنت أستأنف تناول الغداء، وجدت نفسي أفكر فى لقائى الأخير بجينييفر فى تلك العصرية المشمسة فى مدرستها: ونحن

فى غرفة المثالين؁ نجلس بارتباك فى مقاعدنا الفخمة؁ والشمس تلعب على ألواح السنديان التى تكسو الحائط؁ والعشب المنحدر إلى البحيرة يلوح فى النوافذ خلفها. كانت قد استمعت صامتة وأنا أشرح؁ بكل ما أوتيت من قدرة ومهارة؁ أهمية المهمة التى أنا بصدها فى شنغهاى. لقد توقفت عند عدة نقاط؁ منتظرًا إياها أن تطرح أسئلة؁ أو على الأقل أن تعلق. لكنها فى كل مرة كانت تومئ بجديّة؁ وتنتظرنى كى أكمل. فى النهاية؁ عندما أدركت أننى أكرر نفسى؁ توقفت وقلت لها:

"جبنى؁ ماذا ستقولين إذا؟"

لا أعرف ماذا كنت أتوقع. لكن بعد أن رمقتى للحظة أخرى بنظرة عارية من أى غضب؁ أجابت:

"أنكل كريستوفر؁ أعرف أننى لا أجيد أى شىء. لكن هذا لأننى لم أزل صغيرة إلى حد ما. حين أكبر؁ ولا أظن أن هذا سيحدث بعد وقت طويل من الآن؁ سأتمكن من مساعدتك؁ أعدك بأننى سأفعل. لذا؁ أثناء وجودك بعيدًا؁ هل ستتذكر من فضلك؟ تتذكر أننى هنا؁ فى إنجلترا؁ وأننى سوف أساعدك عندما تعود؟"

لم يكن هذا ما قد توقعته تمامًا؁ ومنذ وصولى إلى هنا وأنا كثيرًا ما قد أمعنت التفكير فى هذه الكلمات؁ لكننى لم أزل غير متيقن من الرسالة التى أرادت أن تنقلها لى عبر كلماتها فى ذلك اليوم. هل كانت تقصد أننى؁ رغم كل ما قلته لها؁ من غير المحتمل أن أنجح فى فى مهمتى فى شنغهاى؟ أو أننى سوف أضطر للعودة إلى إنجلترا لمواصلة عملى لعدة سنوات أخرى؟ من المحتمل أن تكون هذه

الكلمات ببساطة مجرد كلمات لطفلة مرتبكة، تحاول جاهدة أن توارى انزعاجها، ولا قيمة لأن أعرض هذه الكلمات لأي نوع من إمعان النظر. مع كل هذا، وجدت نفسي ثانيةً أفكر مليًا في لقائنا الأخير وأنا أجلس على الغداء في تلك العصرية في الفندق.

عندما أوشكت على الانتهاء من قهوتي، أتى البواب ليخبرني أن هناك من يريدني بالإحاح على الهاتف. وأشار لي بالتوجه إلى كبينة تليفون على مهبط الدرج بالخارج، وبعد قليل من الارتباك مع موظف السويتش، سمعت صوتًا مألوفًا لدى بشكل مبهم.

"مستر بانكس؟ مستر بانكس؟ مستر بانكس، أخيرًا تذكرت."

ظلت صامتًا، خشية أن أقول أي شيء يعرض خططي للخطر. لكن حينئذ قال الصوت:

"مستر بانكس؟ هل تسمعني؟ لقد تذكرت شيئًا مهمًا. عن المنزل الذي لم نقم بتفتيشه."

أدركت أن هذا هو صوت المفتش كانج؛ صوته، رغم أنه كان أجش، فإنه بدا مستعيدًا لشبابه.

"معذرة، حضرة المفتش. لقد فاجأنتي. قل لي ماذا تذكرت."

"مستر بانكس. تعرف، أحيانًا، عندما أستغرق مع البايب، تساعدني على التذكر. أشياء كثيرة أكون قد نسيته منذ فترة تعود أمام عيني. لذلك فكرت جيدًا جدًا في أن أعود إلى البايب ولو لآخر مرة. وتذكرت شيئًا أخبرني به المشتبه فيهم. البيت الذي لم نستطع تفتيشه. إنه يقع مباشرة قبالة منزل رجل يدعى بيه تشين."

"ييه تشين؟ من يكون هذا؟"

"لا أعرف. كثير من الفقراء، لا يستخدمون عناوين مباشرة. فيتحدثون عن علامات مميزة. المنزل الذي لم نستطع تفتيشه. يقع أمام منزل ييه تشين."

"ييه تشين. هل أنت متأكد من هذا الاسم؟"

"نعم، أنا متأكد. لقد تذكرته بمنتهى الوضوح."

"هل هذا اسم شائع؟ كم من الناس محتمل أن يحمل الاسم نفسه؟"

"لحسن الحظ هنا تفصيلاً أخرى أخبرنا بها المشتبه فيهم. ييه تشين رجل ضرير. المنزل الذي تبحث عنه يقع قبالة منزل ييه تشين الضرير هذا. بالطبع، ربما يكون قد انتقل من المنزل، أو مات. لكن لو استطعت أن تعرف أين كان يعيش هذا الرجل في وقت التحريات..."

"بالطبع، يا حضرة المفتش. ياه، إن ذلك في غاية الأهمية."

"أنا سعيد. لذا ظننت أنك ستجده."

"حضرة المفتش، لا أستطيع أن أعبر لك عن شكري."

أصبحت واعياً للوقت، وعندما وضعت سماعة الهاتف، لم أرجع إلى غدائي، لكنني صعدت السلم على الفور عائداً إلى غرفتي لأحزم أمتعتي.

تذكرت إحساساً غريباً بالوهم يطغى على وأنا أفكر في الأشياء التي أحملها معي. في مرحلة معينة، جلست على السرير وحدثت في

السماء المرئية من خلال نافذتى. وصدمت بغرابة شديدة، لأنه قبل يوم واحد فقط كانت المعلومة التى تلقيتها تَوًّا تمثل شيئاً محورياً تماماً فى حياتى. لكن ها أنا ذا، أقلبها فى رأسى دون اهتمام، وبالفعل بدت وكأنها شىء يخص فترة فى الماضى، شىء لست بحاجة لتذكره لو لم أود ذلك.

لابد وأننى قد أكملت تحريم أمتعتى فى وقت لاحق، لأننى عندما سمعت نقرة على الباب كانت الساعة فى تمام الثالثة والنصف بالضبط، وكنت أجلس فى مقعدى منتظراً منذ فترة غير قصيرة. فتحت الباب لشاب صينى، ربما لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره، وكان يرتدى عباءة، ويحمل قبعته فى يده.

"أنا سائقك، يا سيدى"، قال بلطف. "لو أن لك حقيبة سفر، سوف أحملها لك."

عندما انطلق الشاب بالسيارة بعيداً عن فندق كاثاى، حدثت خارج السيارة على الناس المتزاحمة على نانكينج روود فى شمس العصارى، وأحسست أننى أنظر إليهم من مسافة شاسعة. ثم هدأت فى مقعدى، راضياً بأن أترك كل شىء فى يدى السائق، الذى كان يبدو واثقاً وعلى قدر من الكفاءة رغم حداثة سنه. شعرت بميل أن أوجه له سؤالاً عن علاقته بسارة، لكننى وقتها تذكرت تحذيرها بخصوص التحدث إلى السائقين فيما يتجاوز الضرورة. لهذا بقيت صامتاً، وعلى الفور وجدت أفكارى تذهب إلى ماكاو وبعض الصور الفوتوغرافية التى رأيتها فى المكان قبل عدة سنوات مضت فى المتحف البريطانى.

ثم بعد أن سافرنا لمدة عشر دقائق تقريبًا، ملت للأمام بغتةً على الشاب وقلت: "أقول، معذرةً. هذا أمر له مغزى بعيد. هل صادف أن عرفت شخصًا اسمه بيه تشين؟"

لم ينصرف السائق بنظره عن الطريق أمامه وكنت على وشك أن أكرر عليه سؤالى عندما قال:

"بيه تشين. الممثل الضرير؟"

"نعم. حسنًا، أعرف أنه ضرير، رغم أنني لا أعرف شيئًا عن كونه ممثلًا."

"ليس ممثلًا مشهورًا. بيه تشين. كان ممثلًا في وقتٍ ما، قبل عدة سنوات مضت، عندما كنت صغيرًا."

"هل تقصد... أنك تعرفه؟"

"لا لا أعرفه. لكننى أعرف من هو. هل أنت مهتم ببيه تشين، يا سيدى؟"

"لا، لا. ليس به على وجه الخصوص. صادف فقط أن شخصًا ما ذكر اسمه لى. الأمر ليس مهمًا فى الواقع."

لم أقل للشاب شيئًا آخر خلال ما تبقى من الرحلة. اخترقنا سلسلة مريكة من الشوارع الصغيرة وكنت قد فقدت تمامًا إحساسى بالمكان عندما توقف فى شارع خلفى هادئ.

فتح الشاب الباب وأعطانى حقيبتى.

"هذا المحل"، قال، وهو يشير. "الذى به فونوجراف."

على الجانب الآخر من الشارع كان هناك محل صغير له نافذة عرض متسخة، معروض بداخلها فونوجراف بالفعل. رأيت أيضًا لوحة بالإنجليزية: "أسطوانات جراموفون. مخطوطات بيانو. مخطوطات." نظرت أعلى وأسفل الشارع، فرأيت أنني والسائق وحدنا في الشارع إذا ما استثنينا اثنين من سائقي الجرنكشات كانوا رابضين إلى جوار عربتهما ويتبادلان المزاح. التقطت حقيبتى وكنت على وشك أن أعبر الشارع، عندما دفعنى شيء ما أن أقول له:

"أتمنى لو أعرف، هل بإمكانك انتظارى هنا لقليل من الوقت؟"

بد الشاب مرتبكًا. "مدام ميدهورست قالت لى أحضره فقط هنا."

"نعم، نعم. لكننى أنا أطلب منك الآن، فهمت. أود أن تنتظر لفترة قليلة فقط، فقط فى حالة احتياجى لخدماتك لفترة أطول. بالطبع ربما لا أحتاجك. لكن تعرف، ربما أحتاج. انظر هنا" - أدخلت يدي فى الجاكت وأخرجت بعض الأوراق النقدية - "انظر، سأجعل لانتظارك المقابل الملائم."

غير أن وجه الشاب توهج بالغضب، وابتعد منتفضًا عن النقود وكأننى كنت أعرض عليه شيئًا منفرًا جدًا. عاد إلى السيارة غاضبًا وأغلق بابها عليه بمنتهى العنف.

رأيت أنني أخطأت التقدير بطريقة ما، لكن فى تلك اللحظة لم أستطع أن أزعج نفسى بالاهتمام بالأمر. إضافةً إلى أن الشاب، رغم كل غضبه، لم يقم بتشغيل محرك السيارة. أعدت الأوراق النقدية إلى جيب الجاكت، وحملت حقيبتى ثانيةً وعبرت الشارع.

بالداخل، كان المحل ضيقاً للغاية. كانت شمس العصارى تدفع بداخله، لكن بعض المساحات الصغيرة المترتبة فقط كان ضوء الشمس ينيرها. على أحد الجانبين كان هناك بيانو بمفاتيح ملطخة الألوان، والعديد من إسطوانات الجراموفون معروضة بلا أغلفة على حامل الموسيقى. لم أستطع أن أرى الغبار فقط بل وخيوط العناكب على التسجيلات الموسيقية. فى أماكن أخرى كانت هناك قطع غريبة من قطيفة سمكة - بدا أنها قد قُطعت من ستائر مسرح - مثبتة على الحوائط، مع صور فوتوغرافية لمغنيين وراقصى أوبرا. ربما كنت أتوقع أن أرى سارة واقفة هناك، غير أن الشخص الوحيد الموجود كان شخصاً أوروبياً نحيفاً بلحية سوداء مدببة يجلس خلف الكاونتر.

"مساء الخير"، قال بلكنة جيرمانية، وهو يرفع عينيه عن الدفتر المفتوح أمامه. ثم نظر إلى من أعلى لأسفل بعناية، وسأل: "هل أنت إنجليزى؟"

"نعم، بالضبط. مساء الخير."

"لدينا بعض التسجيلات من إنجلترا. على سبيل المثال، عندنا أسطوانة لميمى جونسون وهو يغنى "لأجلك فقط خلقت لى عينان". هل تعجبك؟"

ثمّة شيء فى الطريقة الحذرة التى تحدث بها جعلتني أفترض أن ما قاله هو الجزء الأول من شفرة متفق عليها. لكن رغم أننى فتشيت فى ذاكرتى عن كلمة سر أو عبارة ربما تكون سارة قد قالتها لى، فلم أجد شيئاً. فى النهاية، قلت:

"ليس عندي فونوجراف هنا في الصين. لكننى معجب جدًا بميمى جونسون. فى الحقيقة، لقد حضرت ريسيتال لها فى لندن قبل بضع سنوات مضت."

"حقيقى؟ ميمى جونسون، نعم."

وصلنى انطباع واضح بأننى أربكته بإجابتى الخطأ. لذلك قلت:
"انظر هنا، اسمى بانكس. كريستوفر بانكس."

"بانكس. مستر بانكس." نطق الرجل اسمى بحياء، ثم قال: "إذا كنت تريد إسطوانة ميمى جونسون، "لأجلك فقط خلقت لى عينان" سأشغلها لك. فضلاً."

غاص تحت الكوانتر، وانتهزت أنا الفرصة لأنظر خارج المحل على الشارع. سائقا الجرنكشة كانا ما يزالان يضحكان ويتحاوران، وشعرت بالطمأنينة حينما رأيت أن الشاب لم يزل جالسًا هناك فى السيارة. ثم بينما كنت أتساءل عما إذا كان هناك سوء فهم كبير قد حدث، امتلأت الغرفة بصوت واهن لأوركسترا الجاز. وبدأت ميمى جونسون فى الغناء وتذكرت كيف أن الأغنية لاقت قبولاً كبيراً فى لندن قبل بضع سنوات.

بعد فترة، أدركت أن الرجل النحيف يشير إلى مكان فى الحائط الخلفى معلق عليه ستارة قاتمة ثقيلة. لم ألحظ من قبل أن هناك مدخل باب، لكن عندما دفعت الباب، وجدت نفسى، فى واقع الأمر، أدلف إلى غرفة داخلية.

كانت سارة بالداخل تجلس على صندوق خشبي مرتدية معطفًا خفيفًا وقبعة. سيجارة تحترق في مبسمها والغرفة التي تشبه الدولاب كانت معبأة بدخانها. حولنا كومات من إسطوانات الجراموفون، والنوت الموسيقية تم تخزينها بتصنيفاتها في كراتين وصناديق شاي. لم يكن بالغرفة أية نوافذ، لكنني استطعت أن أرى بابًا خلفيًا يقود للخارج، وكان في تلك اللحظة كان الباب مواربًا قليلًا.

"حسنًا، ها أنا ذا،" قلت. "أحضرت معي حقيبة وحيدة فقط كما طلبت. لكن أرى أنك أحضرت ثلاث حقائب لنفسك."

"هذه الحقيبة التي هنا وحدها لإيثيلبيرت. دبوبي. إنه معي منذ الأبد، في واقع الأمر. سخيّف، أليس كذلك؟"

"سخيّف؟ أبدًا، على الإطلاق."

"عندما أتينا إلى هنا، أنا وسيسيل، ارتكبت خطأ ووضعت إيثيلبيرت مع مجموعة كبيرة من الأشياء. ثم عندما فتحت الحقيبة، وجدت أن ذراعه قد انخلعت منه. وجدته في ركن على اليمين، محشور داخل فردة شبشب. لهذا ففى هذه المرة، انتقصت أو ضحيت بقليل من الشيلان، ومنحته حقيبة بأكملها له وحده. هذا مضحك."

"لا، لا. أستوعب الأمر جيدًا. إيثيلبيرت، نعم."

بعناية وضعت مبسم سيجارتها ووقفت. ثم تبادلنا قبلة - تمامًا مثل، أعتقد، زوجين على شاشة السينما. كانت القبلة بالضبط تقريبًا كما كنت أتخيلها دائمًا، باستثناء شيء كانت تعوزه الرقة في عناقنا، وحاولت أكثر من مرة أن أعدل من وقفتي؛ غير أن رجلى اليمنى

كانت متعسرة في صندوق ثقيل ولم أستطع أن أتخذ الالتفافة الضرورية دون المخاطرة بتوازني. ثم تراجعت هي خطوة للخلف، وتنفست بعمق، وطيلة الوقت كانت تخرق وجهي بعينيها.

"هل كل شيء جاهز؟" سألتها.

لم ترد في بادئ الأمر، وظننت أنها على وشك أن تقبلني ثانية. لكنها في النهاية قالت ببساطة:

"كل شيء على ما يُرام. فقط سننتظر عدة دقائق أخرى. ثم نخرج من هناك" - وأشارت إلى الباب الخلفي - ثم نمشي إلى الفُرْضة^(*) ونستقل سمبان^(**) إلى سفينتنا البخارية على بعد ميلين أسفل النهر. وبعد ذلك ماكاو."

"وسيسيل، هل لديه أي فكرة على الإطلاق؟"

"لم أره طيلة اليوم. لقد اتجه إلى مكان من أماكنه الصغيرة مباشرة بعد الإفطار، وأعتقد أنه لم يزل هناك."

"إنه أمر في غاية الخزي. في الحقيقة لابد أن يكون هناك من يخبره حتى يستجمع قواه."

"حسنًا، لم يعد مطلوبًا منا أن نفعل هذا."

"لا، أعتقد لا." وأطلقت ضحكة مباغته. "أعتقد أنه ليس مطلوبًا منا أن نفعل أي شيء غير ما اخترنا."

(*) الفُرْضة: محط السفن في الماء. (المترجم)

(**) السّمبان: زورق صيني يسير بمجداف. (المترجم)

"هذا صحيح. كريستوفر، هل هناك شيء خطأ؟"

"لا، لا. كنت فقط أحاول أن... وددت فقط أن..."

اعتذلت قبالتها، وقد فكرت في المبادرة بعناق آخر، لكنها رفعت يدها قائلة:

"كريستوفر، أظن أنه ينبغي عليك أن تجلس. لا تقلق، سيكون لدينا متسع من الوقت لكل شيء، كل شيء، لاحقاً."
"نعم، نعم. معذرة."

"ساعة نصل إلى ماكاو، سنتمكن من التفكير في مستقبلنا بشكل جيد. نفكر جيداً في المكان الأفضل لنا. المكان الأفضل لجنيفير. سنفتح كل خرائطنا على السرير، سننظر خارج غرفتنا على البحر ونناقش كل هذه الأمور. أوه، أنا متأكدة أننا سنتجادل وننتازع. أنا حتى أتوق لجدالنا وشجارنا. ألن تجلس؟ انظر، اجلس هنا."

"أقول لك... انظري، إذا كان علينا أن ننتظر بضع دقائق، دعيني أذهب فقط وأفعل شيئاً."

"تفعل شيئاً؟ أي شيء على وجه التحديد؟"

"فقط... مجرد شيء. انظري فعلاً، لن أستغرق وقتاً طويلاً، فقط بضع دقائق. انظري، فقط سأطلب شيئاً ما من شخص ما."

"من؟ كريستوفر، أعتقد أنه لا ينبغي علينا أن نتحدث إلى أي شخص في هذا الوقت."

"ليس هذا ما أقصده، بالضبط. أنا أدرك تمامًا حاجتنا للحذر وهكذا. لا، لا، لا داعي للقلق. إنه فقط هذا الشاب. الذي أرسلته، الشاب الذي أتى بى إلى هنا. فقط أريد أن أسأله عن شيء ما."

"لكنه قد انصرف بالتأكيد."

"لا، لم ينصرف. لم يزل هناك بالخارج. انظري سأعود نؤًا."

أسرعت إلى الخارج عبر الستارة إلى المحل، حيث كان الرجل النحيف الملتحي ينظر لأعلى مندهشًا.

"هل تريد ميمى جونسون؟" سأل.

"نعم، نعم. رائعة. فقط ينبغي أن أخرج من هنا للحظة."

"هل لى أن أوضح، يا سيدى، أنني سويسرى. وليس هناك عداوة متوقعة بين بلدك وبلدى."

"آه نعم. رائع. سأعود خلال لحظة."

أسرعت أعبى الشارع باتجاه السيارة. الشاب، الذى رآنى، أنزل زجاج النافذة وابتسم بأدب؛ بدا أنه لم يعد هناك أثر لحالته المزاجية التى كانت قبل قليل. اقتربت منه، وقلت فى هدوء:

"انظر هنا. ييه تشين هذا. هل لديك أى فكرة عن المكان الذى يمكن أن أجده فيه؟"

"ييه تشين؟ إنه يعيش بالقرب من هنا."

"ييه تشين. أنا أتحدث عن ييه تشين /الضربير/."

"نعم. هناك على مقربة."

"منزله هناك على مقربة؟"

"نعم، يا سيدى."

"انظر هنا، يبدو أنك لم تفهم. هل تقصد بيه تشين، بيه تشين
الضرير، وأن منزله على مقربة من هنا؟"

"نعم، يا سيدى. بإمكانك أن تمشى إلى هناك، لكن إذا رغبت
أخذك فى السيارة."

"اسمعنى، الأمر فى غاية الأهمية. هل تعرف منذ متى يعيش بيه
تشين فى منزله الحالى؟"

فكر الشاب ثم قال: "دائمًا يعيش هناك، يا سيدى. منذ كنت طفلًا،
وهو يعيش هناك."

"متأكد؟ الآن انظر، الأمر فى غاية الأهمية. هل أنت متأكد أنه
الضرير بيه تشين، وأنه يعيش هناك منذ وقتٍ طويل؟"

"قلت لك، يا سيدى. هو هناك منذ أن كنت ولدًا صغيرًا. فى
اعتقادى، هو يعيش هناك منذ سنوات عديدة، عديدة مضت."

اعتدلت، وأخذت نفسًا عميقًا وأمعنت التفكير فيما يتضمنه ما
سمعته توارًا من معنى. ثم ملت ثانية وقلت: "أظن أنه لابد وأن تأخذنى
إلى هناك. أقصد، فى السيارة. لابد وأن نقرب من هناك بعناية.
أريدك أن تأخذنى إلى هناك، لكن عليك أن توقف السيارة على مبعدة.
فى مكان ما بحيث يمكننا أن نرى بوضوح المنزل المقابل لمنزل بيه
تشين. هل تفهمنى؟"

ركبت السيارة وقام الشاب بتشغيل المحرك. أدار عجلة القيادة دورة كاملة، ثم أخذنا طريقاً جانبياً آخر. عندما فعلنا ذلك، تراحمت أفكار كثيرة دفعةً واحدة في عقلي. أتساءل إذا ما كان ينبغي على أن أخبر الشاب بمغزى الرحلة التي نقوم بها، وفكرت حتى في أن أسأله إذا ما كان يحمل مسدساً في السيارة - رغم أنني في النهاية قررت أن مثل هذا التساؤل ربما كان سيثير ذعره.

انعطفنا بالسيارة إلى حارة جانبية أضيق حتى من الشارع السابق. ثم انعطفنا مرةً أخرى وتوقفنا. فكرت للحظة أننا وصلنا إلى نهاية الرحلة، لكنني حينئذٍ عرفت سبب توقفنا. في الحارة التي انعطفنا فيها كان هناك أمامنا مجموعة من الأولاد يحاولون السيطرة على جاموس ماء جامح. ثمة مشاحنة كانت بين الأولاد، وكما رأيت، أحد الأولاد ضرب الجاموس على الأنف بعصاه. شعرت بموجة من الذعر، إذ تذكرت تحذيرات أمي طيلة طفولتي بأن هذه الحيوانات خطيرة مثل أي ثور عندما تتعرض للإثارة. مع هذا، لم يفعل الحيوان أي شيء، وواصل الأولاد الشجار. استعمل الشاب آلة التنبيه عدة مرات بلا جدوى، وفي النهاية تنهد، وبدأ يعود بالسيارة للخلف إلى حيث أتينا.

أخذنا حارة أخرى قريبة، لكن هذا الانحراف عن المسار بدا وقد أربك السائق، لأنه بعد بضع انعطافات أخرى، توقف وعاد بالسيارة للخلف ثانية، رغم أنه لم يكن هناك ما يعترض طريقه هذه المرة. عند نقطة معينة، خرجنا إلى ممر موحد أوسع على امتداد أحد جانبيه أكواخ خشبية مهدمة.

"أسرع من فضلك"، قلت. "الوقت أمامي ضيق جدًا."

حينئذٍ بالضبط صوت ارتطام هائل هز الأرض التي كنا نسير عليها. واصل الشاب القيادة بثبات، لكنه بدا عصبياً وهو ينظر أمامه.

"القتال"، قال. "القتال اندلع ثانية."

"يبدو أنه قريب جدًا"، قلت.

خلال البضع ثوانٍ التاليات، انعطفنا حول انحناءات ضيقة أكثر وبيوت خشبية صغيرة، مع ضرب آلة التنبيه كي نفرق الأطفال والكلاب. ثم توقفت السيارة مرة أخرى، وسمعت الشاب وهو يطلق صوتاً ساخناً. وبالنظر عبره، رأيت أن الطريق الذي أمامه كان مغلقاً بمتاريس من أجولة الرمل والأسلاك الشائكة.

"لا بد أن ندور حول الطريق"، قال. "لا نملك طريقة أخرى."

"لكن انظر، لا بد وأننا اقتربنا الآن جدًا."

"اقتربنا جدًا، نعم. لكن الطريق مغلق، لذلك لا بد وأن نأخذ دورة كاملة حول الطريق. كن صبوراً، يا سيدي. سنصل هناك على الفور."

لكن ثمة تغير واضح قد بدا في سلوك الشاب. فتقته السابقة تلاشت، والآن شعرت بالذهول إذ إنه بدا شاباً سخيلاً يقود سيارة، ربما لا يتجاوز عمره الخامسة أو السادسة عشر. انطلقنا لبعض الوقت في شوارع موحلة نتنة، وفي حارات أكثر حيث ظننت أننا سوف نغوص في البالوعات المفتوحة - غير أن الشاب كان يستطيع

دائمًا أن يحافظ على عجالات السيارة بعيدًا عن حواف الطريق. طيلة الوقت، كنا نسمع أصوات الرصاص في المكان، ونرى الناس وهي تجرى عائدةً للإيواء في منازلهم ومأويهم. لكن لم يزل هناك أطفال وكلاب، وكان يبدو أنهم لا ينتمون لأحد، كانوا يهرعون في كل مكان أمامنا، غافلين عن أى شعور بالخطأ. عند نقطة معينة، وبينما كنا نتخبط في طريقنا عبر حوش مصنع صغير، قلت:

"الآن انظر، لماذا لا تتوقف لتسأل عن الطريق؟"

"كن صبورًا يا سيدى."

"صبورًا؟ لكنك ليس لديك فكرة أكثر منى عن الطريق الذى نمشى عليه."

"سنصل إلى هناك تَوًّا، يا سيدى."

"أى هراء. لماذا تصر دائمًا على هذه التمثيلية؟ إن هذا طبعكم الأصيل أيها الصينيون. لقد ضللت الطريق، لكنك لن تعترف بهذا. الآن نحن فى السيارة منذ.... حسنًا، يبدو وكأنه دهر."

لم يقل شيئًا، وخرج بنا إلى طريق موحلة تمتد مرتفعةً بين كومات كبيرة من نفايات المصنع. ثم أتى صوت ارتطام رعدى فى مكان ما قريب بما يثير الذعر، وقلل الشاب سرعة سيارته لما يشبه الحبو.

"سيدى. أعتقد أنه يجب أن نعود الآن."

"نعود؟ نعود إلى أين؟"

"القتال قريب جدًا. المكان ليس آمنًا هنا."

"ماذا تعنى، القتال قريب؟" ثم بزغت فكرة فى رأسى. "هل نحن بالقرب من تشابى بأى شكل؟"

"سيدى. نحن فى تشابى. نحن فى تشابى منذ فترة."

"ماذا؟ تعنى أننا خرجنا من المستعمرة؟"

"نحن الآن فى تشابى."

"لكن... يا إلهى! نحن بالفعل خارج المستعمرة؟ فى تشابى؟ انظر هنا، أنت أحمق، هل تعرف؟ أحمق! لقد قلت لى إن المنزل قريب جدًا. الآن ضللنا الطريق. من الممكن أن نكون بالقرب من منطقة الحرب وهذا غاية فى الخطورة. وقد غادرنا المستعمرة! أنت ما أسميه أنا نموذجًا للأحمق. هل تعرف لماذا؟ سأخبرك. لأنك تظاهرت بأنك تعرف أكثر مما تعرف. وأنت من الكبرياء بحيث لا تعترف بنقائصك. هذا هو تعريفى للأحمق بالضبط. أحمق حقيقى! هل تسمعنى؟ أحمق حقيقى ونموذجى!"

أوقف السيارة. ثم فتح بابه ودون أن ينظر للخلف، مضى بعيدًا.

استغرقت لحظة حتى هدأت من نفسى وقيمت الموقف. كنا معظم الطريق أعلى تل، والسيارة الآن فى مكان مهجور على ممر موحل تحيطه روابى من أعمال البناء المتهدمة، الأسلاك المجدولة وما بدا فى هيئة البقايا الممتزجة من عجلات دراجة قديمة. رأيت شبح الشاب يمشى على درب أعلى حافة التل.

نزلت من السيارة وجريت خلفه. لابد وأنه سمعنى أتقدم خلفه، لكنه لم يسرع الخطى ولم ينظر للخلف. لحقت به وأوقفته بأن أمسكت كتفه.

"انظر، أنا آسف،" قلت، وأنا ألهث قليلا. "معذرة. كان لا ينبغي أن أفقد أعصابى. أنا أعتذر، أنا بالفعل أعتذر. ليس هناك ما يشفع لى. لكن تعرف ماذا يعنى كل هذا؟ الآن من فضلك" - أشرت له بالعودة إلى السيارة - "لنكمل."

لم ينظر الشاب إلى. "لن أقود السيارة أكثر من ذلك،" قال. "لكن انظر، لقد قلت أنا آسف. الآن من فضلك، التزم العقل." "لن أقود السيارة أكثر من ذلك. المكان هنا غاية فى الخطورة. القتال قريب جدًا."

"لكن أنصت، الوصول إلى هذا المنزل فى غاية الأهمية بالنسبة لى. غاية فى الأهمية حقيقةً. الآن قل بصدق من فضلك. هل ضللت الطريق أم أنك تعرف حقًا مكان المنزل؟"

"أعرف. أعرف المنزل. لكن المكان غاية فى الخطورة الآن. القتال قريب جدًا."

وكتأكيد على النقطة التى ذكرها، سمعنا صدى طلقات من رشاش آلى حولنا. بدا الصوت وكأنه بعيد بدرجة معقولة، لكن كان من المستحيل تحديد مصدر الطلقات واتجاهها، ونظر كل منا حوله، وبداخلنا إحساس بالعراء على التل.

"سأخبرك بما،" قلت، وأخذت نوتة وقلمًا رصاصًا من جيبى.
"فهمت أنت لا تريد أن تلعب دورًا آخر فى كل هذا، وأستطيع أن أفهم
وجهة نظرك. وأنا آسف ثانيةً لوقاحتى معك قبل قليل. لكننى أريدك
أن تفعل شيئين آخرين قبل أن تذهب لبيتك. أولاً، أريدك أن تكتب هنا
من فضلك عنوان منزل بيه تشين."

"لا عنوان، يا سيدى. لا يوجد عنوان."

"حسنًا، إذا ارسم خريطة. حدد الاتجاهات. أيًا كانت. من فضلك
افعل هذا لأجلى. ثم بعد ذلك، أريد أن تقود السيارة بى إلى أقرب قسم
شرطة. بالطبع، هذا ما كان ينبغي عمله من البداية. أحتاج بعض
الرجال المدربين المسلحين. من فضلك."

أعطيت النوتة والقلم الرصاص. صفحات عديدة كانت تكتظ
بملاحظات دونتها من تحرياتي صباح اليوم. ظل يقلب الصفحات
حتى وصل إلى واحدة بيضاء. ثم قال:

"لا إنجليزية. لا أستطيع الكتابة بالإنجليزية، يا سيدى."

"اكتب إذا بأى لغة تستطيعها. ارسم خريطة. أيًا كانت من
فضلك."

بدا الآن وقد أدرك أهمية ما كنت أطلبه منه. أمعن التفكير لبضع
ثوان، ثم بدأ يكتب بسرعة. ملأ صفحة، ثم أخرى. بعد أربع أو خمس
صفحات، علق القلم فى ظهر النوتة وسلمها لى. نظرت فيما فعله،
لكننى لم أستطع أن أفهم شيئًا من الكتابة الصينية. مع هذا قلت:

"شكرًا لك. شكرًا لك بالفعل. الآن من فضلك. خذنى إلى قسم
الشرطة. بعدئذ يمكنك العودة إلى بيتك."

"قسم الشرطة من هنا، يا سيدى." تقدم عدة خطوات أخرى فى الاتجاه الذى كان يمشى فيه. ثم من قمة التل، أشار إلى أسفل إلى أسفل المنحدر، حيث بدأت تظهر كتلة من البنايات الرمادية، ربما على بعد مائتى ياردة.

"قسم الشرطة، يا سيدى."

"هناك؟ أى مبنى؟"

"هناك. عليه علم."

"نعم، أراه. أنت متأكد أن هذا هو قسم الشرطة؟"

"بكل تأكيد، يا سيدى. قسم الشرطة."

من حيث كنا نقف، كان يبدو تمامًا وكأنه قسم شرطة. رأيت، إضافةً إلى هذا، أن هناك شيئًا من الصعوبة فى قيادة السيارة إلى هناك؛ لقد كانت السيارة هناك على الجانب الآخر من التل، والممر الذى وصلنا توارًا إليه لم يكن واسعًا بما يكفى للسيارة؛ رأيت أننا من الممكن أن نضل الطريق ثانية حال محاولة البحث عن طريق حول التل. وضعت النوتة ثانية فى جيبى، وفكرت فى عرض بعض الأوراق النقدية عليه، قبل أن أتذكر إلى أى مدى انزعج وغضب حين فعلتها من قبل. لذلك قلت ببساطة:

"شكرًا لك. لقد قدمت لى مساعدة عظيمة. سأحاول بنفسى

الوصول من هنا."

أوما الشاب بسرعة - بدا أنه لم يزل غاضبًا منى - ثم، استدار عاد يمشى أسفل المنحدر فى اتجاه السيارة.

الفصل الثامن عشر

بدأ قسم الشرطة مهجورًا. عندما هبطت المنحدر، رأيت نوافذ مهشمة وأحد أبواب المدخل مخلوع من مفصلاتته. لكن عندما أخذت طريقى عبر الزجاج المهشم ودخلت إلى منطقة الاستقبال فى القسم. قابلنى ثلاثة رجال صينيون، اثنان منهم صوبوا بنادقهم تجاهى، بينما كان الثالث يلوح مهددًا بجاروف حديقة. أحدهم - كان يرتدى زى القوات المسلحة الصينية - بإنجليزية عرجاء ماذا أريد؟ عندما تمكنت من توضيح من أنا، وأتنى أريد أن أتحدث مع الشخص المسئول، بدأ الرجال يتباحثون بين بعضهم البعض. فى النهاية اختفى الرجل الذى كان يحمل الجاروف فى غرفة خلفية، وظل الآخرون يصوبان سلاحهما على فى انتظار عودته. انتهزت الفرصة كى أنظر حولى، وخلصت إلى أنه من المحتمل ألا يكون هناك أى رجال شرطة فى القسم. رغم وجود بضع ملصقات ولافتات معلقة، فإن المكان بدا وقد هُجر منذ فترة مضت. كانت الكابلات تتدلى على حائط والجزء الخلفى من القسم أتلفته النيران.

بعد خمس دقائق تقريبًا، عاد الرجل الذى كان يحمل جاروفًا. دارت بضع مباحثات أخرى بلهجة شنغهاى على حد ظنى، قبل أن يومئ لى الجندى بالذهاب مع الرجل ذى الجاروف.

تبعنا الأخير إلى الغرفة الخلفية، التى اكتشفت أيضًا أنها تحت حراسة رجال مسلحين. لكنهم تنحوا جانبًا كى يسمحوا لنا بالدخول،

وعلى الفور كنت أهبط سلماً متداعٍ يفضى إلى الدرك الأسفل فى قسم الشرطة.

ذاكرتى فيما يخص كيفية النزول إلى الغرفة المحصنة تحت الأرض مضربة الآن قليلاً. ربما كان هناك بضع غرفٍ أخرى؛ أذكر مشينا فيما يشبه النفق، وكنا ننحنى كى نتفادى الدعامات الخفيضة؛ هنا أيضاً يوجد خفراء، وفى كل مرة نقابل أحد أشباحها السوداء التى تلوح للعيان، أضطر لالتصاق بالحائط الخشن حتى أمر.

أخيراً أشير لى بالدخول إلى غرفة بلا نافذة التى تحولت إلى مقر قيادة بديل مؤقت. كانت مضاءة بواسطة مصباحين يتدليان جنباً إلى جنب من الدعامة الوسطى للسقف. كانت الحوائط من كتل الحجارة المكشوفة، كان هناك ثقب محفور بمظفار يكفى لمرور شخص عبره إلى الخارج. كان هناك جهاز لاسلكى معطوب منصوب فى الركن المقابل، وفى منتصف الأرضية مكتب كبير - رأيت لأول وهلة أنه مقسوم نصفين، ثم ضمنا إلى بعضهما البعض ثانية بطريقة بذئية عبر استخدام حبل ومسامير. العديد من الصناديق الخشبية المقلوبة شكّلت المقاعد المتاحة، الكرسي الفعلى الوحيد كان يشغله رجل غير واعٍ مربوط فيه. كان يرتدى زى البحرية اليابانية، وأحد جانبيه وجهه كان عبارة عن كتلة من الالتهابات.

لم يكن هناك فقط غير ضابطين من القوات المسلحة الصينية، كانا واقفين، ومنكبين على خريطة مفرودة على مكتب. رفعنا عينيهما عند دخولى، ثم تقدم أحدهما ومد يده للمصافحة.

"أنا الملازم أول تشو. وهذا كابتن ما. يشرفنا معاً أن تزورنا، يا مستر بانكس. هل أتيت لتعيرنا دعمك الأخلاقي؟"

"حسناً، فى واقع الأمر، يا سيدى الملازم، لقد أتيت إلى هنا بمطلب محدد. مع ذلك، أمل حين تنتهى مهمتى، سيكون الدعم الأخلاقي غزيراً. لك وللجميع. لكننى الآن فى حاجة إلى مساعدة بسيطة، ولهذا السبب أتيت إليكم."

قال الملازم شيئاً للكابتن، الذى كان واضحاً أنه لا يفهم الإنجليزية، ثم نظرا إلى. فجأة تقيأ اليابانى الجالس على الكرسي على واجهة زيه. استدرنا جميعاً لننظر إليه؛ ثم قال الملازم:

"تقول إنك بحاجة للمساعدة، يا مستر بانكس. أى نوع من المساعدة تحديداً؟"

"لدى هنا بعض الاتجاهات، الاتجاهات صوب منزل بعينه. ومن الحتمى أن أصل إلى هذا المنزل بأقصى سرعة. الاتجاهات مكتوبة باللغة الصينية، ولا أستطيع قراءتها. لكن كما ترى، حتى لو كنت أستطيع قراءتها، فأنا بحاجة إلى مرشد، شخص ما يكون على دراية بهذه المنطقة."

"أنت تريد دليلاً، إذاً."

"ليس هذا فقط، يا حضرة الملازم. سأكون بحاجة إلى خمسة أو ستة رجال مدربين، وأكثر لو أمكن. لابد وأن يكونوا على درجة من الكفاءة والخبرة، مادام أن المهمة ستكون دقيقة."

هاها الملازم قليلاً؛ ثم أعاد ملامحه إلى وقارها مرة أخرى، وقال: "سيدى، نحن فى هذه اللحظة نعانى من قصور فى هذه النوعية من الرجال. هذه القاعدة تعتبر بمثابة جزء حيوى من قوتنا الدفاعية. ومع هذا فأنت بنفسك ترى مدى ما نعانيه من نقص فى الحراسة. فى الحقيقة، الرجال الذين رأيتهم على الطريق إما جرحى أو مرضى أو متطوعين تعوزهم الخبرة. كل شخص قادر على القتال المستمر أرسلناه للجبهة."

"أنا أقدر، يا حضرة الملازم، أنك فى موقف تحتاج فيه إلى الدعم والمساندة. لكن ينبغى أن تفهم، أنا لا أتحدث عن مطلب غير رسمى أتوسلك للقيام به. عندما أقول بأنه من الحتمى أن أصل للمنزل... حسناً، يا حضرة الملازم، سأخبرك، لا داعى للتعامل مع الأمر بسرية. أنت وكابتن ما هنا ستكونان أول من يعرف الأمر. المنزل الذى أريد الوصول إليه، والذى أعرف أنه على مقربة منا الآن، ليس سوى المنزل الذى يسجن فيه والدى. هذا صحيح، يا حضرة الملازم! أنا لا أتحدث عن شىء أقل من حل هذه القضية بعد كل هذه السنوات. فهمت الآن مدى حتمية طلبى، حتى فى هذا التوقيت المزدحم بالنسبة لك."

ظل وجه الملازم ثابتاً على وجهى. سأله الكابتن عن شىء ما بالماندارين، لكن الملازم لم يرد. ثم قال لى:

"نحن فى انتظار عودة بعض رجالنا من مهمة. سبعة رجال خرجوا. لا نعرف ما إذا كانوا سيعودون جميعاً. وكانت نيتى هى إرسالهم على الفور إلى موقع آخر. لكن الآن... فى هذا الظرف،

سأتحمل المسؤولية شخصيًا. هؤلاء الرجال، مهما كان عدد العائدين منهم، فسوف يرافقونك في مهمتك."

تتهدت بضجر. "أشكر، يا حضرة الملازم. لكن كم من الوقت سوف ننتظر هؤلاء الرجال؟ ألا يمكنني أن آخذ بضع رجال من الواقفين بالخارج هنا، فقط لبضع ثوان؟ فالمنزل، على أية حال، قريب جدًا من هنا. ولك أن تعرف أن هناك شخصًا في انتظارى..." فجأة تذكرت سارة، وانتابني نوعٌ من الهلع وقلت: "في الحقيقة، يا حضرة الملازم، أستاذك في استخدام التليفون. لا بد في الحقيقة أن أتحدث إليها."

"معذرة لعدم وجود تليفون هنا، يا مستر بانكس. هذا جهاز استقبال لاسلكي متصل فقط بالقيادة والقواعد الأخرى."

"حسنًا إذًا، إن توضيح الأمر بأقصى سرعة هو الأكثر حتمية! أعرف، يا سيدى، هناك سيدة تنتظر، حتى ونحن نتحدث! هل لى أن أقترح أخذ ثلاثة أو أربعة رجال من حرس هذه القاعدة..."

"مستر بانكس، أرجوك هدى من روعك. سنفعل كل ما فى وسعنا لمساعدتك. لكن كما قلت بالفعل، الرجال الواقفون بالخارج ليسوا مؤهلين لمثل هذه المهمة. سوف يعرضون المهمة للخطر فقط. أنا مستوعب أنك قد انتظرت سنوات طويلات لحل هذه القضية. أنصحك بعدم التصرف بتهور فى هذه المرحلة المفصلية."

كانت كلمات الملازم تتطوى على تقدير حسن للأمور. تتهدت وجالست على أحد صناديق الشاي المقلوبة.

"لن يطول غياب الرجال الآن"، قال الملازم. "مستر بانكس، هل لي أن أرى هذه الاتجاهات التي معك؟"

كنت مترددًا في أن أدعه يقلب صفحات نوتتي حتى ولو لبضع ثوان. لكن في النهاية سلمتها للضابط، وهي مفتوحة على الصفحة المطلوبة. درس الاتجاهات لبرهة، ثم أعاد النوتة إلى.

"مستر بانكس، ينبغي أن أبلغك. سوف يكون من الصعب الوصول إلى هذا المنزل."

"لكن حدث وعرفت، يا سيدى، بأنه قريب جدًا من هنا." "قريب، هذا صحيح. مع هذا، فلن يكون سهلاً، في الحقيقة، يا مستر بانكس، ربما يكون الآن خلف الخطوط اليابانية."

"الخطوط اليابانية؟ حسناً، أعتقد أنني دائماً أقنع اليابانيين. أنا شخصياً لست على خلاف معهم."

"سيدى، لو تكلمت تعال معي. سأريك، أثناء انتظارنا عودة الرجال، موقفنا بالضبط."

تحدث بسرعة إلى الكابتن للحظة. ثم مشى صوب دولا ب في الركن، فتح بابه بقوة وتقدم داخله. استغرقت لحظة لأدرك أنه ينتظرني أن أتبعه، لكن عندما حاولت أيضاً أن أدخل الدولا ب، اصطدمت بكعبى حذاء الملازم - الذى كان أمام وجهى مباشرة. سمعت صوته يقول من العتمة أعلى:

"اتبعنى من فضلك، يا مستر بانكس. هناك ثمانى وأربعون درجة. يفضل أن تحافظ على خمس درجات بينى وبينك على الأقل."

اختفت قدماه. وبينما كنت أتقدم في عمق الدولاب، مددت يدي فوجدت بعض الدرجات المعدنية على القرميد أمامي. بعيدًا لأعلى في العتمة، رأيت بركة سماوية صغيرة. خمنت أننا في قاع مدخنة، أو برج مراقبة تستخدمه الشرطة.

في البضع درجات الأولى، كنت أجد الصعود مجهدًا؛ ولم أكن عصبياً فحسب بسبب فقدان المقبض في الظلام، لكن كان هناك أيضاً القلق من انزلاق الملازم وسقوطه على. لكن في النهاية بدأت رقعة السماء تتزايد، وحينئذ بدأت أرى شبح الملازم وهو يتسلق بجهد أعلاى. في دقيقة أخرى أو أكثر، كنت قد لحقت به.

كنا نقف على سطح عال مستو محاط من كل الجهات بأميال من قمم الأسطح المكسدة بالأشياء. وعلى الأفق، ربما على بعد نصف ميل إلى الشرق، رأيت عمودًا من الدخان الأسود يرتفع إلى السماء الشفقية.

"هذا غريب"، قلت، وأنا أنظر حولى. "كيف يتحرك الناس هناك؟ لا يبدو أن هناك شوارع."

"هكذا تبدو بالضبط من أعلى هنا. لكنك ربما تريد النظر هنا." كان يمد يده بمنظار ثنائي العينين. رفعته على عيني وأنفقت بعض الوقت في ضبط العدسات حتى استطعت أن أرى بوضوح، واكتشفت فقط أنني كنت أصدق في مجموعة مداخل على بعد بضعة ياردات أمامي. في النهاية، على الرغم من أنني استطعت أن أركز العدسات على عمود الدخان، قال صوت الملازم من مكان ما إلى جوارى:

"أنت الآن تنتظر إلى المنطقة المقدسة بالسكان، يا مستر بانكس. عمال المصنع يعيشون هناك. أنا واثق أنك طيلة فترة طفولتك هنا، لم تَقم بزيارة هذه المنطقة السكنية."

"المنطقة السكنية؟ لا، لا أظن."

"تقريبًا، لا على وجه التأكيد. نادرًا ما يرى الأجانب مثل هذه الأماكن إلا إذا كانوا من أفراد الحملات التبشيرية. أو ربما شيوعيين. أنا صيني، لكنني أيضًا، مثل الكثيرين من أقراني، لم يُسمح لي أبدًا بالاقتراب من مثل هذه الأماكن. تقريبًا لا أعرف أى شىء عن المنطقة السكنية الملحقة بالمصنع حتى بلغت الثانية والثلاثين من العمر، فى آخر مرة قاتلنا فيها اليابانيين. لن تصدق أن الآدميين يمكنهم العيش هكذا. إنها تشبه جحور النمل. تلك البيوت، كانت مبنية لأفقر الناس. بيوت بغرف صغيرة، صف بعد آخر. منطقة سكنية. لو أمعنت النظر، ربما ترى الحوارى. حوارى صغيرة تسمح فقط للناس بالدخول والخروج من بيوتهم. فى الخلف، لا توجد للبيوت نوافذ على الإطلاق. الغرف الخلفية عبارة عن ثقب سوداء، تعطى ظهرها للبيوت التى خلفها. سامحنى، أنا أخبرك بهذه الأمور لسبب مهم، كما سترى. الغرف صُُممت لتكون صغيرة، لأنها بُنيت للفقراء. كان هناك وقت يتقاسم فيه سبعة أو ثمانية أفراد غرفة كهذه. ومع مرور السنوات، اضطرت العائلات لإقامة تقسيمات، حتى داخل هذه الغرف الصغيرة جدًا، لتشارك فى الإيجار مع أسرة أخرى. وإذا ما ظلوا غير قادرين على دفع الإيجار لأصحاب المنازل، كانوا يقومون بإقامة تقسيم أصغر جديد للغرفة. أذكر أننى رأيت غرفًا صغيرة قد قُسمت

لأربعة أقسام، وفي كل قسم أسرة. لن تصدق هذا، يا مستر بانكس،
أن يعيش آدمي هكذا؟"

"لا يمكن تصديق هذا، لكن إذا كنت قد رأيت هذه الأحوال
بنفسك، يا حضرة الملازم..."

"عندما تنتهى الحرب ضد اليابانيين، يا مستر بانكس، سأفكر فى
منح خدماتى للشيوعيين. أظنك تعتقد أن التصريح بهذا يعرضنى
للخطر؟ هناك الكثير من الضباط يفضلون القتال تحت راية الشيوعيين
عن القتال مع تشيانج."

حركت المنظار أعلى الكتلة الكثيفة للأسطح الرثة. ورأيت الآن
العديد منها مخترقة. تمكنت من فك الشفرة، إضافةً إلى أن الأزقة
التي تحدث عنها الملازم، كانت عبارة عن ممرات ضيقة تنسل هنا
وهناك وصولاً إلى المنازل.

"لكنها ليست مدينة أكواخ"، استأنف صوت الملازم الكلام. "حتى
لو أن التقسيمات التي أقامها المستأجرون من النوع الرديء، فالبناى
الرئيسى، المنطقة السكنية نفسها، من الأجر. وقد ثبت أن هذا عصيًّا
فى عام ٣٢ عندما شن اليابانيون هجومهم، والشىء نفسه يثبت نفسه
الآن لنا."

"أفهم ذلك"، قلت. "المنطقة السكنية المجسمة الصلبة يدافع عنها
الجنود. ليست موقعًا سهلاً بالنسبة لليابانيين، حتى مع أسلحتهم
الحديثة."

"أنت على حق. الأسلحة اليابانية، حتى تدريبهم لم يكن له أية قيمة هناك. فقد اختزل القتال في البنادق، والحراب، والسكاكين، والمسدسات، والمناجل، وسواطير الجزارة. الخطوط الدفاعية اليابانية قد اضطرت للتراجع فعليًا خلال الأسبوع الماضي. هل ترى هذا الدخان، يا مستر بانكس؟ كانت تلك النقطة في حوزة العدو خلال الأسبوع الماضي فقط. لكننا الآن قد أرغمناهم على التراجع للخلف."

"هل هناك من المدنيين من لم يزل يعيش هناك؟"

"بالفعل هناك من يعيش. ربما لا تصدق هذا، لكن حتى بالقرب من الجبهة، لم تزل بعض بيوت المنطقة مسكونة. وهذا يجعل مهمة اليابانيين أكثر صعوبة. فهم لا يستطيعون القصف بصورة عشوائية. وذلك لعلمهم بوجود مراقبة غربية وهم يخشون ما سيؤدي إليه التهور من تبعات."

"كم من الوقت تستطيع قواتكم الصمود؟"

"من يدري؟ ربما يقوم تشيانج كاي- شيك بإرسال تعزيزات. أو ربما يقرر اليابانيون أن يقلعوا وينتقلوا إلى منطقة أخرى، ويركزون بدلاً من ذلك على نانكينج أو تشانكينج. من المؤكد تمامًا أننا لن نظل منتصرين. لكن القتال قد كبدا الكثير مؤخرًا. لو تكرمت حرك منظارك إلى اليسار، يا مستر بانكس. الآن، هل ترى ذلك الطريق؟ نعم؟ هذا الطريق معروف محليًا باسم ممشى الخنازير. لا يبدو أنه طريق مثير للإعجاب، لكنه الآن في غاية الأهمية بالنسبة للنتائج. كما ترى، فهو الطريق الوحيد الذي يمتد على حافة المنطقة السكنية. في

الوقت الراهن، قامت قواتنا بإغلاقه، واستطاعت طرد اليابانيين خارجه. لو استطاعوا السيطرة على هذا الطريق، فإن المنطقة السكنية يمكن اختراقها من الجانب. لن يكون هناك أى معنى لمحاولتنا الصمود. فسوف نقع تحت الحصار. أنت تطلب رجالاً يرافقونك إلى المنزل المحبوس فيه والداك. الرجال الذين سيرافقونك كانوا، من ناحية أخرى، سينقلون للدفاع عن المتراس أعلى ممشى الخنازير. خلال الأيام القلائل الماضية، أصبح القتال هناك يبعث على اليأس. فى الوقت نفسه، بالطبع، يتحتم علينا أيضاً الاحتفاظ بخطوطنا الدفاعية على الجانب الآخر من المنطقة السكنية."

"من الأعلى هنا، لا تظن أن هناك الكثير من الأحداث الجارية هناك."

"بالفعل. لكننى أؤكد لك أن الأمور فى غاية التردى داخل المنطقة السكنية. لقد أخبرتك بهذا، يا مستر بانكس، مادمّت أنك تتوى الدخول إلى هناك."

للحظة أو اثنتين ظلت أحدى فى المنظار صامتاً. ثم قلت: "يا حضرة الملازم، ذلك المنزل، المنزل المحبوس فيه والدى. هل بإمكانى رؤيته من هنا؟"

بسرعة مس كفى بيده، رغم أننى لم أرفع عينى عن المنظار.

"هل ترى، يا مستر بانكس، أطلال ذلك البرج القائم إلى اليمين؟ إنه يبدو مثل واحدة من صور الإيستر آيلاند. نعم، نعم، بالضبط. لو أنك رسمت خطأ من هنا إلى أطلال ذلك المبنى الأسود الكبير إلى

اليمين، مستودع النسيج القديم، كما كان صباح اليوم، الخط الذى استطاع رجالنا إرغام اليابانيين على التراجع إليه. فإن النزل المحتجز به والداك يكون تقريبًا محاذيًا لهذه المدخنة العالية إلى يسارك. لو أنك قمت برسم خط، بمحاذاته تمامًا أمام المنطقة السكنية، حتى تأتى إلى اليسار قليلًا من مكان وقوفنا الآن. نعم، نعم..."

"تعنى بالقرب من ذلك السطح، ذى الإفريز المدبب لأعلى على هيئة قنطرة..."

"نعم، هو بالضبط. بالطبع، لا يمكننى أن أحدد يقينًا. لكن بناءً على هذه الاتجاهات التى أعطيتنى إياها، فإن ذلك بالتقريب موقع المنزل."

حدقت فى المنظار على هذا السطح بعينه. لبعض الوقت لم أستطع أن أكف عن النظر، رغم أننى كنت أعى أننى أصرف الملازم عن القيام بمهامه. بعد فترة، قال الملازم:

"لا بد وأن هذا غريب. أن تفكر فى أنك تنظر إلى المنزل الذى يُحتجز به والداك."

"نعم. نعم، أشعر بإحساس غريب قليلًا."

"بالطبع، ربما لا يكون هذا المنزل نفسه. هذا ببساطة مجرد تخمين من ناحيتى. لكنه سيكون فى مكانٍ ما بالقرب منه. تلك المدخنة العالية التى حددتها لك، يا مستر باتكس. المواطنون يشيرون إليها على أنها المحرقة الشرقية. المدخنة التى تراها قريبة جدًا منّا، المحاذية تمامًا للمدخنة الأخرى، تخص المحرقة الغربية. قبل اندلاع

القتال، كان السكان يقومون بحرق نفاياتهم في واحدة أو أخرى منهما. أنصحك يا سيدى باستخدام المحرقتين كعلامات إرشاد عندما تدخل إلى المنطقة السكنية. وإلا سيكون من الصعب عليك كغريب أن تحافظ على اتجاهاتك. انظر ثانية بعناية، يا سيدى، على هذه المدخنة البعيدة. تذكر، المنزل الذى تسعى إليه على بعد مسافة قريبة منها، في خط مباشر باتجاه الجنوب."

في النهاية أنزلت المنظار عن عيني. "حضرة الملازم، لقد كنت في غاية الكرم. لا أجد ما أعبر به عن امتناني لك. في الحقيقة، لو أن الأمر لا يورطك، فلعلك ربما سوف تسمح لى بأن أذكرك بالاسم أثناء الاحتفال الذى سيقام في جيسفيلد بارك للاحتفال بذكرى تحرير والدى."

"في الحقيقة، تعاونى معك ليس ذا بال. إضافة إلى أنك، يا مستر بانكس، لا ينبغي أن تفترض اكتمال مهمتك. يبدو الأمر قريب المنال وأنت تقف هنا. لكن داخل النطاق السكنى، هناك الكثير من القتال. ورغم أنك لست مستعدًا للقتال، فإن الأمر لم يزل صعبًا في حركتك من منزل إلى آخر. وبغض النظر عن المدخنتين، هناك بضع علامات إرشادية باقية. ثم لا بد وأن تخرج والديك في أمان. بعبارة أخرى، لم تزل أمامك مهمة شاقة. لكننى الآن، أقترح عليك، يا مستر بانكس، العودة قبل حلول الليل. ربما يكون الرجال قد عادوا. من المفزع التحرك باتجاه النطاق السكنى في ضوء النهار. فى الليل، سيكون الأمر أشبه بالانزلاق فى أفزع الكوابيس. إذا ما استبد بك الخوف من الظلام، أنصحك باللجوء إلى مكان آمن حتى الصباح.

ليلة أمس فقط، قام رجلان من رجالى بقتل بعضهما، لقد ارتبكا بشدة في الظلام."

"لقد استمعت باهتمام إلى كل ما قلت، يا حضرة الملازم، حسناً إذا، لننزل."

عدنا لنجد كابتن ما يتحدث إلى جندي مهلهل الثياب. لم يبدو أن الأخير قد جرح، لكنه بدا منهكاً ومنزعجاً. كان الياباني الجالس على الكرسي يغط في الشخير، وكأنه يستمتع بسنة آمنة من النوم، رغم أنني لاحظت أنه تقيأ أكثر على صدر ملابسه."

تساور الكابتن بسرعة مع الكابتن، ثم سأل الجندي مهلهل الثياب. ثم استدار إلى وقال:

"أخبار سيئة. لم يرجع الآخرون. اثنان بالتأكيد قد قُتلا. وأسرى الباقون، رغم أن فرصة هروبهم جيدة. العدو قد حقق تقدماً رغم أن هذا ربما يكون مؤقتاً، وربما يكون المنزل المحتجز به والداك خلف خطوطهم الآن."

بغض النظر عن ذلك، يا حضرة الملازم، لم أزل بحاجة إلى التقدم، ودون أي تأخير آخر. انظر هنا، لو أن الرجال الذين وعدتني بهم لم يرجعوا، إذاً، ربما، رغم أنني سأكون قد تجاوزت حدودي بكثير، لن تخذلني في أن ترافقني أنت بنفسك للحراسة. بصدق، يا سيدى، لا أستطيع أن أفكر في شخص مناسب أكثر منك يساعدني في هذه المرحلة."

أمعن الملازم التفكير في الأمر برزانة. "حسنًا جدًا، يا مستر بانكس،" أخيرًا قال. "سأفعل ما تطلب مني. لكن لا بد وأن نسرع. لا ينبغي على أن أغادر هذه النقطة على الإطلاق. إن القيام بهذا لأي فترة من الوقت ربما يكون له عواقب وخيمة."

أعطى تعليمات سريعة للكابتن، ثم فتح أحد أدراج المكتب، وبدأ في وضع عدة أشياء في جيبه وحزامه.

"من الأفضل ألا تحمل بندقية، يا مستر بانكس. لكن هل معك مسدس؟ لا؟ خذ هذا إذا. إنه ألماني ويمكنك الاعتماد عليه. لا بد أن تخفيه، لو واجهنا العدو لا بد ألا تتردد في إعلان حيادك على الفور وبمنتهى الوضوح. الآن، اتبعني من فضلك."

أخذ بندقية كانت تستند إلى المكتب المقابل، وتقدم باتجاه الكوة الموجودة في الحائط المقابل وعبرها برشاقة. دفعت بالمسدس في حزامي، حيث أخفاه الجاكت بدرجة أو بأخرى، ثم أسرعت خلفه.

الفصل التاسع عشر

فقط إدراك طبيعة الأحداث بعد وقوعها هو ما يجعل الجزء الأول من تلك الرحلة يبدو يسيرًا نسبيًا. في ذلك الوقت، وبينما كنت أتعثّر في خطواتي خلف شبح الملازم المتقدم أمامي، لم يكن الأمر يبدو هكذا. بدأت قدماي تؤلماني بسبب الأرض المفروشة بكسارة الحجارة والدبش، ووجدت أن الالتواءات المطلوبة للتغلب على الثقوب في كل حائط في غاية الإزعاج.

بدا أن هناك عددًا لا نهائيًا من هذه الثقوب وجميعها تشبه من قريب أو بعيد تلك التي كانت في قاعدة السيطرة الأرضية. بعضها كانت صغيرة، وبعضها كبيرة بما يكفي لخروج رجلين عبرها دفعة واحدة؛ غير أن جميعها كانت ذات حواف غير مستوية وقاسية، وتتطلب وثبة خفيفة للعبور منها. بعد قليل وجدت نفسي على وشك الإجهاد؛ لم ألبث أن أتسلق عبر أحد تلك الثقوب حتى أرى الملازم أمامي، يأخذ طريقه بقوة إلى الحائط التالي.

لم تكن كل الحوائط باقية على حالها لم تزل؛ أحيانًا كنا نأخذ طريقنا عبر أنقاض ما كان يمثل ثلاثة أو أربعة بيوت قبل أن يواجهنا حائط آخر. كانت الأسطح كلها تقريبًا منهارة، وغالبًا لا وجود لها على الإطلاق، لذلك كنا نهتدي بقدر كبير من ضوء النهار في السماء - رغم أن الظلال الكثيفة، هنا وهناك، جعلت من السهل علينا أن نتعثّر في خطانا. أكثر من مرة، تنزلق قدماي بطريقة مزعجة بين

شرائح مسننة من البلاط أو يغوص كاحلى بعمق فى كسارة الحجارة، حتى اعتدت تضاريس المكان.

كان من السهل تمامًا فى مثل هذه الظروف أن أنسى أننا كنا نمضى عبر ما كان قبل عدة أسابيع فقط منازل لمئات الناس. فى الواقع، سيطر على انطباع بأننا لم نكن نتحرك عبر حى سكنى للفقراء، لكن قصر شاسع متهدم به عدد لا نهائى من الغرف. حتى مع هذا، كان يخطر ببالى بين الحين والآخر أنه بين الانقراض الموجودة تحت أقدامنا يوجد أمتعة تتوارثها الأجيال، ولعب أطفال، وأشياء بسيطة ومحبية من متاع العائلات، وكنت أجد نفسى فجأة فريسة لغضب متجدد تجاه أولئك الذين سمحوا لمثل هذا المصير أن ينصب فخاخه للكثير من الأبرياء. فكرت ثانية فى هؤلاء الرجال المغرورين المختالين فى المستعمرة الدولية، فى كل المراوغات التى لا بد وأنهم قد وظفوها ليتملصوا من مسئولياتهم لسنوات عديدة، وفى مثل هذه اللحظات أحسست بأن سخطى يفور بقوة حتى إننى كنت على حافة الصراخ فى الملازم كى يتوقف، فقط لأتمكن من أن أتخلص من سخطى.

مع ذلك، توقف الملازم عند نقطة محددة طوعًا، وعندما لحقت به قال:

"مستر بانكس، من فضلك أود أن تلقى نظرة فاحصة على هذا." كان يشير إلى اليسار قليلاً، باتجاه بناء يشبه الغلاية، ورغم أنه كان مغطى بغبار الانقراض، فإنه ظل بدرجة ما أو بأخرى على حاله. "هذه هى المحرقة الغربية. لو نظرت إلى أعلى هناك، سترى أقرب

المدخنتين العاليتين التي رأيناها قبل قليل من أعلى السطح. المحرقة الشرقية تشبهها في المنظر، وستكون علامتنا الإرشادية الواضحة التالية. عندما نبلغها، سوف نعرف أننا قد اقتربنا جدًا من المنزل."

تفحصت المحرقة بعناية. مدخنة بمحيط ما تظهر من أعلى جانبها، وعندما اقتربت بضع خطوات منها ونظرت لأعلى، رأيت أن المدخنة الضخمة ترتفع لأعلى في السماء. كنت لم أزل أنظر لأعلى عليها عندما سمعت رفيقي يقول:

"من فضلك، يا مستر بانكس. لا بد وأن نكمل السير. من الأهمية بمكان أن ننتهي من مهمتنا قبل الغروب."

تغيرت سلوكيات الملازم بوضوح وأصبحت أكثر حذرًا بعد مرور عدة دقائق من تجاوزنا للمحرقة. خطوته أصبحت متروية، وعند كل ثقب، كان ينظر أولاً، وهو يصوب بندقيته أمامه، ويسترق السمع، قبل أن يعبر. أنا أيضًا بدأت أرى عددًا أكثر وأكثر من أجولة الرمل، أو لفات من الأسلاك الشائكة، المتروكة على مقربة من الثقوب. عندما سمعت الرشاش الآلي لأول مرة، تجمدت فجأة، معتقدًا أننا في نطاق إطلاق النيران. لكنني رأيت الملازم، حينئذٍ يواصل التقدم للأمام، ومضيت خلفه بعد أن أخذت نفسًا عميقًا.

أخيرًا عبرت ثقبًا ووجدت نفسي في فضاء أكثر اتساعًا. حقيقةً، في حالة الإجهاد التي كنت فيها، ظننت أنني قد دخلت في البقايا المقصوفة بالقنابل لإحدى قاعات الرقص التي دُعيت إليها في المستعمرة. ثم أدركت أننا كنا نقف في منطقة كانت تشغلها غرف

عديدة؛ تلاشت حوائط التقسيمات تقريباً بشكل تام، لدرجة أن الحائط التالى كان على مسافة خمس وعشرين ياردة. وهناك رأيت سبعة أو ثمانية جنود يصطفون، وجوههم قبالة القرميد. فى البداية ظننت أنهم أسرى، لكننى بعد ذلك رأيت كيف أن كل رجل كان يقف أمام ثقب صغير أدخل فيه ماسورة بندقيته. كان الملازم قد عبر بالفعل كسارة الحجارة وكان يتحدث إلى رجل رابض خلف رشاش آلى مرفوع على حامل ثلاثى القوائم. هذا الرشاش الآلى كان منصوباً أمام أكبر الثقوب - الثقب الذى ينبغى علينا العبور من خلاله لنكمل رحلتنا. إضافةً إلى أننى رأيت، مع اقترابى، أن محيط الثقب قد تم تحصينه بالأسلاك الشائكة، بما يسمح فقط لماسورة البندقية للمناورة.

اعتقدت فى البداية أن الملازم كان يطلب من الجندى إزاحة هذه العقبة من طريقنا، لكننى رأيت مدى التوتر الذى أصبح فيه كل الحاضرين. لم يرفع الرجل الرابض خلف الرشاش الآلى، أثناء توجيه الكلام إليه من قبل الضابط، عينه عن الثقب الذى أمامه. الجنود الآخرون أيضاً، على امتداد الحائط، ظلوا فى أماكنهم شاهرين فوهات أسلحتهم، وكل انتباههم فى تمام التركيز على أى شىء فى الجانب الآخر.

لحظة انخفضت حدة ما ينطوى عليه هذا المشهد من خطر، أحسست بميل إلى التراجع إلى الثقب السابق. لكننى حينئذٍ رأيت الملازم يعود إلى وظل عند المكان الذى كنت أقف فيه.

"تعانى بعض المشاكل"، قال. "منذ بضع ساعات مضت تمكن اليابانيون من الاندفاع إلى الأمام قليلاً. لقد استطعنا الآن حملهم على

التراجع إلى الخلف ثانيةً وقد تم إعادة إقامة الخط الدفاعي حيث كان صباح اليوم. مع ذلك بدا أن عددًا من الجنود اليابانيين لم يتراجعوا مع الآخرين، وقبض عليهم الآن خلف خطوطنا. هم الآن قد انقطعت بهم السبل ولهذا فهم في منتهى الخطورة. رجالى الآن يعتقدون أنهم على الجانب الآخر من ذلك الحائط في هذه اللحظة.

"حضرة الملازم، أنت لا تقترح، أليس كذلك، أن نؤجل حتى يحل الأمر نفسه؟"

"أخشى أننا سوف نضطر للانتظار، بالتأكيد."

"لكن إلى متى؟"

"من الصعب بحال أن نتنبأ. هؤلاء الجنود محتجزون، وسوف يتم أسرهم أو قتلهم في النهاية. لكنهم يحملون أسلحة في الوقت نفسه، وهم في منتهى الخطورة."

"تقصد أننا من الممكن أن ننتظر لساعات؟ أو حتى أيام؟"

"هذا وارد. سيكون من الخطورة علينا أن نكمل."

"حضرة الملازم، أنا مندهش منك. كان لدى انطباع بأنك، شخص متعلم، في تمام الوعي بأهمية مشروعا الراهن. بالتأكيد هناك طريق آخر يمكننا أخذه لنتجاوز هؤلاء الجنود."

"هناك طرق أخرى. لكن يبقى أننا سنظل في خطر حقيقي كلما تقدمنا. لسوء الحظ، يا سيدى، أنا لا أرى أى بديل غير الانتظار. من الممكن أن نحل الموقف بعد قليل. معذرة."

كان أحد الجنود إلى جوار الحائط يومئ بإلحاح، والآن بدأ الملازم يعبر كسارة الحجارة باتجاهه. لكن حينئذ بالضبط انطلقت من الرشاش الآلى سلسلة من الطلقات النارية تصم الأذان، وعندما توقف كانت هناك صرخة طويلة ممتدة تأتي من خلف الحائط. الصرخة بدأت زاعقة ثم بدأت في التلاشى حتى اختزلت في نسيج غريب عالى النبرة. كان صوتاً مخيفاً وتحجرت أنا فى مكانى وأنا أستمع إليها. فقط عندما عاد الملازم مندفعاً وسحبني لأنبطح خلف بعض مخلفات البناء المتهدمة، أدركت أن هناك طلقات تضرب الحائط الذى خلفى. الرجال الذين كانوا خلف الحائط التالى كانوا يطلقون النار أيضاً، ثم قام الجندى الرابع خلف الرشاش الآلى بإطلاق سلسلة أخرى من النيران. بدا أن هيمنة سلاحه قد أسكتت الأسلحة الأخرى، بعدئذٍ، ولفترة بدت وكأنها مبالغ فيها، كان الصوت الوحيد يأتى من الرجل الجريح خلف الحائط. استمر الأنين عالى النبرة لعدة لحظات، ثم بدأ يزعق بشيء ما باليابانية ويرتفع صوته أعلى وأعلى؛ بين الحين والآخر كان الصوت يتحول إلى صراخ مسعور، ثم يتلاشى ويتحول إلى أنين. كان هذا الصوت المجرد يتردد صداه بصورة مثيرة للأعصاب بين الأنقاض، لكن الجنود الصينيين ظلوا فى أماكنهم بلا حراك، دون أن يحولوا انتباههم عما يمكن أن يروه من خلال الحائط. فجأة استدار الجندى الرابع خلف الرشاش الآلى وتقياً بجانبه على الأرض، قبل أن يستدير على الفور عائداً للتقب المحاط بالأسلاك الشائكة أمامه. لم يكن سهلاً، من خلال الطريقة التى فعل بها هذا، أن نحدد إذا ما كان لمرضه علاقة بأعصابه، أو بصوت الرجل الذى كان يُحتضر، أو ببساطة ببعض آلام المعدة.

أخيراً، استرخى الجنود بصورة ملحوظة تماماً، رغم أن أوضاعهم ومواقعهم لم تتغير. سمعت الملازم إلى جانبي يقول:

"هكذا ترى الآن، يا مستر بانكس، أن التقدم من هنا ليس بالأمر اليسير."

كنا نجثم على ركبنا، ولاحظت أن بدلتى الفلانية كانت تقريباً غارقة تماماً في الغبار والأوساخ. استغرقت بضع ثوانٍ لأعيد ترتيب أفكاري قبل أن أقول:

"أنا أقدر حجم المخاطر. لكننا، رغم ذلك، لابد وأن نواصل. تحديداً رغم كل هذا القتال الجاري، لا ينبغي ترك والدي في ذلك المنزل لحظة واحدة أكثر من اللازم. هل لي أن أقترح أخذ هؤلاء الرجال الذين هنا معنا؟ في هذه الحالة لو طلع علينا هؤلاء اليابانيين، سنكون أكثر قوة."

"لا يمكنني، من موقع مسئوليتي كقائد هنا، التصديق على فكرتك، يا مستر بانكس. لو ترك هؤلاء الرجال مواقعهم، فسوف يكون مركز القيادة عارياً تماماً. إضافةً إلى أنني سأكون قد وضعت حياة الجنود في مخاطرة لا طائل تحتها."

أطلقت تهيدة سخط وغضب. "ينبغي أن أقول، يا حضرة الملازم، إنه من قبل التفريط من جانب رجالك أنهم سمحوا لليابانيين التقدم خلف خطوطك. لو أن كل رجالك كانوا يؤدون واجباتهم كما ينبغي، لما حدث كل هذا أبداً حسبما أعرف يقيناً."

"لقد قاتل رجالى بشجاعة جديرة بالثناء والإطراء، يا مستر بانكس. وليس خطوهم أن المهمة الخاصة بك معرقله فى الوقت الراهن."

"ماذا تعنى بهذا، يا حضرة الملازم؟ ماذا تقصد؟"
"من فضلك، هدى من نفسك، يا مستر بانكس. أنا فقط أعنى أنه ليس خطأ رجالى لو..."
"خطأ من إذا، يا سيدى؟ أنا أعنى ما تقصد! آوه نعم! أعرف أنك كنت تفكر فى هذا منذ فترة. كنت أسأل متى ستفصح عنها أخيراً."
"سيدى، لا أعرف عما..."

"أنا أعرف تمامًا فى ماذا كنت تفكر طيلة الوقت، يا حضرة الملازم! رأيت فى عينيك. أنت تظن أن هذا خطئى أنا، كل هذا، كل هذه المعاناة القاسية، كل الدمار هنا، كنت أرى فى وجهك عندما كنت تمشى خلال هذا كله الآن تحديدًا. لكن هذا لأنك لا تعرف شيئًا، لا تعرف شيئًا بالتأكيد، يا سيدى، بخصوص هذا الأمر. ربما على الأكثر تكون على دراية بشيء أو شيئين عن القتال، لكن دعنى أقل لك إن حل قضية معقدة تعتبر أمرًا مختلفًا من الواضح أنك ليس لديك أدنى فكرة عما يكتنف الأمر. مثل هذه الأمور تستغرق وقتًا، يا سيدى! قضية كهذه تتطلب الكثير من الكياسة. أعتقد أنك تتصور أن باستطاعتك الاندفاع فيها بالحرايب والبنادق، اليس كذلك؟ لقد استغرقت وقتًا، أنا أقبل ذلك، لكن هذا يعتبر جزءًا من طبيعة قضية كهذه. لكن أنا لا أعرف لماذا على أن أزجج نفسى بترديد كل هذا. ماذا تفهم عنها، أيها الجندى البسيط؟"

"مستر بانكس، ليس هناك حاجة للشجار. أنا فقط أحمل لك خالص الأمنيات بالنجاح. أنا ببساطة أخبرك بما هو ممكن..."

"إن اهتمامي يتناقض ويتناقض بفكرتك عن الممكن والمستحيل، يا حضرة الملازم. اسمح لي أن أقول لك، أنت خير دعاية للعسكرية الصينية. هل أتعامل مع الأمر على أنك تتراجع عن وعدك؟ وأنت ترفض مرافقتي إلى ما وراء هذه النقطة؟ أنا أتعامل مع الأمر هكذا. أنا سأترك لإنجاز هذه المهمة الصعبة بنفسى. حسناً جداً، سأفعل ذلك! سأفتح المنزل بمفردى!"

"أعتقد، يا سيدى، أنك لابد وأن تهدي من نفسك قبل أن تتمادى فى قول أى شىء آخر..."

"وثمة شىء آخر، يا سيدى! يمكنك أن تثق تماماً فى أننى لن أذكر اسمك فى الاحتفال الذى سيقام فى جيسفيلد بارك. لو أننى فعلت على الأقل، فسوف يكون ذلك من قبيل المجاملة..."

"مستر بانكس، اسمع من فضلك. لو أنك قررت أن تكمل رغم الخطر، فلن أستطيع أن أمنعك. لكنك بلا شك ستكون فى أمن وأنت وحدك. معى ستكون بالتأكيد معرضاً لإطلاق النار عليك. أنت، على النقيض، رجل أبيض بملابس مدنية. ومادمت تمتعت بكثير من الحرص، فمن الممكن جداً ألا تتعرض لأى أذى. بالطبع، أنا أكرر عليك نصيحتى بالانتظار حتى يستقر الموقف هنا. لكننى ثانية، كشخص له أبوان مسنان، أفهم جيداً مشاعر الإلحاح داخلك."

وقفت على قدمي ونفضت التراب قدر المستطاع عن ملابسى.
"حسنًا إذا، سأخذ طريقى"، قلت بفتور.

"فى هذه الحالة خذ هذه معك، يا مستر بانكس." كان يمد يده
بكشاف صغير. "أنصحك، كما قلت من قبل، أن تتوقف وتنتظر إذا لم
تبلغ هدفك قبل حلول الظلام. لكننى أرى من اتجاهك الحالى بأنك
ربما تكون أميل للتقدم. فى هذه الحالة، سوف تحتاج بالتأكيد إلى
الكشاف. البطاريات ليست جديدة، ولذا فلا تستخدمه إلا عند
الضرورة."

أسقطت الكشاف فى جيب الجاكت، ثم شكرته باستتكار، نادمًا
بالفعل إلى حد ما على انفجارى فيه. الرجل المحتضر، كان وقتئذٍ قد
كف عن محاولة الكلام وكان يصرخ فقط ثانيةً. بدأت المشى باتجاه
الصوت، عندما قال الملازم:

"لا يمكنك أن تمضى من هذا الطريق، يا مستر بانكس. سوف
تضطر للتحرك شمالاً لبعض الوقت، ثم حاول تغيير مسار نفسك فيما
بعد. تعال من هنا، يا سيدى."

لبضع دقائق، قادنى على طريق متعامد على الطريق الذى كنا
نمشى عليه من قبل. بعد فترة وصلنا إلى حائط آخر به ثقب.

"لأبد وأن تأخذ هذا الطريق لمسافة نصف ميل على الأقل قبل أن
تتجه شرقًا ثانيةً. ربما تستمر فى المرور بجنود، من الجانبين. تذكر
ما قلته لك، حافظ على إخفاء مسدسك، ودائمًا تعلن عن حيادك. لو
قابلت أيًا من السكان، اطلب منه أن يوجهك إلى المحرقة الشرقية.

أتمنى لك حظاً سعيداً، يا سيدى، وأعتذر عن عدم استطاعتي مد يد
العون لك أكثر من ذلك.

بعد أن تحركت شمالاً لعدة دقائق، لاحظت أن البيوت كانت أقل
خراباً. مع ذلك، فلم يجعل هذا رحلتى أسهل؛ كان كون أسطح
المنازل في حالة أكثر سلامة يعنى أنه يتحتم على أن أتقدم بضوء
أكثر خفوتاً - كنت قد قررت أن أدخر الكشف حتى حلول الليل -
وكنت غالباً أتحسس طريقى على امتداد حائط لمسافة قبل وصولى
إلى فتحة. كان هناك، لسبب ما، الكثير من الزجاج المهشم في هذه
المنطقة المجاورة، ومنطقة كبيرة غارقة في الماء الأسن. كنت أسمع
باستمرار انطلاقات مجموعات كبيرة من الفئران، وفي إحدى المرات
داست قدمى جثة كلب ميت، لكننى لم أستطع أن أسمع أى أصوات
قتال.

عند هذه المرحلة من الرحلة تقريباً، وجدت نفسى أفكر ثانية فى
جينيفير، وهى تجلس فى حجرة المتميزين، وفى وجهها وهى تقطع على
نفسها هذا العهد الغريب، الذى تلفظت به بمنتهى الجدية، أن "تساعدنى"
عندما تكبر. ذات مرة، عندما كنت أتلصص طريقى للأمام، عاودتنى
صورة عبثية للأطفال الفقراء يلهثون خلفى فى هذه المنطقة الشبحية،
لكننى ببساطة لم أستطع أن أتحمل الفكرة وواصلت المشى. هذه
الحساسية كلفتنى الكثير، لأننى، ولبعض الوقت، لم أجد فتحة أخرى،
وبعد ذلك، هيمن على انطباعٍ بأننى أنزلق أبعد وأبعد عن مسارى.

مع حلول الظلام تماماً وبداية استخدامى للكشاف، كنت أمر
بعلامات أكثر تدل على أن المكان مأهول. كثيراً ما كنت أتعثّر فى

خزانة ذات أدراج، أو ضريح، وفي غرفٍ بكاملها نادرًا ما تكون أثاثاتها مضابة بأذى، تاركةً انطباعًا بأن الأسرة قد غادرتها وخرجت اليوم. لكن حينئذٍ، وإلى جوار مثل هذه الأماكن مباشرة، اكتشفت وجود غرفٍ أكثر مهدمة تمامًا أو غارقة في الطوفان.

كان هناك أيضًا، أعداد كبيرة من الكلاب الضالة - حيوانات هزيلة خفت من مهاجمتها لي، لكنها كانت ترتد بعيدًا وهي تهدر مدممة كلما صوبت ضوء الكشف في اتجاهها. مرةً مررت بثلاثة كلاب يقومون بوحشية بتمزيق شيء ما؛ سحبت مسدسي، وأنا في تمام اقتناعي بأنهم سيأتون لي؛ لكن حتى هذه الحيوانات شاهدتني بخنوع وأنا أمر بها، وكأنهم درجوا على احترام المجزرة التي يستطيع الآدمي أن يقوم بها.

لم أندش جدًا، إذًا، حينما وصلت أمام الأسرة الأولى. وجدتهم يظهرن عندما مددت فيهم ضوء بطاريتي، ينكمشون مذعورين في ركنٍ معتم: العديد من الأطفال، ثلاث نساء، رجل مسن. حولهم أمتعة وأواني معيشتهم. حدقوا في بذعر، وهم يلوحون بأسلحة مؤقتة، أخفضوها قليلًا فقط عندما تلفظت بكلمات طمأنينة. حاولت أن أستفسر عما إذا كنت بالقرب من المحرقة الشرقية، لكنهم أجابوني بنظرات قوامها عدم الفهم. مررت بثلاث أو أربع أسر أخرى في البيوت القريبة - وكنت، بصورة متزايدة، قادرًا على استخدام مداخل الأبواب أكثر من الفتحات الموجودة في الجدران - لكنني لم أجدهم أكثر استجابة.

بعدئذ، دخلت إلى مكان أوسع، الجانب القصي منه كان غارقاً في ضوءٍ أحمر من مصباح. كان هناك الكثير من الناس يقفون في الظلال - ثانيةً، السواد الأعظم منهم كانوا من النساء والأطفال ومعهم قليل من العجائز. بدأت أردد كلمات الطمأنينة المعتادة، عندما استشعرت شيئاً غريباً في الجو، توقفت لأتحسس مسدسى.

استدارت الوجوه صوبى على ضوء المصباح. لكن على الفور تقريباً عادت النظرات إلى الركن القصي حيث يوجد دسنة أو أكثر من الأطفال ينكمشون حول شيء ما على الأرض. بعض الأطفال كانوا يفسون عصيهم فيه أياً كان، ثم لاحظت أن عدداً كبيراً من الكبار كانوا يشهرون المناجل المشحوزة، والسواطير والأسلحة المرتجلة الأخرى. بدا الأمر وكأننى قد قطعت عليهم طقساً يقومون به في الظلام، وكانت رغبتى الأولى هى أن أتحدث عند مرورى بهم. ربما كان ذلك بسبب سماعى لجلبة ما، أو ربما كان نوعاً من الحاسة السادسة؛ لكننى وجدت نفسى، ومسدسى كان لم يزل مسحوباً، أتحرك باتجاه حلقة الأطفال. بدا الآخرون يمانعون فى الكشف عما لديهم، لكن ظلالهم تفرقت تدريجياً. ثم رأيت فى الوهج الأحمر الخافت شبح جندي يابانى يستلقى ساكناً تماماً على جنبه. يده مكبلتان خلف ظهره؛ قدماه أيضاً كانتا مغلولتين. عيناه كانتا مسبلتين، واستطعت أن أرى رقعة قاتمة تنفذ إلى زيه العسكرى تحت إبطه من الأرض. وجهه وشعره كانا غارقين فى التراب ويلطخهما الدم. رغم هذا كله، أدركت أنه أكبراً دونما صعوبة تذكر.

بدأ الأطفال فى التجمع، ثانيةً، فى دائرة، أحد الأطفال نخس جسم أكبرا بعصاه. أمرتهم أن يتراجعوا، وأنا ألوح لهم بمسدسى، وأخيراً تراجع الأطفال قليلاً، وكانوا جميعاً يشاهدون بامعان.

ظلت عينا أكبرا مسبلتين بينما كنت أتفحصه. كان زيه العسكرى ممزقاً من الخلف، مما عرى جلده، بصورة جعلتني أفترض أنه قد سُحب على الأرض. من المحتمل أن يكون الجرح الذى كان تحت إبطيه قد سببته شظايا قنبلة. كان هناك ما يُشبه الانتفاخ وشج فى مؤخرة رأسه. لكنه كان مغطى تماماً بالأوساخ، والضوء كان خافتاً جداً، مما جعل من الصعوبة بحال تحديد مدى خطورة جراحه. عندما صوبت ضوء البطارية عليه، ملأت الظلال الثقيلة كل المكان المحيط به، بما جعل الرؤية بوضوح أمراً عسيراً.

ثم، بعد فترة من فحصي له، فتح عينيه.

‘أكيرا!’ قلت، وأنا أقرب وجهي له. ‘إنه أنا، كريستوفر!’

خطر ببالي أن الضوء الذى يسقط من خلف رأسى، سيجعلني أظهر وكأننى لست أكثر من سلويت مفزع. ولهذا دعوته باسمه ثانياً. من الممكن أن يكون هذا الفعل فقط هو ما جعلني أبدو كشبح بشع، لأن أكبرا لوى وجهه متقرزاً، ثم بصق بازدياء على. لم يستطع أن يستجمع من قواه وسال اللعاب أسفل خده.

‘أكيرا! إنه أنا! رائع أن أجذك هكذا. الآن أستطيع مساعدتك.’

نظر إلى، ثم قال: ‘دعنى أموت.’

‘أنت لا تموت، أيها الفتى العجوز. لقد نزفت بعض الدم، وقد مررت بفترة فظة مؤخراً. لكننا سوف نأخذك لتتلقى المساعدة الملائمة، وستكون على ما يُرام، ستري.’

‘خنزير. خنزير.’

‘خنزير؟’

‘أنت. خنزير.’ وثانيةً بصق على، وثانيةً سال اللعاب من فمه دون قوة.

‘أكيرا. ألم تزل فعلاً لا تستطيع أن تميز من أنا.’

‘دعنى أموت. أموت كجندى.’

‘أكيرا، إنه أنا. كريستوفر.’

‘أنا لا أعرف. أيها الخنزير.’

‘اسمع، دعنى أخلصك من هذه القيود. حينئذٍ ستشعر أنك أفضل كثيراً. ثم بعد ذلك سترجع إلى رشدك.’

نظرت أعلى كتفى، وقد فكرت فى طلب آلة ما أقطع بها القيود. حينئذٍ رأيت أن كل الناس فى الغرفة قد تجمعوا واحتشدوا على مقربةٍ خلفى - كثيرون يحملون أسلحة من نوع ما أو آخر - وكأنهم يأخذون أوضاعهم لالتقاط صورة جماعية مشئومة. جفلت إلى حد ما - لأننى للحظة كنت قد نسيتهم - وتحسست مسدسى. لكن فى تلك اللحظة بالضبط، قال أكيرا بقوة جديدة:

‘لو قطعت أحد القيود، سأقتلك. احذر، فهمت، أيها الإنجليزى؟’
‘عن ماذا تتحدث؟ انظر، يا ضيق العقل، إنه أنا، صديقك. سوف
أساعدك.’

‘أنت أيها الخنزير. تقطع القيد، سأقتلك.’
‘انظر، هؤلاء الناس هنا سيقتلونك بسرعة جدًا. على أية حال،
جراحك ستلتئم تواء. لابد وأن تتركنى أساعدك.’

فجأة بدأت امرأتان صينيتان فى الصراخ. إحداهما بدت وكأنها
تخاطبنى. للحظة ساد الارتباك، ثم ظهر طفل فى حدود العاشرة
يحمل منجلاً. عندما أتى إلى دائرة الضوء، رأيت قطعة فراء - ربما
كانت بقايا أحد القوارض - تتدلى من طرف شفرة المنجل. أدهشنى
أن الولد كان يحمل المنجل بعناية شديدة حتى لا يسقط على الأرض،
لكن حينئذ قامت السيدة التى كانت تزعم فى وجهى بإمساك المنجل
وسقط ما كان يتدلى منه إلى الأرض.

‘الآن انظروا،’ وصرخت فى الحشد. ‘لقد ارتكبتم خطأ. هذا
رجل طيب. صديقى. صديق.’

صرخت المرأة ثانية، مشيرة إلى أنه ينبغى على أن أتحنى جانباً.
‘لكنه ليس عدوكم،’ واصلت كلامى. ‘إنه صديق. سوف
يساعدنى. يساعدنى فى حل القضية.’

رفعت المسدس فتراجعت المرأة للخلف. فى الوقت نفسه، كان
الآخرون جميعاً يتحدثون فى الوقت نفسه وبدأ أحد الأطفال فى البكاء.
ثم اندفع رجل كبير السن إلى المقدمة، ومعه فتاة تمسك يده.

قال، 'أنا أتحدث الإنجليزية.'

'حسنًا، شكرًا للسماء على ذلك.' قلت. 'من فضلك أخبر كل الحاضرين أن هذا الرجل هنا صديقي. وبأنه سوف يساعدني.'

'هو. جندي ياباني. لقد قتل العمدة يون.'

'أنا واثق أنه لم يفعل. ليس هو شخصيًا.'

'لقد قتلها ونهبها.'

'لكن ليس هذا الرجل. إنه أكبر. هل رآه أيكم، هذا الرجل بالتحديد، يسرق أو ينهب؟ اذهب واسألهم.'

استدار الرجل، على مضض إلى حد ما، وغمغم بشيء. أثار هذا جدلاً أكثر، سلاح آخر، منجل مشحون، تناقلته الأيدي وأمسكته المرأة الأخرى التي في المقدمة.

'حسنًا؟' سألت الرجل الكبير. 'ألست أنا على حق؟ ليس هناك من رأى أكبر شخصيًا يرتكب أي خطأ.'

هز الرجل العجوز رأسه، ربما على سبيل الشعور بالخزي، ربما ليشير إلى عدم فهمه. خلفي، كان أكبر يصدر جلبة فاستدرت إليه.

'انظر، هل تفهم؟ الأمر فقط مثل مرمى صدفة من هنا. لقد خلطوا بينك وبين شخص آخر، ويريدون قتلك. بحق الله، ألم تزل غير قادر على معرفة من أنا؟ أكبر! إنه أنا، كريستوفر!'

أشحت بوجهي عن الحشد تماماً، واستدريت له كلبيةً، وصوبت ضوء البطارية على وجهه ثانيةً. ثم حينما أطفأتها، رأيت إرهابات الإدراك على وجهه.

‘كريستوفر،’ قال، بطريقة تجريبية تقريباً. ‘كريستوفر.’

‘نعم، إنه أنا. فعلاً. لقد مضى وقتٌ طويل. وتقريباً يبدو أنها متأخرة جداً.’

‘كريستوفر. صديقي.’

نهضت، ونظرت خلال المحتشدين، ثم أومأت لولد صغير كان يمسك سكين مطبخ ويقترب. عندما أخذت سكين المطبخ منه، تحركت المرأة التي كانت تحمل منجلاً باندفاع تهديدي صوبي، لكنني رفعت المسدس وصرخت فيها أن تقف مكانها. ثم جثوت ثانيةً على ركبتي إلى جوار أكيرا، وبدأت في تقطيع قيوده. لقد تخيلت قد قال ‘خيطة’ بسبب لغته الإنجليزية المحدودة، لكنني الآن رأيت أنه في الحقيقة كان مقيداً بخيط قنبي قديم انقطع بسهولة تحت الشفرة.

‘أخبرهم،’ قلت للرجل العجوز، عندما قطعت القيود عن يدي أكيرا، ‘قل لهم إنه صديقي. وإنا سوف نحل القضية معاً. قل لهم إنهم ارتكبوا خطأ جسيماً. هيا، أخبرهم!’

عندما وجهت انتباهي إلى قدمي أكيرا، سمعت الرجل العجوز يغمغم بشيء ما، وبدأ الجدل ثانيةً بين الناس. ثم نهض أكيرا ثانيةً بحرص ونظر إلى.

‘صديقي كريستوفر،’ قال. ‘نعم، نحن أصدقاء.’

أحسست بالجمهور يتحرك ونهضت على قدمي ربما بسبب قلقي على صديقي صرخت بنبرة صارمة: ‘ممنوع اقتراب أي منكم! سوف أطلق النار، سأفعلها حقاً!’ ثم استدرت إلى الرجل العجوز، زاعقاً: ‘أخبرهم أن يتراجعوا إذا ما أرادوا صالح أنفسهم!’

لا أعرف ما الذي ترجمه الرجل العجوز. ‘على أية حال، فتأثير ما قاله على الناس - من كان حبه للقتال، كما أدركت الآن، قد بالغت في تقديره - أفضى إلى حالة من الارتباك الكامل. نصفهم بدا وأنه اعتقد أنني كنت أريدهم أن يتراجعوا إلى جوار الحائط الذي كان إلى اليسار منا، بينما تخيل الباقون أنني أمرتهم بالجلوس على الأرض. من الواضح أن جميعهم قد خضعوا لسلوكي التحذيري، ومن تكالبهم على الإذعان للأمر، كانوا ينكفئون على بعضهم البعض، ويصرخون في ذعر.

أكيراً، وقد أدرك أنه لا بد وأن ينتهز الفرصة، بذل محاولة للوقوف على قدميه. رفعته من ذراعه، وللحظة وقفنا نتأرجح معاً بصورة غير مستقرة. اضطررت لإعادة المسدس ثانية إلى حزامي كي أحرر منه يدي الأخرى، وحاولنا معاً أن نتقدم خطوة أو اثنتين. رائحة عفنة كانت تتضح من الجرح، لكنني دفعتها إلى هامش عقلي، وصرخت عبر كتفي، ولم أعد مبالٍ بعدد من سيفهمون منهم:

‘سترون فوراً! سترون أنكم ارتكبتم خطأ.’

‘كريستوفر،’ غمغم أكيراً في أذني. ‘صديقي كريستوفر.’

‘انظر هنا،’ قلت له بهدوء. ‘لابد وأن نبتعد عن هؤلاء الناس.
مدخل الباب هذا الذى فى الركن هناك. هل تظن أنك تستطيع المرور
منه؟’

نظر آكيرا، وهو يلقى بثقله كله على كتفى، فى العتمة. ‘نعم.
هيا.’

بدا أن ساقه لم تجرح وكان يمشى بحالة معقولة. لكن بعد خمس
أو ست خطوات معاً، زلت قدمه، وللحظة، بينما كنا نجتهد كى لا
ننهار فوق بعضنا البعض، لابد وأنا كنا نبدو للناظرين وكأننا
نصارع بعضنا البعض. لكننا نجحنا فى أن نجد حلاً آخر، وشرعنا
فى المشى. فى إحدى المرات، جرى طفل صغير ليقذفنا ببعض
الوحد، لكنه جذب إلى الخلف على الفور. ثم وصلت أنا وآكيرا إلى
مدخل الباب - الباب ذاته كان قد اختفى - وترنحنا عبره إلى المنزل
المجاور.

الفصل العشرون

ساعة عبرنا خلال حائطين آخرين، ولم يكن هناك ما يشير إلى وجود من يفتقى أثرنا، شعرت لأول مرة بحالة من الابتهاج للم شملى، أخيراً، أنا وصديقى القديم. وجدت نفسى أضحك لبضع مرات ونحن نستند بعضنا البعض ونتمايل، ثم ضحك أكيرا أيضاً، وبدأت سنوات فراقنا وكأنها تذوب بيننا.

‘كم مضى من الوقت على فراقنا، يا أكيرا؟ لقد مر وقتٌ طويل جداً.’

كان يتحرك إلى جوارى متألماً، لكنه استطاع أن يقول: ‘نعم، وقتٌ طويل.’

‘تعرف، لقد رجعت. إلى البيت القديم. أعتقد أن منزلكم لم يزل إلى جواره.’

‘نعم. إلى جواره مباشرة.’

‘أوه، هل رجعت أنت أيضاً؟ لكن بالطبع، أنت كنت هنا طيلة الوقت. لا تنتظر إلى هذا على أنه شيء له مذاقه الخاص.’

‘نعم،’ قال ثانية، ببعض الجهد. ‘وقتٌ طويل. إلى جواره مباشرة.’

اضطربته للتوقف، وأجلسته على بقايا حائط. ثم تفحصت جروحه ثانية باستخدام ضوء البطارية وعدستى المكبرة، بعد أن خلعت عنه السترة الرثة لزيه العسكرى بعناية شديدة. كنت لم أزل

غير قادرٍ على التيقن بدرجة كبيرة؛ كنت خائفًا أن يكون الجرح تحت ذراعه قد دخل في طور غرغرينا، لكن أدهشني حينئذٍ أن الرائحة الكريهة ربما كان مصدرها شيء قد لطح ثيابه، ربما من المكان الذي قد كان يرقد فيه على الأرض. على الجانب الآخر، لاحظت أنه ساخن بصورة خطيرة وغارق تمامًا في عرقه.

خلعت سترتي، وقطعت عدة شرائح من الكتان كي أستخدمها كضمادات. ثم بذلت قصارى جهدى لتنظيف الجرح بمنديلى. رغم أننى حاولت إزاحة الصديد برقة قدر المستطاع، فقد أخبرتنى شهقاته الحادة بأننى أولمه.

‘أنا آسف، يا أكيرا. سأحاول أن أكون أقل جلافة.’

‘جلافة،’ قال، وكأنه يمعن التفكير فى الكلمة. ثم أطلق ضحكة مباغثة وقال: ‘أنت تساعدنى. شكرًا لك.’

‘بالطبع أنا أساعدك. وفى التو، سنحصل لك على المساعدة الطبية الملائمة. حينئذٍ ستكون على ما يرام فى أقرب وقت. لكن قبل أن نفعل ذلك، سيتحتم عليك مساعدتى. هناك مهمة عاجلة جدًا أمامنا أولاً، وأنت ستفهم أكثر من أى شخصٍ آخر لماذا هى عاجلة. تعرف، يا أكيرا، لقد حددت الموقع أخيرًا. المنزل الذى يُحتَجَز فيه والذى نحن على مقربة منه جدًا فى هذه اللحظة. أنت تعرف، أيها الفتى العجوز، لبعض الوقت، كنت أفكر فى الذهاب إلى ذلك المنزل وحدى. كنت سأفعلها وحدى، لكن فى الواقع، ستكون مخاطرة مروعة للغاية. السماء وحدها تعرف كم عدد المحتجزين هناك. أنا، فى

الأصل، قد طلبت عددًا من الجنود الصينيين، لكن ذلك كان مستحيلًا. أنا حتى أفكر في طلب العون من اليابانيين. لكن الآن، نحن معًا، سنقوم بالمهمة، سننجح في إنجاز الأمر بكل تأكيد.

كنت طيلة الوقت أحاول أن أربط الضمادة المستحدثة حول جذعه ورقبته بطريقة تجعل الجرح تحت بعض الضغط. كان أكبرا يشاهدني بإمعان، وعندما توقفت عن الكلام، ابتسم وقال: 'نعم. سأساعدك. أنت تساعدني. حسنًا.'

'لكن، يا أكبرا، لا بد أن أعترف. لقد ضللت قليلاً. لقد كنت أمضى في الطريق الصحيح جدًا قبل أن ألتقيك بفترة قصيرة. لكن الآن، لا أعرف أي طريق ينبغي على أن آخذه. لا بد أن نبحث عن شيء ما يسمى المحرقة الشرقية. مبنى كبير له مدخنة. أسألك، أيها الفتى العجوز، هل عندك أية فكرة عن مكان وجود هذه المحرقة؟'

كان أكبرا يواصل النظر إلى، فيما صدره يجيش. عندما لمحتة هكذا، تذكرت فجأة تلك الأوقات التي عندما كنا كثيرًا ما نجلس معًا على قمة الرابية الصغيرة في حديقتنا، لنستعيد أنفاسنا. كنت على وشك أن أذكره بهذا، عندما قال:

'أنا أعرف. أعرف هذا المكان.'

'تعرف كيفية الذهاب إلى المحرقة الشرقية؟ من هنا؟'

أومًا. 'أنا أقاتل هنا منذ أسابيع عديدة. أنا أعرف المكان هنا تمامًا مثلما' - بغتةً ابتسم ابتسامة عريضة - 'مثلما أعرف قريتي، مسقط رأسي.'

ابتسمت أنا أيضاً، غير أن ملاحظته أربكتنى. 'أى قرية ومسقط رأس هذه؟' سألت.

'القرية مسقط الرأس التى وُلدت فيها.'

'تقصد المستعمرة الدولية؟'

كان آكيرا هادئاً للحظة، ثم قال: 'نعم. نعم. المستعمرة الدولية. قريتي ومسقط رأسي.'

'نعم،' قلت. 'أعتقد أنها قريتي ومسقط رأسي أنا أيضاً.'

بدأنا نستغرق أنا وهو فى الضحك، ولبضع لحظات واصلنا الهأهأة والضحك معاً بصورة هستيرية قليلاً. عندما هدأنا إلى حدٍ ما، قلت:

'سوف أخبرك بشيء غريب، يا آكيرا. بإمكانى أن أخبرك بهذا. كل تلك السنوات التى قضيتها فى إنجلترا، لم أشعر أبداً هناك أننى فى وطنى. المستعمرة الدولية. تلك ستكون دائماً وطنى.'

'لكن المستعمرة الدولية... 'هز آكيرا رأسه. 'هشة للغاية. غداً، اليوم التالى... 'لوح بإحدى يديه فى الهواء.

'أعرف ماذا تعنى،' قلت. 'وعندما كنا أطفالاً، كان الأمر يبدو راسخاً لدينا. لكن كما قررتها أنت تَوَا. إنها قريتنا مسقط رأسنا. المكان الوحيد الذى ننتمى إليه.'

بدأت أخلع عليه سترته ثانيةً، بمنتهى الحذر حتى لا أتسبب فى إيلاجه دون ضرورة.

‘هل أنت أفضل الآن، يا أكيرا؟ أنا آسف لأننى لا أستطيع أن أفعل المزيد لأجلك الآن. سنوفر لك فحصًا ملائمًا فى أقرب فرصة. لكن الآن، لدينا مهمة ملحة لابد من إنجازها. أخبرنى أين نتجه.’

كان تقدمنا بطيئًا. كان من الصعب على أن أستمر فى استعمال البطارية، وغالبًا ما كنا نتعثّر فى الظلام، مما كان قاسيًا على أكيرا. فى الحقيقة، كان على وشك الإغماء أكثر من مرة فى ذلك الجزء من رحلتنا، وتزايد وزنه حول كتفى. وأنا لم أكن خاليًا من الجراح الخاصة بى؛ فمن المزعج جدًا أن حذاءى اليمين قد انشق مما تسبب فى جرح قدمى بصورة سيئة، مفضيًا إلى ألم حاد مع كل خطوة. أحيانًا كنا من التعب بحيث لم نستطع التقدم لأكثر من اثنتى عشرة خطوة دون التوقف ثانية. لكننا قررنا ألا نركن إلى الجلوس فى هذه المناسبات، وكنا نقف ونترنح معًا، نلهث من أجل استعادة تنفسنا، ونعيد تعديل توازننا فى محاولة لإراحة ألم على حساب الآخر. تزايدت حدة الرائحة الزنخة التى كان ينضح بها جرحه، وكان صوت الفئران الهائجة الدائم مثيرًا للأعصاب، لكننا لم نكن، فى تلك المرحلة، نسمع أى أصوات للقتال.

فعلت أقصى ما يمكن للحفاظ على ارتفاع روحنا المعنوية، وذلك بالإشارة إلى بعض الملاحظات الطريفة كلما أمكننى ذلك. فى الحقيقة، رغم أن مشاعرى تجاه لم الشمل هذا، خلال تلك اللحظات، كانت ذات طبيعة معقدة. لم يكن هناك شك فى عميق امتنانى للقدر الذى جمع بيننا فى الوقت المناسب تمامًا لإنجاز مهمتنا الكبرى تلك. لكن فى الوقت نفسه، ثمة شيء فى انتابه الأسى لأن لم شملنا - الذى كنت،

ولوقت طويل، قد أمنت التفكير فيه - قد حدث في مثل هذه الظروف المروعة. لقد كان في الواقع بعيدًا تمام البعد عن المشاهد التي كنت دائمًا أرسمها في ذهني - حيث أنا وهو نجلس في ردهة مريحة في فندق ما، أو ربما في شرفة بيت أكيرا، المظلة على حديقة هادئة، نتجاذب أطراف الحديث، ونستغرق في الذكريات دونما انقطاع.

في الوقت نفسه، كان أكيرا يحافظ على إحساس واضح بالاتجاه رغم كل ما كان يشعر به من صعوبات. كثيرًا ما كان يقودنا إلى طريق خفت أن يفضي بنا إلى طريق مسدودة، لأجل ظهور مدخل أو فتحة فقط. بين الحين والآخر، كنا نمر بسكان آخرين، كنا نستشعر حضور بعضهم في الظلام ليس إلا؛ البعض الآخر كانوا يتحلقون حول نور مصباح أو نار، وكانوا يرمقون أكيرا بنظرات عداة خفت أن نتعرض للهجوم ثانية. لكن في معظم الأحيان كان يُسمح لنا بالمرور دونما مضايقات، وحتى في إحدى المرات نجحت في إقناع امرأة عجوز أن تسقينا في مقابل آخر الأوراق النقدية في جيبى.

ثم تغيرت تضاريس المنطقة بصورة ملحوظة. لم يكن هناك جيوب سكنية أخرى، ومررنا فقط ببعض أفراد منعزلين تتطوى نظراتهم على شيء من الخذلان واللامعنى، يغمغمون أو يكون مع أنفسهم. لم يكن هناك أية مداخل أو أبواب أخرى، فقط الفتحات المحفورة بالمظفار من نوعية الفتحات نفسها التي مررت عبرها في بداية الرحلة. كل واحدة منها عرضتنا لصعوبات بالغة، لأن أكيرا لم يكن قادرًا على المرور عبرها - حتى مع مساعدتى له في كل حركة - دون أن يشعر بألم مبرح.

منذئذٍ كنا قد توقفنا عن الكلام، وكنا ببساطة نُصدر نحيلاً مع كل خطوة، عندما أوقفنا أكيرا ورفع رأسه. ثم سمعت أنا الآخر صوت شخص ما يُصدر أوامره. كان من الصعب أن نحدد مدى قربنا من الصوت - ربما كان على بعد منزلين أو ثلاثة.

‘ياباني؟’ سألت هامسا.

واصل أكيرا الإنصات، ثم هز رأسه.

‘كومييتانج، يا كريستوفر، نحن بالقرب جدًا جدًا من... من...’
‘الجهة؟’

‘نعم، الجهة. نحن الآن بالقرب جدًا من الجهة. كريستوفر، إن هذا يعرضنا لكثير من الخطر.’

‘نعم، بالضرورة.’

كان هناك إطلاق مباغت لنيران بندقية، ثم من بعيد جدًا كان هناك رد بالرشاش الآلي. بقوة أحكمنا قبضتنا على بعضنا البعض، ثم حرر أكيرا نفسه من تشبثي به وجلس.

‘كريستوفر،’ قال بهدوء. ‘نرتاح الآن.’

‘لكننا لا بد وأن نصل إلى المنزل.’

‘نرتاح الآن. خطر جدًا أن ندخل في منطقة قتال أثناء الظلام. سنقتل. لا بد وأن ننتظر الصباح.’

رأيت أن هذا معقول، وعلى أية حال، فقد كنا في حالة من الإجهاد بحيث لا نستطيع أن نمضي أبعد من ذلك. أنا أيضًا جلست وأطفأت البطارية.

جلسنا فى العتمة لبعض الوقت، لم يكن يقطع الصمت سوى صوت أنفاسنا فقط. ثم بغتة بدأ تبادل إطلاق النار ثانية، وربما لمدة دقيقة أو اثنتين استمر إطلاق النار بطريقة وحشية. وانتهى فجأة؛ ثم بعد فترة قصيرة من الهدوء، بدأت أصوات جلبة عبر الحوائط. كان صوتاً ممتداً ورفيعاً، وكأنه نداء حيوان فى البرية، لكنه توقف بصرخة بعزم الصوت. بعدها سمعنا زعيقاً ونشيجاً، ثم بدأ الرجل الجريح يزعم بجمل كاملة. كان صوته يشبه بشكل ملحوظ الجندي الياباني المحتضر الذي كنت قد سمعته من قبل، وفى حالة الإجهاد التي كنت أعانيها، افترضت أنه لابد هو الرجل نفسه؛ كنت على وشك أن ألفت نظر أكيرا إلى هذا الوقت المشئوم الذي يعيشه هذا الشخص، عندما أدركت أنه كان يزعم بالماندارين، وليس باليابانية. وإدراكى بأن هذه الأصوات كانت من شخصين أثار فى الهلع إلى حد ما. لقد كان أنينهما المتألم متطابقاً بدرجة كبيرة، الطريقة التي تنهار بها صرخاتهما وتتحول إلى توسلات يائسة، ثم تعود إلى صرخات، حتى إن الفكرة التي استبدت بى هي أن كلاً منا يمضى فى طريقه إلى الموت - وأن هذه الضوضاء المزعجة تشترك فى صفاتها الكونية تماماً مثل صراخ الأطفال حديثي الولادة.

بعد فترة، أدركت الحقيقة التي تؤكد أنه لو أن القتال يتدفق فى غرفتنا، لكنا نجلس فى موقع عار تماماً. كنت على وشك أن أقترح على أكيرا التحرك إلى مكان ما أكثر أمناً، لكننى لاحظت أنه كان قد غط فى النوم. أضأت مصباح البطارية ثانية واستكشفت فى حذر المكان من حولنا.

كان الدمار المحيط بنا، حتى بالمقاييس العصرية، بالغ الحدة والخطورة. رأيت الدمار الذي خلفته القنابل اليدوية، الثقوب التي خلفها الرصاص في كل مكان، قرميد مهشم وقطع أخشاب. جاموس ماء ميت يرقد على جنبه في منتصف غرفة على مسافة سبع أو ثمانى ياردات منّا؛ كان يغطيه الرماد والأنقاض، وأحد قرونيه يشير إلى السقف. واصلت إلقاء شعاع من ضوء البطارية عليها حتى حددت كل النقاط الممكنة التي يمكن أن يدخل منها المقاتلون إلى حظيرتنا. والأهم من هذا كله، أنني اكتشفت، في الجانب القصي من الغرفة، خلف الجاموس، فجوة قرميد في الغرفة، كانت فيما قبل موقدًا أو مدفأة. انتابني الدهول من أن هذا المكان هو الأكثر أمنًا بالنسبة لنا لقضاء الليلة. هزرت أكيرا لأوقفه، بأن وضعت ذراعه حول رقبتى، ونهضنا على أقدامنا ونحن نستشعر الكثير من الألم.

عندما وصلنا فجوة القرميد تلك، أزحت جانبًا بعض الدبش ونظفت منطقة بها ألواح خشبية ناعمة بما يسمح لنا بالاستلقاء. فردت سترتى لأكيرا، وبمنتهى الحذر وضعته على الأرض على جانبه السليم. ثم استلقيت أرضًا في انتظار النوم.

رغم ما كنت أعانيه من إجهاد، فإن الصرخات المتوالية للرجل المحتضر، ومخاوفى من التورط فى القتال، وأفكارى بخصوص المهمة الخطرة التى نحن بصددھا منعونى من الاستغراق فى النوم. بإمكانى أن أقول إن أكيرا أيضًا ظل مستيقظًا، وعندما سمعته أخيرًا وقد نهض من رقدته، سألته:

‘كيف حال جرحك؟’

‘جرحى. ليس هناك مشكلة، ليس هناك مشكلة.’

‘دعنى أراه ثانية...’

‘لا، لا. ليس هناك مشكلة. لكن أشكر. أنت صديق جيد.’

رغم أنه لم يكن يفصل بيننا سوى بضع بوصات، فإننا لم نكن نرى بعضنا البعض على الإطلاق. بعد توقفٍ طويلٍ سمعته يقول:

‘كريستوفر، لابد وأن تتعلم التحدث باليابانية.’

‘نعم، لابد.’

‘لا، أنا أقصد الآن. تتعلم اليابانية الآن.’

‘حسنًا، بأمانة شديدة، أيها الرفيق العزيز، ليس هذا هو الوقت المناسب كى...’

‘لا. لابد أن تتعلم. لو أتى الجنود اليابانيون أثناء نومى، لابد وأن تتحدث إليهم. وتخبرهم أننا أصدقاء. لابد وأن تخبرهم وإلا فسوف يطلقون النار فى الظلام.’

‘نعم. أفهم مقصدك.’

‘لذلك يجب أن تتعلم. فى حالة نومى أو موتى.’

‘الآن انظر هنا، لا أريد أيًا من هذا الهراء. سوف تصبح كما الحصان فى أسرع وقت.’

كان هناك توقفٌ آخر، وتذكرت من سنوات مضت كيف كان أكبرا يفشل فى متابعتى إذا ما استخدمت المفردات الدارجة فى كلامى. لذلك قلت بهدوء وبطء:

‘سوف تكون فى أحسن حال. أفهمت، يا أكيرا؟ سأهتم بالأمر.
ستكون فى أحسن حال.’

‘عطوف جدًا،’ قال. ‘لكن الاحتياط أفضل. لابد أن تتعلم الكلام.
باليابانية. لو أتى أى جندى يابانى. سأعلمك كلمة. تذكرها.’

بدأ يتلفظ بشيء بلسانه الأصلى، لكن ما قاله كان طويلاً
واضطرتّه أن يتوقف.

‘لا، لا، لن أتعلم هذا. شيء أقصر بكثير. فقط لنوضح أننا لسنا
أعداء.’

فكر للحظة، ثم نطق جملة أقصر قليلاً فقط من السابقة. بذلت
محاولة، لكنه قال على الفور:
‘لا، يا كريستوفر. خطأ.’

بعد بضع محاولات، قلت: ‘انظر، ليس ثم من فائدة. فقط أعطنى
كلمة واحدة. الكلمة المرادفة لكلمة “صديق” لا يمكننى أن أستطيع تعلم
أى شيء آخر الليلة.’

‘تومود/تشى،’ قال. ‘قُل. تو- مو- د- تشى.’

كررت هذه الكلمة عدة مرات، وأظن كما ينبغى بالفعل، لكننى
حينئذٍ أدركت أنه كان يضحك فى الظلام. وجدت نفسى أضحك أيضاً،
ثم، تماماً مثلما فعلنا من قبل، بدأنا نضحك بصورة لم نستطع السيطرة
عليها. واصلنا الضحك لمدة دقيقة كاملة تقريباً، بعدها أظن أننى
رحت فى النوم بغتة.

عندما استيقظت، كانت أوليات تبشير الفجر تخترق الغرفة. نور شاحب، ضارب إلى الزرقة، وكان طبقة واحدة من الظلام قد تبددت. كان الرجل المحتضر وقتئذ قد صمت، ومن مكان ما تسلل إلى المكان تغريدة طائر. رأيت أن السقف الذي فوقنا كان قد تلاشى بصورة كبيرة، لدرجة أنني كنت أرى، من مرقدى حيث كان كفى يتكى على القرميد بصعوبة، نجومًا في السماء.

خطفت انتباهى حركة فنهضت مذعورًا. حينئذ رأيت ثلاثة أو أربعة فئران تتحرك حول الجاموس المائي الميت، ولبضع لحظات جلسات أحرق فيهم. حينئذ فقط التفت لأنظر على أكيرا، أفرعنى ما وجدت. كان يستلقى إلى جوارى فى تمام السكون، وكان لون وجهه شاحبًا جدًا، لكننى رأيت بارتياح أنه يتنفس بانتظام. وجدت عدستى المكبرة، وبدأت أتفحص جرحه برقة، لكننى نجحت فقط فى إيقاظه.

‘إنه أنا،’ همست وهو ينهض ببطء وينظر على المكان من حوله. بدا خائفًا ومرتبكًا، ثم بدا وقد تذكر كل شيء، وظهرت فى عينيه نظرة عناد غير مبالية.

‘هل كنت تحلم؟’ سألت.

أومأ. ‘نعم أحلم.’

‘بمكان أفضل من هذا، حسبما آمل،’ قلت وأنا أضحك.

‘نعم.’ وتتهد، ثم أضاف: ‘كنت أحلم بى عندما كنت صبيًا.’

استعمرنا الصمت للحظة. ثم قلت:

‘لأبد وأنها صدمة عنيفة. أن تأتي من العالم الذي كنت تحلم به إلى هذا العالم هنا.’

كان يحدق في رأس الجاموس الناتئة من الدبش.
‘نعم،’ قال أخيرًا. ‘حلمت بي وأنا صبيٌّ. بأمي، وأبي. ولد صغير.’

‘هل تذكر، يا أكبرا. كل الألعاب التي اعتدنا أن نلعبها؟ على الرابعة. في حديقتنا؟ هل تذكر، يا أكبرا؟’

‘نعم. أذكر.’

‘تلك كانت ذكريات جميلة.’

‘نعم، ذكريات بالغة الجمال.’

‘تلك كانت أيام رائعة،’ قلت. ‘لم تكن ندرك وقتئذٍ، بالطبع، مدى روعتها. أعتقد أن الأطفال لا يدركون ذلك أبدًا.’

‘عندي طفل،’ قال أكبرا بغتةً. ‘ولد. في الخامسة من عمره.’

‘أحقًا، أود أن أقابله.’

‘فقدت صورته. بالأمس. منذ يوم مضى. عندما جُرحت.’

ضاعت مني الصورة. صورة ابني.’

‘الآن انظر، أيها الرفيق القديم، لا تقنط هكذا. ستعود لرؤية ابنك

في أقرب فرصة فورًا.’

واصل النظر لبعض الوقت على الجاموس. قام فأر بحركة

مباغنة فتطايرت غيمة من الذباب لأعلى، ثم استقرت ثانيةً على

البهيم.

‘ابنى. هو فى اليابان.’

‘أوه، هل أرسلته إلى اليابان؟ هذا مفاجئ لى.’

‘ابنى. فى اليابان. لو مت، قل له، من فضلك.’

‘أخبره أنك قد مت؟ آسف، لا أستطيع أن أفعل ذلك. لأنك لن تموت. ليس الآن، على أية حال.’

‘أخبره. أننى مت من أجل الوطن. أوصه بحسن معاملة أمه. وحمايتها. وأن يبنى عالماً جميلاً.’ حينئذٍ كان يتحدث هامساً تقريياً، يناضل كى يجد من الكلمات الإنجليزية ما يعبر به، يناضل كى لا ينخرط فى البكاء. ‘يبنى عالماً جميلاً،’ قال ثانية، وهو يلوح بيده فى الهواء وكأنه جصاص يصقل حائطاً. كانت نظرتة تتبع يده وكأنها فى حالة من الدهشة. ‘نعم. يبنى عالماً جميلاً.’

‘عندما كنا صبية،’ قلت، ‘كنا نعيش فى عالم جميل. هؤلاء الأطفال، هؤلاء الأطفال الذين كنا نمر بهم، كم من المزعج أن يتعلموا فى هذه السن المبكرة مدى ما يصم الأشياء من بشاعة فى الواقع.’

‘ابنى،’ قال آكيرا. ‘فى الخامسة من العمر. فى اليابان. لا يعرف شيئاً، لا يعرف شيئاً. يظن أن العالم جميل. والناس طيبون. لعبه. وأمه، وأبيه.’

‘أظن أننا كنا هكذا أيضاً. لكننى أعتقد أن الأشياء لم تنهر تماماً.’ كنت أحاول مقاومة نوبة القنوط الخطرة التى انتابت صديقى.

‘مع ذلك، فعندما كنا أطفالاً، عندما كانت الأمور تخطئ المسار، لم يكن لدينا ما يمكن عمله كي نساعد في عودتها إلى المسار الصحيح. لكننا الآن قد بلغنا من الرشد مبلغاً، الآن بإمكاننا. هذه هي الفكرة، فهمت؟ انظر إلينا، يا أكيرا. بعد كل هذا الوقت، يمكننا في النهاية أن نعيد الأمور إلى نصابها الصحيح. هل تتذكر، يا رفيق القديم، كيف اعتدنا أن نلعب هذه الألعاب؟ مراراً وتكراراً؟ كيف كنا نمثل أننا بوليس سري يبحث عن أبي؟ الآن كبرنا، يمكننا أخيراً أن نعيد الأمور إلى نصابها الصحيح.’

لوقتٍ طويل لم يتكلم أكيرا. ثم قال: ‘عندما ابني. يكتشف أن العالم ليس جميلاً. أتمنى...’ توقف، إما بسبب الألم أو لأنه لم يجد من المفردات الإنجليزية ما يكمل به الكلام. قال شيئاً ما باليابانية، ثم واصل كلامه: ‘أتمنى أن أكون معه. كي أساعده. عندما يكتشف.’

‘اسمع، أيها المقلد العظيم،’ قلت، ‘هذا كله كآبة فائضة عن الحاجة. سوف ترى ابنك ثانية، سأهتم بذلك. وكل هذا عن مدى روعة العالم إيان صباناً. حسناً، هذا هراء مبالغ فيه بطريقة ما. إنه بالفعل ما قادنا إليه الكبار. الإنسان لا يجب أن يشعر بحنين مفرط إلى الطفولة.’

‘ح - - ني - ن،’ قال أكيرا، وكأنها كلمة كان يناضل كي يجدها. ثم تلفظ بكلمة باللغة اليابانية، ربما مرادف “حنين”. ‘ح - - ني - ن. جميل أن ينتابك ال - ح - - ني - ن. مهم للغاية.’

‘صحيح، أيها الرفيق القديم؟’

‘مهم. مهم للغاية. نتوق إلى الماضي. عندما نتوق إلى الماضي، نتذكر. عالمًا أفضل من العالم الذي نكتشفه عندما نكبر. نتذكر ونتمنى أن يعود العالم الجميل ثانية. لهذا فالأمر غاية فى الأهمية. والآن فقط، كنت أحلم. أنتى طفل. أمى وأبى على مقربة منى. فى بيتنا.’

سكت وواصل النظر بإمعان فى الدبش.

‘أكيرا،’ قلت، وقد استشعرت أنه كلما امتد هذا الحوار، كلما ازداد الإحساس بخطر ما لم أكن أتمنى له أن يظهر. ‘أمامنا الكثير من العمل. أمامنا الكثير من العمل.’

أنت سلسلة طلقات نارية من رشاش آلى على سبيل الرد على كلامى. كانت على مسافة أبعد من إطلاق النار فى الليلة الماضية، لكننا جفنا.

‘أكيرا،’ قلت. ‘هل نحن الآن على مسافة بعيدة من المنزل؟ لابد وأن نحاول ونصل إليه قبل أن يبدأ القتال جديدًا مرة ثانية. كم يبعد الآن عنا؟’

‘ليس بعيدًا. لكن سنقدم بحرص. الجنود الصينيون على مقربة منا.’

بدا أن النوم لم ينعشنا بقدر ما جعلنا أكثر إجهادًا. عندما وقفنا وألقى أكيرا بثقله على، اضطررنى الألم الذى سرى فى رقبتى وكفى أن أتأوه. لبعض الوقت صار مشينا معًا نوعًا من العذاب، حتى استعاد جسدانا اعتيادهما.

ناهيك عن ظروفنا الجسدية، فقد كانت المنطقة التي نتحرك فيها ذلك الصباح الأصعب على الإطلاق وبكل المقاييس. كان الخراب ممتدًا جدًا، بين الحين والآخر كنا نتوقف، لأننا لم نستطع أن نجد طريقًا بين كومات الدبش. وبينما كانت رؤيتنا لموضع أقدامنا تعتبر عونًا لا يمكن إنكاره، لكن كل البشاعة التي كان الظلام قد أخفاها عادت للظهور أمامنا الآن، مما دق في نفسنا ناقوسًا عميقًا. في خضم الدمار، رأينا دماء - أحيانًا كانت جديدة، وفي أحيان أخرى كانت منذ أسبوع - على الأرض، على الحيطان، منتشرة على الأثاث المهشمة. الأسوأ من هذا - وكانت أنوفنا تتذرنا بوجودها قبل أن نراها بأعيننا - كنا نمر، بانتظام يشوبه الارتباك، بكومات من الأحشاء الأدمية في مراحل متعددة من التحلل. ذات مرة عندما توقفنا، وجهت ملاحظة لأكيرا بخصوص ذلك، فقال ببساطة:

‘الحربة. الجنود دائما ما يغمدون الحربة في البطن. لو أنك وضعتها هنا،’ - وأشار إلى أضلعه - ‘فالحربة لا تخرج ثانية. هكذا تعلم الجنود. البطن دائمًا.’

‘الأجساد على الأقل تهلك. على الأقل يفعلون ذلك كثيرًا.’

واصلنا الاستماع إلى إطلاق النار بين الحين والآخر، وفي كل مرة فعلنا ذلك، كان ينتابني إحساس بأننا قد اقتربنا منه جدًا. أقلقني هذا، لكن أكيرا الآن بدا أكثر يقينًا من الطريق من ذي قبل، وفي كل مرة أناقش فيها قراراته، كان يهز رأسه بتضجر.

عندما بلغنا في تقدمنا المرور بجثتي جنديين صينيين، كانت الشمس تسقط في رماح قوية من خلال الأسقف المهشمة. لم تقترب

منهما بما جعلنا قادرين على فحصهما جيدًا، لكنني خمنت أنهما كانا على قيد الحياة قبل بضع ساعات. أحدهما كان وجهه مدفوناً في الدبش؛ الآخر مات وهو جاثٍ على ركبتيه، ورأسه يستند للحائط القرميدي، وكأن الأسى قد غلبه.

عند نقطة ما، أصبح اعتقادي الراسخ، بأننا كنا على وشك المضي مباشرة إلى تبادل النيران، قويًا لدرجة أنني أوقفت أكيرا قائلاً:

‘الآن انظر هنا. ما هي خطتك؟ إلى أين تقودنا؟’

لم يقل شيئاً، لكنه وقف قبالي، ورأسه منحنية، لاستعادة انتظام أنفاسه.

‘هل تعرف بالفعل إلى أين نتجه الآن؟ أكيرا، أجبني! هل تعرف إلى أين نتجه؟’

رفع رأسه متضجرًا، ثم أشار أعلى كتنقي.

استدريت - كان على أن أفعل هذا ببطء، لأنه لم يزل يستندني - ورأيت عبر جزء متهدم من الحائط، على بعد ما لا يزيد عن اثنتي عشرة خطوة، المحرقة الشرقية دون شك.

لم أقل شيئاً، إلا أن اتجه بنا إلى هناك. مثل توأمتها، نجست المحرقة الشرقية من الدمار تمامًا. كانت غارقة في الرماد، لكنها بدت فعليًا في حالة جيدة. تركت أكيرا - الذي جلس فوراً على بعض الدبش - اتجهت للأمام مباشرة إلى المحرقة. وتماماً مثلما حدث في

المرّة الأخيرة، رأيت المدخنة فوقى تمتد لأعلى باتجاه الغيم. عدت إلى حيث كان أكيرا يجلس وبرفق مسست كتفه السليم.

‘أكيرا، أعتذر عن نبرتى فى الكلام إليك قبل قليل. أريدك أن تعرف أننى فى غاية الشكر لك. لم يكن ممكناً أن أصل إلى هنا وحدى. حقيقةً، يا أكيرا، أنا فى غاية الشكر.’

‘لا عليك.’ كان نفسه وقتئذٍ أكثر انتظاماً. ‘أنت تساعدنى. أنا أساعدك. أوكاى.’

‘لكن يا أكيرا، لابد وأننا بالقرب جداً من المنزل الآن. دعنى أرى. على المدى هناك’ - أشرت - ‘الحارة فى ذلك الاتجاه. لابد أن نتبع الحارة.’

بدا أكيرا كارهاً لفكرة النهوض على قدميه، لكننى رفعته لأعلى وانطلقنا ثانية. بدأت باتباع ما بدا بوضوح أنه الحارة الضيقة التى بينها لى الملازم من قمة السطح، لكننا بمنتهى السرعة وجدنا طريقنا مغلقاً تماماً بالدبش وكسارة الحجارة الساقطة. مررنا من جدار إلى منزل قريب، ثم انطلقنا على ما تخيلته وجهة سير موازية، وشققنا طريقنا عبر الغرف المفروشة بالدبش.

هذه المنازل التى وجدنا الآن نفسنا فيها كانت أقل تهدماً، وكانت صحية أكثر من تلك التى عبرنا من خلالها مؤخراً. كان هناك مقاعد، وتسريحات، أيضاً بعض المرايا والمزهريات كانت لم يصبها أى ضرر فى خضم هذا الدمار. كنت أستحث نفسى على المضى قدماً، غير أن جسم أكيرا بدأ يتأبى الضعف الشديد، واضطررنا للتوقف

ثانيةً. جلسنا على دعامة سقف ساقطة، وبينما كنا نستعيد أنفاسنا، وقعت عيناى لوحة مكتوب عليها اسم بخط اليد فى الدبش الذى أمامنا.

لقد انشقت بوضوح إلى نصفين مع تجزع الخشب، غير أن القطعتين سقطتا جنبًا إلى جنب؛ رأيت أيضًا جزءًا من الشراعة التى كانت اللوحة من قبل مثبتة إلى جوارها على واجهة المدخل. لم تكن هذه بكل تأكيد المرة الأولى التى نمر فيها بشيء من هذا القبيل، غير أن غريزة ما لفتت انتباهى إلى هذا الشيء على وجه التحديد. تقدمت إلى اللوحة، واستخرجت قطعتى الخشب من الأنقاض، وأعدتهما إلى حيث كنا نجلس.

‘أكيرا،’ قلت، ‘هل تستطيع قراءة هذه؟’ أمسكت القطعتين معًا أمامه.

حرق فى الكتابة لبرهة، ثم قال: ‘لغتى الصينية ليست جيدة. اسم. اسم شخصٍ ما.’

‘أكيرا، استمع بعناية. انظر إلى هذه الحروف. لا بد وأنت تعرف شيئًا ما عنها. من فضلك، حاول أن تقرأها. إن هذا غاية فى الأهمية.’

واصل النظر فى اللوحة، ثم هز رأسه.

‘أكيرا، اسمع،’ قلت. ‘من الممكن أن تكون هذه الحروف هى بيه تشين؟ هل يمكن أن يكون هذا هو الاسم المكتوب هنا؟’

‘ييه تشين...’ آكيرا نظر بإمعان. ‘ييه تشين. نعم، ممكن. هذا الحرف هنا... نعم ممكن. إنها تقول ييه تشين.’

‘فعلاً؟ هل أنت متأكد؟’

‘لست متأكداً. لكن... ممكن. ممكن جداً. نعم’ - أوما - ‘ييه تشين. أعتقد هذا.’

وضعت القطعتين وأخذت طريقى بعناية فوق الدبش باتجاه مقدمة المنزل الذى كنا فيه. كان هناك فجوة مهدمة حيث كان مدخل الباب موجوداً، وبالنظر عبرها، رأيت الحارة الضيقة بالخارج. نظرت أمامى على المنزل المقابل مباشرة. كانت واجهات العقارات المجاورة مهدمة بصورة سيئة، لكن المنزل الذى كنت أنظر قد بقى بصورة غريبة دون أن تمسه أية أضرار. لم يكن هناك أى علامات واضحة تتم على الدمار: مصاريع النوافذ، الشراعة الخشبية الزلاجة المصنوعة بطريقة غير متقنة، حتى التعويذة التى تتدلى على مدخل الباب ظلت كما هى دون أن يصيبها ضرر. بعد كل ما مررنا به، بدا البيت وكأنه شبح من عالم آخر أكثر تحضراً. وقفت هناك أهدق فيه لبعض الوقت. ثم أومات لأكيرا.

‘انظر، تعال هنا،’ قلت بما يشبه الهمس. ‘لا يمكن أن يكون هناك منزل غيره.’

آكيرا لم يتحرك، لكنه تنهد بعمق. ‘كريستوفر. أنت صديق. أحبه كثيراً.’

‘اخفض من صوتك. آكيرا، لقد وصلنا. إنه هو هذا المنزل. أستطيع أن أستشعره الآن بخلجاتى.’

‘كريستوفر... بكل ما أوتى من جهد نهض على قدميه وتقدم ببطء فوق الأرض. عندما أصبح إلى جوارى، وجهت نظره إلى المنزل. كانت شمس الصباح تضرب بأشعتها فى الحارة مما أدى إلى سقوط أشرطة ضوئية ألقت على واجهته.

‘هناك، يا أكيرا. ها هو ذا هناك.’

جلس إلى جوار قدمى وتهد مرة أخرى. ‘كريستوفر. يا صديقى. لابد وأن تكون حذرًا فى تفكيرك. لقد مضت سنوات عديدة. سنوات عديدة الآن...’

‘أليس هذا غريبًا،’ قلت ملاحظًا، ‘كيف أن القتال الدائر لم يمس ذلك المنزل؟ المنزل المحتجز داخله والذى.’

مع تلفظى بهذه الكلمات، أحسست بغتة أننى انسحقت تقريبًا. لكننى استجمعت نفسى وقلت: ‘الآن، يا أكيرا، لابد وأن ندخل. سنفعل هذا معًا، يدًا بيد. تمامًا مثلما فعلنا فى المرة الأخرى، عندما دخلنا غرفة لينغ تين. هل تذكر، يا أكيرا؟’

‘كريستوفر. يا صديقى العزيز. لابد وأن تفكر بمنتهى الحرص. سنوات طويلات مضت، سنوات طويلات. صديقى، من فضلك، اسمع. ربما يكون أمك وأبوك. الآن مضت سنوات طويلات...’

‘سندخل الآن معًا. ثم بمجرد أن نفعل ما ينبغى القيام به، أعدك بأننا سنوفر لك الرعاية الصحية اللازمة. فى الحقيقة، من الممكن أن يكون هناك شىء ما، بعض الإسعافات الأولية، فى ذلك المنزل. على الأقل سنجد بعض الماء النظيف، وربما ضمادات. ستكون أمى قادرة

على العناية بجرحك، وربما تضع لك ضمادة نظيفة. لا تقلق، ستكون على ما يرام فى أسرع وقت.

‘كريستوفر. لابد وأن تفكر بمنتهى الحرص. لقد مرت سنوات عديدة...’

صمت حينما انفتح الباب المقابل فى الحارة بصريـر. لم ألبث أن بدأت أتـحسـس مسدسى حتى ظهرت فتاة صينية صغيرة.

ربما كانت فى السادسة من العمر. كان وجهها يحمل تعبيراً ساكناً، وكان جميلاً إلى حد ما. كان شعرها مربوطاً بعناية على هيئة ضفائر صغيرة. كانت سترتها البسيطة وبنطالها الواسع أكبر قليلاً عليها.

نظرت حولها، عيناها كانتا نصف مفتوحتين فى ضوء الشمس، ثم نظرت باتجاهنا بجرأة مثيرة للدهشة. توقفت فى الحارة على مسافة بضـع يـاردات، وقالت شيئاً ما بالماندارين، وتحركت عائدة إلى المنزل.

‘أكيرا، ماذا تقول؟’

‘لا أفهم. ربما تدعونا للدخول.’

‘لكن كيف يمكن أن تكون على علاقة بالأمر؟ هل تظن أن لها علاقة بالمُختطفين؟ ماذا تقول؟’

‘أظنها تطلب منا المساعدة.’

‘سوف ينبغى علينا أن نطلب منها أن تقف بعيداً،’ قلت وأنا أسحب مسدسى. ‘لابد وأن نحتاط للمقاومة.’

‘نعم، إنها تطلب المساعدة. إنها تقول إن الكلب مجروح. أظن أنها قالت الكلب. لغتى الصينية ضعيفة.’

ثم رأينا، من مكان ما بالقرب من بداية شعرها المربوط بعناية، خطاً رفيعاً من الدم يجرى لأسفل، على جبهتها وأسفل خدها. بدت الفتاة الصغيرة وأنها لم تلاحظ شيئاً وتحدثت إلينا ثانية، وهى تومئ مرةً أخرى إلى منزلها.

‘نعم،’ قال أكيرا. ‘قالت الكلب. الكلب جريح.’

‘كلبها؟ إنها جريحة. ربما بخطورة.’

تقدمت خطوة باتجاهها، عازماً على فحص جرحها. لكنها ترجمت حركتى على أنها إذعان، واستدارت وعادت بخطوات قافزة باتجاه باب بيتها. فتحته مرةً ثانية، نظرت باتجاهنا مناشدة إيانا، ثم اختفت بالداخل.

وقفت هناك للحظة متردداً. ثم مددت يدي لأسفل إلى صديقى.

‘أكيرا، إنه هو،’ قلت. ‘لا بد أن ندخل. هيا ندخل الآن معاً.’

الفصل الحادى والعشرون

حاولت أن أحافظ على إشهار مسدسى أثناء عبورنا الحارة. غير أن ذراع أكيرا كانت حول رقبتى، وكان على أن أتحمّل الكثير من ثقله، لدرجة أننى تخيلت أن مشيتنا المترنحة فى دخولنا إلى المنزل بعيدة تمام البعد عن أن تشى بأى سلطة أو قبول. كنت واعياً على نحو غامض بوجود مزهرية لنباتات الزينة تقف فى المدخل، وأعتقد أن الديكور الذى رأيته يتدلى من إطار الباب قد أصدر صوتاً موسيقياً عندما لمسناه فى مرورنا به.

رغم أن واجهة المنزل قد بقيت بصورة عرضية دون أن تُمس، فإن النصف الخلفى للغرفة التى كنا فيها كانت عبارة عن أنقاض. عندما أفكر اليوم فى الأمر، أظن أن قذيفة قد اخترقت السقف، وأدت إلى انهيار الطابق العلوى، ودمرت مؤخرة المنزل، ومعها المنزل المجاور خلفه. لكن فى تلك اللحظة كنت أبحث أولاً وكليةً عن والدى، ولست واثقاً مما قد لاحظته بالضبط. فكرتّى الطائشة الأولى كانت تتلخص فى أن المختطفين قد فروا. ثم، عندما رأيت الجثث، أفرعتنى فكرة أنها لأمى وأبى - أن المختطفين قد ذبحوهما مع وصولنا. ينبغى أن أعترف أن إحساسى التالى كان ينطوى على راحة عظيمة عندما رأيت أن الجثث الثلاث كانت جميعها لصينيين.

بالقرب من المؤخرة، هناك إلى جوار حائط، كانت جثة امرأة التى ربما كانت أم الفتاة. من الممكن أن يكون الانفجار قد ألقى بها

هناك وأنها كانت ترقد حيث سقطت. كان وجهها يعلن عن تعبير مذهش. أحد ذراعيها كان قد قطع حتى المرفق، وهى الآن تشير بالجدّة إلى السماء، ربما كى تشير إلى الاتجاه الذى أتت منه القذيفة. على بعد بضع ياردات فى الانقاض، سيدة عجوز أيضاً كانت تحديق فاعرة الفاه إلى ثقب فى السقف. أحد جانبي وجهها كان متفحمًا، لكننى لم أر دمًا أو أى تشوه أو بتر. أخيرًا، ويرقد عند أقرب نقطة من مكان وقوفنا، ولذا أكبر قليلاً من الفتاة التى تبعناها فى الدخول إلى البيت، أفزعه فى البداية سقوط رف. إحدى ساقيه كانت مبتورة عند مفصل الفخذ، حيث منها انتشرت أحشاء طويلة بصورة مثيرة للذهول، وكأنها ذيول زينة فى طائرة ورقية، على الحُصر.

‘كلب،’ قال أكيرا إلى جانبى.

رمقته، ثم تتبعت نظرتة. فى منتصف الحُطام، قريبًا من الولد الميت، جثت البنت الصغيرة على ركبتىها إلى جوار كلب جريح يرقد على جنبه وكانت تربت على فرائه برفق. ذيل الكلب كان يتحرك بوهن استجابةً لها. وأثناء استغراقنا فى مشاهدتها، نظرت لأعلى وقالت شيئًا، كان صوتها فى غاية الهدوء والثبات.

‘ماذا تقول، يا أكيرا؟’

‘أظن أنها تقول يجب أن نساعد الكلب،’ قال أكيرا. ‘نعم تقول يجب أن نساعد الكلب.’ ثم فجأة، بدأ يقهقه بلا انقطاع.

حدثت البنت الصغيرة ثانية، وفى هذه المرة كانت توجه كلامها لى أنا فقط، ربما تكون قد انصرفت عن أكيرا باعتباره مجنونًا. ثم

اقتربت بوجهها لأسفل من وجه الكلب وواصلت المرور بيدها على فرائه برفق.

تقدمت خطوة صوبها، بعد أن حررت ذراعى من ذراع صديقى، وبينما فعلت ذلك، شق آكيرا طريقه بجلبة شديدة باتجاه الأثاث المهشم. نظرت خلفى فى فزع، لكنه واصل القهقهة، إضافة إلى أن توسلات البنت قد استمرت دونما انقطاع. وضعت مسدسى على شيء ما، وتقدمت صوبها ولمست كتفها.

‘انظرى هنا... كل هذا،’ - وأومأت إلى أشلاء المجزرة التى بدت ساهية عنها تمامًا - ‘إنه لحظ سيئ بمعنى الكلمة. لكن انظرى لقد نجوت وفى الحقيقة، سترين، سوف تقدمين عرضًا رائعًا بهذا إذا أنت فقط... لو أنك فقط حافظت على شجاعتك...’ استدرت لأكيرا بانفعال وصرخت: ‘أكيرا! كف عن هذه الجلبة! لأجل الرب، ليس هناك ما يثير الضحك! هذه البنت المسكينة...’

غير أن الفتاة أمسكت حينئذٍ بكفى. تكلمت ثانية، بحذر وبطء، وهى تنظر فى عيني.

‘انظرى، بالفعل،’ قلت، ‘أنت فى منتهى الشجاعة. أقسم لك، أن من فعلوا هذا أيًا كانوا، من ارتكبوا هذه البشاعة أيًا كانوا، لن يفلتوا من العدالة. ربما لا تعرفين من أنا، لكن على أية حال، أنا... حسنًا، أنا الشخص الذى تريدن. سأهتّم بالأمر لن يفلتوا. دعك من القلق، أنا سوف... أنا سوف...’ كنت أتحسس سترتى بحثًا عن عدستى المكبرة، ثم وجدتها وأظهرتها له. ‘انظرى، أفهمين؟’

ركلت جانبًا قفص عصافير كان في طريقى وتقدمت باتجاه الأم. ثم، ربما كالعادة مثل أى شيء آخر، انحنيت لأسفل لأفحصها من خلال العدسة المكبرة. جَدَعَتَهَا كانت تبدو نظيفة فعليًا؛ العظام الناتئة من اللحم بيضاء براقّة، وكأن هناك من قام بتلميعها.

ذكرى هذه اللحظات لم تعد واضحة تمامًا. لكن لدى شعور أنه عند هذه النقطة، بالتحديد بعد أن نظرت عبر العدسة المكبرة على جَدَعَة المرأة، اعتدلت وبدأت أبحث عن والدى. أستطيع القول فقط، على سبيل التفسير الجزئى لما حدث نتيجةً لذلك، أن أكبرا كان لم يزل يقهقه فى مكان سقوطه، وأن البنت كانت تواصل الاستجداء بالنبرات الملحة نفسها. بعبارةٍ أخرى، أصبح الجو ثقيل الوطأة على الأعصاب بكل ما تحمل الجملة من معنى، وربما يبرر هذا إلى حدٍ ما الطريقة التى بها قمت بقلب ما تبقى من هذا المنزل الصغير رأسًا على عقب.

كانت هناك غرفة صغيرة فى مؤخرة المنزل، دمرها القصف تمامًا، وهنا بدأت البحث، برفع ألواح الأرضية المهشمة، وكسر أبواب دولا ب مقلوب برجل منضدة لفتحها. ثم بعد ذلك عدت إلى الغرفة الرئيسة وبدأت ألقى جانبًا كومات الحطام، مهشمًا برجل المنضدة كل ما أخفق فى الإذعان لركلاتى ومناوراتى. أخيرًا وعيت إلى أن أكبرا قد توقف عن القهقهة، ويتبعنى فى المكان، يقترب من كتفى ويهمس بشيء ما فى أذنى. تجاهلته وواصلت بحثى، لم أتوقف حتى عندما طرحت إحدى الجثث بعيدًا. ظل أكبرا يقترب من كتفى، وبعد فترة، استدرت إليه غير قادر على أن أفهم لماذا يحاول الشخص

الذى أعول عليه فى مساعدتى يصر على إعاقتى، وزعقت فيه
بكلمات من قبيل:

‘ابتعد عني! اتركني! إذا لم تُرد المساعدة، ابتعد فقط! ابتعد إلى
الركن هناك وقهقهه!’

‘الجنود! كان يهمس لى. ‘الجنود قادمون!’

‘ابتعد عن! أمى، أبى! أين هما؟ إنهما ليسا هنا! أين هما؟ أين
هما؟’

‘الجنود، يا كريستوفر، توقف، لا بد أن تهدأ! لا بد أن تهدأ وإلا
قُتلنا! كريستوفر!’

كان يهزنى، وجهه كان قريباً من وجهى. حينئذٍ أدركت وجود
أصواتٍ بالفعل تأتي من مكانٍ ما قريب.

سمحت لأكيرا أن يسحبني إلى مؤخرة الغرفة. لاحظت أن البنت
الصغيرة قد صمتت تماماً، وكانت تربت رأس الكلب برقة. كان ذيل
الحيوان لم يزل يمارس الحركة الواهنة نفسها.

‘كريستوفر،’ قال أكيرا بهمس لحوح. ‘لو كان الجنود صينيون
فلا بد أن أختبئ.’ أشار إلى الركن. ‘لا بد ألا يجدنى الجنود الصينيون.
لو أنهم يابانيون، لا بد وأن تقول الجملة التى علمتها لك.’

‘لا أستطيع أن أقول أى شىء. انظر، أيها الصديق القديم، لو
أنك غير مستعد لمساعدتى...’

‘كريستوفر! الجنود قادمون!’

مشى مترنحاً بعرض الغرفة واختفى داخل دولاب يقف فى زاوية بركن الغرفة. كان الباب مهشماً بصورة ملحوظة لدرجة أن قصبة ساقه كلها والحذاء كانا واضحين تماماً من لوح الباب. كانت محاولة بائسة للاختفاء بحيث اندفعت فى الضحك، وكنت على وشك أن أزعم قائلاً إننى لم أزل أراه، عندما ظهر الجنود على مدخل الباب.

أطلق الجندى الأول رصاصة من بندقيته على، غير أن الطلقة ضربت الحائط خلفى. حينئذٍ لاحظ يداى المرفوعتين، وحقيقة أننى مدنى أجنبى، وزعم بشيء ما لرفاقه، الذين تراحموا خلفه. كانوا يابانيين، والشىء التالى الذى أذكره، أن ثلاثة أو أربعة منهم بدأوا يتجادلون بخصوصى، وطيلة الوقت كانوا يخطوننى ببنادقهم. جنود أكثر دخلوا وبدأوا فى تفتيش المكان. سمعت أكيرا يزعم من مخبئه باليابانية، ثم عندما تجمع الجنود حول الدولاب، رأيت يظهر. رأيت أنه لم يكن سعيداً على وجه التحديد برؤيتهم. رجال آخرون تجمعوا حول البنت الصغيرة، وتجادلوا حول نوع التصرف الذى سيتخذونه حيالها. ثم دخل أحد الضباط، فوقف الرجال جميعاً انتباهاً، وطمخى الصمت على الغرفة.

نظر الضابط - كان قائداً شاباً - فى أنحاء الغرفة. سقطت نظرتة على الطفلة، ثم على، ثم استقرت على أكيرا، الذى كان يستند اثنتين من الجنود. نشأ حوارٌ باليابانية، لم يشترك فيه أكيرا نفسه. واستوطن عينيه تعبير مستسلم مشوب بالخوف. ذات مرة حاول أن يتفوه بشيء ما للضابط، غير أن الأخير قاطعه على الفور. كان هناك

حوار آخر سريع، بعده بدأ الجنود فى قيادة أكيرا بعيدًا. كان الخوف واضحًا للغاية فى عينيه حينئذ، غير أنه لم يبادر بالمقاومة.

‘أكيرا!! صرخت خلفه. ‘أكيرا، إلى أين يأخذونك؟ ماذا يحدث؟’

نظر أكيرا إلى الخلف وألقانى بابتسامة متعجلة وحنونة. ثم مضى، إلى الخارج فى الحارة، وغاب عن عيني بسبب من احتشدوا حوله من الجنود الذين اصطحبوه.

كان القائد الشاب ينظر إلى الطفلة. ثم استدار نحوى وقال:

‘أنت إنجليزى؟’

‘نعم.’

‘تعال، يا سيدى، ماذا تفعل هنا؟’

‘كنت... نظرت حولى. ‘كنت أبحث عن والدى. اسمى بانكس، كريستوفر بانكس. أحد رجال البوليس السرى المعروفين. ربما تكون قد...’

لم أعرف بالضبط بماذا أكمل، إضافةً إلى أننى أدركت كنت أتهد بأنفاس لاهثة لبعض الوقت، وأن هذا قد ترك انطباعًا مثيرًا للشفقة لدى القائد. مسحت وجهى: ‘أتيت هنا لأبحث عن والدى. لكنهم ما عادوا هنا. لقد تأخرت كثيرًا.’

نظر القائد حوله مرةً أخرى على الأنقاض، والجثث، والبنات الصغيرة مع الكلب المحتضر. ثم قال شيئًا ما للجندي القريب منه، الذى لم يرفع عينه عنى أبدًا. أخيرًا قال لى: ‘من فضلك، يا سيدى، تعال معى.’

صدرت عنه إيماءة مهذبة لكنها صارمة مفادها حتمية أن أمضى معه إلى الخارج في الحارة. لم يعد مسدسه إلى جرابه، لكنه لم يصوبه في وجهي أيضًا.

‘وهذه البنت الصغيرة،’ قلت. ‘هل ستأخذونها إلى مكانٍ ما آمن؟’

عاد ينظر إلى مُحَدِّثًا في صمت. ثم قال: ‘من فضلك، يا سيدى. لابد وأن تغادر الآن.’

* * *

بشكل عام، اهتم اليابانيون بى. احتجزونى فى غرفةٍ خلفيةٍ صغيرة فى مركز القيادة الخاص بهم - الذى كان قسم إطفاء سابق - حيث كنت أتناول الطعام ويقوم أحد الأطباء على علاجى من عدة جروح لاحظت بالكاد أننى أصبت بها. تم تضميد رجلى وأعطيت حذاءً كبيرًا لألبسه. لم يكن الجنود المسئولون عني يتحدثون الإنجليزية، وبدوا فى حالة من اللاتيقين إذا ما كنت سجينًا أم ضيفًا، غير أننى كنت من الإغنياء بحيث لم أهتم؛ كنت أستلقى على سرير المعسكر الذى وضعوه فى غرفتى الخلفية، ولعدة ساعات كنت أراوح بين النوم واليقظة. فى حقيقة الأمر، لم يكن الباب مغلقًا على؛ من المحتمل ألا يكون باب المكتب المجاور قريبًا، لذلك كلما كنت أعود للوعى، كنت أسمع جنودًا يابانيين يتجادلون، أو يصرخون فى التليفون، من المحتمل أن يكون صراخهم فى المكالمات التليفونية يخصنى. الآن أشك فى أننى كنت أعانى من حمى خفيفة لوقتٍ طويل

خلال تلك الفترة؛ على أية حال، كلما كنت أراوح بين النوم واليقظة، لم تكن أحداث الساعات القليلات الماضية فحسب، بل وأحداث الأسابيع القليلة الماضية تحوم في رأسي. ثم بالتدريج، رويدًا رويدًا، بدأت العناكب تختفي، لدرجة أنني في أوقات اليقظة، مع بدايات الغروب، ومع وصول الكولونيل هيسجاوا، وجدت أنني أمتلك رؤية واضحة جدًا حول كل ما كان يزعجني بخصوص القضية.

قدم الكولونيل هيسجاوا - رجل أنيق ورشيق في الأربعينيات من عمره - بتأدب قائلاً: 'أنا سعيد أن أراك تشعر بكثير من التحسن، يا مستر بانكس. أنا واثق أن الرجال هنا قد اعتنوا بك جيدًا. يسعدني أن أخبرك بأنني أتيت إلى هنا بتعليمات مفادها مرافقتك إلى القنصلية البريطانية. هل من الممكن أن نتحرك فوراً؟'

'بالفعل، يا سيادة الكولونيل،' قلت، 'وأن أنهض بحذر شديد على قدمي،' أفضل أن تأخذني إلى مكان آخر. الأمر غاية في الأهمية. أنا لست متأكدًا من العنوان بالضبط، لكنه ليس بعيدًا عن النانكينغ روود. ربما تكون على دراية به. إنه محل لبيع إسطوانات الجراموفون.'

'هل ترغب بإلحاح في شراء إسطوانات للجراموفون؟'

لم أضطر لإزعاج نفسي بالتوضيح، لذلك قلت فقط: 'من المهم جدًا أن أكون هناك بسرعة قدر المستطاع.'

'لسوء الحظ، يا سيدي، لدى تعليمات بإحضارك إلى القنصلية البريطانية. أخشى أن نتسبب في ارتباكات كبيرة إذا ما فعلنا غير ذلك.'

تتهدت. 'أعتقد أنك على حق، يا سيادة الكولونيل. على أية حال، أنا أفكر الآن بالأمر، وأتصور أنني قد تأخرت جدًا.'

نظر الكولونيل في ساعة يده. 'أعتقد هذا. لكن اسمح لى أن أقترح عليك. لو تحركنا تواء، حينئذٍ سيمكنك العودة للاستمتاع بموسيقاك المفضلة فى أقرب فرصة.'

ركبنا سيارة عسكرية مكشوفة يقودها مرسال الكولونيل. كان وقت عصارى جميل والشمس تضرب أشعتها على أطلال تشابى. تحركنا ببطء، فرغم أن كمية كبيرة من الدبش والأبقاض كانت قد أزيحت من طريقنا، فإن كومات ضخمة منها كانت على جانب الطريق - فقد كانت الطريق مفروشة بحفر الألغام. بالصدفة مررنا بشارع ليس به أية علامات للدمار، ثم انعطفنا جانبًا وكانت البيوت أقل ما توصف به أنها عبارة عن كومات الدبش، وكل عمود من أعمدة التلغراف الباقية كانت تميل بزاوية غريبة بين الكابلات المتدلّية. مرة، وأثناء تحركنا فى مثل هذه المنطقة، وجدت أنه باستطاعتى رؤية مسافة معقولة عبر الأطلال المستوية بالأرض، ورأيت مداخل المحرقتين.

'إنجلترا بلد رائعة،' كان الكولونيل هيسجاوا يقول. 'هادئة، ومجيدة. الحقول الخضراء الجميلة. ما زلت أحلم بها. وأدبكم. ديكنز، ثيكارى. مرتفعات وزرينغ. أنا مغرم جدًا بديكنز على وجه الخصوص.'

‘سيادة الكولونيل، معذرةً لطرح هذا الأمر. لكن عندما وجدني رجالك بالأمس، كنت في صحبة شخص ما. جندي ياباني. هل صادف وبلغك ما حدث معه.’

‘ذلك الجندي. لست على يقين بشأنه.’

‘أتساءل أين أجده ثانية.’

‘تتمنى أن تجده مرةً أخرى؟’ اعتلت وجه الكولونيل تعبيرات جادة. ‘مستر بانكس، أود أن أنصحك بالألا تشغل نفسك بعدئذٍ بذلك الجندي.’

‘سيادة الكولونيل، هل ارتكب أى جريمة من وجهة نظرك؟’

‘جريمة؟’ نظر على الأطلال التى تمر بنا بابتسامة رقيقة. ‘من المؤكد تقريبًا أن ذلك الجندي كان يمد العدو بمعلومات. من المحتمل أن يكون قد تصافق بهذا الشكل حول مسألة فك أسره. أنا أفهم أنك بنفسك قلت فى أقوالك أنك وجدته بالقرب من خطوط كومننتانغ. وهذا ما يجعلنا نفترض بقوة جبنه وخيانتة.’

كنت على وشك أن أعترض، لكننى أدركت أنه ليس من صالحى أو صالح أكيرا أن أتجادل مع الكولونيل. وبعد أن بقيت صامتًا لفترة، قال:

‘ليس من الحكمة أن تصبح عاطفيًا sentimental بصورة مفرطة.’

لهجته، التى كانت مثيرة للإعجاب، قد تداعت مع هذه الكلمة الأخيرة، لدرجة أن الكلمة خرجت على هيئة "sen-chee-men-tol".

أزعجتني إلى حدٍ ما واستدرت بعيدًا دون أن أرد. لكن بعد لحظة
سألني بنبرة متعاطفة:

‘ذلك الجندي. هل قابلته في مكانٍ ما من قبل؟’

‘أعتقد أن هذا قد حدث. أعتقد أنه كان من أصدقاء طفولتي. لكن
الآن، لست على يقينٍ تام. بدأت أرى الآن، أن أشياء كثيرة ليست كما
كنت أفترض.’

أوما الكولونيل. ‘إن طفولتنا تبدو بعيدة جدًا الآن. إحدى
شاعراتنا اليابانيات، سيدة بلاط منذ سنوات مضت، كتبت عن مدى ما
اعتري ذلك من أسي. كتبت كيف أن طفولتنا تصبح أشبه بأرض
غريبة حينما نكبر.’

‘حسنًا، يا سيادة الكولونيل، قلما تكون هذه أرض غريبة بالنسبة
لي. فبكل الطرق، هي المكان الذي واصلت فيه العيش طيلة حياتي.
الآن فقط قد بدأت في رحلة الابتعاد عنها.’

مررنا عبر نقاط تفتيش يابانية إلى هونغكيو، النطاق الجنوبي من
المستعمرة. في هذا الإقليم أيضًا، كانت هناك علامات لما خلفته
الحرب من دمار، وكذلك علامات لتلك الاستعدادات العسكرية القلقة.
رأيت كومات عديدة من أجولة الرمل، وسيارات نقل كبيرة محملة
بالجنود. عندما وصلنا إلى القنال، قال الكولونيل:

‘أنا مغرم جدًا بالموسيقى، يا مستر بانكس، مثلك تمامًا. بيتهوفن
على وجه التحديد. ميندلسون، برامز، وتشوبان أيضًا. السوناتا الثالثة
بالغة الروعة.’

‘رجل مثقف مثلك، يا سيادة الكولونيل،’ قلت معلقاً، ‘لابد وأن يكون أسفاً على كل هذا. أعنى كل هذه المجزرة التى تسبب فيها غزو بلادك للصين.’

خفت أن يملكه الغضب، لكنه ابتسم بهدوء وقال:

‘أتفق معك على أن هذا مدعاة للأسف والندم. لكن لو كان لليابان أن تصبح دولة عظيمة مثل بلادكم، يا مستر بانكس، فهذا ضرورى. مثلما كان ضرورياً لإنجلترا ذات يوم.’

انتابتنا حالة من الصمت لبضع لحظات. ثم سألتنى:

‘أنا متأكد، أنك بالأمس قد رأيت مشاهد بشعة فى تشابى.’

‘نعم، حدث بكل تأكيد.’

فجأة، أطلق ضحكة غريبة، جعلتني أجفل. ‘مستر بانكس،’ قال، ‘هل تدرك، هل لديك أى فكرة عن البشاعة القادمة؟’

‘إذا ما واصلتم غزو الصين، فأنا بكل تأكيد...’

‘معذرة، يا سيدى،’ - الآن هو فى حالة مفعمة بالحيوية - ‘أنا لا أتكلم فقط عن الصين. الكون برمته، يا مستر بانكس، الكون برمته سوف يدخل فى حرب عما قريب. فما رأيته تَوَّاً فى تشابى، ليس سوى مجرد ذرة غبار مقارنةً بما سيشهده العالم حتماً فى القريب العاجل!’ قالها بنبرة منتصرة، لكنه على الفور هز رأسه فى أسى. ‘سيكون بشعاً،’ قال بهدوء. ‘بشع. أنت لا تعرف أى شىء، يا سيدى.’

لا أتذكر بوضوح تلك الساعات الأولى التي تلت عودتي. لكن أعتقد أن وصولي إلى أرض القنصلية البريطانية، محمولاً في السيارة العسكرية اليابانية، وظهوري بطريقة ما أو بأخرى في هيئة متسول جوال، لم يؤثر معنوياً على مجتمع موصوم بالقلق. أتذكر بشكل باهت اندفاع الموظفين للخارج لاستقبالنا، ثم، عندما أخذت إلى المبنى، نظر القنصل العام وهو ينزل السلم بسرعة. لا أدري ما هي أولى الكلمات التي وجهها لي، لكنني قلت له، ربما قبل أن أتلظ بأى كلمة للتحية:

‘مستر جورج، لابد وأن أطلب منك أن تقابلني برجلك مكدونالد على الفور.’

‘مكدونالد. جون مكدونالد؟ لكن لماذا تود الحديث إليه، أيها الرفيق القديم؟ انظر، ما تحتاجه هو الراحة. سنقوم باستدعاء طبيب ليقوم بالكشف عليك...’

‘أنا أقبل أنني أبدو متهرئ الثياب. لا عليك، سأذهب وأستعيد انتعاشي قليلاً. لكن من فضلك، لابد من إحضار مكدونالد وجعله يستعد لمقابلتي. هذا من الأهمية بحال.’

اصطحبوني إلى حجرة للضيوف في مبنى القنصلية، حيث تمكنت من حلاقة ذقني وأخذت حماماً ساخناً رغم سلسلة كاملة من الناس الذين دقوا بابي. أحد هؤلاء الناس جراح اسكتلندي صارم قام بفحصى لمدة تجاوز نصف الساعة، ولديه قناعة بأنني أخفى عنه جرحاً خطيراً. آخرون أتوا الواحد تلو الآخر للسؤال عن طلباتي

والعمل على راحتي، رددت ثلاثة على الأقل باستفسار متضجر عن
ماكدونالد. وتلقيت فقط مجرد ردود غامضة بخصوص أنه لم يتم
العثور عليه بعد؛ ثم، مع حلول الليل، جعلني الإجهاد - أو ربما شيء
أعطاني الجراح إياه - أغط في نوم عميق.

لم أستيقظ إلا متأخرًا في صباح اليوم التالي. طلبت إحضار
الإفطار إلى غرفتي، وغيّرت ملابسي بملابس أخرى نظيفة تم
إحضارها من فندق كاثاي أثناء نومي. حينئذٍ شعرت أنني أفضل
كثيرًا، وقررت الخروج للبحث عن ماكدونالد في التو واللحظة.

أعتقد أنني استطعت أن أتذكر الطريق إلى مكتب ماكدونالد من
مقابلتنا الأخيرة، غير أن مبنى القنصلية كان مخادعًا بدرجة ما
واضطرت أن أسأل عددًا من الناس الذين قابلتهم عن الاتجاهات.
كنت لم أزل تأنها قليلًا، هبطت بسطة من الدرج، عندما لمحت السير
سيسيل ميدهورست يقف على البسطة التي تحتي.

كانت شمس الصباح تتدفق عبر النوافذ العاليات لبسطة الدرج،
مضيئة منطقة كبيرة من الحجر الرمادي حوله. لم يكن هناك أي
شخص آخر على البسطة، وكان السير سيسيل يتقدم للأمام ببطة،
ويداه معقودتان خلف ظهره، ويحدق في أرض القنصلية أسفله.
أغواني التراجع لأعلى السلم، غير أن هذا الجزء من المبنى كان
هادئًا، وكانت فرصة سماعه لوقع خطواتي والنظر لأعلى في أي
لحظة قائمة. لذا واصلت النزول، وعندما تقدمت باتجاهه، استدار
وكأنه طيلة الوقت كان في تمام الوعي باقترابي.

‘مرحبًا، أيها الرفيق القديم،’ قال. ‘سمعت بعودتك. شعرت بشيء من الهلع عندما فُقدت، سأخبرك. هل تشعر بتحسن؟’

‘نعم. أنا على ما يُرام، أشكرك. قدمي هذه فقط تتعبنى قليلاً. ليست كما ينبغي تمامًا مع ارتداء الحذاء.’

الشمس على وجهه جعلته يبدو عجوزًا ومرهقًا. التفت للخلف ثانية باتجاه النافذة ونظر للخارج. تحتًا، ثلاثة رجال شرطة من السيخ يسرعون جيئةً وذهابًا بعرض المرجة، يرصون أجولة الرمل فوق بعضها البعض.

‘بالطبع، عندما فُقدت في الوقت نفسه، وصلت إلى نتائج. وأتصور أنه حدث الشيء نفسه مع قلة أخرى من الناس. وهذا ما دفعني للمجيء هذا الصباح. أن أقدم لك اعتذارى. لكنهم أخبروني أنك كنت نائمًا. لذلك كنت على وشك... حسنًا، أتمشى في انتظارك هنا.’

‘ليس هناك ما يدعو للاعتذار، سير سيسيل.’

‘أوه نعم هناك ما يدعو للاعتذار. أتصور أنني درت أردد بضع أشياء في تلك الليلة. تعرف. الوصول إلى نتائج. بالطبع، الجميع يعرفون الآن أنني تحامقت. لكن في الوقت نفسه، وجدت أنه من الأفضل أن آتى وأوضح دوافعي.’

أسفل المرجة، وصل عامل صيني بعربة تحمل عددًا آخر من أجولة الرمل. وبدأ رجال الشرطة السيخ في إنزالها من العربة.

‘هل تركت رسالة؟’ سألت، محاولاً أن أظهر عدم اكتراثي.

‘لا. لكن تلقيت برقية كبلية^(*) صباح اليوم. هسي في ماكاو، تعرف. تقول إنها سالمة في حالة جيدة. تقول إنها وحدها، وأنها ستكتب لي عما قريب.’ ثم استدار إلى وأمسك مرفقي. ‘بانكس، أعرف أنك ستفتقدها أيضاً. بطريقة ما، تعرف، كنت أفضل لو أنها هربت معك. أعرف أنها... إنها تفكر فيك جيداً.’

‘لا بد وأنها كانت صدمة شديدة،’ قلت معلقاً، لأنني كنت بحاجة إلى أن أجد شيئاً يُقال.

أشاح السير سيسيل بوجهه بعيداً واللحظة واصل النظر إلى أسفل على رجلی الشرطة. ثم قال: ‘في الواقع لم تكن هكذا بالفعل، لم تكن صدمة على الإطلاق.’ ثم استأنف: ‘كنت دائماً أخبرها بأنها لا بد وأن ترحل، أخبرتها بأن ترحل وتبحث عن الحب، تعرف، الحب الحقيقي. إنها جديرة به، ألا تعتقد هذا؟’ ذلك هو المكان الذي ذهبت إليه الآن. هربت لتجد الحب الحقيقي. ربما تجده أيضاً. هناك، على بحر الصين الجنوبية، من يدري؟ ربما تلتقي بمسافر، في ميناء، في فندق، من يدري؟ لقد أصبحت رومانسية، تعرف؟ كان على أن أتركها تمضي.’ كانت الدموع الآن تتشع من عينيه.

‘ماذا ستفعل الآن، يا سيدى.’ سألت برفق.

(*) برقية مرسله بكبل من كبول الغواصات. (المترجم)

‘ماذا سأفعل؟ من يدري؟ أتوقع أنه ينبغي على العودة إلى الوطن. أعتقد أن هذا ما سوف أفعل. العودة إلى الوطن. بمجرد أن أدفع بعض الديون المستحقة على هنا، هكذا.’

كنت قد أدركت وقع أقدام تنزل السلم خلفنا، لكنها الآن أبطأت وتوقفت والتفت أنا وهو. فزعت إلى حد ما عند رؤية جرايسون، موظف المجلس البلدى.

‘صباح الخير، يا مستر بانكس. صباح الخير، سير سيسيل. مستر بانكس، نحن فى غاية السعادة بعودتك سالمًا.’

‘شكرًا لك، مستر جرايسون.’ وعندما ظل واقفًا هناك على الدرج الأخيرة وعلى وجهه ابتسامة حمقاء، أضفت: ‘أنا واثق أن كل الاستعدادات الخاصة بحفل الجيسفيلد بارك تتم بصورة ستال رضاك.’

‘أوه نعم، نعم.’ أطلق ضحكة غامضة. ‘لكن الآن، مستر بانكس، جئت أبحث عنك لأننى سمعت أنك تود الحديث إلى مستر ماكدونالد.’

‘نعم، هذا صحيح ، ، فى الواقع، لقد كنت لتوى فى طريقى إليه.’

‘آه. حسنًا لن يكون فى مكتبه المعتاد. لو أنك تبتعتنى، يا سيدى، فسوف آخذك إليه الآن.’

ضغطت بمودة على كتف السير سيسيل - كان قد استدار إلى النافذة ليوارى دموعه - ثم تبتعت جرايسون بخطوة متحفزة.

قادني إلى جزء مهجور من المبنى، ثم وصلنا إلى كوريدور يضم صفًا من المكاتب. سمعت شخصًا يتحدث في التليفون، وظهر رجل من أحد الأبواب وأومأ لجرايسون. فتح جرايسون بابًا آخر وأشار لي بالدخول أمامه.

خطوت داخل مكتب صغير لكنه جيد الأثاث يهيمن على مساحته مكتب كبير. توقفت على العتبة لأنه لم يكن هناك أحد بالغرفة، لكن جرايسون دفعني برفق للدخول وأغلق الباب. ثم دار حول المكتب، وجلس، وأشار لي بالجلوس في المقعد الشاغر.

‘مستر جرايسون،’ قلت، ‘ليس عندي وقت لهذا المزاح الأحمق.’

‘معذرة،’ قال جرايسون، ‘أعرف أنك تود مقابلة ماكدونالد. لكن كما ترى، مجال عمل ماكدونالد هو البروتوكول. إنه يؤدي مهامه بشكل جيد جدًا، لكن نطاق سلطته في الحقيقة لا يمتد لأبعد من ذلك.’

تهدت متضجرًا، لكن قبل أن أنطق بكلمة، استأنف جرايسون كلامه:

‘كما ترى، أيها الرجل العزيز، عندما قلت إنك تريد ماكدونالد، ظننت أنك تريدني. أنا الشخص الذي تود التحدث إليه.’

حينئذٍ لاحظت شيئًا مختلفًا في جرايسون. لقد تلاشت طريقته المتملقة، وكان يتفحصني من أعلى مكتبه. عندما رأى أن الاستيعاب قد بدأ يطل على وجهي، أشار لي مرة أخرى بالجلوس على الكرسي.

‘من فضلك استرح، أيها الرجل العزيز. وأنا أعتذر عن ملاحقتي لك إلى حدٍ ما منذ وصولك إلى هنا. لكنك تفهم، كان على أن أتأكد من أنك لا تفعل أى شيء من الممكن أن يتسبب لنا فى أزمة كبيرة مع القوى العظمى. الآن، دعنى أرى، فهمت أنك تريد مقابلة مع الثعبان الأصفر.’

‘نعم، يا مستر جرايسون. أسألك إذا ما كان باستطاعتك ترتيب مثل هذا الأمر.’

‘كما حدث، أخيراً أخذنا عهداً أثناء غيابك. كل الأطراف بدت موافقة على طلبك.’ ثم مال إلى الأمام، وهو يقول لى: ‘إذا، يا مستر بانكس. هل تشعر بأنك تقترب؟’

‘نعم، يا مستر جرايسون. على الأقل أعتقد أننى أقترب.’

هكذا كانت الساعة قد جاوزت لتوها الحادية عشرة ليلة أمس، وجدت نفسى أسافر بالسيارة عبر المنطقة السكنية الأنيقة فى الامتياز الفرنسى فى صحبة اثنين من ضباط البوليس السرى الصينى. مضينا على طرقٍ تكتنفها الأشجار من الجانبين، مروراً ببيوت كبيرة، بعضها يختفى تماماً خلف أسوار وسياج عالية. ثم وصلنا إلى بوابات عليها حراسات ثقيلة من رجال يرتدون عباءات وقبعات، وتوقفنا فى فناء مفروش بالحصباء. منزل معتم، على ارتفاع أربعة أو خمسة طوابق، يقف أمامنا.

بالداخل، كانت الإضاءة منخفضة، وحراس أكثر يختبئون في كل مكان في الظلال. أثناء تقدمي خلف مرافقي لصعود السلم المركزي، سيطر على انطباع بأن المنزل كان لفترة قريبة يملكه أحد أثرياء أوروبا، لكنه الآن، ولسبب ما، سقط في أيدي السلطات الصينية؛ رأيت ملاحظات وجدول رديئة الشكل مثبتة على الحوائط مباشرة إلى جانب أعمال رائعة من الفن الأوربي والصيني.

وبالنظر إلى الديكور، كانت الغرفة التي أشر لي بالدخول إليها في الطابق الثاني كانت تحتوي حتى وقت قريب مضي على طاولة بلياردو. الآن توجد مساحة واسعة في منتصف الغرفة، تمشيت حولها أثناء انتظاري. بعد عشرين دقيقة أو أكثر، سمعت صوت سيارات أخرى تصل إلى الفناء، لكن حينما حاولت أن أنظر من النوافذ، وجدتھا تطل على الحدائق الجانبية للمنزل، ولم أستطع أن أرى شيئاً على الإطلاق من واجهة المنزل.

مرت نصف ساعة أخرى على وجه التقريب قبل أن يتم إحضاري أخيراً. تمت مرافقتي إلى بسطة أخرى من الدرج، ثم إلى كوريدور مروراً بعدد آخر من الحرس. ثم توقف الحراس عن مرافقتي، وأشار أحدهم إلى باب على بعد عدة ياردات أمامنا. مضيت في المرحلة الأخيرة من الرحلة وحدي، ودخلت ما يشبه غرفة مكتب كبيرة. كانت هناك سجاجيد ثخينة أسفل قدمي، وكانت الحوائط كلها تقريباً تصطف بالكتب. في الطرف القصي، حيث كانت الستائر الثقيلة مشدودة على النوافذ النائية، كان هناك مكتب بمقعدين على جانبيه. على المكتب أباجورة قراءة أوجدت بركة دافئة من النور، ما عدا ذلك

كانت معظم الغرفة غارقة في الظلال. وبينما كنت أقف محاولاً مسح الأشياء المحيطة بي، نهض شخص من خلف المكتب، ودار حوله بحذر، وأوماً للخلف إلى الكرسي الذي كان قد قام عنه.

‘لماذا لا تجلس في هذا الكرسي، يا بفن؟’ قال العم فيليب لى.
‘تذكر، أليس كذلك؟ كنت دائماً تحب الجلوس في الكرسي الخاص بي خلف المكتب.’

الفصل الثانی والعشرون

لو لم أكن أتوقع أن أرى العم فيليب، لكان من الممكن جدًا أن أخفق في التعرف عليه. لقد زاد وزنه مع مرور السنوات، رغم أنه لم يكن رقيقًا، لدرجة أن رقبته قد اكتنزت وتدلّت وجنتاه. كان شعره خفيفًا ويعتريه المشيب. غير أن عينيه كانتا هادئتين ومرحتين حسبما أتذكر.

لم أبسم وأنا أتقدم نحوه؛ ولم أمض باتجاه خلف المكتب إلى الكرسي الذي عرضه علي. 'سأجلس هنا،' قلت، وأنا أتوقف إلى جانب الكرسي الآخر.

هز العم فيليب كتفه غير مبالٍ. 'حسنًا، ليس مكتبي على أي حال. في الحقيقة، أنا لم أطأ هذا المنزل من قبل. هل ثمة علاقة لك بهذا المكان؟'

'أنا أيضًا لم آت أبدًا إلى هنا من قبل. هل يمكن أن نجلس؟'

عندما فعلنا ذلك، استطعنا أن نرى بعضنا البعض بوضوح على الضوء المنبعث من أباجرة المكتب، وأمضينا لحظة نتفحص فيها قسّمات وجه بعضنا البعض بعناية.

'تعرف إنك لم تتغير كثيرًا، يا بفين،' قال. 'حتى الآن من السهل أن أرى الولد داخلك.'

'سأكون ممتنًا لك لو لم تنادني بذلك الاسم.'

‘معدرة. أعترف بأن هذا ينطوي على بعض الصفاقة. إذا، ها نحن، لقد استطعت أن نقتفى أثرى وتجدنى. ظلت أرفض مقابلتك فيما سبق. لكن فى النهاية، أعتقد أننى بدأت أرب فى رؤيتك ثانية. أتوقع أننى مدين لك بتوضيح أو اثنين. لكن، تعرف، لم أكن واثقاً من الكيفية التى تنظر بها إلى. صديق أم عدو، شىء من هذا القبيل. علاوة على أننى فى هذه الأيام لا أثق فى معظم الناس فى هذا الموضوع. أتعرف، قالوا لى أن أحمل هذا معى على سبيل الاحتياط؟’ وأخرج مسدساً فضياً صغيراً ورفعته فى النور. ‘هل تصدق ذلك؟ ظنوا أنك ربما تريد مهاجمتى.’

‘لكننى أرى مع ذلك أنك أحضرته معك.’

‘أوه، لكننى أحمله فى كل مكان. كثيرون فى هذه الأيام يسودون إلحاق الأذى بى. أنا فى الحقيقة لم أحمله بسببك. أحد هؤلاء الرجال الواقفين بالخارج هناك. ربما يكون قد تلقى رشوة للاندفاع إلى هنا كى يطعننى. من يدري؟ لهذا السبب فإنه معى، درءاً للخوف. منذ أن بدأ مزاح الثعبان الأصفر.’

‘نعم. يبدو أنه عرضة بشكل كبير للخيانة.’

‘إن فى هذا قدرًا من الفظاظة، إذا ما كنت تعنى ما أظن أنك تعنيه. فبقدر ما يهتم الشيوعيين، حسناً جداً، نعم، لقد تحولت إلى خائن. وحتى مع ذلك، لم تكن أبداً هذه نيتى، أنت تعرف. لقد قبض على رجال تشيانج ذات يوم وهددوني بالتعذيب. أعترف، أنا لم أتصور ذلك كثيراً، لم أتصوره ولا مرة. لكنهم فى النهاية، قاموا

بشيء غاية في الذكاء. خدعوني وورطوني في خيانة أحد مجموعتي. ثم، كما تفهم، على هذا جرى الأمر. لأنه، كما قد فهمت، ليس هناك من يعاقب الخارجين عن معتقداتهم واتجاهاتهم بطريقة أكثر قسوة من رفاقي القدامى. لم تكن هناك طريقة أخرى للحفاظ على حياتي. على أن أعتمد على الحكومة كي أحمي رفاقي.

‘طبقاً لتحرياتي،‘ قلت، ‘كثيرون فقدوا حياتهم من خلالك. وليس فقط هؤلاء الذين قمت بخيانتهم. في إحدى المرات، منذ سنة مضت، عندما سمحت للشيوخيين أن يصدقوا أن الثعبان الأصفر رجل آخر. العديد من أفراد أسرته، بما في ذلك ثلاثة أطفال، قُتلوا في الموجة الأولى من الانتقامات.’

‘أنا لا أعتبر نفسي مثار إعجاب. أنا جبان، وأنا أعرف ذلك منذ وقتٍ بعيد. لكن لا يمكن أن يتم احتجازي لأبرر همجية الحُمُر. لقد أثبتوا بكل الطرق أنهم فاسدون تماماً مثلما كان تشيانج كيا-شيك دائماً، ولم يعد لهم أي احترام عندي. لكن انظر هنا، لا أتوقع أنك أتيت إلى هنا لتناقش كل هذا.’

‘نعم، هذا صحيح.’

‘إذاً، يا بفن. أنا آسف. كريستوفر. إذاً. ماذا لدى كي أخبرك به؟ من أين نبدأ؟’

‘أبي وأمي. أين هما؟’

‘مع الأسف، مات. لقد حدث منذ سنوات. أنا آسف.’

لم أقل شيئاً وانتظرت. أخيراً قال:

‘قل لى، يا كريستوفر. ما الذى تظن أنه حدث لأبيك؟’

‘هل تخصصك اعتقاداتى فى شىء؟ لقد أتيت هنا لأسمع منك.’

‘حسناً جداً. لكن الفضول دفعنى لمعرفة الذى تصورته بينك وبين نفسك. مع هذا، فلقد صنعت لنفسك سمعة جيدة فى مثل هذه الأمور.’

أثار انفعالى بهذا، لكن خطر ببالى أنه سيدلى بما لديه فقط وفقاً لشروطه هو. لذلك قلت أخيراً: ‘فى تصورى أن أبى قد اتخذ موقفاً، موقفاً شجاعاً، ضد رؤسائه فيما يخص أرباح تجارة الأفيون فى تلك الأيام. وباتخاذ هذا الموقف، ظننت أنه وضع نفسه ضد مصالح ضخمة وكثيرة، ومن ثم تم اقتلعه.’

أوما العم فيليب. ‘كنت أعتقد أنك تظن شيئاً من هذا القبيل. أنا وأمك ناقشنا بعناية ما يجب أن ندفعك للاعتقاد به. وقد كان بطريقة ما أو بأخرى موازياً لما قلت به. لذلك فقد أصبنا النجاح معك. والحقيقة، للأسف، يا بفن، أكثر ابتذالاً بكثير. لقد هرب أبوك ذات يوم مع رفيقته. عاش معها فى هونج كونج لمدة عام، امرأة اسمها إليزابيث كورنواليس. لكن هونج كونج، كما تعرف، مزدحمة وبريطانية على نحو رهيب. كان وجودهما عبارة عن فضيحة، وفى النهاية، اضطررا إلى الفرار إلى مالاكا أو ما شابه. ثم أصيب بالتيفود ومات، فى سنخافورة. كان هذا بعد عامين من رحيله عنك. معذرة، أيها الرفيق القديم، أعرف أنه من الصعب عليك أن تسمع كل هذا.

لكن تمالك نفسك. لأن لدى الكثير وأود أن أخبرك به قبل انقضاء المساء.

‘تقول إن أمي كانت تعرف؟ في وقتها؟’

‘نعم. انتبه، ليس في أول الأمر. لم تعرف قبل مرور شهر أو أكثر. لقد استطاع والدك تغطية خطوط سيره بقدر من المهارة. أمك اكتشفت الأمر فقط لأنه كتب لها. أنا وهي كنا الوحيدتين اللذين يعرفان الحقيقة.’

‘لكن المخبرين السريين. كيف بالله فشل المخبرون السريون في معرفة ما فعل؟’

‘المخبرون السريون؟’ أطلق العم فيليب ضحكة. ‘هؤلاء من لا يتحصلون على مستحقاتهم كما ينبغي، من يُثقلون بالأعمال حتى تدمى أقدامهم؟ إنهم لا يستطيعون معرفة مكان فيل اختفى في طريق نانكينج.’ ثم حينما ظالت صامتًا، قال: ‘كانت ستخبرك في النهاية. لكننا فضلنا حمايتك. ولهذا السبب دفعناك للاعتقاد بما قلت.’

بدأت أشعر بعدم الارتياح في جلستي بالقرب من أبا جورة المكتب، غير أن الكرسي مستقيم الظهر منعني من فرد ظهري. ثم بعد أن حافظت على صمتي بضع لحظات أخرى، قال العم فيليب:

‘دعني أتحدث بإنصاف عن أبيك. كان الأمر صعبًا عليه. دومًا كان يحب أمك، كان يحبها بقوة. أنا في تمام يقيني بأنه لم يتوقف عن حبها أبدًا حتى النهاية. كانت تلك هي الأزمة بصورة أو بأخرى، يا بفن. كان يحبها جدًا، ويعتبرها مثالًا يُقتدى به. وكان الأمر بالفعل

أكبر من احتمال، أن يحاول الارتفاع إلى مستواها وفق تصور. لقد حاول. أوه نعم، حاول، وحطمت المحاوله تقريبًا. بالفعل كان يقول دائمًا: "انظري هنا، بإمكانى أن أفعل الكثير وكفى، أنا هو أنا." لكنه كان يعشقها. لقد كان يريد باستماتة أن يصبح جيدًا بما يكفى كي يليق بها، وعندما اكتشف أنه لم يستطع من داخله، حسناً، هرب. مع امرأة لا تمنع في قبوله كما هو. في اعتقادي أنه كان يريد فترة راحة ليس أكثر. لا تكن سيئ الظن به، يا بفن. لا أصدق أنه تنازل أبدًا عن حبه لك أو لأمك.

‘وأمى؟ ماذا عنها؟’

مال العم فيليب للأمام على مرفقيه وتراجع برأسه للخلف قليلاً. ‘ما حدود معرفتها بما آلت إليها حياتها فعليًا؟’ سأل.

الخفة التي اتسم بها صوته قبل قليل، تلاشت تمامًا. الآن يبدو رجلاً عجوزًا منزعجاً، تستعمره كراهية نفسه. كان يحدق في إيمعان رغم رأسه المتراجعة إلى الخلف، والنور الأصفر المنبعث من أباجرة المكتب أظهر شعرات بيضاوات ناميات في فتحتى أنفه. من مكان ما في الطابق الأرضي، سمعت صوت فونوجراف تنبعث منه موسيقى عسكرية صينية.

‘أنا لا أحاول مضايقتك،’ قال، حينما لم أرد. ‘لا أريد أن أسمع نفسي أتحدث عن الأمر أكثر مما ينبغى على. هيا. إلى ماذا وصلت بك تحرياتك؟’

‘إلى وقت قريب كنت أسير انطباع بأن أمى وأبى محتجزان في تشابى. ومن ثم، إننى لست ذكيًا على الإطلاق.’

انتظرتَه كى يتكلم. لكنه ظل فى وضعه المتحفز الفضولى لبعض الوقت، ثم اعتدل للخلف وقال:

‘لن تتذكر هذا. لكن بعد وقتٍ قصير من رحيل والدك، أتيت إلى بيتكم لزيارة أمك. وفى ذلك اليوم نفسه أتى رجلٌ موثوق به. جنتلمان صينى.’

‘تقصد القائد العسكرى، وانغ كو.’

‘آه. إذا لم تكن غيبًا لتلك الدرجة.’

‘لقد اكتشفت اسمه. لكن فيما بعد، لكن أظن أننى كنت مشغولاً بما لم يسمح لى بتعقب أثر مزيف.’

تنهد ونصب أذنه للاستماع. ‘اسمع،’ قال. ‘أناشيد كومينتانغ. يشغلونها على الفونوغراف لمضايقتى. أينما أخذونى، يحدث الشئ نفسه. يحدث بصورة متكررة تستعصى على المصادفة.’ ثم عندما لا أتفوه بشئ، نهض على قدميه وتقدم بخطواته فى الظلال باتجاه الستائر الثقيلة.

‘أمك،’ أخيراً قال، ‘كرست حياتها لحملتنا. لتوقف تجارة الأفيون وجلبه إلى الصين. كانت العديد من الشركات الأوربية، بما فيها شركة أبيك تحقق أرباحًا طائلة من توريد الأفيون الهندى إلى الصين وتحويل ملايين الصينيين إلى مدمنين لا حول لهم ولا قوة. فى تلك الأيام، كنت أحد أولئك المركزيين للحملة. لفترة طويلة، كانت إستراتيجيتنا بسيطة وساذجة إلى حدٍ ما. ظننا أنه بإمكاننا أن نخزى تلك الشركات بحيث تتنازل عن أرباحها من تجارة الأفيون. كتبنا

خطابات، وأحطناهم علماً بالأدلة التي تثبت ما يسببه الأفيون من خسائر للصينيين. نعم، ربما تضحك، كنا غاية في السذاجة. لكن لعلمك، كنا نظن أننا نتعامل مع إخواننا في المسيحية. حسناً، في النهاية رأينا أننا نمضي في طريق مسدودة. اكتشفنا أن هؤلاء الناس، لا يحبون الأرباح فحسب، لكنهم بالفعل كانوا يريدون أن يصبح الصينيون كائنات لا جدوى لها. كانوا يريدونهم في حالة من الفوضى والتشوش التام، مدمنى مخدرات، غير قادرين على حكم أنفسهم بطريقة مناسبة. بهذه الطريقة، يمكن إدارة الدولة فعلياً وكأنها مستعمرة، لكن دون اللجوء إلى الضغوط المعتادة. لذلك غيرنا من تكتيكنا. أصبحنا أكثر تطوراً وحنكة. في تلك الأيام، تماماً مثلما زالوا يفعلون إلى الآن، شحنات الأفيون كانت تأتي عن طريق اليانغتزي. كان على المراكب الصغيرة أن تحملها أعلى النهر إلى ريف ينتشر فيه قطاع الطرق. وطالما لم تكن هناك حماية كافية، كانت الشحنات تمضي كثيراً فيما وراء مدخل اليانغتزي دون أن تُنهَب. لذلك اعتادت كل هذه الشركات، باترفيلد آند سواير، جاردين ماثيسون، جميعها، اعتادت عقد الاتفاقيات مع قادة الحرب المحليين التي تمر الشحنات في مناطقهم. قادة الحرب هؤلاء، في واقع الأمر، لم يكونوا سوى قطاع طرق مبدلين. لم نعد نناشد الشركات التجارية. كنا نناشد قادة الحرب. نناشد فيهم اعتدادهم بأصولهم وأعرافهم. وضحنا لهم أن في أيديهم القضاء على التربح من تجارة الأفيون، أن ينقلبوا على العسائق الأكبر الذي يمنع الصينيين من تقرير مصيرهم، وتقرير مصير وطنهم بأنفسهم. بطبيعة الحال، كان البعض يتوقون للمبالغ التي يتلقونها. لكن كان لدينا بعض المهتدين. كان وانغ كو في ذلك الوقت

أحد قادة قطاع الطرق الأكثر قوة. كانت منطقته تغطي مئات الأميال المربعة في شمال هونان. رجل في منتهى الوحشية، لكنه كان مهيبًا ومحترمًا بما جعله عالي القيمة بالنسبة للشركات التجارية. الآن أصبح وانغ كو متعاطفًا جدًا مع قضيتنا. غالبًا ما كان يأتي إلى شنغهاي، وكان يحب الحياة السامية هناك، واستطعنا أن نقنعه أثناء هذه الزيارات. بفن، هل أنت بخير؟

‘نعم، أنا بخير. أسمع’
‘ربما ينبغي عليك أن تذهب الآن، يا بفن. لست مضطرًا لسماع ما أوشك على إخبارك به.’
‘قل. أنا أسمع.’
‘حسنًا جدًا. أشعر أنك ينبغي أن تسمع، إذا كانت لديك القدرة على التحمل. لأن... حسنًا، لأنك لابد أن تجدها. لم تزل هناك فرصة في معرفة مكانها.’

‘إذا، أمي لم تزل على قيد الحياة؟’
‘ليس هناك ما يبرر الاعتقاد في عكس ذلك.’
‘أخبرني إذا. أكمل ما كنت تقول.’

عاد إلى المكتب وجلس ثانية أمامي. ‘في ذلك اليوم أتى وانغ كو إلى منزلكم،’ قال. ‘من الملائم أن تتذكر ذلك اليوم. أنت في منتهى الصواب إذ هاجسك الشك في أهميته. لقد كان اليوم الذي اكتشفت فيه أمك أن دوافع وانغ كو كانت بعيدة تمامًا عن البراءة. افترض ببساطة، أنه خطط لمهاجمة شحنات الأفيون بنفسه. بالطبع، لقد قام

باستعدادات معقدة، حتى يتفرق الأمر بين ثلاثة أو أربعة أحزاب أخرى، فكر صيني خالص، لكن في النهاية، نعم، هذا ما وصلت إليه الأمور. كان معظمنا يعرف بالفعل، لكن أمك لم تكن تعرف. لقد أبقينا عليها في الظلام، ربما بحماقة، أحسنا أنها لن تقبل. بقيتنا، بطبيعة الحال كانت تتناوبا مخاوف، مع هذا، قررنا أن نعمل مع وانغ. نعم، باع الأفيون للعملاء أنفسهم الذين كانت الشركات تقوم بالبيع لهم. لكن الشيء المهم كان إيقاف الواردات. كي تصبح التجارة غير مربحة. لسوء الحظ، في ذلك اليوم، الذي أتى فيه وانغ كو إلى بيتكم قال شيئاً جعل أمك تتحقق لأول مرة من حقيقة علاقته معنا. في ظني أنها شعرت بالغباء. وربما كانت تشك في الأمر طيلة الوقت، لكنها لم تكن تتمنى أن تعره اهتماماً، وانتابتها نوبة من الغضب من نفسها ومننا مماثلة لغضبها من وانغ. على أية حال، فقدت أعصابها تماماً، وبالفعل لطمته. بخفة فقط، فهمت، لكن يدها لمست خده. وبالطبع قالت، قالت كل شيء اضطرت إلى التصريح به في وجهه. أدركت وقتها أن ثمة ثمن بشع لابد وأن يُدفع. في التو واللحظة، حاولت القيام بتذويب الأمر. أوضحت له كيف هرب والدك قبل وقت قصير، وأن أمك بالفعل كانت في حالة من الانزعاج الشديد، حاولت أن أنقل له كل هذا وهو يغادر. ابتسم وقال لا تقلق، لكنني قلقت، آه نعم، انتابني القلق تماماً. كنت أعرف أنا ما قد فعلته أمك لن يزول بسهولة. أقول لك، كنت سأشعر بالارتياح لو أن كل ما فعله وانغ ردًا على ذلك هو التوقف عن المشاركة في خطتنا. لكنه كان يريد الأفيون، وقد قام فعلاً بترتيبات كافية. إضافةً إلى أنه قد أهين بواسطة امرأة أجنبية، وأراد أن يضع الأمور في نصابها الصحيح.

عندما ملت باتجاهه فى وهج الأماجورة، انتابنى شعورٌ غريب أن العتمة خلف ظهره قد تزايدت وتزايدت، حتى أن قضاءً معتمًا شاسعًا قد انفتح هناك. توقف العم فيليب عن الكلام ليمسح بعض العرق عن جبهته بباطن كفه. لكنه الآن قد نظر لى بإمعان وأكمل:

‘ذهبت لمقابلة وانغ كو متأخرًا فى ذلك اليوم نفسه فى المتروبول. فعلت كل ما فى مستطاعى محاولاً وقف النكبة التى كنت أعرف بوقوعها. لكن بلا جدوى. ما قاله لى عصر ذلك اليوم هو أنه بعيدًا عن غضبه مما فعلته أمك، فقد وجد أن روحها - هذا ما قال به، "روحها" - غاية فى الجاذبية. لدرجة أنه يريد العودة بها كمحظية، العودة بها إلى هونان. لقد اقترح "ترويض" أمك، كما يفعل مع المهرة الجامحة. الآن لابد وأن تفهم، يا بفن، مسار الأمور وقتئذٍ، فى شنغهاى، فى الصين، لو أن رجلاً من فصيل وانغ كو قد قرر أمرًا كهذا، فنادرًا ما يوجد من يمنعه. هذا ما ينبغى أن تفهم. لم يكن هناك ما يمكن عمله حال طلب البوليس أو أى شخص آخر أيا كان لحراسة أمك. وهذا ما جعل الأمور تمضى ببطء قليلًا، لكن هذا كل ما فى الأمر. لم يكن هناك من يستطيع حماية أمك من نوايا رجلٍ من ذلك النوع. لكن تعرف، يا بفن، لقد كان خوفى الأعظم عليك. لم أكن أعرف نواياه تجاهك، وهذا ما كنت أتوسل لأجله بالفعل. فى النهاية، وصلنا إلى اتفاق. أن أقوم أنا بترتيب الأمور بحيث تصبح أمك وحدها، دون حراسة، وفى الوقت نفسه أستطيع إبعادك عن المشهد تمامًا. هذا كل ما أردت أن أفعل. لم أكن أريده أن يأخذك أنت أيضًا. أمك، كان أمرها مفروغًا منه. لكن بالنسبة لك، كان هناك ما يمكن أن أتوسله لأجلك. وهذا ما فعلت.’

ثمة توقف محتمل. ثم قالت:

‘لعد هذا الترتيب المقنع، هل أفترض أن وانغ كو قد استمر في التعاون مع خطتكم؟’

‘لا تسخر، يا بفن.’

‘لكنه قد حدث؟’

‘حدث بالفعل. إن أخذ أمك قد شفى غليله. بإمكانى أن أقول إنه فعل ما طلبنا منه، إسهاماته كانت عاملاً فاعلاً في دفع الشركات لقرار إنهاء هذه التجارة.’

‘لذلك تم التضحية بأمى، كما تقول، لأجل هدفٍ أعظم.’

‘انظر، يا بفن، لم يكن ثمة اختيار لدى أى منا. لابد وأن تفهم ذلك.’

‘هل رأيت أمى بعدئذٍ؟ بعد أن اختطفها ذلك الرجل؟’

رأيتَه يتردد. لكنه بعدئذٍ قال:

‘نعم، فى الحقيقة، رأيتها. مرة واحدة، بعد سبع سنوات. صادف أننى كنت أمر بهونان وقبلت دعوة وانغ لاستضافتى. وهناك، فى قلعته، نعم، رأيت أمك بالفعل لآخر مرة.’

كان صوته يهمس تقريبًا. الفونوجراف فى الطابق السفلى لم يعد يعمل، لدرجة أننى أحسست باستكانة معلقة بيننا.

‘ثم... ثم ماذا حدث لها؟’

‘كانت بصحة جيدة. كانت، بالطبع، واحدة من محظيات كثيرات. يمكننى القول بأنها، تحت وطأة الظروف، تكيفت مع حياتها الجديدة جيدًا.’

‘وكيف كانت تُعامل؟’

أشاح العم فيليب بوجهه بعيدًا. ثم قال بهدوء: ‘عندما رأيتها، بطبيعة الحال سألت عنك. أخبرتها بما قد كنت أعرف. كانت سعيدة. تعرف، حتى رأيتها فى تلك المرة، كانت منقطعة تمامًا عن العالم الخارجى. لسبع سنوات، لم تكن تسمع فقط سوى ما يختاره وانغ لتسمعه. ما أعنيه هو، لم تعرف يقينًا أن الترتيبات المالية تسير على ما يُرام. لذلك، فحينما رأيتها، لم تكن تريد أن تعرف سوى هذا الأمر، واستطعت أن أطمئنها أن الأمور على ما يُرام. بعد سبع سنوات من عذابات الشك، ارتاح عقلها. لا أستطيع أن أعبر لك عن مدى ارتياحها. "هذا كل ما أردت معرفته"، وتظل تقول "ذلك كل ما أردت معرفته."’

كان يرمقنى الآن بمنتهى الإمعان. بعد لحظةٍ أخرى، منحنىه السؤال الذى كان ينتظره منى.

‘عم فيليب، أى ترتيبات مالية؟’

نظر لأسفل على ظهر يديه، وتفحصهما جيدًا لبرهة. ‘أنا أعرف أنه لولاك، لولا حبها لك، يا بفن، لكانت أمك قد فرت بحياتها دون تردد قبل أن يتمكن هذا النذل من مسها بطرف إصبعه. كانت ستجد طريقة، وكانت ستتجو بها. لكن كنت أنت على رأس الاعتبارات.

لذلك في النهاية، عندما رأت الموقف على ذلك الوضع، وضعت خطة. أن يتم دعمك ماليًا في مقابل... خضوعها. أشرفت على معظم نقاط ذلك الاتفاق بنفسى، وقمت بترتيبه من خلال الشركة. كان هناك رجل في شركة سواير، لم يكن يعرف مبرر كل ذلك. لذلك كان يحاول تأمين طرق آمنة لأفيونه. ها ها! كان رجلاً أحمق، ذلك الرجل! 'هز العم فيليب رأسه وابتسم. ثم عاودت القتامة وجهه مرة أخرى، وكأنه قد استسلم للمسار الذى اختطه مسارنا فى الحوار.

'نصيبى،' قلت بهدوء. 'إرثى...'

'خالتك فى إنجلترا. لم تكن ثرية أبدًا. لقد كان وانغ كو هو كفيلك الوحيد طيلة هذه السنوات'

'لقد كنت طيلة هذا الوقت، إذا، أعيش... أعيش على...' لم أستطع أن أكمل، وتوقفت ببساطة.

أوما العم فيليب. 'دراستك. مكانك فى مجتمع لندن. حقيقة إن ما حققت من ذائك ما أنت عليه الآن. تدين به إلى وانغ كو. أو بدرجة ما إلى تضحية أمك.'

وقف ثانية، وعندما نظر إلى رأيت شيئًا جديدًا على وجهه، شيئًا يشبه الكراهية تقريبًا. ثم استدار وانتقل بعيدًا فى غياهب الظلال، ولم أر ذلك الشيء ثانية.

'فى تلك المرة التى رأيت فيها أمك،' قال. 'فى تلك القلعة. كانت قد فقدت كل اهتمامها بحملة مكافحة الأفيون، كانت تعيش فقط لأجلك، وتقلق لأجلك. فى ذلك الوقت، حرمت هذه التجارة. لكن حتى ذلك

الخبر لم يعد يعنى لها شيئاً. بالطبع، أحسست بالمرارة تجاه حالتها هذه، تماماً كما حدث للآخرين منا الذين ضحوا بسنوات من أجل الحملة. ظننا أننا فى النهاية حققنا هدفنا. انتهت تجارة الأفيون. واستغرقنا من الوقت عامًا أو اثنين لنعرف ماذا يعنى إلغاء هذه التجارة بالفعل. لقد غيرت هذه التجارة أياديها ببساطة، هذا كل ما فى الأمر. إنها الآن تحت إدارة حكومة تشيانغ. عدد أكبر من المدمنين أكبر من أى وقت مضى، لكنها حينئذٍ كانت تنتشر من أجل دفع نفقات جيش تشيانغ كيا-شيك، دفع نفقات سلطته. وهكذا عندما انضمت للحر، يا بفن. اعتقدت أن أمك ستتهار حين تعرف ما آل إليه أمر حملتنا، لكنها لم تعد تكثر. كل ما كانت تريده هو أن يُعْتَنَى بك. كانت دائماً تريد أن تعرف أخبارك. هل تعرف، يا بفن - اعتلى صوته بغتة حافة غريبة - 'عندما رأيته فى تلك المرة، كانت تبدو فى حالة جيدة تماماً. لكن أثناء وجودى هناك، سألت بعض الآخرين فى المكان، ممن يعرفون. كنت أريد أن أعرف الحقيقة، أعرف كيف كانت تُعامل، لأننى... لأننى كنت أعرف أن هذه اللحظة، هذه اللحظة التى نعيشها الآن، كانت مُحتملة الحدوث. وعرفت. آه نعم، اكتشفت. كل شيء.'

‘هل تحاول تعذيبى عمداً؟’

‘لم تكن مجرد مسألة... مسألة الخضوع له فى السرير. لكنه كان يجلدنا بانتظام أمام ضيوفه على العشاء. وكان يُسمى ذلك ترويض المرأة البيضاء. ولم يكن هذا كل ما فى الأمر. هل تعرف...’

كنت فعلاً قد غطيت أذنى، لكننى الآن صرخت: 'كفى! لماذا تعذبنى هكذا؟'

'لماذا؟' كان صوته الآن مشوباً بالغضب. 'لماذا؟ لأننى أريدك أن تعرف الحقيقة! طيلة هذه السنوات، كنت تنتظر إلى على أننى مخلوق خسيس. ربما أكون هكذا، لكن هذا صنيع هذا العالم بك. لم أقصد أبداً أن أكون هكذا. لكنك قصدت أن أفعل خيراً فى هذا العالم. ذات مرة اتخذت قرارات شجاعة بطريقتى. انظر إلى الآن. أنت تحتقرنى. لقد احتقرتتى طيلة هذه السنوات، يا بفن، يا أقرب الناس لمفهوم الابن بالنسبة لى، وما زلت تحتقرنى. لكن الآن هل ترى حقيقة العالم بالفعل؟ كيف أصبحت مخبراً سرّياً شهيراً؟ مخبر سرى! ما الخير فى هذا بالنسبة لأى شخص؟ مجوهرات مسروقة، أرسقراطيون يُقتلون لأجل تركاتهم. هل تعتقد أن فى كل هذا ما يشيع السعادة فى النفس؟ أمك، كانت تريدك أن تعيش فى عالمك الساحر للأبد. لكن هذا مستحيل. فى النهاية لابد وأن يتهشم. معجزة أن يظل باقياً هكذا كل تلك الفترة لأجلك. الآن، يا بفن، هنا. سأمنحك هذه الفرصة. هنا.'

أخرج مسدسه ثانية. تقدم من الظلال باتجاهى، وعندما نظرت لأعلى، كان يلوح بطيفه فوقى، كثيراً ما كان يفعل ذلك أيام طفولتى. طرح سترته للخلف وضغط بمسدسه فى صدريته بالقرب من قلبه.

'هنا،' قال، وهو ينحنى ويهمس لدرجة أننى شممت عطانة أنفاسه. 'هنا، يا ولد. بإمكانك أن تقتلنى. كما أردت دائماً. لهذا السبب أبقيت على حياتى لوقتٍ طويل. هذا الامتياز لا ينبغي لأى شخصٍ

آخر . لقد أنقذت نفسي . اسحب الزناد . هنا ، انظر . سنجعل المسألة تبدو وكأنني هاجمتك . سأمسكك بالمسدس ، وسأسقط فوقك . عندما يدخلون ، سيرون جسد منهاراً فوقك ، ستبدو وكأنها دفاع عن النفس . انظر ، هنا ، أنا أمسكه . وأنت تسحب الزناد ، يا بفن .

كانت صدريته تتماس مع وجهي ، وتتحرك لأعلى مع صدره الذي كان يجيش . شعرت باشمئزاز ، وحاولت أن أتحرّك بعيداً ، غير أن يده الأخرى - ببشرتها التي بدت جافة بصورة غير قابلة للوصف - قبضت على ذراعي بقوة كي تجذبني إليه . خطر ببالي أنه من الممكن أن يضغط على الزناد بنفسه بمجرد لمسة يدي للمسدس . تراجعت بعنف ، وترنحت بعيداً عنه دون أن أستطيع الحفاظ على توازن الكرسي .

لثانية نظر كل منا باتجاه الباب بإذئاب لنرى ما إذا كانت هذه الفوضى ستدفع الحراس للدخول . لكن لا شيء حدث ، وفي النهاية ضحك العم فيليب ، وأعاد وضع الكرسي في مكانه أمام المكتب بعد أن التقطه . ثم أجلس نفسه عليه ، ووضع المسدس على المكتب ، وظل بعض الوقت يستعيد أنفاسه . ابتعدت بضع خطوات أخرى عن المكتب ، لكن لم يكن هناك أي شيء آخر في تلك الغرفة الغائرة ، واضطرت للتوقف ببساطة ، وظهري كان لم يزل قبالة . ثم سمعته يقول :

‘وهو كذلك . حسناً جداً .’ ازدرد بضع أنفاس أخرى من الهواء .
‘إذا ، سأخبرك . سأعلن لك عن أسوأ اعترافاتي .’

لكن كل ما استطعت أن أسمعه خلفي، في الدقيقة التالية، كانت أنفاسه اللاهثة. ثم قال أخيرًا:

‘حسنًا جدًا. سأعترف لك بالحقيقة. حقيقة المبرر الذي بسببه وافقت على اختطاف وانغ كو لأمك في ذلك اليوم. ما قلته من قبل، نعم، كان صحيحًا جدًا. كان على أن أومنك. نعم، نعم، كل شيء قلته من قبل صحيح بطريقة ما أو بأخرى. لكن لو أردت بالفعل أن، لو أنني أردت فعلاً إنقاذ أمك، أعرف أنني كنت سأجد طريقة لذلك. سأخبرك الآن بشيء، يا بفن. شيء لم أكن أقدر أن أعترف له حتى لنفسي لسنوات عديدة. لقد ساعدت وانغ كو في الاختطاف لأن جزءاً مني كان يريد أن تستعبد. أن تنتهك بتلك الطريقة، ليلة بعد أخرى. لأنك تعرف، أنني كنت دائماً أشتهيها، منذ الأيام الأولى لاعتيادي التردد على بيتكم. آه نعم، كنت أرغبها، وعندما هرب أبوك بتلك الطريقة، اعتقدت أنها فرصتي، وأنني الخليفة الطبيعي. لكن... لكن أمك، لم تكن تنظر إلى أبداً بهذه الطريقة، أدركت هذا بعد هروب أبيك. كانت تبجلني معتقدة أنني شخص جدير بالاحترام... لا، لا، كان هذا مستحيلاً. ولم يكن ممكناً أن أتقدم نحوها حتى لو ظلمت إلى جوارها ألف سنة، ولا حتى بتلك الطريقة. غضبت. غضبت جدًا. وعندما حدث كل هذا، مع وانغ كو، أثارني ما حدث. هل تسمعني، يا بفن؟ أثارني ما حدث! بعد أن أخذها، في أكثر ساعات الليل عتمة، كان ذلك يثيرني. طيلة تلك السنوات، عشت منتصراً من خلال وانغ. بدا لي الأمر تقريباً وكأنني قهرتها أنا أيضاً. كنت أمنح نفسي اللذة، لمرات ومرات عديدة، وأنا أتخيل نفسي أنني من فعل بها ذلك. الآن،

الآن، اقتلنى! لماذا تصفح عني؟ لقد سمعت كل شيء! تفضل، اقتلنى
كفأر ليس أكثر!

لوقتٍ طويل، ظللت أقف في الركن المعتم من الغرفة، وظهري
له، أنصت لصوت تنفسه. ثم استدرت إليه ثانية وقلت، بمنتهى
الهدوء:

‘قلت قبل قليل إنك تعتقد أن أمي لم تزل على قيد الحياة. ألم تزل
مع وانغ كو؟’

‘لقد مات وانغ كو قبل أربع سنوات. وقام تشينج، على أية حال،
بتسريح قواته. أنا لا أعرف مكانها الآن، يا بفن. بالأمانة، لا
أعرف.’

‘حسنًا، سوف أجدها. لن أتهاون.’

‘لن يكون الأمر سهلاً، يا بنى. هناك حرب مشتعلة في كل أنحاء
البلاد. وسوف تتدلع في العالم كله عما قريب.’

‘نعم،’ قلت. ‘أنا على يقين من أن العالم كله سينغمس فيها. لكن
هذه ليست غلطتى. لم يعد هذا يهمنى، في الحقيقة. أنا أقصد لا بد أن
أبدأ من جديد، وسأجدها في هذه المرة. هل هناك شيء آخر تود أن
تخبرنى به ويساعدنى في بحثى؟’

‘للأسف لا، يا بفن. لقد أخبرتك بكل شيء.’

‘إلى اللقاء إذاً، عم فيليب. أعتذر لأننى لا أستطيع أن أتفضل
عليك بمعروف.’

‘لا عليك. كثيرون يودون التفضل على الثعبان الأصفر.’ أطلق
ضحكة سريعة. ثم قال بصوت مكتئب وحزين: ‘إلى اللقاء، يا بفن.
أتمنى أن تجدها.’

الظلام

الكتاب السابع

لندن ١٤ نوفمبر ١٩٥٨

الفصل الثالث والعشرون

كانت هذه هي أولى رحلاتي الطويلة خلال عدة سنوات، وليومين بعد وصولنا إلى هونج كونج، ظلت في حالة من الإعياء الشديد. إن السفر جواً سريع بصورة مروعة، لكن الظروف معقدة ومُربكة. فقد عاودتني آلام مفصل الفخذ بإفراط مع صداع لازمني لفترة طويلة من إقامتي، مما جعل وجهة نظري، بلا شك، تتطوى على كثير من التحامل ضد تلك المستعمرة. أعرف عن هؤلاء الذين خرجوا في رحلات إلى هناك وعادوا منتقنين بالكثير من المديح. 'مكان متقدم،' دائماً يقولون. 'وجميل بشكل مثير للدهشة.' ومع هذا كانت السماء غائمة والشوارع مزدحمة بصورة تثير الضيق لوقت طويل من ذلك الأسبوع. أعتقد أنني أعجبت هنا وهناك - في اللافتات الصينية خارج المحلات، أو فقط في النظر إلى الصينيين وهم يقومون بأداء أعمالهم في الأسواق - بما يشبه الصدى الغامض لشنغهاي. لكنني ثانية أقول، كانت هذه الأصداء كثيرة جداً بحيث لم أستطع أن أعتبرها مريحة. وكأنني قد التقيت فجأة، في واحدة من حفلات العشاء المملة التي حضرتها في كينسينجتون أو بايسواتر، بإحدى قريبات امرأة ربطتني بها علاقة حب ذات مرة؛ وكانت حركاتها وإيماءاتها وتعبيرات وجهها تחדش الذاكرة برفق، لكنها تظل، فوق هذا كله، محاكاة غريبة وسخيفة أيضاً بصورة عالقة في الذهن بقوة.

فى النهاىة كنت سعيذاً بصحبة جينيڤير . عئما ألمحت فى البءاية
بإمكانية المءىء معى؁ آءاهلتها عامذاً . لأنها حتى فى تلك المرحلة
المأخرة - أنا أآءء فقط عى خمس سنوات مضت - كانت تميل
إلى اعآبارى نوعاً من المرضى؁ آاصة مع عوءة ظهور الماضى أو
الشرق الأقصى فى آياتى . أعتقء أن جزءاً منى قء استاء طويلاً من
هذا القلق المفرط؁ وعئما آأكء لى أنها بالفعل آوء الآروج من
الأشياء لفترة - وأنها آعانى من قلقها الآاص؁ وأن مثل هذه المرحلة
ربما تكون آيراً لها - عئئذٍ فقط وافقت على آتمية سفرنا معاً .

إن مأولة مء فترة المرحلة إلى شنغهاى كانت فكرة جينيڤير؁
وأعتقء أن هذا لم يكن مستحيلأً . لقد استطعت أن أآءء إلى بعض
المعارف الراشءين؁ رجال ممن لم آزل لهم كلمآهم فى وزارة
الآارجية؁ وأنا مآأكء من أننا آصلنا على إذن آءول للبر الرئيسى
من الصين ءون مواآهة صعوبات كبيرة . أنا أعرف عى آآرين فعلا
مثل هذا . لكن وبكل ما للكلمة من معنى؁ شنغهاى اليوم هى ظل
شبحى للمءينة التى كانت من قبل . الشيوعيون قء أآجموا عى إآلاف
المكان . وءمه مائأ؁ لذلك فقد بقى الكثير مما كان يسمى فى الماضى
المستعمرة ءولية كما هو عليه ءون أن يمسسه الأذى . الشوارع رغم
إعاءة آسميتها؁ معروفة آذاً؁ ويقال إن أى شخص من الكبار يعرف
شنغهاى يعرف طريقه فيها . لكن الأجانب؁ بالطبع؁ قء تم إبعاءهم
آميعأ؁ والفناءق والنواى الليلية التى كانت فى وقت ما موجودة
بكآرة أصبحت الآن مكاتب لآكومة الرئيس ماو . بعبارة آآرى؁
شنغهاى اليوم أثبتت أنها لا تقل فى كونها مأكاة ساخرة مؤلمة
للمءينة القءيمة عى هونج كونج .

لقد سمعت، بشكل عرضي، أن الكثير من الفقر - وأيضًا إدمان الأفيون الذي حاربته أمي بقوة ذات يوم - قد تراجع تحت حكم الشيوعيين. إلى أي مدى لم تنزل هذه الشرور المستأصلة باقية، لكن يبدو واضحًا أن الشيوعية قد تمكنت في بضع سنوات من تحقيق ما عجزت عنه الحملات الخيرية المتحمسة في عقود. أذكر متعجبًا ومتسائلًا بيني وبين نفسي ما الذي كانت ستفعله أمي بمثل هذه الفكرة في تلك الليلة التي قضيناها في هونج كونج، عندما كنت أمشي حول غرفتي في فندق إكسليسيور، لعلاج مفصل فخذي ومحاولة استعادة توازني بشكل عام.

لم أذهب إلى الروسدال مانور إلا في اليوم الثالث. لقد ظل مفهومًا لفترة طويلة أنني سأقوم بالرحلة وحدي، ورغم أن جينيفير تابعت كل حركاتي طيلة الصباح، فقد رأتني أنطلق بعد الغداء دون جلبة كبيرة.

في تلك الظهيرة، كانت الشمس في ذروتها، وعندما صعدت منحدرات التل في التاكسي، كانت فرق من عمال البستنة الذين تخلصوا من ثيابهم تقوم برى المروج المقلمة جيدًا على كلا الجانبين. أخيرًا أصبحت الأرض مستوية وتوقفت سيارة التاكسي أمام بيت كبير أبيض شيد على طراز المستعمرات البريطانية له صفوف من نوافذ ذات مصاريع وجناح إضافي يمتد من جانبه. لا بد وأنه، في وقت ما، كان بيتًا فخماً، يطل، كما كان، على المياه ومعظم الجانب الغربي من الجزيرة. عندما وقفت في النسيم ونظرت عبر الميناء، كنت أرى مباشرة على مد البصر حتى رأيت التليفريك يمضي بعيدًا إلى تل

بعيد. مع هذا رأيت، مع استدارتي للبيت نفسه، أنه قد سُمح له بأن يصبح ضبابيًا، فالدهانات التي على أفاريز إطارات النافذة والباب على وجه التحديد قد تشققت وتقشرت.

بالداخل، في الردهة، كانت هناك رائحة سمك مسلووق خافتة، غير أن المكان بدا في غاية النظافة. قادتني راهبة صينية إلى أسفل حيث كوريدور يرتد فيه الصدى إلى مكتب الأخت بليندا هيينى، امرأة فى منتصف الأربعينيات من عمرها ذات ملامح جادة وبدرجةٍ ما صارمة. وهناك، فى المكتب الصغير الضيق، أُخبرت أن المرأة التى يعرفونها باسم 'ديانا روبرتس' قد أتت إليهم من خلال منظمة علاقات متبادلة تعمل على مستوى وزارات الخارجية فى الصين الشيوعية. كل السلطات الصينية كانت تعرف أنها، وقت تسليمها، كانت تعيش فى مؤسسة للأمراض العقلية فى تشانكينغ منذ انتهاء الحرب.

'من الممكن أن تكون قد قضت معظم سنوات الحرب هناك أيضًا،' قالت الأخت بليندا. 'الأمر لا يحتمل مجرد التفكير، يا مستر بانكس، فى أى مكان كانت. فالإنسان، بمجرد احتجازه فى مثل هذا المكان، من الصعب بحال أن تسمع عنه ثانيةً. فقط لأنها امرأة بيضاء فقد تميزت. الصينيون لم يعرفوا ماذا يفعلون معها. مع كل هذا، فهم يريدون إخراج جميع الأجانب من الصين. لذلك فقد أُحيلت أخيرًا إلى هنا، وهى معنا الآن منذ عامين تقريبًا. عندما أتت إلينا لأول مرة، كانت فى غاية القلق والهباج. لكن خلال شهر أو أكثر، بدأت كل المساعدات المعتادة للروسيدال مانور، ممثلة فى الأمن والنظام

والصلوات، تؤدي واجباتها. لن تعرفها الآن على أنها المخلوق المسكين الذي وصل إلى هنا. لقد بلغت حدًا رائعًا من الهدوء والطمأنينة. أنت من أقاربها، هل قلت ذلك؟

‘نعم، هذا ممكن،’ قلت. ‘ومادام أنني في هونج كونج، فقد فكرت أنه من الصواب بالفعل القيام بزيارة. هذا أقل ما يمكن القيام به.’
‘حسنًا، أي أخبار من الأقارب، والأصدقاء وثيقي الصلة، وأي اتصال مع إنجلترا، يسعدنا أن نسمع به. وفي الوقت نفسه، مرحبًا بالزائرين دائمًا.’

‘هل لديها الكثير؟’

‘هناك من يزورها بصورة منتظمة. نحن ننفذ خطة مع طلاب كلية سانت جوزيف.’

‘فهمت. وهل هي على علاقات طيبة بالآخرين من زملائها؟’
‘أوه نعم. وهي لا تثير أي مشاكل لنا على الإطلاق. نستطيع أن نقول إنها مثل الأخريات!’

قادتني الأخت بليندا أسفل كوريدور آخر إلى غرفة واسعة مشمسة - ربما كانت فيما قبل غرفة الطعام - بها حوالي عشرون أنثى جميعهن ترتدين سمق^(*) بيج تجلسن أو تمشين جيئةً وذهابًا في حدود المكان. الأبواب الفرنسية الطراز كانت تفتح على الأراضي المحيطة، وكانت الشمس تسقط بأشعتها من خلال النوافذ على

(*) ثوب خارجي فضفاض. يُرتدى لوقاية الملابس من الاتساخ. (المترجم)

الأرضيات الباركية. لولا العدد الكبير من المزهريات المليئة بالأزهار
البيضاء، لكنت أخطأت القاعة وحسبتها حضانة أطفال؛ كانت هناك
ألوان مائية براقّة مُثبتة على كل الجدران، وفي نقاط عديدات،
طاوولات عليها بنات يلعبن الورق، أو يرسمن على الورق بألوان
الشمع. تركتني الأخت بيليندا أقف عند المدخل بينما تقدمت إلى راهبة
أخرى تجلس على بيانو، وعدد من النساء توقفن عما كن يقمن به
لترمقنني. أخريات بدين واعيات وحاولن إخفاء أنفسهن. كلهن تقريبًا
كن غريبات، رغم أنني رأيت واحدة أو اثنتين من أوراسيا. ثم بدأت
واحدة تتحب بصوتٍ مرتفع في مكان ما من المبنى خلفي، ومن
المثير للفضول أن هذا كان من أثره وضع النساء في حالة من
الارتياح. سيدة سلكية الرأس على مقربةٍ مني ألقتني بابتسامة عريضة
وقالت:

‘لا تقلق، يا حبيبي، إنها مارثا. إنها تستعيد عنفوانها وتوردها
مرةً أخرى!’

سمعت لهجة يوركشير في طريقة نطقها، وكنت أتساءل أي
مقادير أنت بها إلى هذا المكان، عندما عادت الأخت بيليندا.

‘لا بد وأن ديانا بالخارج،’ قالت. ‘لو سمحت اتبعني، يا مستر
بانكس.’

خرجنا عبر الأبواب الفرنسية الفضاء المحاط بالأسوار الذي يعلو
وينخفض في كل الاتجاهات، وذكّرنا بأننا على مقربة من قمة تل.
وأنا أمشي خلف الأخت بيليندا مرورًا بأحواض الزهور بما فيها من

أزهار الجربارة والزنابق، أخذت لمحة بانورامية من الشجيرات المشذبة بعناية فائقة. هنا وهناك، سيدات مسنات كن يجلسن فى الشمس الساطعة يترابطن اجتماعيًا، يرددشن معًا أو يغمغن مع أنفسهن دون عنف. عند نقطة ما، توقفت الأخت بليندا وتلفتت حولها، ثم قادتني أسفل مرجة منحدره عبر بوابة بيضاء إلى حديقة صغيرة يلفها سور.

الشخص الوحيد الذى كان موجودًا هنا كان سيدة مسنة تجلس فى الشمس فى الركن القصى من العشب الرقيق، تلعب الورق على طاولة معدنية مزخرفة. كانت مستغرقة فى لعبتها ولم ترفع عينيها عندما كنا نقترّب منها. لمست الأخت بليندا كتفها وقالت:

‘ديانا. هنا جنتلمان أتى لزيارتك. إنه من إنجلترا.’

رفعت أُمى وجهها بابتسامة لكلينا، ثم عادت للعب بالكوتشينة.

‘ديانا لا تفهم دائمًا ما يُقال لها،’ قالت الأخت بليندا. ‘لو أردت منها أن تفعل شيئًا ما، فعليك فقط أن تكررهِ مرارًا وتكرارًا.’

‘أنا أسأل إذا ما كان ممكنًا أن أتحدث إليها على انفراد.’

لم تكن الأخت بليندا متحمسة لهذه الفكرة وللحظة بدت تحاول التفكير فى سبب يبرر عدم إمكانية ذلك. لكنها فى النهاية، قالت: ‘لو أنك تفضل ذلك، يا مستر بانكس، فلا مانع بالتأكيد. سأكون فى القاعة النهارية.’

لحظة تركتنا الأخت بليندا، رمقت أُمى بإمعان وهى تلقى بالورق. كانت أصغر بكثير مما توقعت وكان لكتفيها حبة حادة. كان

شعرها فضيًا ومعقودًا بإحكام على شكل كعكة. بين الحين والآخر، وبينما كنت أواصل النظر إليها، كانت تنظر لأعلى وتبتسم، لكنني لمحت أثر خوف يعتريها لم يكن موجودًا في حضور الأخت بليندا. لم يكن وجهها قد تجعد كثيرًا، لكن أسفل عينيها كان هناك طيتان سميكتان عميقتان تشبهان الندوب. رقبتها، ربما بسبب جرح ما أو وضع اجتماعي قد انسحبت عميقًا إلى جسمها لدرجة أنها عندما كانت تنظر من جانبٍ إلى آخر على أوراق الكوتشينة، كانت تضطر أيضًا إلى تحريك كتفيها. كان هناك قطرة صغيرة تتدلى من أنفها، وأخرجت منديلي لأمسحها قبل أن أدرك أنني بفعلتي هذه سأفزعها بطريقة غير لائقة. أخيرًا قلت بهدوء:

‘أنا آسف، لم أستطع أن أحذرك بأى شكل. أعرف أن هذا ربما يكون بدرجةٍ ما صادمًا لك.’ توقفت، مادام كان من الواضح أنها لا تسمع. ثم قلت: ‘أمي، إنه أنا. كريستوفر.’

نظرت لأعلى، وابتسمت مثلما ابتسمت من قبل ابتسامة عريضة، ثم عادت إلى أوراق الكوتشينة. تصورت أنها تلعب سوليتير، لكن عندما أمعنت النظر، رأيت أنها تمارس نظامًا غريبًا خاصًا بها. فى لحظةٍ ما أسقط النسيم بعض الكروت من على الطاولة، لكنها بدت غير مكترثة. عندما جمعت لها الكروت من على العشب وأعدتها إليها، ابتسمت قائلة:

‘شكرًا جزيلاً لك. لكن، تعرف، ليس ثم من حاجة لذلك. أنا شخصيًا، أحب أن أتركها حتى تتراكم كمية أكبر من الكروت على

العشب. حينئذٍ فقط، أقوم وأجمعها كلها مرة واحدة. مع ذلك، لا يمكن أن تتطاير جميعها معاً، أليس كذلك؟'

واصلت مراقبتها خلال البضع لحظات التاليات. ثم بدأت تغنى. كانت تغنى لنفسها فى هدوء، بصوت مكتوم تقريباً، بينما مضت يداها فى النقاط الكروت ووضعها. كانت صوتها خافتاً - لم أستطع تحديد الأغنية التى كانت تتغنى بها - لكنها كانت بالبداية شجية. ومع مواصلة المشاهدة والاستماع، عادوتنى لمحة من الذاكرة: ذكرى أحد الأيام الصيفية المنسمة فى حديقتنا، كانت أمى على الأرجوحة، تضحك وتغنى بأعلى صوتها، وأنا أقفز لأعلى وأسفل أمامها، طالباً منها أن تتوقف.

تقدمت للأمام ولمست يدها برفق. وعلى الفور سحبت يدها بعيداً وحدقت فى بغضب.

'دع يديك لنفسك، يا سيدى!' قالت بهمسة مصدومة. 'دعهما لنفسك فقط!'

'آسف.' تحركت للخلف قليلاً كي أشيع الطمأنينة فى نفسها. عادت إلى كروت الكوتشينة وعندما نظرت لأعلى فى المرة التالية، ابتسمت وكأن شيئاً لم يكن.

'أمى،' قلت ببطء، 'إنه أنا. لقد أتيت من إنجلترا. أنا آسف فعلاً لأن هذا استغرق وقتاً طويلاً. أعرف أننى خذلتك بصورة مؤسفة. بصورة مؤسفة. لقد بذلت ما فى وسعى، لكن كما ترى، فى النهاية، كان الأمر أكبر منى. أعرف أن الوقت تأخر تماماً.'

لابد وأننى كنت قد شرعت فى البكاء، لأن أمى نظرت لأعلى
وحدقت فى. ثم قالت:

‘هل تشعر بألم فى الأسنان، يا سيد؟ لو الأمر كذلك، من الأفضل
أن تتحدث إلى الأخت أجنىس.’

‘لا، أنا بخير. لكننى أتساءل إذا ما كنت قد فهمت ما قلت؟ إنه
أنا، كريستوفر.’

أومات وقالت: ‘لا فائدة من تأجيل الأمر، يا سيدى. ستقوم
الأخت أجنىس بملء الاستمارة.’

حينئذٍ أنتنى فكرة. ‘أمى،’ قلت، ‘إنه بفن. بفن.’

‘بفن.‘ بغتة، تجمدت تمامًا. ‘بفن.’

أمى لم تقل شيئاً لوقتٍ طويل، غير أن التعبيرات على وجهها قد
تغيرت الآن تمامًا. عادت تنظر لأعلى ثانية، غير أن عيناها كانتا
مثبتتين على شيء فوق كتفى، وجعدت وجهها ابتسامة رقيقة.

‘بفن،’ رددت الاسم بهدوء بينها وبين نفسها، وال لحظة بدت
مستغرقة فى السعادة. ثم هزت رأسها وقالت: ‘ذلك الولد. إنه عبء
ثقيل على.’

‘معذرة،’ قلت. ‘معذرة. على افتراض أن هذا الولد هو ابنك،
بفن هذا. على افتراض أنك اكتشفت أنه بذل كل ما فى وسعه، حاول
بشئى الطريق أن يحدك، حتى لو أنه فى النهاية لم يستطع. لو عرفت
كل هذا، هل تعتقدين... هل تعتقدين أنك ستستطيعين الصفح عنه؟’

واصلت أُمي النظر بإمعان عبر كُتفي، لكن الآن اعترت وجهها نظرة مرتبكة.

‘أسامح بفن؟ هل قلت أسامح بفن؟ على ماذا؟’ ثم اتقدت ثانية بالسعادة. ‘ذلك الولد. يقولون إنه على ما يُرام. لكن لا يمكنك أن تطمئن أبدًا مع ذلك الشخص. إنه عبءٌ ثقيلٌ على.’

‘ربما تتطوى المسألة على شيء من الحمق بالنسبة لك،’ قلت لجينيفير عندما كنا نناقش الرحلة مرة أخرى الشهر الماضي، ‘فقط عندما قالت ذلك أدركت. ما أقصده هو، أدركت أنها لم تكف أبدًا عن حبها لي، ليس من خلال أي كلمة مما قالت. كل ما كانت تريده طيلة حياتها أن أنعم بحياة طيبة. وكل ما تبقى من المسألة، كل محاولاتي للعثور عليها، محاولاتي لإنقاذ العالم من الانهيار لم يكن ليطرح أي اختلاف من أي نوع. مشاعرها تجاهي، كانت دائمًا هناك فقط، لم تكن تعتمد على أي شيء. أعتقد أن هذا لم يكن يبدو مثيرًا للدهشة. لكنني استغرقت الوقت كله كي أدرك ذلك.’

‘هل تعتقد حقًا،’ سألت جينيفير، ‘أنها لم تكن لديها ولو مجرد فكرة طفيفة عن هويتك؟’

‘أنا على يقين بأنها لم تعرفني. لقد كانت تعني ما قالت، وكانت تعني ما كانت تقول. قالت ليس هناك شيء أسامحك عليه، وارتبكت بالفعل حين افترضت أن هناك ما يدعو للصفح. لو أنك رأيت وجهها،

عندما نطقت ذلك الاسم لأول مرة، لما هاجسك الشك في هذا أيضًا.
لم تتوقف أبدًا عن حبها لى، ولو للحظة واحدة.

‘عمو كريستوفر، لماذا تعتقد أنك لم تخبر الراهبات بهويتك على الإطلاق؟’

‘لست متيقنًا. أعرف أن المسألة تبدو غريبة، لكن في النهاية لم أفعل. إضافةً إلى أنني لم أجد سببًا لأخذها من هناك. كانت تبدو، بدرجةٍ ما، راضية. لم تكن بالضبط سعيدة. لكن وكأن الألم قد انقضى أمره. لم تكن لتصبح أفضل بعيدًا في بيت في إنجلترا. أعتقد أن الأمر يتطابق تمامًا مع سؤال حول مكان دفنها. بعد أن ماتت، فكرت في إعادة دفنها هنا. لكن هناك ثانيةً، عندما أعدت التفكير في الأمر، قررت ألا أفعله. لقد عاشت كل عمرها في الشرق. وأظن أنها كانت ستفضل أن تدفن هناك.’

كان صباح من أكتوبر صقيعي، وكنت مع جينيفير نتمشى أسفل أحد الممرات الملتوية في جلوشسترشير. كنت قد أقمت الليلة في فندق قريب من البنسيون الذي تقيم فيه الآن، وبعد فترة قصيرة من تناول الإفطار دعوتها. ربما لم أستطع أن أخفي حزني جيدًا على رثاة أماكن الإقامة التي تنقلت بينها في الفترة الأخيرة، لأنها أصرت بسرعة، رغم البرد، على أن نرى المنظر من حوش كنيسة قريبة على وادي ويندراش. مع تقدمنا أسفل الممر، رأيت في الأسفل بوابات مزرعة؛ لكن قبل أن نصل إليها، انحرفت بي عن الممر عبر فتحة في الوشيع.

‘عمو كريستوفر، تعال وانظر.’

أخذنا طريقنا عبر رقعة كثيفة من نبات القراص حتى وقفنا إلى جوار بعض القضبان. حينئذٍ رأيت الحقول تمتد على جانب الوادي.
‘إنه منظر رائع.’ قلت.

‘من حوش الكنيسة، يمكنك أن ترى لمسافة أبعد. ألا تفكر في الانتقال إلى هنا أيضًا؟ لندن مزحمة الآن للغاية.’

‘أنا آسف،’ قلت لها، ‘لم آت إلى هنا كثيرًا في الفترة الأخيرة. أعتقد أنه قد مر بضعة أشهر أو يزيد الآن. لا أفكر إلى أي مدى قد وصلت الأمور.’

‘آوه، لا ينبغي عليك أن تقلق كثيرًا بشأني.’

‘لكنني قلق. بالطبع، قلق.’

‘كل شيء خلفي الآن،’ قالت، ‘كل أحداث العام الماضي. لن أجرب أي شيء بهذا الحمق مرةً أخرى. لقد وعدتك فعلًا بذلك. لقد كانت فترة رديئة بالفعل، هذا كل ما في الأمر. بجانب أنني لم أكن أقصد أن ارتكب ذلك. تأكدت أن النوايا كانت قد تركت مفتوحة.’

‘لكنك ما زلت امرأة شابة، يا جيني. وأمامك الكثير. يحبطني أنك فكرت حتى في مثل هذا الأمر.’

‘امرأة شابة؟ في الواحدة والثلاثين، بلا أطفال، بلا زواج. أعتقد أنه لم يزل هناك وقت. لكن على أن أبحث عن الإرادة، تعرف، كى أمضى في غمار هذا كله ثانيةً. أنا مجهدة جدًا الآن، أحيانًا أفكر في

أننى بسعادة سوف أستقر وحدى بحثاً عن حياة هادئة فى معية ذاتى.
بإمكانى أن أعمل فى محل فى مكان ما، أذهب إلى السينما مرة فى
الأسبوع، ولا أسباب أى أذى لأى شخص. ليس ثم من خطأ فى حياة
كهذه.

‘لكنك لن تستقرين هكذا. تبدين غير جينيفير التى أعرفها.’

أطلقت ضحكة صغيرة. ‘لكنك لا تعرف كيف يبدو الأمر. امرأة
فى سنّى، تحاول أن تجد الحب فى مكان كهذا. أصحاب الشقق
والمساكن يتهامون عنك فى كل مرة تخطو فيها خارج غرفتك. ماذا
تظن أنى فاعلة حقاً؟ أنشر إعلان؟ الآن، سيجعلهم هذا يتكلمون
جميعاً، وليس أننى لا أكثر بهم على الإطلاق.’

‘لكنك امرأة غاية فى الجاذبية، يا جينى. ما أقصده هو، عندما
ينظر إليك الناس، يستطيعون رؤية روحك، طبيبتك، رقتك. أنا واثق
بأن هناك شيئاً سوف يحدث لك.’

‘أتظن أن الناس ترى روحى؟ عمو كريستوفر، هذا فقط لأنك
تنظر إلى ومازلت ترى البنت الصغيرة التى عرفتها ذات يوم.’

استدرت وأمعنت النظر إليها. ‘آه، لكنها لم تزل هناك،’ قلت.
‘أستطيع أن أراها، فى العمق، تنتظر. لم يغيرك العالم كثيراً كما
تظنين، يا عزيزتى. لقد صدمك فقط بطريقة ما، هذا كل ما فى الأمر.
وعلى فكرة، هناك قليل من الرجال المحترمة فى هذا العالم، لعلمك.
فقط عليك التوقف عن بذل كل ما فى جهدك لتجنبهم.’

‘وهو كذلك، يا عمو كريستوفر. سأحاول وسأتصرف أفضل في المرة القادمة. لو كانت هناك مرة قادمة.’

للحظة ظللنا نحدق في المنظر، هبت رياح خفيفة على وجهينا. أخيرًا قلت:

‘أنا آسف، يا جيني، لا بد وأننى تسببت لك فى الكثير.’
‘لكن فى ماذا تسببت لى؟ لو أننى حملته فى رأسى الحمقاء كى...’

‘لا، كنت أقصد... أقصد فيما مضى. عندما كنت صغيرة. كان ينبغي أن أكون معك هناك لوقت أطول. لكننى كنت مشغولاً للغاية، فى محاولة حل مشاكل العالم. كان ينبغي على أن أبذل الكثير لأجلك. أنا آسف. دائماً كنت أقصدها. معذرة.’

‘كيف لك أن تعتذر، يا عمو كريستوفر؟ أين كنت سأكون الآن دونك؟ كنت يتيمة، بلا أحد. لا ينبغي عليك أن تعتذر أبداً. أنا مدينة لك بكل شيء.’

تقدمت للأمام ولمست خيوط العنكبوت المعلقة بين القضبان. تمزقت وتدلّت من أصابعى.

‘آه، أكره ذلك الإحساس!’ تساءلت. ‘لا يمكننى تحمله!’
‘كنت دائماً أحبه بدرجةٍ ما. عندما كنت صغيراً، كنت أخلع قفازاتى لأفعل هذا فقط.’

‘آه، كيف كنت تستطيع؟’ ضحكت بصوت عالٍ، ورأيت بغتة جينيفير الماضى. ‘وماذا عنك، يا عمو كريستوفر؟ ماذا عن زواجك؟ ألا تفكر فى هذا أبداً؟’

‘لقد تأخر الوقت على هذا تماماً.’

‘أوه، لا أعرف. إنك تستطيع جيداً أن تحيا وحدك. لكن هذا لا يتلاءم معك كثيراً. حقيقةً لا. إن العزلة تجعلك عكر المزاج. لابد أن تفكر فى الأمر. دائماً ما تذكر صديقاتك من السيدات. ألن تستطيع واحدة منهن؟’

‘سوف يمتلكننى على الغداء. لكن ليس لأكثر من ذلك، للأسف.’ ثم أضفت: ‘كانت هناك واحدة ذات مرة. من زمان. لكنها مشت فى الطريق المعاكس.’ أطلقت ضحكة سريعة. ‘على وجه العموم، مهنتى العظيمة كثيراً ما كانت عقبة فى الطريق.’

لابد وأنتى أشحت بوجهى بعيداً عنها. أحسست بها تلمس كفى، وعندما نظرت حولى، كانت تحرق برقة فى وجهى.

‘لا يجب أن تتحدث دائماً بهذه المראה عن مهنتك، يا عمو كريستوفر. دائماً ما أعجبت بك بسبب ما حاولت القيام به.’

‘حاولت كلمة صحيحة. وكل ذلك أفضى إلى نتائج ضئيلة فى النهاية. على أى حال، كل ذلك خلف ظهري الآن. أهم طموحاتى فى الحياة هذه الأيام هو الحفاظ على عدم تفاقم هذا الروماتيزم.’

ابتسمت جينيفير فجأة وأدخلت ذراعها فى ذراعى. ‘أعرف ماذا سوف نفعل،’ قالت. ‘عندى خطة. لقد قررت. سأجد رجلاً محترماً

طيبًا أتزوجه، وسأنجب ثلاثة، لا أربعة أطفال. وسوف نعيش فى مكان ما قريب من هنا، حيث يمكننا المجئ لرؤية هذا الوادى. ويمكنك أن تترك شقتك الصغيرة المزدحمة فى لندن وتأتى للعيش معنا. مادام أن صديقاتك السيدات لن يتمكنّ منك، بإمكانك أن تقبل صفة العم لكل أطفالى القادمين.

أحببتها بابتسامة. 'تبدو خطة رائعة. رغم أننى لا أعرف إذا ما كان زوجك سيقبل وجودى فى منزله طيلة الوقت أم لا.'

'أوه، وقتها سوف نرتب لك سقيفة قديمة أو أى شىء.'
'الآن، يبدو الأمر مغريًا. حافظى على نهاية صفقتك وأنا سأمعن التفكير فيها.'

'لو أن هذا وعد، فمن الأفضل أن تترقب إذا. لأننى أؤكد لك أنه سيحدث. وحينئذ سوف تأتى وتعيش فى سقيفتك.'

خلال هذا الشهر الأخير، وأنا أنجرف مع هذه الأيام القائمة فى لندن، أتجول فى حدائق كينسنجتون فى صحبة سائضى الخريف وعمال المكاتب الخارجين لتناول الغداء، وبين الحين والآخر أتجه إلى أحد المعارف القدامى، وربما أنطلق معه لتناول الغداء أو الشاي، كنت غالبًا ما أجد نفسى أعيد التفكير فى حوارى مع جينيفير فى ذلك الصباح. لا أنكر أنه أسعدنى. كل الشواهد تدفعنى للاعتقاد فى أنها الآن قد عبرت النفق المعتم فى حياتها إلى الطرف الآخر منه. وما ينتظرها هناك يبقى واضحًا، لكنها ليست بطبيعتها من النوع الذى

يقبل الهزيمة بسهولة. فى الحقيقة، من الممكن جدًا أن تحقق الخطئة التى أخبرتنى بخطوطها - بطريقة تتطوى على ما يشبه المداعبة - أثناء مشيئنا بالخارج فوق الوادى ذلك الصباح. وفى بضع سنوات أخذت الأمور المسار الذى تمنته بالفعل، وبلا جدال سوف أضع اقتراحها بالذهاب والعيش فى الريف عندها موضع التنفيذ. بالطبع، لم أتخيل سقيفتها كثيرًا، لكن من الممكن دائمًا أن آخذ منزلًا ريفيًا بالقرب منها. أنا فى غاية الامتتان لجينيفير. إننا نفهم هموم بعضنا البعض بالغريزة، وما تبادلناه من حوارات فى ذلك الصباح الصقيعى هو ما أثبت هذه القاعدة من المواساة بالنسبة لى مع مرور السنوات.

لكن ثانيةً، الحياة فى الريف ربما بدت هادئة بصورة تبعث على الموت، وأنا قد اعتدت على لندن القديمة. إضافة إلى أن هناك أشخاصًا، يتذكرون اسمى من قبل الحرب ويتصلون بى بين الحين والآخر بغية استشارتى فى بعض الأمور. فى الأسبوع الماضى فقط، فى الحقيقة، عندما ذهبت إلى العشاء مع أسرة أوسبورن، تعرفت على سيدة أمسكت يدى على الفور، متسائلة بتعجب: 'تعنى أنك كريستوفر بانكس؟ المخبر السرى؟'

اكتشفت أنها أمضت معظم حياتها فى سنغافورة، حيث كانت إحدى صديقات سارة الحميمات. 'لقد كانت تتحدث عنك طيلة الوقت،' أخبرتنى. 'حقيقةً أشعر أننى أعرفك بالفعل.'

كانت أسرة أوسبورن قد دعت الكثير من الناس، لكن لحظة جلسنا لتناول الطعام، وجدت نفسى قد أجلسيت بجانب السيدة نفسها، ولم يكن من الممكن تجنب أن ينجراف الحوار ثانية حول سارة.

‘كنت أحد أصدقائها المقربين، أليس كذلك؟’ سألت في لحظةٍ ما.
‘كانت تتكلم عنك بإعجاب دائمًا.’

‘كنا أصدقاء، بالتأكيد. بالطبع، فقدنا الاتصال ببعضنا البعض إلى حدٍ ما منذ أن رحلت إلى الشرق.’

‘كانت دائمًا تتحدث عنك. كان لديها العديد من القصص عن المخبرين السريين المعروفين، وظللنا في حالة من الاستمتاع عندما نمل من لعب البريدج. كانت تتحدث عنك دائمًا ببالغ التقدير.’

‘كان يثير سعادتي أن أفكر في أنها تتذكرني جيدًا. كما أقول، لقد فقدنا الاتصال ببعضنا البعض بدرجةٍ ما، رغم أنني تلقيت رسالة منها ذات مرة، بعد انتهاء الحرب بعامين تقريبًا. لم أكن أعرف حتى تلك اللحظة كيف قضت سنوات الحرب. كانت مستخفة بالاعتقالات أثناء الحرب، لكنني كنت على ثقة أنها لم تكن دعابة.’

‘آه، أنا واثقة أنها لم تكن دعابة. كان من الممكن أن نعاني أنا وزوجي من المصير نفسه. لقد استطعنا أن ننجو بأنفسنا إلى أستراليا في الوقت المناسب بالضبط. لكن سارة وم دي فيلفورت، كانا يثقان بالقدر كثيرًا. كانا نوعًا من الأزواج الذين يخرجون في المساء بلا خطة ولا هدف، وفي منتهى السعادة لرؤية من يلتقون بهم مصادفةً. كان اتجاهًا حياتيًا ساحرًا معظم الوقت، لكن ليس الأمر هكذا عندما يكون اليابانيون على عتبة بابك. هل تعرفه أيضًا؟’

‘لم أتشرف أبدًا النبيل. أعرف أنه عاد إلى أوروبا بعد موت سارة، لكن لم تتقاطع طرقاتنا أبدًا.’

‘أوه، ظننت من الطريقة التي تتحدث بها عنك، أنك كنت صديقاً حميماً لهما في الوقت نفسه.’

‘لا. تعرفين، في الحقيقة أنا عرفت سارة فقط خلال فترة مبكرة من حياتها. أستمحك عذراً، ربما لا يكون لديك طريقة للإجابة على هذا. لكن هل فوجئت بأنهما زوجان سعيدان، أقصد سارة وهذا الرجل الفرنسي؟’

‘زوجان سعيدان؟’ لقد ظن صديقي للحظة. ‘بالطبع، الإنسان لا يمكن أن يعرف بالتأكيد، لكن بكل أمانة، من الصعب أن تظن العكس. كانا يبدوان في غاية الإخلاص لبعضهما. لم يكن لديهما الكثير من المال أبداً، وهذا يعنى أنهما لم يكونا أبداً بلا هموم كما كانا يتمنيان. لكن هذا النبيل الأوربي كان دائماً يبدو في غاية، حسناً، الرومانسية. تضحك، يا مستر بانكس، لكن هذه هي الكلمة المناسبة هنا. تعرف، الاعتقال هو ما فعل ذلك. مثل كثيرين آخرين، لم تنعم أبداً باستعادة حالتها الصحية تماماً. أنا أفقدها. هذه صاحبة الفاتنة.’

منذ هذه المقابلة في الأسبوع الماضي، أخرجت رسالة سارة وقرأتها عدة مرات - الرسالة الوحيدة التي تلقيتها منذ أن افترقنا في شنغهاي طيلة تلك السنوات الماضية. كان تاريخها الثامن عشر من مايو ١٩٤٧، وكتبت من أحد المصايف الريفية في مالايا. ربما كنت أتمنى أن أكتشف، بعد حوارى مع صديقتها، في هذه السطور المتكلفة إلى حد ما، المتملقة تقريباً، أكتشف بُعداً ما خفياً اليوم. لكن الرسالة في الحقيقة لم تكن تتطوى على شيء أكثر من تفاصيل حياتها منذ رحيلها من شنغهاي. كانت تتحدث عن ماكاو، هونج كونج، سنغافورة

على أنها مبهجة وبديعة الألوان، وجذابة. ذكرت رفيقها الفرنسي مرات عديدة، لكن بصورة عابرة دائماً وكأننى كنت بالفعل أعرف كل شيء عنه. كان هناك ذكر مرح للاعتقال فى السجون اليابانية، كانت تذكر مشاكلها الصحية بشيء من التضجر. طلبتنى للذهاب بطريقة مهذبة ووصفت حياتها الخاصة فى سنخافورة الحرة بأنها شيء غاية فى الروعة تستحق أن أشاركها إياها. هذا هو نموذج الرسالة التى يمكن أن يكتبها المرء فى بلد أجنبية، دفقة واحدة ذات عصارى إلى صديق خطر بباله بشكل مبهم. مرة واحدة، قرب نهاية الرسالة، كان إيقاع الرسالة ينم عن الحميمية التى جمعت بينى وبينها فى وقتٍ ما.

‘ليس لدى ما يمنع فى أن أخبرك، يا كريستوفر العزيز،’ كتبت، ‘أننى طيلة الوقت أشعر بإحباط، على الأقل من الطريقة التى ظهرت بها الأشياء بيننا. لكن لا عليك، لقد توقفت منذ وقت طويل عن الشجار معك. كيف لى أن أظل على شجار بينما القدر قد اختار فى النهاية أن يبتسم لى بعطف شديد؟ بجانب أننى أعنف الآن فى أن القرار الصواب كان هو عدم ذهابك معى فى ذلك اليوم. دائماً كنت تشعر أن لديك مهمة ينبغى إنجازها، ويمكننى أن أقول بأنك لم تكن لنقدر على منح قلبك لأى إنسان أو أى شيء قبل أن تتمها. بإمكانى فقط أن أتمنى لك أن تكون قد انتهيت من مهمتك، وأن تكون قد استطعت أن تجد السعادة والرفقة التى استطعت أن أضمنها لنفسى مؤخراً.’

ثمة شيء فى هذه المقاطع من الرسالة - وفى هذه السطور الأخيرة على وجه التحديد - لم يبدُ حقيقياً تماماً. ملاحظة مكررة تمتد

فى كل سطور الرسالة - حقيقةً، قيامها بفعل الكتابة لى فى تلك اللحظة - تتعارض مع تقريرها عن أيام وارفة بالسعادة والرفقة. هل كانت حياتها مع صديقها الفرنسى بالفعل هى الحياة التى فرت للبحث عنها يوم أن خطت باتجاه الميناء فى شنغهاى؟ بدرجةٍ ما أشك فى ذلك. أشعر أنها تفكر فى نفسها بقدر ما تفكر فى عندما تتحدث عن معنى المهمة، وعبثية محاولة التملص منها. ربما يكون هناك من الناس من يستطيعون عيش حياتهم وهم متحررون تمامًا من مثل هذه الهموم. لكن بالنسبة لأمثالنا، فمصيرنا أن تواجه العالم كيتامى، يطاردون لسنوات طوال ظلال الآباء الغائبين. ليس ثم من شىء حىال ذلك سوى المحاولة والاهتمام حتى النهاية، بقدر ما نستطيع، لأنه لن يُسمح لنا بأى قدرٍ من الهدوء إلا حين ننتهى من مهمتنا.

لا أريد أن أبدو متأنقًا؛ لكن خلال انجرا فى فى أيامى هنا فى لندن، أظن أنه بإمكانى فى الواقع الحصول على شىء من الرضا. أستمتع بحياتى فى المنتزهات، أزور المعارض الفنية؛ وبشكل متزايد فى الفترة الأخيرة، اعتدت أن يملكنى بعضٌ من زهو أحقق حين أمحص فى تقارير الصحف القديمة التى كانت تدور حول قضاياى فى غرفة القراءة بالمتحف البريطانى. هذه المدينة، بعبارةٍ أخرى، أصبحت وطنى، ولا ينبغى أن أمانع فى أقضى ما تبقى من أيامى هنا. رغم ذلك، هناك أوقات يستعمر الفراغ فيها أوقاتى، وسوف أوصل التفكير بجدية فى دعوة جينيفير.

المؤلف فى سطور: كازو إيشيجورو

كاتب وروائى بريطانى من أصول يابانية، وقد كتب خمسة أعمال روائية هى "منظر شاحب للتلال" ١٩٨٢ A Pale View of Hills و"فنان العالم الطافى" ١٩٨٦ An Artist of the Floating World، بقايا اليوم ١٩٨٩ The Remains of the Day، ومن لا عزاء لهم" ١٩٩٥ The Unconsoled، و"عندما كنا يتامى" ٢٠٠٠ When We Were Orphans. تُرجمت كتبه إلى ٢٨ لغة. بدأ نشاطه الإبداعى فى عام ١٩٨١ عندما صدرت له عدة قصص قصيرة فى Introduction 7: Stories by New Writers. فاز بجائزة Whitbread لأحسن كتاب عام ١٩٨٦ عن روايته "فنان العالم الطافى". أكثر روايته شهرة كانت رواية "بقايا اليوم" التى فازت بجائزة بوكر The Booker Prize عن العام ١٩٨٩، والتى وزعت أكثر من مليون نسخة فى الطبعة الإنجليزية فقط. وقد تم تحويل رواية "بقايا اليوم" لفيلم سينمائى، قام ببطولته إيما تومسون وآنطونى هوبكينز. علاقة الحب القوية تلك التى ربطت بين كبير الخدم فى أحد القصور الإنجليزية ومديرة المنزل. علاقة الحب التى أجهضتها الأعراف الاجتماعية. جدير بالذكر أن "بقايا اليوم" هى الرواية المعاصرة الوحيدة التى قرأتها الملكة، كذلك رُشحت رواية عندما كنا يتامى لجائزة بوكر عن العام ٢٠٠٠.

المترجم فى سطور:
طاهر البربرى

كاتب ومترجم مصرى. صدر له:

١- فى مجال الترجمة:

- أرض المساء وقصائد أخرى (مختارات من شعر ديفيد هربرت لورانس David Herbert Lawrence) صادر عن المشروع القومى للترجمة، بالمجلس الأعلى للثقافة، وزارة الثقافة المصرية 2001.

- الترجمة العربية الكاملة لرواية (إله الأشياء الصغيرة The God of Small Things) للكاتبة الهندية أرونداتى روى Arundhati Roy، الرواية الفائزة بجائزة بوكر البريطانية العام ١٩٩٧. صادر عن دار ميريت للنشر والمعلومات العام ٢٠٠٣.

- الترجمة العربية الكاملة لكتاب (نحو لغة وطنية للتقدم العلمى والتكنولوجى فى إفريقيا) بالاشتراك مع الأستاذ حلمى شعراوى، صادر عن مركز الدراسات العربية والإفريقية والتوثيق، المنيل، القاهرة ٢٠٠١.

- من لا عزاء لهم The Unconsoled للكاتب الإنجليزى كازو إيشيجورو Kazuo Ishiguro صدر عن المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة، وزارة الثقافة المصرية ٢٠٠٥.

- الترجمة الإنجليزية الكاملة لديوان الشاعر رفعت سلام (إنها

تومئ لى) الديوان الفائز بجائزة فلسطين كفافيس للشعر،
باليونان العام ١٩٩٤.

٢- صدر له فى مجال الكتابة الإبداعية:

- توقيعات على جسد المساء (شعر) الهيئة المصرية العامة لقصور
الثقافة، ١٩٩٧.

- مدن فارهة للنسيان (شعر) الهيئة المصرية العامة للكتاب،
٢٠٠١.

- قنص الأحلام (رواية) الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة،
طبعة أولى، طبعة ثانية بالهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة
الأسرة) العام ٢٠٠٢.

- ظلالهم كانت هنا (رواية) الطبعة الأولى، دائرة الثقافة والإعلام
بالبشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة.

التصحيح اللغوي: علا طعمة
الإشراف الفني: حسن كامل



ذاكرة الراوى فى رواية " عندما كنا يتامى "
موصومة بالتشوش - مثل كل الرواة فى أعمال
إيشيجورو الروائية؛ إيتسوكو أرملة نجاساكي فى
رواية "منظر شاحب للتلال"، أونوفى رواية "فنان
العالم الطافى"، ستيفنس كبير الخدم فى رواية "بقايا
اليوم" - فهو على مضض، يمارس خداع ذاته؛ كما
أنه يجمع الذكريات أو الأكاذيب المؤلمة ليجعلها أكثر
لذة، يقدم أيامه المدرسية على أنها أفضل فترات
حياته، ويصر على هذا بعناد وتصلب شديدين.
وحيثما يلتقى زملاء الدراسة يتضح أنه كان بالنسبة
لهم نموذجاً شاذاً حتى فى عزله وتعاسته للدرجة
التي جعلت منه هدفاً للسخرية.